

محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى

الْقَارِئُ

مؤلفه

نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه
جبرله - علومه - تفسيره
حكم الفناويه



ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

www.alkottob.com

بمحمداً بوزهره

المعجزة الكبرى

الفكر

نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه
جدله - علومه - تفسيره - حكم الغناء به

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الافتتاحية :

والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، فيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ما كثين فيه أبدأ ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ، ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً (١) .
والصلاة والسلام على محمد الذي أرسل للعالمين بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليه الكتاب المبين حجة باقية شامخة إلى يوم الدين . ورضى الله عن صحابته الأكرمين ، الذين بلغوا من بعده شريعة القرآن ، ومعه العدل والقسط المستقيم .

١ - أما بعد فقد اتجهت النفس متسامية إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أتعرف سيرته الطاهرة العطرة لأقتبس من نور هديه ، وأتسّم نسيم عرفه ، ولأشاهد إرهابات النبوة ، بل الإعجاز في حياته الأولى كما أيده الله تعالى بالمعجزات في حياته الثانية بعد أن بعث رحمة للعالمين ، وقد تابعتنا حياته عليه السلام الأولى ثم تسامينا إلى متابعة حياته الثانية بعد أن نادى في الجزيرة العربية بصوته القوي العميق يدعو إلى التوحيد في وسط الوثنية ، وهو يصبر ويصابر ، ويجاهد ويناضل ، ويلاقي الأذى ، والمؤمنون الصادقون الذين آمنوا معه يعذبون ، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان لا ينطقون بالكفر ، ولو مزق الأذى أجسامهم ، وطواغيت الشرك يتمتمون بالإيذاء ، بينما أهل الإيمان يرضون بالعذاب عن الكفران ، وقد أخذ النبي من بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل ، تمهيداً لبناء دولة الإسلام الفاضلة ، في غير مكة وأخذ النور يسرى في ظلمات الجاهلية ، منبتقاً من مكة ، وإن لم يستنق.

أهلها بنوره لعمى البصائر ، وإنما لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

والمعجزة الخالدة التي يتحدى بها قریشاً وسائر العرب هي القرآن الكريم ، ، ورأينا من مساوقة الحوادث أن نتكلم في هذه المعجزة الكبرى ، على أن يكون كلامنا فيها تبعياً وليس أصلياً ، وبالعرض ، لا بالذات .

٣ — ولكن ما إن قربنا نوره ، حتى بهرنا ضياؤه ، واستغرق نفوسنا سناؤه ، وانتقلت نفوسنا إلى الاتجاه إليه قاصدين ذاته أصلاً ، لا تبعاً للسيرة ، ولو كانت سيرة من نزل عليه القرآن ، وخاطب في ظله الأجيال ، سيدنا الهادي رسول الله رب العالمين .

وقد حاولنا أن نملأ نفوسنا من ينابيع الهداية فيه ، وأن نشفي أمراض قلوبنا بما فيه من دواء ، وأن نكشف الغمة بما فيه من حكم وعبر . لذلك صار القرآن وعلم القرآن ، وكل ما يتعلق به هدفاً لنا مقصوداً ، وأملاً منشوداً لا نبغى سواه ، ولا نطلب غيره .

فكان لزاماً علينا أن نخص كتاب الله ببحث ودراسة ، وأن نخرج من ذلك البحث كتاباً نرجو أن يكون قيماً في ذاته ، وإن كان لا يعلو إلى حيث يكون مناسباً لموضوعه ، فموضوعه أعلى من أن تناهده همتنا ، وأن تتسامى إليه عزيمتنا ، لأنه كتاب الله تعالى ، وأنى لضعيف مثلي أن يصل إلى وصفه أو التعريف به ، إنه فوق منال أعلى القوى إدراكاً ، وأعظم النفوس إشرافاً .

(أ) وقد اتجهت ابتداءً إلى بيان نزول القرآن منجماً ، وحكمته مستمداً هذه الحكمة من نص القرآن ، وما أحاط بالتنزيل ووجوب حفظه في الصدور ، ثم بينت أنه كتب في حياة الرسول ، وأن النبي عليه السلام كان يملئ الآية أو الآيات التي تنزل عليه على كتاب الوحي ، حتى إذا تم نزوله ، كانت كتابته قد

تمت، وقرأته بهذا الترتيب الذى نراه فى الآيات والسور ، قد كملت . وقد تكلمت من بعد ذلك فى جمع المکتوب فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، ثم فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه .

(ب) وقد اتجهت إلى الحق فى وسط ما أثاره بعض العلماء من خلافات حول أحرف القرآن الكريم ، وقرأاته ونزوله ، وقد أسرف بعض العلماء على أنفسهم وعلى الحق ، فأثاروا أقوالاً باطلة ما كان من المعقول إثارتها ، حتى إن بعض المغرمين بالجمع ، ونقل الخلاف قالوا أموراً تخالف نص القرآن الكريم ، فيما ذكر من نزوله ، وتهافتت الأقوال ، حتى وجدنا الذين لا يرجون للإسلام وقاراً يتعلقون بأقوال ذكرت لهؤلاء ، كقول بعضهم إن هناك رأياً يقول إن القرآن نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام بالمعنى واللفظ للنبي ، ونسوا قوله تعالى معلماً للنبي عليه السلام القراءة والنطق بها : « لا تحرك به لسانك ، لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »^(١) ، فإن ذلك صريح فى أن القرآن نزل على النبي عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة ، وإن ذلك عليه إجماع المسلمين ، والعلم به علم ضرورى ومن يخالفه يخرج من إطار الإسلام . وقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذى رتل القرآن ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً »^(٢) .

(ح) ولقد تكلمنا من بعد ذلك فى إعجاز القرآن ، وبيننا وجوه الإعجاز ، ودفعنا القول بالصرفة دفعاً ، ثم تكلمنا فى علم الكتاب ، وجدل القرآن ، وتفسير القرآن ، ومناهج التفسير ، وبيننا التفسير بالآثر ، ومقامه من التفسير بالرأى ، وأن الرأى يجب ألا يناقض المأثور وأن التفسير باللغة والآثر مفتاح التفسير بالرأى .

(د) وتكلمنا في الغناء بالقرآن وتحريمه ، والتغنى الجائز المأثور ، وإبطال ما سواه ، وسرنا في طريق الحق الذي لا عوج فيه ، ولا أمت .
٣ - وإنا نحمد الله تعالى على ما اختبرنا به في أثناء كتابة ما كتبناه لقد اختبرنا الله تعالى في أول كتابة ما كتبنا عن القرآن فانقطعنا عن الاتصال بالصحف السيارة . نخطب المسلمين من فوق منبرها ، وقطعنا عن المجلات العلمية توجه الفكر الإسلامي من طريقها ، ومن كل طرق الإعلام فلا نصل إليها ، وكان الهم الأكبر أن انقطعنا عن دروسنا ، وعن المحاضرات العامة .

ولكن القرآن آانسنا في وحدتنا ، وأزال غربتنا ، فكان العزاء النفسى والجللاء الروحى ، واختبرنا الله تعالى بالضر كما اختبر نبيه أيوب إذ قال *إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين*^(١) ، وإنه وإن تشابه المرض فإنه يختلف المقام فهذا نبي يوحى إليه ، ونحن من الاتباع ، ونرجو أن نكون من الأبرار في اتباع النبيين ، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين ، فكان ألم الاتبعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض الممض ، ولقد من الله تعالى بالشفاء ، فخرجنا من الداء العقام ، وما منعتنا وعشاء المرض فعدنا إلى القرآن ، نقبس من نوره ، ونعقب من عرفه ، فهو أنس المستوحش ، وسيمر المستغرب ، فآانسنا بعد طول الغياب . ومنحنا الله تعالى به العافية ، فوفقنا لأن نقطع كل ما أردنا عرضه في مدة المرض ، وكأنا في مجموع ما بلينا في طول المدة أصحاء في أبداننا ، لأنه سلمت نفوسنا من السقام ، بفضل القرآن .

واختبرنا الله تعالى من بعد بهمٍ وأصب بأن أصاب رقيقة حياتى كسر أقدامها ، وأقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر ، العميق فى النفس .
ولكن أنس القرآن خفف همى ، وكشف غمى ، لأنه ملاءها إيماناً بقضاء الله وقدره ، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل ، من غير أنين ، ولا ضجر ،

ولكن برضا لما أراد ، وهو اللطيف الخبير ، وهو الشافي في المرض والجابر
في الكسر ، والمعين في الشدة ، ولا رجاء في غيره .
هذه أمور جرت لنا ، ونحن نكتب في المعجزة الكبرى ، فما عوقت ،
وما منعت ، وما أينست .

اللهم احفظنا بالقرآن ، وآنسنا بنوره ، ووفقنا للقيام بحقه آحاداً
وجماعات ، وإنك وحدك القائم على كل شيء ، اللهم قنا شر نفوسنا ،
واحفظ الأمة ، من فساد يعم ، وشر يطم ، اللهم إنك عفو قدير فاعف
عنا ، ولا تؤاخذنا بما تكسب أيدينا ، وارفع عنا المقت الذي حل بنا ، إنك
عوننا ، وأنت نعم المعين .

أول رمضان سنة ١٣٩٠ هـ

٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ م

محمد أبو زهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعجزة الكبرى

تهييد :

١ - يسير الكون على سنن قد سنت . ونظم قد أحكمت ، وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف ، وإن تخلفت المسببات عن أسبابها ووجدت الأمور منفكة عن علتها ، كالولد يولد من غير أب ، وكالحركة تجيء من جامد لا يتحرك كعصا ، ونار تنكفي . وقد أوقدت ، إذا كان ذلك الانقطاع بين الأسباب العادية ومسبباتها . حكم العقل بأن الذى فعل ذلك فوق الأسباب العادية ومسبباتها ، ولو سائر العقل منطقته إلى أقصى مداه ، (وليس بعيداً فى حكم المنطق العقلي المستقيم الذى يصل إلى المدى من أقربه) فإنه لا بد واصل إلى أن الذى خرق العادات وخالف أسبابها ومسبباتها ، لا بد أن يكون خالقها وموجدها . وإذا كان القصور العقلي لا يصل إلى هذه الغاية ، فإنه لا بد واصل إلى أن خرق هذه العادات لا بد أن يكون لغاية ، وإنه إذا وجدت هذه الغاية وبيئت مقاصدها ، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صدق ما يدعى ، وإنه يعلم من وراء ذلك الخالق الحكيم ، المسيطر على كل شيء الذى يفعل ما يريد ، ولا يقيد نظام خلقه ، ولا عادات أو جدها .

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد ، لأنه لا يغير العادات سواء ، وإن الصادق يعلن دعواه ، ويقدم ذلك برهاناً عليها ، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ، ويسمى فى هذه الحال إنه معجزة .

ولذلك عرفوها بأنها الأمر الخارق للعادة الذى يدعى به من جرى على يديه أنه نبي من عند الله تعالى ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين وإن المعجزة المادية تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فإن النار لا تنطفئ من تلقاء نفسها ، إذ يلتق فيها إبراهيم عليه السلام فتكون برداً

وسلاماً عليه ، فلا يحترق ، وكالعصا الذى تتحرك وتتلوى كأنها ثعبان مبین
وليس سحراً ، كما أدرك الساحرون ، وكانوا أول المؤمنين ، وكإبراهيم
عيسى للأكمة والأبرص بإذن الله ، وكإحيائه الموتى بإذن الله ، فإكان له
أن يطلب منهم أن يأتوا بمثلها ، والقصور بين ، والعجز واضح ، ومع ذلك
فالتحدى قائم ، والعجز ثابت ، والحجة قائمة ، وكان عليهم أن يؤمنوا
بالحق إذ جاءهم .

وهناك بجوار المعجزة المادية معجزة هي شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن
الإعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس ولكن يدرك بالدراسة والفحص ،
وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره ، ويعرف أمره أنه يستطيع أن يأتي بمثله
وما هو بمستطيع ، وأنه فى قدرته ، وليس بقادر عليه ، وهو من غرور
النفس ، أو ادعاء القدرة أو اللجاجة فى الأفكار ، والمباهته المناهضة للحقائق .

وإن ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام ، وهى معجزة
القرآن الكريم فقد كان الغرور يوم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة
على الإتيان ، بمثله ، فكان لابد من كشف هذا الغرور ، وإزالة تلك الغشمية
الباطلة ، ليتبين وضوح الحق ، ولذلك ظالمهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله إن كانوا
صادقين فى مثل قوله تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا
بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ^(١) . » وتحداهم
أن يأتوا بعشر سور مثله مقتريات ، وقرر سبحانه أن البشر يعجزون
عن أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظميراً ^(٢) . »

٢ — وهنا يسأل سائل لما إذا كانت معجزة إبراهيم ناراً موقدة صارت
برداً وسلاماً ، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية تسعى ،
وغيرها أيده الله به إلى تسع آيات كلها كانت مادية حسية ، وكذلك كانت

معجزة عيسى عليه السلام لإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإنزال مائدة من السماء، بل كانت ولادته ذاتها معجزة حسية إذ ولد من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، إذ قال: وإني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً (١) .

لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو، ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم معنوية فقد كانت بياناً يتلى، وذكر أحكماً، يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة .

قبل أن نخوض في الإجابة عن السؤال الوارد في موضعه، نقرر أن كون المعجزة مادية حسية تبهير الأعين بادية الرأي لا يدل على علو المنزلة، أو عكسها، ولكنها حكمة الله تعالى العليم بكل شيء، القادر على كل شيء، والله تعالى فضل بعض الرسل على بعض، فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ولكن ليست الرفة بكون الآيات مادية حسية، بل بأمر قدرها الحكيم العليم الذي له وحده حق التفضيل والرفة .

ونعود بعد ذلك إلى الإجابة عن السؤال الوارد، فنقول: إن العلماء قالوا إن كل معجزة مناسبة للعصر الذي أرسل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ تكون هادية ومرشدة، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح، ومناسبتها لرسالة النبي المبعوث يكون دليلاً على كمال الرسالة وعموم شمولها لكل الأزمنة .

وقد نخالفهم في بعض ما ذكروا أو نوافقهم، فنرى أن إبراهيم جاء في قوم كانوا على مقربة من عبدة النار، فكان في إطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر بيان بعجز النار التي تعبد .

ونوافقهم في أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن السحر والسحرانة كانا فيهم ، وقد كان للسحرة مكانة عندهم ، وبقية المعجزات كانت متعلقة بالزرع وآفاته وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور ، كما قال تعالى : «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون^(١) ، وهكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر ، وبني إسرائيل^(٢) ، فكانوا يقولون إنه سحر ، وقرأ قوله تعالى : «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، فقال فرعون ، إنى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض ، بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مشورا .

٣ - هذه معجزات إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهي مناسبة لزمانهما ، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره ، لا لأن عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام ، لأن علم الطب لم يكن رائجاً بين بني إسرائيل ، فلم يكن بينهم علم أبقراط ، كما قرر رينان في كتابه «حياة يسوع» ، بل إن معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نتلمسه من غضون التاريخ ، ومن حال بني إسرائيل ، ذلك أن العصر كان عصر مادياً يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب ، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر ، وإنك لترى أن التوراة التي بأيدينا ، وهي ميراثهم من التوراة التي حرفت ، تقرر أن نفس الإنسان هي دمه .

وكان بجوار هذه الروح المادية التي سادت بني إسرائيل استجابة لما هو سائد في عصرهم الروماني الذي كان يؤمن بالمادة ، كان بجوار هذا إيمان

بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادي ، فلا ولد من غير والد ، ولا حياة تكون بعد موت من يموت ، فلا يرتد حياً ، وقد عجزت الأسباب عن أن يرتد حياً من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيراً من يولد أعمى .

لقد سادت الفلاسفة الأيونية ، والفلاسفة اليونانية التي تقرر لزوم الأسباب العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ، فقالوا إن الكون نشأ عن المنشئ الأول نشوء المسبب عن سببه بلا إرادة مختارة منسجمة . لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذي يحكم كل شيء .

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه في أمرين أولهما - بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجمة مرشدة في أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وفي أنه عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله ، وأخرجهم من قبورهم بإذن الله ، وأنزل عليه مائدة من السماء بإذن الله تعالى .

وثانيهما أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الأسباب العادية بمسبباتها ، لقد ولد من غير أب ، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير والد ، وتكلم في المهد صديماً ، وذلك غير المقرر في الأسباب والمسببات ، وأخبر عن بعض المغيب عنه ، وذلك غير الأسباب العادية التي توجب المعاينة في صدق الإخبار . وأحيا الموتى بإذن الله ، وذلك ما لا يتحقق في الأسباب العادية .

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالاته كانت إيقاظاً شديداً لعصره ، وتنبيهاً لمكان الروح ، وسلطانها ، وبيانا لمقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ، فكانت رسالاته ومعجزاته مناسبة لعصره .

معجزة القرآن

وكل معجزات الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم سواء أكانت مادية في كونها ، أم كانت متضمنة معاني روحية- كانت من النوع الذى يحس بالرؤية . ويكون من بعدها التأمل ، وليس من النوع الذى يكون بالتأمل ، ولا يدرك إلا بالتأمل ، وإن كان قائماً ثابتاً في الوجود من غير ريب ، وكانت حوادث تقع ، ولا تبقى ، ولا يبقى منها إلا الإخبار بها ، فلا يعرفها على اليقين إلا من عاينها .

ع - ولكن معجزة محمد عليه السلام كانت من نوع آخر، لم يكن حادثة تقع ، وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال ، يراها ويقرؤها الناس في كل عصر ، ونقول إنها مناسبة لرسالة النبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعمومها في الأجيال ، ولما كانت بين الرسل ، ومقامه في هذا الوجود الإنساني إلى يوم القيامة .

إن معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين إلا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولو لا أنه سجلها ما علمها الناس ، وإذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها فقد ذكرته مشوباً بأمر غير صادقة كإخبارهم بأن لوطاً كان مخوراً فوق علي ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم .

ونقول : إن معجزة محمد عليه السلام كانت القرآن ، لقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى مثل إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع إليه ، ومثل بكاء الناقة عنده ، ومثل الإسراء والمعراج ، ولكن لم يتحد إلا بالقرآن الكريم ، ولم ير المشركون صرحاً شاعراً يتحداهم به سوى القرآن الكريم .

ولماذا كانت معجزة محمد عليه السلام القرآن، وما كان يرجو الاتباع إلا به، ولقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال «ما من نبي إلا أوتي، ما مثله آمن به البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى به إلی، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، ومن هذا يتبين جواب ذلك السؤال، وهذا لأن رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خالدة، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين، ولا نبي بعده، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التي لا يحدها زمان في المستقبل، بل تبقى إلى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضي، وتنتهي بانتهاء الزمن الذي وجدت فيه بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة، وذلك محقق في القرآن فهو حجة قائمة على العرب والعجم إلى يوم الدين، وهو معجز لكل الخلائق، وذلك ما تصدى لبعضه، والله هو المعين.

المعجزة الخالدة

• تلك المعجزة الخالدة هي القرآن الذي يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما ذكر الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو حجة الله على خلقه ، وحجة النبي في رسالته ، وسجل الشريعة المحكم في بيانه ، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العدل عند الافتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج ، من سلكه وصل ، ومن لجأ إليه اهتدى .

روى الترمذى بسنده عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وكرم وجهه في الجنة أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم . وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ولا يملأه الاتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقض عجايبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى إلى الرشاد ، من علم عليه سبق ، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور . »

وقد رواه الحارث الهمذاني برواية الترمذى ، وقد حسن رواية الحارث كثير من المحدثين ، منهم الفقيه المحدث ابن عبد البر ، وإن الذين اتهموا

حارثاً فيهم نزعة أمويه ، ومنهم الشعبي ، وقد قال فيه ابن عبد البر : « أظن الشعبي عوقب لقول في الحارث الهمداني ، « حدثني الحارث وكان أحد السكذابين » .

وأنه في معنى هذا الحديث ما روى عن عبد الله بن مسعود رضی الله تعالى عنه ، إذ جاء أنه فيما روى عنه « إن هذا القرآن مآدبة الله تعالى فتعلموا من مآدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فبستعب ، ولا تنقض عجايبه ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » .

وإن هذه الأخبار ومثلها كثير تدل على منزلة القرآن في الإسلام، وأنه العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على شرائع الإسلام كلها ، وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذي لا يضل حكمه ، وأن من تركه من جبار قسى الله تعالى ظهره ، وأنه لا تنشعب الآراء في حقيقته إذا استقامت الأفهام ، ولم تضل المدارك .

والعلماء يجدون فيه المعين الذي لا ينضب ، والثروة الإسلامية التي لا تنفد فيه حكم الأمور كلها ما وقع ، وما لم يقع ، وأن كل ما فيه حق ، وأنه مصلحة الدنيا والآخرة ، ما من خير إلا له في القرآن أصل معتمد ، ونص يمكن الحمل عليه ، فما ترك الله الإنسان سدى . وقد قال تعالى وقوله الحق ؛ « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله الكامل ، فيه معاني كل الكتب المنزلة على الرسل ، وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم ، وفيه المنللات المرشدة ، والعظات الموجهة ، وفيه أعلى الآداب الإنسانية وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين ، وفيه تعليم الإنسان الاتجاه إلى الكون وتعرف ما فيه ، والأخذ بالعلم من قوادمه

وخوافيه وفيه الدعوة إلى العلم بكل ضروبه ، علم الإنسان ، وعلم النفس ،
وعلم الكون ، وإلى العلم بالنجوم في مسالكها ، والسموات في أفلاكها ،
والأرض في طبقاتها، فيه الدعوة إلى العلم بما لم يعلم ، وطلب في كل مدارته .

خاطب الله تعالى به أوليائه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة
فأدركوه ، وكان حقاً كما قال تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو
قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً^(١) ، ذلك هو كتاب
الله تعالى بما حمل من معان وتكليف ، وما كساه الله تعالى به من روعة
وتشريف ، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله : « الله نزل أحسن الحديث
كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تملين جلودهم
وقلوبهم إلى ذكر الله ،^(٢) .

(١) الرعد : ٣١ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

www.alkottob.com

القسم الأول

www.alkottob.com

www.alkottob.com

نزول القرآن

٣ - من وقت أن من الله تعالى على الإنسانية بالبعث المحمدي ابتداء نزول القرآن ، فأول آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتكليف الذي كلفه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة إلى خلقه ، فقد نزلت أول آية ، وهي « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »^(١) ، فكان هذا إيذاناً بأن دين العلم قد وجب تبيغته ، وأن كتاب العالم قد ثبت تنزيهه ، وأن إعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وفيه إيماء إلى أن الإسلام والعلم يجتمعان ، ولا يتناقضان أبداً .

توالى نزول القرآن منجماً في مدة الرسالة المحمدية التي استمرت ثلاثاً وعشرين سنة يدعو فيها بالحق ، وإلى صراط مستقيم ، ينير السبيل ، ويهدي للتي هي أقوم .

فكانت الآيات القرآنية تنزل وقتاً بعد آخر ، وكان التحدي بما نزل وإن لم يكن ما نزل كل القرآن ، لأن كل جزء منه ينطبق عليه اسم الكتاب ، بل القرآن ، إذ أن التحدي يقع به ، والمعجزة تتحقق فيه ، فقد تحدى أهل مكة أن يأتوا بمثله ، ولم يكن قد نزل كله ، فقد قال تعالى في سورة يونس ، وهي مكية : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون »^(٢) ، وجاء التحدي في هذه السورة أيضاً فقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه ، من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين »^(٣) ، وجاء في سورة هود ،

(١) العلق : ١-٥ . (٢) الآياتان : ١٦ ، ١٧ (٣) الآياتان : ٢٧ ، ٢٨ .

وهي مكية : د أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سورة مثله مفتریات ،
وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ، (١) .

ومن هذا كله يتبين أن بعض القرآن قرآن يتحدى فيه ، فهو الكتاب
الكامل في كله ، والكامل في جزئه ، وهو معجز في أجزائه ، كما هو معجز
في ذاته ، وإن شئت فقل إنه معجزات متضافرة ؛ وإذا كان لموسى تسع آيات
بينات فلله محمد مئات من المعجزات البينات .

حكمة نزوله منجما

٧ - وقد يسأل سائل لماذا نزل القرآن منجماً ، ولم ينزل دفعة
واحدة ، كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزبور
على داوود ؟ وإن مثل هذا السؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين ،
متخذين منه سبيلاً للجحيم ، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ،
فقد قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ،
كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً » (٢) .

ونرى أن النص الكريم قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه
وتعالى عليهم ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور توميء إلى السبب في نزوله منجماً :
أولها : تثبيت فؤاد الرسول بموالاتة الوحي بالقرآن فإن موالاته فيها أنس
للنبي عليه الصلاة والسلام ، وتثبيت لعزيمته ، وتأيد مستمر له ، فيقوم بحق
الدعوة بالجهاد في سبيلها ، وإذا كان المرء يستأنس بوليّه إذا وإلى الاتصال به
فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بملقاه الروح الأمين الذي يحميه بكلام
رب العالمين ، في موالاتة مستمرة .

ثانيها : أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه
جزءاً جزءاً ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ في الأجيال كلها جيلاً بعد

جيل ، وما يحفظ. في الصدور لا يعتره التغيير ولا التبديل ، وما يكتب في السطور قد يعتره المحو والإثبات والتحريف والتصحيف ، ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ. ، كان يحفظ. جزءاً جزءاً ، وكان ينزل مجزئاً ليسهل ذلك الحفظ. ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يحفظه عند نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في ذلك : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه^(١) » ، وترى من هذا النص حرص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يحفظ. ما يوحى إليه ، فيحرك به لسانه ، مستعجلاً الحفظ. فبينه الله تعالى إلى أنه يتولى جمعه وإقراءه له ، وأنه ميسره ، وحافظه ، كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون^(٢) ».

الأمر الثالث : هو ترتيب القرآن ، بتعليم تلاوته وإن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيبه هي من تعليم الله تعالى ، إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه تعال قدرته وكتاباته ، وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمانا ، إنما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيب محكم ، جاء به التنزيل ، وأمر به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله تعالى :- « ورتل القرآن ترتيلاً^(٣) » ، وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجماً ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبي عليه السلام من تعلم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيجه ما كان في الإمكان أن يعلمه قومه وهم حملته إلى الأجيال من بعده .

هذا ما يستفاد من النص الكريم المتلو ، وعبارته السامية فيه واضحة بينة تشرق بمعانيه العالية الهادية الموجهة المرشدة .

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منحماً نلمسه من حال العرب ، ومن شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة فيهم

(١) القيامة : ١٦ - ١٩ (٢) الحجر : ٩ (٣) المزمل : ٤

ليست راتجة ، بل يتدرج فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ، إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه ، وإن كتبوه لا يدموا الخطأ والتصحيح والتحريف .

واقصد كان من فائدة إنزال القرآن منجماً أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم^(١) .

المكي والمدني

٨ - كان نزول القرآن منجماً ، سبباً في أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة ، فكان منه المكي ومنه المدني ، فالمكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة يسمى مدنيّاً ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكياً ، فالتقييم زمني ، وليس بمكاني ، ليست العبرة بمكان النزول ، إنما العبرة فيه بزمانه .

والآيات المسكية فيها بيان العقيدة الإسلامية ، وبطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين والدعوة إلى التوحيد ، ومخاطبة العرب ، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا إلى بلاد العرب ولهم آثار في أجزائها تنادي بما صنع أقوامهم ، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ، ومن خسف جعل على ديارهم سافلها ، ومن ريح صرصر عاتية .

ولم يكن في الآيات المسكية أحكام للمعاملات ، وإن كان فيها إشارات إلى المحرمات كالخمر والربا فقد قال تعالى مشيراً إلى أن الخمر أمر غير حسن :
ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك

(١) النحل : ٤٤ .

لآية لقوم يعقلون،^(١) . فإن هذا النص الكريم يشير إلى أن الخنزير ليست أمراً حسناً ، لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة الأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن إلا القبيح ، وأعلى الأقل الأمر غير الحسن .

ولقد جاء أيضاً في سورة الروم ما يشير إلى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى في سورة الروم : وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون،^(٢) .

وإن عدم وجود أحكام للمعاملات في مكة سببه أن الدولة التي كانت قائمة كانت دولة شرك ، وإن من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الإسلامية في ظلها ، وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك وإدخالها في التوحيد أولاً ، ثم من بعد ذلك تكون الدولة الإسلامية المنفذة ، ولكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام ، وإن كان مسكوتاً عنها . فلم تكن موضع إباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريماً قاطعاً ، فما كانت الخنزير مباحة ، ولكن كان مسكوتاً عنها ، أو كانت في مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول ، حتى إذا كان المنع الصريح في المدينة ، كان معه العقاب ، وهكذا كل ما كان مسكوتاً عنه لم يكن موضع إباحة .

ولما انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة، تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها ، والقضاء بها، فنظم التعامل ، وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الإخاء الذي آخى فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، والأنصار بعضهم مع بعض ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، وشرعت النظم الاجتماعية ، والمعاملات الإنسانية . من أحكام لبيع والمزارعات ، وتحريم للربوبات وغيرها ، وفرضية الصدقات وتنظيمها ، وإعطاء الفقير حقه ، والتنظيم الاجتماعي الكامل ، وشرعت الزواجر

(٢) الآية : ٣٨ .

(١) النحل : ٦٧١ .

الاجتماعية من حدود وقصاص . وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق ، وفتح باب الجهاد ، ووضعت نظم الحرب ، وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة ، يراعى فيها حق العدو ، كما يلاحظ حق الولي على سواء لأن المبادئ المدنية في الإسلام قامت على إعطاء كل ذى حق حقه من غير بحس ولا شطط ، ولا مجاوزة للحد ولا اعتداء .

ويلاحظ أن مبادئ العدالة جاءت مع وجود الشريعة الإسلامية ، وقد دعا إليها القرآن الكريم في مكة والمدينة ؛ لأن العدالة حق ابتدائي لا يختلف في دولة عن دولة ، فهو يتعلق بالنفس الإنسانية في ذاتها .

فالامر بالعدالة والإحسان والوفاء بالعهد جاء في سورة النحل ، وهي مكية عند نظر الأكثرين ، لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القانين :
وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة ، (١) .

ولقد أحصى القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن السور المدنية ، فقال : د عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد ، والمجادلة والحشر ، والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق وآياتها النبي لم تحرم إلى رأس العشر وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله - هذه السور نزلت بالمدينة . وسائر القرآن نزل بمكة .

ويلاحظ أنه جعل سورة النحل من الصور المدنية . ولكن المذكور في المصاحف التي بين أيدينا أنها مكية ، ولعل فيها روايتين .

(١) الآيات : ٩٠-٩٢ .

كتابة القرآن وجمعه

٩ - منذ ابتداء نزول القرآن الكريم على الرسول الأمين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحفظه ، ويأمر من حوله من يحسنون الكتابة أن يكتبوه ، وقد سمي أولئك الذين كتبوا القرآن بكتاب الوحي ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير ممن كانوا يحضرون إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب نزول الوحي بالقرآن عليه ، فيملى عليهم ما نزل ، ويعلمن ما حفظه فيحفظه الكثيرون من الصحابة وخصوصا من كانوا له عليه الصلاة والسلام ملازمين ، وعلى مقربة منه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان نزول القرآن على غير الترتيب الذي نقرؤه الآن في السور الكريمة ، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحي من الله تعالى ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام ضعوا آية كذا في موضع كذا من سورة كذا ، فتكون بجوارها متسقة متلاحقة المعنى مترابطة متناسقة اللفظ ، تلتقي بها كأنها لقف معها ، وكأنهما كلام واحد قيل في زمن واحد ، أحدهما لاحق ، والآخر سابق ، وكان المتكلم قاهما في نفس واحد ، من غير زمن بينهما يتراخى ، أو يتباعد ، وذلك من سر الإعجاز ، ولا غرابة في ذلك ، لأن القائل واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذي لا تجرى عليه الأزمان ولا يحد قوله بالأوقات والأزمان لأنه هو خالق الأزمان والمحيط بكل شيء علما .

ولذلك كان ترتيب القرآن الكريم في كل سورة بتنزيل من الله تعالى ، وكان من الصحابة من يحفظه كله ، فكان عبد الله بن مسعود يحفظ المكي ، ويحفظ المدني ، ولكن الرواة قالوا إنه عرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المكي فقط ، وكذلك جمع أبي المدني ، وقالوا

لأنه عرض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما جمعه بعد الهجرة وأكبر العرض هو عرض زيد بن ثابت رضى الله تبارك وتعالى عنه ، فقد كان سنة وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان بعد أن قرأ الرسول الأمين على روح القدس جبريل القرآن مرتباً ذلك الترتيب الموحى به الذى نقرأ به القرآن الكريم .

وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد جمع القرآن في صدره طائفة من الصحابة ، قيل إن عددهم مائة أو يزيدون ، ونحن نرى أنهم كانوا أكثر من ذلك عدداً ، فإنه قتل من القراء في إحدى مواقع الردة عدد يزيد على السبعين ، وقيل على سبعمائة ، وربما كان الأول أدق ، فإذا كان ذلك العدد مقتولاً فالباقي بحمد الله تعالى أكثر ، وإن كان قتل سبعين قد هال المؤمن الثاقب النظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه عن الإسلام خيراً .

وإذا كان بعض السكاكين ذكر أن الحفاظ للقرآن من الصحابة أربعة عشر على بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ، ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، فذلك ليس من قبيل الإحصاء ولا من قبيل التعيين العدى فإن العدد أكبر من ذلك .

والأمر الآخر الذى يجب التنبيه إليه هو أن القرآن كله كان مكتوباً عند الصحابة ، وإذا كان لم يكن كله مكتوباً عند بعضهم ، أو عند واحد منهم بعينه ، فإن ذلك لم يكن منفيماً عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عند جميعهم ، وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين ، وهكذا تضافروا جميعاً على نقله مكتوباً ، وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كل الآخر ، وكان السكال النقلى جمعياً وليس آحادياً .

وقد يسأل سائل ، لماذا كان الجامعون له في الصدور كثيرين ، وقد حفظوه كاملاً غير منقوص ، ولم يوجد من جمعه في السطور جمعاً كاملاً ،

ونجيب عن ذلك بجوابين - أحدهما - من واقع حياة العرب ، فقد كانوا أميين ، والمجيد منهم للكتابة قليل ، وأدوات الكتابة غير موفوره ، وما يكتب عليه غير "معد" لها ، فكانوا يكتبون على الأديم ، وعلى الخاف الأشجار ، وعلى العصب ، وغير ذلك مما لا يعد للكتابة ، فكان الغريب أن تكون كتابة ، فضلا عن أن تكون كتابة كاملة للقرآن عند الواحد من الصحابة ، وكتابته كاملة عند الجميع كانت بتوفيق الله تعالى ومن عنايته بكتابه الكريم .

والجواب الثاني: أن ذلك من عمل الله تعالى ، لأن الله تعالى العليم الحكيم جعل حفظ القرآن الكريم في الصدور ابتداء وانتهاء ، وفي السطور احتياطاً ولتكون كتابته من بعد ذلك صحيحة من كل وجوها ، لا يعترها تصحيف ، ولا تحريف ، وإن تواتر القرآن الكريم عن رسول الله يكون كما تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقي في الصدور لافي السطور ، ولا يكون تواتر في مكتوب إلا إذا قرىء المكتوب على من أخذ عنه وأجازه ، فالمكتوب يحتاج في نقله إلى الإجازة القولية ، والإجازة القولية لا تحتاج إلى كتابة إلا بمقدار تسجيل الإجازة .

* * *

ترك محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا والأمة على بيته من أمر القرآن ، قد استحفظوه ، وحفظوه ، وكتبوه وحمله رسول الحقيقة أمانة الخليفة ، وهو القرآن الحكيم في هذا الوجود الإنساني ، فماذا كان من بعده .

جمع القرآن الكريم بعد الرسول

١٠ - انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وقد حفظ عدد كبير من الصحابة يبلغ حد التواتر القرآن كله كاملا غير منقوص لم يتركوا منه كلمة إلا حفظوها ، وعلّموا أين نزلت ، ومتى نزلت ، وعلّموا معناها من صاحب الرسالة عليه السلام ، حتى إنه يروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول كنا إذا حفظنا عشر آيات من القرآن سألنا الرسول عليه السلام عن معناها فيبينها لنا :

ترك الرسول لاصحابه القرآن ، وهو أعظم ثروة إنسانية مثرية في هذا الوجود ، وقد أدركوا حق الأمانة وأنهم حاملوها إلى الأخرى من بعدهم كاملة ، كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون ، وهي الباقية ، وهي تراث النبوة ، وسجل الرسالات الإلهية ، لذلك كانوا يحافظون عليها ، وعلى الذين حملوها في صدورهم .

ولقد هال عمر بن الخطاب أنه قد استحر القتال بين المؤمنين الأولين (وكثير منهم من حفظة القرآن الكريم) ، وبين أهل الردة في موقعة اليمامة وقتل منهم فيما قيل سبعمائة كما جاء في الجامع الكبير للقرطبي ، فأشار عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على أبى بكر بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد ، فندب زيد بن ثابت إلى ذلك لجمعة بعد تعب شديد .

روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبى بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعل رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم ، فقال هو والله خير ، فلم يزل يراجمني ، حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد ، وعنده عمر جالس لا يتكلم فقال لى أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمتبع القرآن فاجمه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أنقل على عما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجمه ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر .

اختار أبو بكر كما ترى فى رواية البخارى ورواية غيره من أصحاب الصحاح زيدا ليقوم مع من يستعين به من حفظة القرآن ، وكان اختياره لزيد لأسباب جمّة - أولها - ما اشتهر به بين الصحابة من العلم والفقّه ، وثانيها - لأنه من كتبة الوحى الملازمين ، لا الذين كتبوا مرة أو مرتين ، وأخذوا لقب كاتب الوحى شرفا ، وثالثها - أنه ممن حفظوا القرآن وجمعه فى صدورهم ، فكان حقيقاً أن يجمعه مسطوراً بعد أن جمعه محفوظاً ، ورابعها - أنه عرض القرآن على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة التى انتقل فيها النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى كما قدمنا .

١١ - حمل زيد ما هو أشد حملاً من الجبال ، لأنه يحمل أثقل موازين الهداية فى هذا الوجود الإنسانى ، وهو وديعة الله تعالى إلى الوجود الإنسانى إلى أن تزول السموات والأرض .

وما كان لمن يحمل مثل هذا الحمل أن ينفرد بالعبء فقد استعان بالحفظ الكرام من صحابة النبي الأعلام ، وسلك فى سبيل الجمع الخطة المثلى ، فما كان ليعتمد على حفظه ، وإنه لحافظ ، ولا على حفظ من استعان بهم ، وإنهم لحفاظ أمناء وإنه كان لا بد أن يعتمد على أمر مادمى ، يرى بالحس لا يحفظ بالقلب وحده ، فكان لا بد أن يرى ما حفظه مكتوباً فى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب فى عصر النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبإملائه عليه الصلاة ، وقد تتبع القرآن بذلك آية آية ، لا يكتب إلا مارة مكتوبا عن النبي عليه السلام في عهده ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المكتوب في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونقلاه ، أو يرى ذلك المكتوب عند اثنين ، فهو شهادة كاملة منهما ، وقد حصل على القرآن كله مكتوبا بنصاب الشهادة في عصر النبي عليه السلام ، فما كان إلا أن نقل المكتوب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه وجد آيتين لم يشهد أثنان بأنهما كتبتا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل شهد واحد فقط ، وهو خزيمه بن ثابت الأنصاري وهو قوله تعالى : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، لم يجدهما إلا عند خزيمه ، وقد قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تكريمًا له شهادتك باثنين .

وروى أنه لم يجد آية أخرى إلا خزيمه ، وهي قوله تعالى : ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ؛ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

هذا هو السلك الذي سلكه المؤمن الحافظ الذي اختاره أبو بكر لحمل التبعة مع من اختار ولنترك الكلمة له ، أي لزيد فهو يشير إلى ما سلكه فهو يقول فيما رواه البخاري : دقت فنتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكثاف والعسف وصدور الرجال ، حتى وجلت آيتين من سورة التوبة مع خزيمه الأنصاري ، لم أجدهما مع غيره . لقد جاءكم رسول من أنفسكم والآية الأخرى التي لم يجدها إلا عند خزيمه أيضا جاء فيها عنه في رواية البخاري أيضا : وعن زيد بن ثابت لما نسخنا في المصاحف فقدمت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله تعالى عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمه الأنصاري الذي جعل الله تعالى شهادته

بشهادة رجلين من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه^(١)، وقد علق على ذلك القرطبي فكانت الأولى من سورة براءة في الجمع الأول على ما قاله البخاري والترمذي وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب .

وهذا يدل على أن الجمع الثاني اتبع فيه ما اتبع في الجمع الأول بالبحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره، أو توجد عند اثنين، فوجودها عندهما شهادتان، والجمع الثاني كان في عهد عثمان .

ولكن قد يسأل سائل ، لماذا كان نصاب الشهادة كاملا في الجمع الذي حدث في عهد أبي بكر ، ثم لم يوجد النصاب في بعض الآي عند الجمع الثاني؟ نقول إن فرض ذلك يتحقق بغياب أحد ركني النصاب عن المدينة، أو موته ولكن الله تعالى حافظ كتابه في هذا الوجود كوعده بحفظه وإنه منجز ما وعد : «إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون^(٢)» ، ولذلك كان الشاهد في الثاني هو الشاهد في الأول ، وهو خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادته باثنين، فالنصاب كان كاملا .

١٢ - ولا تترك الكلام في هذا العمل الجليل الذي اشترك فيه أبو بكر وعمر ، وحمل عبئه زيد بن ثابت مع جمع من المهاجرين والأنصار . ، من غير أن تقرر حقيقتين ثابتتين ، تدلان على إجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له ، ومحفوظ بحفظه ، وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته .

الأولى - أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة ، ولكنه إعادة لما كتب ، فقد كتب كله في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

(٢) الحجر : ٩ .

(١) الأحزاب : ٢٣ .

وعمل زيد الابتدائي هو البحث عن الرقاع والعظام التي كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتها ، بأمرين بشهادة اثنين على الرقعة التي توجد فيها الآية أو الآيتان أو الآيات ، وبحفظ زيد نفسه وبالحافظين من الصحابة ، وقد كانوا الجهم الغفير والعدد الكبير ، فما كان لأحد أن يقول إن زيدا كتب من غير أصل مادي قائم ، بل إنه أخذ من أصل قائم ثابت مادي .

وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماما ما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس كتابه زيد ، بل هو ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام ، وما أملاه ، وما حفظه الروح القدس .

وإذا كان ما كتبه عثمان من بعد ذلك قد قوبل بما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالمصحف العثماني الذي بقي بخطه إلى اليوم هو مطابق تمام المطابقة لما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه يجب ألا يخرج عنه قارىء في قراءة بزيادة حرف أو نقص ، قد تكون القراءات متغيرة في أصوات المقروء وأشكال النطق ، ولكن لا يمكن أن تكون متغيرة بزيادة أو نقص ، فذلك هو الخروج عن الرسم الذي وضع في عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بإقراره عليه الصلاة والسلام .

الأمر الثاني - أن عمل زيد لم يكن عملا آحاديا ، بل كان عملا جماعيا من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أن زيدا بطبيعة عمله أعلن بين الناس ما يريد ، ليأتيه كل من عنده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده ، وقد علموا مقدار ما ينبغي لكتاب الله من عناية ، فذهبوا إليه وذهب إليهم ، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهدا إلا بقلوبهم في عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذي يؤمن به .

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس ، وتعرفوه وأقروه ، فكان المكتوب متواترا بالكتابة ومتواترا بالحفظ في الصدور ، وما تم هذا

لكتاب في الوجود غير القرآن ؛ ولا يهمننا أن يقر ذلك المعاندون أم لا يقره فذلك إيماننا ، والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب في غير موضعه ، بل الحقائق ناصعة ، والبيّنات قائمة ثابتة ، وهي في حكم البدهيات القاطعة ، ومن يرتاب في أمر عقلي لا ريب فيه ، فهو يضل نفسه ، ولا يضرب غيره ، والحق أبلغ ، والباطل لجلج ، إذن فلا عجب في أمر المعاندين الضالين .
إنما العجب كل العجب في أمر الذين يضلون في طلب الحق ، فيتيمنون في ظلمات الروايات المدسوسة المكذوبة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

جمع القرآن في عهد عثمان أو الأحرف السبع

١٣ - جمع القرآن كله في عهد الشينيين أبي بكر وعمر ، وقد أودعه عمر حفصة أم المؤمنين ، ليكون مصوناً يرجع إليه لا ليتلى منه ، فالتلاوة استمرت كما كانت في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلتقى من أفواه الرجال مرتلة ، كما تلقوها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقى القرآن محفوظاً في صدور المؤمنين بنصه وتلاوته .

وإن النص المكتوب واحد ، لا تغير فيه ، وهو يحتمل عدة قراءات ، وقد ذكروا أن القراءة المتواترة لا تكون مقبولة إلا إذا كانت موافقة للنص المكتوب غير زائدة ، ولا ناقصة ، فهي شاملة للقراءات كلها .

ولقد أجزى في أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها يمينها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يحفل شيئاً منها . ولذلك روى البخارى أن القرآن نزل على سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة ، ويروى مسلم عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان عند أعضاء بني غفار (وهو غدير صغير عندهم) فأناه جبريل عليه السلام فقال له : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أناه الثانية فقال إن الله

يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة ، فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تقرىء أمتك على سبعة أحرف ، فأبما حرف قد قرءوا عليه فقد أصابوا ، وروى الترمذى عن أبي بن كعب ، قال لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل فقال د يا جبريل إني بعثت لامة أمية منها المعجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط ، فقال لى : يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف وهذا حديث صحيح .

وقد قال القرطبي فى كتابه الجامع الكبير لأحكام القرآن : د ثبت فى الأمهات البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرهما من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وهو الذى صرح فيه بأن عمر سمع هشاماً يقرأ بحروف لم يسمها ، فأخذه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقرأه ما قرأ هشام ، وأقرأه ما قرأ عمر ثم قال . د إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف . .

١٤ - وإنا إذا تأملنا ما جاء فى هذه الأخبار الصحاح ننتهى إلى أن العرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففهم الرجل الشيخ والمرأة المعجوز اللذان جمدا لسانهما على لهجتها فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها ؛ ولم يلوكوها من قبل ، فكان لابد أن تمرن ألسنتهم أمدأ على لغة القرآن حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت .

وتفسير الأحرف باللهجات أو لغات العرب ما بين مصرية وربعية ونزارية وقرشية وغيرها هو التفسير الذى اختاره ابن جرير الطبرى ، وكثيرون من الرواة ، وهو الذى يتفق مع النسق التاريخى فى الجمع الذى اضطرد ذو النورين عثمان رضى الله تعالى عنه لأن يقوم به ، وارتضاه

الصحابة ، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه لو كنت مكانه ما عملت إلا ما عمل .

ولقد ذكر القرطبي أن هذه الأحرف باقية في القرآن لم ينسخ منها حرف ، واسكنى أرى أن النسق التاريخي الذي أشرنا إليه من قبل يوجب أن يكون حرف واحد قد بقي ، وهو لغة قريش ، وهو الذي كتب عثمان مصحفه عليه ، وكان من قبل مكتوباً عليه كما سنبين أنه لم يأت قط بما يخالف المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة عند ما قابله به .

وقبل أن ننتقل إلى ما فعل الإمام عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه لا بد أن نذكر حقيقتين دل عليهما المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسياق التاريخي :

أولها - أن الذي كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعتره تغيير ، ولم تجر عليه الحروف السبعة ، وأن الحروف السبعة كانت في قراءة القرآن ، لا في كتابته . وأن استئذان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في القراءة لا في الكتابة .

ثانيهما - أن استئذان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان ليسهل على أمته حتى تلين ألسنتهم ، وتستقيم على النطق باللغة التي اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده وهو العليم ، وهي لغة قريش في جل ما أنزل الله تعالت كلماته ، فكانت لغة قريش لغة الأدب في الجاهلية والإسلام فكان من منطق الحوادث أن يكون أعلى الكلام ينزل في ثوب أعلى اللغات العربية إذ كانت لغة الشعر والأدب .

١٥ - ولننتقل بعد ذلك إلى جمع ذى النورين عثمان رضي الله عنه ، ومكانه من جمع الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وجزاهما عن الإسلام خيراً .

تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد كان عمر رضي الله تبارك

وتعالى عنه آخذاً بحجزات الصحابة وخصوصاً كبارهم يمنهم من مغادرة الحرمين ، فاختلف الناس في القراءة ، ومنهم من كان يقرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التي ما كانت القراءة بها إلا ترخيصاً مؤقتاً حتى تلين الألسنة إلى لغة القرآن ، وإنما لو واحدة ، وإن اختلفت القراءات المتواترة في ظلها ما بين حذف للهمزة في النطق ، وإن كانت باقية في مصحف عثمان تقرأ فيه مثبتة وغير مثبتة كالأرض ، والأرض ومن اختلاف في الشكل يدل في كل شكل على معنى صحيح يصلح أن يكون مقصوداً في القرآن ، ويكون اللمح صحيحاً ، مثل أنفسكم بضم الفاء ، وأنفسكم بفتحها ، ومثل فتبينوا بالباء بعد التاء ، والتاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء .

وما كان اختلاف القراء في الأمصار في عهد عثمان في هذه القراءات المشهورة بينما الآن إنما كان الاختلاف في اللغات التي كان مرخصاً بها ، فمنهم من لم يعلم نسخها ، عند قراءة جبريل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في العرضات الأخيرة .

لقد اشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبث كل فريق بما يقرأ ، زاعماً أن غيره هو الباطل الذي لا ريب فيه ، ووقع الخلاف بين أهل العراق وأهل الشام عند ما اجتمعوا في غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما روى لها ، وتنازعا أمرهم بينهم ، وأظهر بعضهم تكفير بعض ، وتبرأ بعضهم ، وكان معهم حذيفة بن اليمان كما ذكر البخاري والترمذي وقد ذكرا أن حذيفة عندما أب من هذه الغزوة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى أهله فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال في كتاب الله ، إني حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناساً من العراق والعام والحجاز ، ووصف له ما كان من الاختلاف والتكفير ، وقال إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم ، كما اختلف اليهود .

أفزع هذا الأمر عثمان التقي ، كما أفزع المؤمنين الذي علموا ذلك النبأ الخطير ، ولكن الفزع لم يوهن العزيمة بل شحذها ، ولم يضعف الإرادة بل حفزها ، وكانت عزيمة ذى النورين عثمان .

لقد أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة لتسكون الإمام الذي يحتكم إليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع من الصحابة الحافظين الكرام بضعة على رأسهم زيد بن ثابت الجامع الأول ، والثقة الثابت الذي كان له فضل التثبيت في كل كلمة وآية .

وقد قال له عثمان رضى الله تعالى عنه عند ما ندبه لذلك العمل الجليل إنى مدخل معك رجلا فصيحاً لبيباً فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلى جمل معه إبان وسعيد بن العاص ، فلما بلغنا في الكتابة قوله تعالى إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم^(١) ، قال زيد فقلت التابوت وقال سعيد بن العاص التابوت فرفعنا الأمر إلى عثمان ، فكتب التابوت .

وكان جملة من ضمهم إلى زيد ثلاثة هم عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص الذى ذكرناه وعبد الرحمن بن الحارث ، وقال لهذا الرهط من قريش ما اختلفتم فيه أتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه نزل بلسانهم .

ويظهر أن سيدنا عثمان لم يكتف بهؤلاء الأربعة ، بل كان يضم إلى معاونتهم من يكون عنده علم بالقرآن يعاونهم في كتابته ، ولقد روى ابن عساکر أن عثمان دعا إلى هذه المعاونة فقال إن عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به ، ويقول ابن عساکر فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا ، فناشدهم : أسمعتم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أملاه عليكم ، وهكذا كان يتثبت في الرواية ، كما كان التثبيت من زيد

(١) البقرة : ٢٤٨ .

ومن معه ، والذي كتب المصحف الاول الذي أودع أم المؤمنين حفصة
رضي الله عنها وعن أبيها فاروق الإسلام .

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن ، ولكن عثمان لا يكتبني ، بل إنه
يسير في الاستيئاق إلى أقصى مداه ، فيحضر مصحف أم المؤمنين حفصة ،
ويعرض المصحف الجديد ، فيجدهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهما
عن الآخر حرفاً ولا ينقص عنه ، حتى لقد فهم بعض العلماء أن جمع عثمان
كان نسخاً لما جاء في الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها
وعن أبيها الفاروق ، وجاء ذكر ذلك في بعض الروايات تسامحاً ، ولكن
الحقيقة أنهما كان نسخاً ، بل قام بالتحريات كلها ، حتى جمع ما جمع ، وكان
التوافق الكامل الذي بذل دالة قاطعة على صدق الجمعين ، وعلى تواتر القرآن
السكريم مكتوباً ، ومحفوظاً وبذلك حفظه الله تعالى وصانه .

ولقد قال الطبري إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماماً في
هذا الجمع الأخير ، ويقول القرطبي « هذا صحيح ، ومعنى صحته أنه بعد
الجمع قام به زيد بأمر عثمان ، وعاونه المؤمنون الحافظون قد روجع على
مصحف حفصة ، رضي الله عنها وكانت هي المقياس لصحته ، بالمقابلة
بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة ، لا ريب فيها . فكانت هذه
الإمامة ، حتى ظن أنه نسخ منها .

١٦ - ويلاحظ أمران - أولهما : أن عثمان رضي الله عنه كان غرضه
من إعادة جمع المصحف هو أن يكتبه على حرف واحد من الحروف السبعة
أى اللهجات واللغات السبع فما كان جمعه إلا لإثبات الحرف الباقي الذي
روى مكتوباً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليجتمع عليه المسلمون ،
ولا يكونوا متفرقين ، وأن يكون ذلك موافقاً للمكتوب في عهد الرسول
صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في القرطبي ، قال كثير من علمائنا كالداودي ، وابن أبي صفرة هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان ، ذكره ابن النحاس وغيره .

الأمر الثاني : أن عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه حسم مادة الفثنة بذلك الجمع ، وعمل ما كان ينبغي أن يعمل . ولذلك نسخ من هذا الذي جمعه نسخاً على قدر الأقاليم العربية ، فأرسل إلى كل إقليم نسخة كانت هي الأصل لهذا الإقليم ، فأرسل إلى مصر ، وإلى الشام . وإلى مكة واليمن والبحرين والبصرة ، والكوفة ، وحبس بالمدينة مصحفاً كان هو الإمام لكل هذه النسخ ، وهو المرجع الأول في الدولة ، ترجع إليه كل المصاحف ، وهو الحاكم عليها .

وإذا كان هو الأصل لكل هذه المصاحف فيجب القول بأنه لا اختلاف بينها لأنه الحكم ، وأنها صور لنسخة واحدة ، ويلاحظ أن الإمام العظيم عثمان قد كتب المصحف خالياً من النقط والشكل ، كما كان المصحف الموجود عند حفصة خالياً من النقط والشكل ، ولم يكن نقط وشكل إلا بعد ذلك .

ولكن لماذا خلا من ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هي سبع قراءات ، وليست هي الحروف كما ذكرنا من قبل ، ولكي يكون المكتوب محتملاً لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لابد أن يكون غير منقوط ولا مشكول ، كما ذكرنا في اختلاف القراءة في أنفسكم وكما ذكرنا في اختلاف القراءة في قلوبنا . وما كان يمكن أن يحتمل النص القراءتين إذا كان منقوطاً ومشكولاً .

ومن جهة أخرى أن الأساس في تواتر القرآن هو الحفظ في الصدور
لا في السطور ، حتى لا يعتربه المحو والإثبات فلو كان القرآن منقوطة
ومشكولا لاستغنى طالب القرآن عن أن يقرئه مقرئ ، فلا يكون التواتر
الصحيح الذي يقتضى الإجازة من أقرأه ، ولقد جاء التحريف في الكتب
الأخرى لاعتمادها على المكتوب في السطور . لا المحفوظ في الصدور .

ومن جهة ثالثة إن ترتيل القرآن ، كما أئمر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
لا بد منه كما قال تعالى : *دورتلنساء ترتيلا* ،^(١) وإن ذلك لا يتم إلا إذا كان
القرآن يقرأ على مقرئ . يميزه حفظاً وقرأة وترتيلا .

١٧ - وإن الرواية الصحيحة بينة مستقيمة لاجمال للفك فيها ،
وهي تدل على أمور ثلاثة قطعية في ثبوتها وهي :

أولاً - على أن النص الذي كان عند حفصة ، هو النص المكتوب في
عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو ذاته النص المكتوب في مصحف
عثمان رضى الله عنه ، فلا يصح الزيادة عليه ولا يصح النقص .

ثانياً - على أن القرآن كتب بلغة قريش ، وهي الحرف الذي استقرت
القرأة عليه ، وما كان الترخيص بالقرأة بالحروف الأخرى إلا مؤقتاً
حتى تطوع الألسنة لحرف قريش ، ولقد جاء في القرطبي : *«إن القرآن
نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغة قريش
موجود فى صحيح القرءات من تعقيق الحمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز .*

ومؤدى هذا الكلام أن الألفاظ والأساليب والمنهج القرآنى أنزل
على لغة قريش ، ولكن الحركات التى تعترى بنية الكلمة من همز أو إمالة
أو نحو ذلك جاء على لهجات من غير قريش ورويت كلها عن النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم .

ثالثها - أن مصحف عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لا تجوز ، وإنه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة .

١٨ - إذا كانت هذه حقائق ثابتة تواترت في الأجيال ، فلماذا كانت الروايات الغريبة البعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم التي احتوتها بطون بعض الكتب كالبرهان للزركشى ، والإتقان للسيوطى التي تجمع كما يجمع حاطب ليل يجمع الحطاب والأفاعي مع أن القرآن كالبناء الشامخ الأملس الذى لا يعلق به غبار ؟

قد أجاب عن ذلك الكاتب الكبير المسلم المرحوم مصطفى صادق الرافعى^(١) ، فقال فى كتابه إعجاز القرآن : ونحن ما رأينا الروايات تختلف فى شيء من الأشياء فضل اختلاف ، وتنسم فى الرد والتأويل كل طريق وعر ، كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص ألفاظ القرآن ، فإن هذه الألفاظ متواترة إجماعاً ، لا يتدارأ فيها الرواة من علامتهم ، ومن نزل ، وإنما كان ذلك لأن القرآن أصل الدين ، وما اختلفوا فيه إلا من بعد اتساع الفتن ، وحين تألب الأحداث ، وحين رجع بعض الناس من النفاق إلى أشد من الأعرابية الأولى ، وزاغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجتروا على حدود الله تعالى ، وضربتهم الفتن ، والشبهات ، مقبلاً بمدبر ، ومدبراً بمقبل ، فصار كل من نزع إلى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ، ما يختلف معه ، أو يختلف به ، وهيات ذلك ، إلا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل ، وإلا أن يفتح الكلمة السيئة ، ويبالغ فى الحمل على ذمته ، والعنف بها فى أشياء لا ترد إلى الله ولا إلى الرسول ، ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق ، بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . . ونحسب أن أكثر هذا مما افترته الملمحة ، وتزيدت به الفئمة

(١) توفى سنة ١٩٣٧ م .

الغالية ، وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم ، وكلهم يرجع إلى القرآن بزعمه ، ويرى فيه حجته على مذهبه ، وبينته على دعواه ، ثم أهل الزيغ والعصية لأرائهم بالحق والباطل ، ثم ضعاف الرواة عن لا يميزون ، أو ممن تعارضهم الغفلة في التمييز . . وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (١) .

وإن ذلك الذى ذكره الكاتب الإسلامى الكبير حق لا ريب فيه ، فإن هذه الروايات التى جمعها من لا يفرق بين الحابل والنابل ، وبين الخطب والأقمة ، إنما كانت بعد الفتن ، ولعل للإسرائيليات دورها الخفى المسموم وأن الذين تولوها غلاة الفرق ، والرواة الذين لا يميزون أو يغفلون ما لا يدركون .

ألم تر إلى أولئك الغلاة يطعنون فى عثمان رضى الله عنه ، ويجعلون من أسباب الطعن ، أنه جمع المصحف وجعل له إماماً ، عند ما رأى الاختلاف قد تفاقم ، وأنه جمعهم على ما كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . ورأى على رضى الله عنه مشيرى الفتنة بعد مقتل الشهيد عثمان ، فقال رضى الله عنه وكرم الله وجهه : ديا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا على ملائنا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم — وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : د قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت مثل الذى فعل عثمان .

تحريق غير المصحف الإمام وغير ما نسخ منه

١٩ — كانت الفتنة قد بلغت ذروتها وخب فيها الذين يريدونها ، ووضعوا ، وكان قد دخل فى الإسلام الذين يريدون أن ينتقموا منه لدولهم التى غزاها نور الإسلام ، وانفتح فى قلوب الأكثرين باب الهداية ،

ووجدوا في القرآن السبيل إلى ما أرادوا أن يهدموه وهو الإسلام، ليقتلوه من جذوره، ويأتوه من قواعده، لخموا من القرآن عماده، ونور الله المبين، وحبله المتين .

وكان السبيل لإحياء الأحرف التي نسخت، فاندسوا بين المسلمين يحبون المقبور، ويروجون المهجور، ويبشون روح الشك والريب فيما هو متواتر ثابت .

وقد انبرى لهم ذو النورين، واجتث شرهم، فجمع المصحف الإمام على الطريق المأمون الذي كان مستوثقاً غير متظان، ومتأكد غير متشكك فكان ما كتب في عهده هو عين ما كتب في عهد الشيخين أبي بكر وعمر، وما كتب في عهد الشيخين هو عين ما أملى في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وما حفظه أصحابه في صدورهم .

حتى إذا تم له ما احتسبه عند الله على ملا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين شاهدوا وعانوا واتبعوا عن بيته، وفيهم الكثيرون ممن حفظوا القرآن كله كملئ كرم الله وجهه، ومعاذ بن جبل، فكان التواتر الكامل والصيانة الكاملة والاستحفاظ على كتاب الله تعالى .

فلم يبق إلا أن يزلوا غيره من المصاحف، لأنها كتبت بغير حرف قریش أربه وبحروف أخرى، فأحرقها جميعاً، ولم يبق إلا المصحف الإمام وما نسخ منه، فلا يرجع إلى سواه، ولا يعتمد على غيره، ولو بقيت مصاحف غيره، لكان الاحتجاج بها، ولعادت الفتنة جذعا، وكان التشكيك والريب، وقد حفظ الله تعالى كتابه .

حرق عثمان المكتوب كله، ولم يبق منه شيئاً، ورد إلى السيدة أم المؤمنين حفصة المصحف الذي كان مودعا عندها، والذي كان إماما لمصحف عثمان، كما قرر بحق ابن جرير الطبري، وقد رده إليها لموعدة وعددها إياها فوفى بوعده، ولسكنها لما توفيت أمر عبد الله بن عمر أن يحرق

المصحف الذى كان عندها ، وروى أنها توفيت رضى الله عنها فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وأن للذى حرق المصحف الذى عندها والى المدينة مروان ابن الحكم ، ومهما يكن اختلاف الرواية فى تاريخ وفاتها ، فإن عثمان رضى الله عنه قد قرر أن يحرق بعد وفاتها .

وهنا يسأل المؤرخ إذا حرق عثمان المصاحف الأخرى لما أثارته من فتنة ، ولأنه كان فيها حروف أخرى غير حرف قریش فلماذا قرر حرق المصحف الذى عند حفصة ، وقد كان إمام مصحفه ، والمرجع الذى وزن به صحة ما كتب فى عهده ، حتى إنه قيل إن المصحف الذى كتب فى عهده قد نسخ منه نسخاً ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك إن المصحف أودع حفصة رضى الله عنها وعن أبيها لأنها كانت حريصة على أن يبقى عندها وما أراد الرجل الطيب عثمان أن يحرمها بما أرادت ، فأعادها إليها ، ولكنه الحريص على القرآن خشى أن يقع فى يد أحد ، فمحو فيه ويثبت ، ويقول قد غير ما عندكم ، وما هوذا الأصل ، فاحتكموا إليه ، ويكون صالحاً للاحتكام ، فأمر أن يحرق بعد وفاتها ، وما أبقاه عندها فى حياتها إلا مرضاة لها ، فاحتاط للقرآن ، وما أعتبها ، رضى الله تعالى عن ذى النورين بما صنع ، وأكرمه فى مشواه ، ورضى عنه وأرضاه .

ترتيب الآيات والسور

٢٠ - أجمع العلماء على أن الآيات رتبت بتنزيل من الله تعالى ، فكانت الآية إذا نزلت يقول عليه السلام لكاتبه ولصحابته ضموها في موضع كذا من سورة كذا ، وتكون لفقاً مع التي وضعت بجوارها ، وتكونان نسقاً بيانياً ، هو الإعجاز وإنه يدل على وحدة المنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وإن الآيات المنكية كانت توضع في السور المنكية ، والمدنية كانت كذلك توضع في المدنية ، إلا بعض آيات مدنية وضعت في سور منكية وبه إليها . على ذلك انعقد الإجماع ، وكانت العرضة الأخيرة التي قرأ فيها النبي على جبريل بترتيب الآيات ذلك الترتيب ، ومن أنكر ذلك أو حاول تغييره فقد أنكر ما عرف من الدين بالضرورة ، وخرج عن إطار الإسلام ، وحاول التغيير والتبديل ، فتللك الدعوات المنحرفة التي تدعو إلى ترتيب القرآن على حسب النزول ، أو على حسب الموضوعات هي خروج على الإسلام ، يبتث بعض الذين لا يرجون للإسلام وقاراً ، إذ يجعلون القرآن عسرين ، ويخالفون التنزيل ، ويعارضون الوحي ، وذلك خروج عن الإسلام .

هذا ترتيب الآيات ، أما ترتيب السور فإنه من الثابت أن المصحف الإمام كان على هذا الترتيب ، وقالوا إنه ما ارتضاه زيد بن ثابت ، ووافقه عليه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وذو النورين عثمان وهو المتبع ، فلا يغير ولا يبدل ، وقد قيل إن بعض الصحابة كان له مصحف بغير هذا الترتيب ، فكان لأبي مصحف ، وكان لعلي كرم الله وجهه مصحف ، وقد نقل ابن النديم في الفهرس أنه كان على حسب ترتيب النزول ، وأنه ابتداء بقوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علقه . وهي أول آية نزلت .

ولكن العرضة الأخيرة من جبريل كان على هذا الترتيب ، البقرة ثم آل عمران على ما والاها .

ولقد جاء في الجامع الكبير للقرطبي ما نصه - ذكر ابن وهب في جامعه ؛ قال سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا بالمدينة . فقال ربيعة ، قد قدمت وألف القرآن على علم من ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهي إليه .

قال ابن مسعود : « من منكم كان متأسياً ، فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإقامة دينه ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . » ولقد قال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه ، إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكر أبو بكر الأنباري كما نقل عنه القرطبي : « أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فرق على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل ، والآية جواباً لمستجيب يسأل ، ويقف جبريل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام من رب العالمين ، فن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا اعتراض على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « وضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات . »

ومن هذه الروايات المختلفة المتولفة المجمع على أن ترتيب السور بتوقيف يتبين أن المصحف الإمام هو الذى يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

ولكن ماذا يقال عن الروايات التي جاءت بأنه كان لأبي مصحف بغير هذا الترتيب ، ولعلى رضى الله عنه وكرم الله وجهه مصحف كان بترتيب النزول ؟ لنا في الإجابة عن ذلك السؤال طريقتان :

أولها — أن نعتبر ما عليه الكثرة الكاثرة التي تكاد تكون إجماعاً يؤخذ به ، ويكون ذلك الإجماع دليلاً على ضعف ما عداه وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند .

ثانيهما — أننا نقول إن ذلك كان قبل العرضة الأخيرة ، وفي العرضة الأخيرة وضعت السور في مواضعها ، وهذا ما اختاره القرطبي وغيره ، فقد قال : «أما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعلى وعبد الله بن مسعود فإنما كان قبل العرضة الأخير ، وإن رسول الله تعالى رتب لهم ترتيب السور بعد ، إن لم يكن فعل ذلك من قبل .

ونتهى من هذا إلى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحى من الله العلي الحكيم .

قراءات القرآن

٢١ — يقرأ القرآن الكريم بقراءات مختلفة ؛ مختلفة في حركات وأواخر الكلمات أو في بناء الكلمة ، أو في الوقوف في أواخر الكلمات ، أو في الهمزات قطعاً ووصلاً ، كهمزة الأرض ، فهي تقرأ موصولة ومقطوعة ، وهكذا ، وإنه يجب التنبيه في هذا إلى أمرين :

أولهما — أن قراءات القرآن المتواترة ليست هي الأحرف السبعة كما ذكرنا ، بل إن الرأى القويم الذي انتهى إليه الباحثون كابن جرير^(١) الطبري وغيره إلى أن القراءات كلها تنتهي إلى حرف واحد ، وهو الذي كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة وهو الذي جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه . وألزم به الأقاليم الإسلامية ، وهو مطابق تمام المطابقة

(١) توفي سنة ٣١٠ هـ

للصحف الذي كتب في عهد أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وهو الذي حفظ في بيت أم المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها الفاروق .

الأمر الثاني - أن هذه القراءات تنتهي في نهايتها إلى أنها من ترتيل القرآن الذي رتله الله سبحانه وتعالى ، وتفضل بنسبته إلى ذاته الكريمة العلية فقال تبارك وتعالى ، « ورتلناه ترتيلاً ، (١) فهي الأصوات التي أشرت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإذا كان فيها موسيقى ، إنصح لنا أن نقول عنها هذا التعبير ، فهي الأصوات القرآنية التي اتبعناها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهي في مداها وغناها ، وإهمازها ، وإهمال همزاتها ، وإمالتها وإقامتها ، أصوات القرآن المأثورة ، إذ أن القراءة سنة متبعة وإن اختلفت القراءات الصحيحة وكلها متواترة عن الصحابة الذين أقرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلمهم طرق الأداء التي تعلمها عن ربه ، كما يشير إلى ذلك ما تلونا من قبل ، وهو قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فانبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه (٢) » ،

فكانت القراءة التي وعد الله تعالى ، نبيه عليه السلام ، هي الترتيل ، وهي تلك القراءات المأثورة عن صحابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين تلقوها عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه تلقاها عن ربه .

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها ، مع أنها تنتهي جميعاً إلى المورد العذب ، والمنهل السائغ وهو تلاوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي تلقاها عن ربه - ليس اختلاف تضاد في المعاني ، أو اختلاف تباين في الألفاظ بل يكون الاختلاف .

أرلا - في شكل آخر الكلمات أو بنيتها ، مما يجعلها جميعاً في دائرة العربية الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة المتسقة في ألفاظها ، وتأخى عباراتها ورنه موسيقاها ، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

(٢) القيامة : ١٦ - ١٩ .

(١) الفرقان : ٣٢ .

وثانياً — في المد في الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المد لازماً أو غير لازم ، وكل ذلك مع التأخى في النطق في القراءة الواحدة فكل قراءة متناسقة في ألفاظها من حيث البنية للكلمة ، ومن حيث طول المد أو قصره .

وثالثها — من حيث الإمالة ، والإقامة في الحروف ، كالوقوف بالإمالة في التاء المربوطة وعدم الإمالة فيها .

ورابعها — من حيث النقط ومن حيث شكل البنية في مثل قوله تعالى :
وياها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ،^(١) فقد وردت فيها قراءتان متواترتان ، فتبينوا وقراءة أخرى دفتبتوا ، وهما متلاقيتان ، فالأولى طالبت بالتبين المطلق ، والأخرى بينت طريق التبين ، وهو التثبت بتحرى الإثبات ، فإن لم تكن طرق الإثبات ، ولا دليل على القول ، فإنه يرد الكلام ، ولا يتمسك بما قيل متظننا فيها من غير دليل ، وكلتا القراءتين مروية بسند متواتر . لا مجال للريب فيه ، فكانت إحدى القراءتين مفسرة للأخرى .

وخامسها — زيادة بعض الحروف ، في قراءة ، ونقصها في أخرى ، مثل زيادة الواو في قراءة . وزيادة من في أخرى وهذه نادرة لم أرها إلا في حالتين اثنتين ، فقط ، فقد ذكر ابن الجزرى إمام القراء المتأخرين المتوفى سنة ٨٢٣ هـ . إن ابن عامر ، وهو من القراء السبعة يقرأ وقالوا اتخذنا لله ولدا ،^(٢) وقرأ غيره : وقالوا اتخذنا لله ولدا ، وإن حذف الواو ثابت في المصحف الشامى ، وكان ابن كثير يقرأ وتجري من تحتها الأنهار ، وقراءة غيرها تجرى تحتها الأنهار ، ومفهوم كلام ابن الجزرى أن القراءتين متواترتان ، وإن هذا يودى إلى أمر جوهرى ، وهو أن المصاحف في هذا الموضع ليست نسخاً متحدة اتحاداً كاملاً منسوخة كلها من المصحف الإمام وهو المصحف

الذى احتفظ به الإمام عثمان في دار الخلافة ، وقد اتفقت الروايات على أنه لم يكن كالمصحف الشامي الذي كان على قراءة ابن عامر ، لأن مصحف الشام خالف كل المصاحف في قصر الواو - ومنها المصحف الإمام مصحف عثمان وبذلك يكون الرجوع لمصحف عثمان وما نقل عنه من المصاحف ، وهو المصحف المجموع في عهد الشيخين أبي بكر وعمر وحفظ عند حفصة وهو أيضاً المتطابق مع المکتوب في عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكذلك الأمر في زيادة (من) في قراءة ابن كثير المتفق مع المصحف المكي ، وغيره من المصاحف ومنه المصحف الإمام على عدم زيادة من في الآية التي زيدت فيها في المصحف المكي .

وإن النتيجة لهذا أن نقول إن الأصل هو المصحف الإمام مصحف المدينة يقبل ما يتفق معه ، وينعقد الإجماع عليه وما لا يتفق معه ينظر فيه ، وربما كان رده أظهر ، لولا ما يقال من أن القراءة بالزيادة ليست آحاداً ولا شاذة ، بل متواترة .

ومن أجل ذلك حاول القرطبي التوفيق بين الزيادة ، وحذفها ، فقال : « وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدنها بعضهم ، وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه ، إذ كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ، ولم يكتبها في بعض إشعاراً بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة .

رواة القراءات :

٢٢ - كانت القراءات معروفة في عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وقد تلقوها جميعاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذكرنا أن مصحف الإمام عثمان والإمامين من قبله ، وما كتب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان غير منقوط ولا مشكول لكي يحتمل القراءات

كلها ، ولكيلا يعتمد القارىء على المكتوب ، بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال بعضهم إن الخط في عصر النبي عليه السلام كان غير منقوط ولا مشكول ، لأن العربية لغة بيان وإفصاح وتعبير ، وانسجام بين ألفاظها ، وتأخ بين أساليبها ، فلا تعتمد على المكتوب بل على المقروء ونغماته ، وتأخى عباراته من غير تحافى اللفظ عن المعنى ، ولا المعنى عن اللفظ .

ولما أخذت العجمة تغزو اللسان العربي ابتداءً وبنقط القرآن وشكاه في عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات ، ومن غير اعتماد على المكتوب ، بل يكون مع المكتوب ضرورة الإقراء من حافظ ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة ، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان في الصحابة من يقرئ الناس ، ويعلمهم وجوه القراءات .

وقد اشتهر بإقراء الناس للقرآن ، وتعرفهم أوجه قراءاته طائفة من الصحابة قد احتجوا عن الخروج إلى ميادين الفتح ، ليعلموا الناس ويفقهوهم في دينهم ، ويقرئوهم القرآن الكريم .

ومن هؤلاء عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب فارس الإسلام احتجوا عن الجهاد بالسيف ، ليكون له جهاد العلم والقرآن . وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء .

وعن هؤلاء أخذ كثيرون من الصحابة والتابعون وأقرئوهم القرآن بوجوه القراءات ، وكلها يتفق مع المكتوب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولما أخذ المقرئون للقرآن من الصحابة ينقرضون حمل التابعون ذلك العبء الكريم ، فقاموا بحقه ويظهر أن المقرئ كان يقرئ طالب القرآن

القراءات كلها ، ويختار منها ما يطوع له لسانه ، من غير اعوجاج ، فكان الصحابة وكبار التابعين يقرئون بالأوجه كلها ولكن يختار المستحفظ ما يقوى عليه لسانه .

وفي آخر عصر التابعين خلف من بعد قراء الصحابة والتابعين خلف طيب ، وجد التخصص في قراءة من القراءات أولى من حفظ جميعها ، فإنه إذا كان ذلك في طاقة الصحابة ومن دأبهم من كبار التابعين ، فن وراهم دون ذلك ، إذ أخذت الطبيعة العربية تضعف عن حمل العبء كاملا ، فعنى من أفاضل القراء من صغار التابعين ، وتابى التابعين برواية كل واحد منهم قراءة واحدة ليسهل عليه نطقها ورووها متواترة فكانت الرجال تشد إليهم يتلقون عنهم ، ويأخذون بما يقرئه كل واحد .

واشتهر من هؤلاء الذين خلفوا عهد الحفاظ من الصحابة الذين كانوا يقرئون الناس من صحابة وتابعين - اشتهر سبعة كانوا من بعد أئمة القراء .

وهم عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وعبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ - وعاصم بن مهدي الأسدي المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وأبو عمرو ابن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلي المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، وعلى بن حمزة الكسائي إمام الكوفيين المتوفى سنة ١٥٩ هـ وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها التي نالت الإجماع ، ولكل واحدة منها سندها المتصل المتواتر ، وطريقه وهو محفوظ في علم القراءات ، وأجمع المسلمون على التواتر فيها .

وقد ألحق علماء القراءات وأهل الخبرة فيها ثلاثة غيرهم صححت قراءتهم ، وثبت تواترها وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع المتوفى سنة ١٣٢ هـ ، ويعقوب ابن إسحق الحضرمي المتوفى سنة ١٨٥ هـ وخلف بن هشام .

وقراءات هؤلاء بإضافتها إلى القراءات السبع تكون عشرة كاملة .

أقسام القراءات :

٢٢ - لا عبرة إلا بالقراءات المتواترة لأنها هي التي تتناسب مع تواتر القرآن ، وحفظه في الأجيال إلى يوم القيامة ، وسد السبيل للريب ، فلا يأتيه في أي ناحية من نواحيه ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولأن الله تعالى قد وعد بحفظه فقال : **إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون**^(١) ، والله تعالى لا يخاف الميعاد . ولكن مع ذلك قرر علماء القراءات أن هناك ما روى بطريق الآحاد ، وهناك الشاذ ، وإن كان الاثنان لم يبلغا درجة أن تكون معتبرة أو لانقده بالقرآن .

ولذلك قسموا القراءات إلى أقسام ثلاثة :

أولها - القراءات المتواترة ، وهي حجة في التلاوة ، وليس لمؤمن بالقرآن أن ينكرها ، وإذا كان قد روى عن الزمخشري^(٢) إنكار بعض القراءات أوردتها مستنكراً لها ، فإن ذلك النوع ليس من القراءات المتواترة ، وما كان مثل الزمخشري في علمه ومكاتبته وإيمانه أن يتكرر متواتراً ، والذين يستمسكون بمثل قوله ، لا يأخذون إلا بحبل واه ، يهوى بهم إلى نار جهنم ، لأنه رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ما أنكر متواتراً ، ولكنهم يطهرون وراء كل ريح يحسبونها هادمة ، ولكن ما هم بالغيبه ، ودون ذلك دق أعناقهم .

وشروط القراءة المتواترة ثلاثة :

أولها - أن تكون موافقة للمصحف الإمام ، لأنه الأصل المعتمد عليه ، وهو المرجع ، وهو صورة صادقة للمسكوتوب في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون بالتزامه القرآن متواتراً قراءة ، وكتابة والله سبحانه وتعالى هو الحافظ له إلى يوم الدين :

الشرط الثاني : التواتر في السند بأن يرويه جمع عن جمع حتى عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

الشرط الثالث : أن يكون موافقاً للمنهاج العربي الثابت في اللغة ، وليس معنى ذلك أن تكون أقوال النحويين حاكمة على القرآن بالصحة ، فإنه هو الحاكم عليه ، وهو أقوى حجج النحويين في إثبات ما يثبتون ، ونفي ما ينفون ، ولكن معنى ذلك ألا يكون فيه ما يخالف الأسلوب العربي في مفرداته وفي جملة وعباراته .

القسم الثاني : القراءة غير المتواترة ، وقد رويت بطريق الأحاد ، ولم تبلغ في روايتها حد التواتر ، وهذه يكون روايتها عدولا ، لم يثبت عليهم ريبة اتهام في قول أو عمل ، وهذه يقرأ القرآن بها ، وخصوصاً إذا وافقت المتواتر بشرط موافقتها للمصحف الإمام وهو متواتر فتكون في معنى المتواترة ، وموافقتها للمنهاج العربي ، فلا يكون فيها ما يخالف المنهاج العربي .
والقسم الثالث : الشاذة وهي المخالفة للمصحف الإمام ، ولم تثبت بسند صحيح ، ولو بطريق الأحاد .

ولم أرى ألا يقبل إلا المتواتر .

ويجب التنبيه إلى أمر وهو أن القراءات السبع المنسوبة للقراء السبعة قيل إنها لا تخلو من شاذ مرفوض ، وإن كانت في جملتها مشهورة جاء في كتاب إعجاز القرآن للدرحوم الكاتب الكبير مصطفي صادق الرافعي رضي الله عنه نقلا ما نصه :

ولا تخلو إحدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فإن فيها من ذلك أشياء .

وازن بين هذا ، وبين القراءتين اللتين زيدت في إحداهما واو ، وقيل إنها موافقة للمصحف للشامي .

وفي الأخرى من وقيل إنها موافقة للمصحف المكي .

فائدة وجوه القراءات :

٢٣ — إن القراءات كما ذكرنا هي ترتيل القرآن الذي علمنا الله تعالى إياه على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم إذ علمه ربه ونسب الترتيل إلى ذاته العلية ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلاً ، ^(١) وأمر نبيه بهذا الترتيل هو ومن اتبعه فقال تعالت كلماته : « ورتل القرآن ترتيلاً ، ^(٢) فكانت القراءات التي نزل بها القرآن هي تصريف ذلك الترتيل وتنويعه وكأن المعاني القرآنية صرفها الله تعالى من الاستفهام إلى التقرير ، ومن الاستنكار والتوبيخ إلى التهذيب والتأديب ، وكما صرف الله آياته كما قال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبيئه لقوم يعلمون ^(٣) ، فقد صرف تلاوته وترتيبه ، فكان الترتيل في التأليف الصوتي ، والتناسق في النطق ، وتنوع ذلك التناسق من ارتفاع ومد طويل ، إلى خفض ومد قصير ، مما يشبه التأليف الموسيقي ، وإن كان أعلى لأنه ليس من صنع البشر ، ويحمد القارئ في ذلك التنويع ما يجعله يترنم بالقرآن في إجلاله ، وروعة بيانه ودقة معانيه .

وأمرئان يبدو في تنويع القراءات مع ثبوت تواترها وأنها عن الله العلي القدير ، نجد أن اختيار قراءة من القراءات في المقام الذي تناسبه يكون توضيحاً للمعنى ، ومناسباً للمؤدى ، فمثلاً قراءة الإمالة تكون في الموضوع اللين والخطاب الرفيق ، ويتركها القارئ الفاهم في موضع التهديد والإنذار إلى قراءة أخرى تناسب التهديد والإنذار الشديد ، فمثلاً في سورة الحاقة لا يعتمد المرتل المدرك إلى اللين في الوقوف على التاء ، لأنه لا يتناسب مع موضوع التهديد الذي اشتملت عليه السورة كلها ، وقد نهينا بعض القراء الذي كان يختار اللين ، فتنبه ، وما عاوداً ما كان يفعل .

وأمر ثالث في تعدد القراءات فرق ما فيها من مراعاة مقتضى المعاني .
وفوق ما فيها من ترتيل هو موسيقى القرآن ، إن صح لنا هذا التعبير مع
أن القرآن في مقام أعلى وأسمى ، ذلك الأمر أن تنوع القراءات فيه تسهيل
على القارىء العربى ، فقد تصعب عليه قراءة ، إذ لا تطاوعها طبيعته أو
سليقته اللغوية .

وهناك أمر رابع في تنوع القراءات ، وهو أن يكون مجموع
القراءتين - وكلتاها قرآن - دالاً على معنيين في لفظ واحد متلاقين
غير متضادين ، فمثلاً قراءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم^(١) » ، بضم الفاء
يدل على أنه من العرب ، والعرب قومه ، وذو رحمته القريبة ، أو البعيدة ،
وإذا اجتمعت معها القراءة بفتح الفاء كانت الآية دالة بهذه القراءة على أنه
من أوسط القوم وأعلام ، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص
على معنيين غير متضادين ، وكلاهما صحيح صادق ، فالنبي صلى الله تعالى
عليه وسلم كان من العرب ، وكان من أنفسهم ترتبط مشاعره بمشاعرهم
يحس بما يحسون ، وهو مندمج فيهم ، وقريب منهم ، ثم كان مع هذا القرب
النفسى من أعلى العرب منزلة ، وأكرمهم ، وكذلك يكون الأنبياء من
أوساط الأقسام الذى يتسامون عن سفاسف الأمور ، ويتجهون إلى معاليها .
وقد يقول قائل إن قراءة أنفسكم بفتح الفاء تدل على الأمرين ، فهى
تدل على أنه من أعلى قریش وسطاً ، وتدل على أنه منهم ، ونقول في الجواب
عن ذلك إنها تدل بالنص على الشرف ، وأنه من أعلى القوم ، ولا يفيد
بالقصد والذات أنه من نفس العرب ، ومن ذاتيتهم ، وأنه يحس بإحساسهم ،
لا تدل قراءة الفتح على ذلك بالنص ، وبيان امتزاج نفسه عليه السلام
بأنفسهم ، وإن هذا لا بد منه ليشعر بشعورهم ، ويشاركهم بوجدانه
وإحساسه ، ويجذبهم إليه بقوة الامتزاج النفسى ، كما يعينهم بالدليل ،
وبالحق في ذاته ، وبما آتاه الله تعالى من بينات باهرات .

وقد يكون اختلاف القراءة ففيه كمال التوضيح البياني من غير قصور في إحداهما ، ولكن بالقراءتين يكون البيان كاملاً ، مثل قراءة قوله تعالى :-
«يأبها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»^(١)، فإن قوله تعالى : «فتبينوا»
تقرأ «فتثبتوا» ، ولا شك أن المعنى في القراءتين هو ألا يؤخذ الساعى
بالنميمة أو الساعى بالأذى ، أو المفسد بين الناس لا يصدق قوله ابتداءً وألا
ينساق وراء ما يثيره القول من عاطفة جامحة أحياناً قد تدفع إلى الشر عن
غير بينة . فالتعالق آياته يذبه إلى أنه لا يجوز التصديق إلا بعد التبين ،
والتبين يكون بطرائق مختلفة منها ما يكون بطرق الإثبات من بينات ، ومنها
ما يكون بالقرائن ، ومنها ما يكون بربط الأمور الواقعة بالأمر المخبر عنه ،
وهكذا ، فالقراءتان : تبين إحداهما التبين بالطرق المختلفة والثانية تبين أن
أسلم الطرق هو تعرف الأمر بما يثبت من أقوال الصادقين المؤمنين .

ولأنه قد يكون اختلاف القراءات مؤدياً إلى بيان حكم بقراءة ، وحكم
متمم له بقراءة أخرى فاستفاد الأحكام في أوجز تعبير على ما فيه في تغيير
القراءة من اختلاف في نغم الترتيل ، وموسيقا البيان القرآنى الذى يساميه .
وقد قال في هذا المعنى الكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى
«وثالثة تلحق بمعانى الإعجاز ، وهى أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض
صورها بما يتهيا معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معانى الشريعة ، ولذا
كانت القراءات من حجة الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد ، وهذا المعنى
بما انفرد به القرآن الكريم ، ثم هو مما لا يستطيعه لغوى أو بيانى فى تصوير
خيال فضلاً عن تقرير شريعة» .

ولذلك نجد الفقهاء فى استدلالهم الفقهية يقولون الحجة فيه قراءة
كذا ، وهى لا تكون مناقضة للقراءة الأخرى وربما تكون القراءة دالة
على حكم آخر غير مناقض للحكم الذى دلت عليه القراءة المستشهد بها ،

فتكون الآية بالقراءتين دالة على حكمين متلاقين غير متناقضين ، وذلك من الإيجاز المعجز الذي لا يوجد في كلام الناس ، ولكنه موجود في كلام خالق الناس .

٢٤ - هذا ونحتم الكلام في القراءات بكلمة مأثورة للصحابي الفقيه عبد الله بن مسعود ، فهو يقول :

لا تنازعوا في القرآن فإنه لا يختلف ، ولا يتلاشى ، ولا ينفد لكثرة الرد وإثمه شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه ولو كان شيء من الحرفين (أى القراءتين) ينهى عن شيء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شيء من شرائع الإسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلنا محسن ، ولو أن أحداً أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته ، حتى أزداد علماً إلى علمي ، ولقد قرأت من لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن في رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت إذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرني أتى محسن .

اللهم احفظنا بالقرآن ، واجعله محفوظاً بيننا كما وعدت إنك لا تخلف الميعاد ، ووفقنا للعمل به .

الباب الثاني
إعجاز القرآن

www.alkottob.com

www.alkottob.com

إعجاز القرآن

٢٥ - ذكر المؤرخون ما كان عليه العرب من تلق لديانات النبيين السابقين ، حتى قال قائل المؤرخين وأهل السير : إن نوحاً عليه السلام كان بعثه فيهم ، وكذلك كان إدريس ، وصالح ، وشعيب ، وهود ، وإبراهيم وإسماعيل ، فكانت مهدياً للرسالة الإلهية .

وإذا كان لذلك أثر أو دلالة ، فهو أن العرب قوم فيهم ثقافة وأديان ، وقد وضعنا ذلك عند الكلام في حكمة اختيار العرب لأن يكونوا موضع الرسالة الخالدة رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما كتبنا في سيرة الرسول عليه السلام) .

وإذا كان العرب في عصر الرسالة المحمدية كانت فيهم بدوارة سائدة ، وحضارة قليلة ، فأكثر العرب ، أو الصحراء العربية إن استثنينا اليمن والحيرة ، وما يصادق الفرس ، والشام وما يصادق الرومان - كانت البدوارة فيهم غالبية ولكنهم في بدوهم وحضرتهم ، في مدرهم ووبرهم امتازوا من بين معاصريهم بالانزوع إلى الكلام الطيب ، وكانت سيادة الأمية فيهم سبباً في أن أرفهوا كلمات لغتهم ، وأسلوب خطابهم ، وملاحظة جرس الكلمات ، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف ، ومؤاخاة المعاني للألفاظ ، حتى إن النطق يدل على المعنى ، وفي مترادف الكلمات ما يدل على أن المعاني كانت ملاحظة في كل لفظ ، فالأسد يقال له أسد ، وليث وعضنفر ، وغير ذلك من المترادفات لمعنى السبع ، فكلمة عضنفر تقال له في حال عنفه وفتكه ، وكلمة ليث تقال في حال ثباته ورباطة جأشه ، وهكذا تجد النطق متلاقياً مع المعنى ، فهما متساوران ، المعنى ملاحظ في النطق ، والنطق لا يس للمعنى ، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه .

وفي الأسلوب الذي يصوره الإعراب تجد الانقطاع عن النسق الإعرابي في القول يتغير بتغيير وجه الإعراب ، من غير خطأ ، بل يقصد معنى من معاني التخصيص يكون النطق في الانقطاع قائماً مقام وضع خطوط تحت الكلمات ، كما يفعل السكاتبون غير الأميين ، وهكذا كان النطق قائماً مقام خطوط الكاتبين في تنبيهها ، وشدة الاختصاص في دقة المعاني ، فهي بحق لغة إفصاح ، وذلك لقوة المدارك ، وعلو الأفكار ، والنزوع إلى السمو والمعالي مع الأمية ، وغلبة البدوية .

وقد ظهر ذلك في أمرين : أحدهما أن الجزء الذي دخلته حضارة من البلاد العربية كالين والحيرة والبحرين لم تكن عندهم فصاحة كالذين لم تسيطر عليهم الحضارة في قوة الإفصاح والبيان وسلامة التعبير ، فلم تكن الينية كالعديانية . ولالغة أهل البادية كلفة قريش ، لأن قريشاً قد قاربت ، وخالقت بعض الحضارة ، وبقيت أميتها .

الأمر الثاني - في المسابقات البيانية التي كانت تعقد في الأسواق في موسم الحج في عكاظ ، ومجنة وذى المجاز ، فقد كانت فيها تجارة المادة ، وتجارة البيان معاً ، فقد كان في الأولى زلد الجسم ، وفي الثانية زاد النفس ، كما ظهر ذلك في الشعر ومسابقاته ، فمن معلقات تعلق في أستار الكعبة ، وحوليات يقطع الحول في نسج خيالها ، وصوغ عباراتها التي تصفى إليها الأفتدة .

ولو أنك وازنت بين العرب وغيرهم بمن هم في مثل حالهم من البداوة الغالبة ، لو جنتهم في السباك الأعزل وغيرهم في الحضيض الأوهد ، فلا يزال المحاضرون من غير العرب يحدون في شعر زهير بن أبي سلمى حكمة البيان الشعري ، وفي شعر امرئ القيس قوة الوصف وفورة الشباب ، وفي شعر عنزة قوة البأس ولطف التشبيب والغزل ، وفي شعر طرفة قوة النفس الثائرة ، وهكذا لو وازنت بين هذالآثار ، وما بقي من شعر الليوغان والمزومان

لوجدتها لا تنقل عنها في إحكام الفكرة ، وسلامة التفكير ، ولكن تزيد عليها في حلاوة النغم ، وتساوق الفكر ، وتأخي الألفاظ مع المعاني .

نعم إن الأدب القصصي في اليونان كثير ، وهو خلاصة ما عندهم ولبه ، وهو عند العرب قليل أو أقل من القليل ، والسبب في ذلك هو أن هذا ثمرة الكتابة التي تتيح للكاتب فرصة التأليف وتلفيق الوقائع ، بحيث تكون كل واقعة لفق الأخرى مسلسلة معها ، في خيال متسق ، وهكذا .

أما العرب الذين غلبت عليهم الأمية مع تذوق القول ، وتخير خيره ، واستمجان هجيته ، فإن أدبهم يكون باللمح السريع ، والنظر الخاطف أحياناً والمتبصر المتدبر في أكثر الأحيان عند الذين أوتوا فكراً وعقلاً وإدراكاً وفي الجملة لا وسط بين كلامهم وجنانهم ، ولا زمن مستغرق بين خاطرهم وقولهم ، فتكون خيالاتهم فيها جمال اللوح ، وقوة اللحظ ، وسرعة الإدراك .

٢٦ - ولذلك أجمع المؤرخون في القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر في البيان ، وذوق الكلام ، والتفريق بين كريمه وسقيمه ، وجميله وهجينه .

ولنترك الكلمة للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يصف بيانهم في كتابه الشفاء ، فهو يقول : « خصوصاً من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت لإنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على اليدوية بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها في المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط الآكل ، فيخدعون الألباب ، وينزلون الصعاب ، وينهبون الإحن ويهيجون الدمن ، ويجرأون الجبان ... منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم (م هـ - المعجزة الكبرى)

والطبع الجوهري ، والمنزح القوى ، ومنهم الحضري (أى ساكن المدن) ذو البلاغة البارة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرقيق الحاشية ، إلى آخر ما ذكره عياض فى بيان بلاغة العرب ، ومقدار إدراكهم لجمال الكلمات فى رنينها ، كما يدرك الصيرفى رنين الحلى الكريمة غير الزائفة ، من بين ما يعرض له .

تلك كانت حال العرب فى جاهليتهم ، كانت جملا بالدين مع بقايا ملة إبراهيم ، وليسوا جمالا فى البيان ومعرفة أسرار البلاغة يدركونه بلحظ الحال ، لا يامعان عقل وطول تفكير يدركونه بنغماته ومعانيه فى لمح الفكر ، من غير طول المكث .

لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة فالمعجزة بلاشك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزماتها وخلودها إلى يوم القيامة ، وقد بينا ذلك فى أول الكلام ، فإذا كانت معجزة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس فإنها تكون مناسبة لمن تلقوها فى أول أمرها ومناسبة لخلودها .

إننا لا ننفي الآن ، ولم ننف من قبل أنها مناسبة لعصر نزلها ، ولكننا نقول أيضا إنها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها ، وبقائها إلى يوم القيامة . إن القرآن فى أعلى درجات البيان من حيث لفظه ، ومن حيث نغماته ، ومن حيث مغازيه ومن حيث الصور البيانية التى تكون فى ألفاظه وعباراته ، حتى إن كل عبارة تلقى فى الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة فى روعتها ، ودقة تصويرها ، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة ، وبتأخيها مع أخواتها فى العبارة تتكون صورة بيانية أخرى ، فوق أن الرنين الموسيقى

تفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة ، وحقائق بينة ، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم ، الهادى إلى الصراط المستقيم .
التقى في المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم وهي القرآن المبين -
معنيان ، أصيب بهما هدفان :

أولهما - أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشيء الخارج لما عرف ، الخارج عن طاقتهم ، فإنه لا يدرك أثر ذلك إلا هم ، ولا يعرف مقامه إلا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ، ومنزلة البيان .

وثانيهما - أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ، ووعد بحفظه إلى يوم القيامة كما تلونا من قبل ، إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ،^(١) وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الإلهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين ، بصريح القرآن الكريم ، فلا نبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقى ، كما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحياً أوحى به إلى ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً إلى يوم القيامة ، كما روينا من قبل ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإنه معجزة للخليفة كلها ، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين ، فهو إن جاء بلسان العرب ، وفيه أعلى درجات البيان العربى ، يشتمل فى ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين ، فإذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه ، وشرائعه وما اشتمل عليه من علوم ، بل بمعانيه أيضاً . قال منزله عز من قائل « قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ،^(١) تعالت كلمات الله تعالى .

تلقى العرب للقرآن

٢٧ - كلف محمد عليه الصلاة والسلام أن يستعد للقاء الرسالة الإلهية لينشر التوحيد والخلق المستقيم والعبادة الخاصة لله تعالى بين الناس ، وكان تكليفه بالقرآن وأول نزوله : فقال له جل جلاله : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »^(٢) .

تقدم محمد للدعوة إلى ربه معتمداً على أمرين بعد تأييد الله تعالى له وإعزازه ، ومصابرته وأخذهم بالحسنى .

اعتمد أولاً على الحق الذي يدعو إليه ، فالحق ذاته قوة لا تعدلها قوة عند النفوس التي لم تتعوج بمفاسد العصبية ، أو التقليد المصمم عن الحق ، فذكر لهم التوحيد ، وقد كانوا على إدراك له في الحلة كما بينا عند الكلام في القسم التاريخي عن بقاء في بعض المأثورات عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة ، وأتم التسليم .

وكان التنبيه إلى أن الأوثان لا يعقل أن تعبد ، وإزالة ما حولها من أوهام ، وما علق بها من خرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد بين ذلك محمد عليه السلام على أكل وجه .

واعتمد مع نور الحق في ذاته على نور القرآن المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو في هدأة الداعي الرشيد يدعوهم إلى

هجر عبادة الأوثان ، وبقراً عليهم القرآن الكريم ، ففي دعوة الحق ، وفي القرآن البرهان القاطع والضوء اللامع .

كانوا ينفرون من الحق المجرد ، لأنه يخالف ما ألفوا ، وما وجدوا عليه آباءهم : د وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نقتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون ،^(١) .

ولكنهم إذا استمعوا إلى القرآن تحيرت الأفهام ، واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه ، وحق في القرآن عرفوه ، فهم يحاورون في الحق ، ولكن لا يدرون ماذا يدفعون به القرآن الذي يحمله ، ويدعو إليه وإلى ما جاء به ، وإنهم بذوقهم البياني يجدون أنه فوق كل كلام ، ولا يمكن أن يجرى به لسان من أسنتهم وأمثالهم بل لا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، لأنهم من قبل عرفوا كلامه ، وقد رأوه عالياً في جوامع كلبه ، ولكن القرآن أعلى من طاقة الإنسان ومن طاقة محمد ذاته .

ماذا يقولون فيه ؟ يقولون إنه باطل وقد كبروا ما هو دونه من قصيد ورجز ، إن في ذلك كانت الخيرة ، وهم من الناحية البيانية لم يتهافتوا ، ولم يسفوا في القول ؛ وإذا كان فيهم حرق حاولوا أن يجاروه ، أو ادعوا أنهم يجارونه ، وعرضوا ما قالوا ، فقال الاستضحك والسخرية ، وزاد القرآن الكريم مكانة وتقديراً ، وما كان لأمثال أبي سفيان والوليد بن المغيرة ، أن يسفوا بأنفسهم ذلك الإسفاف ، بل إنه لم يسف إلى هذا عمرو ابن هشام (أبو جهل) لأنه يعلم مقدار علوه ، فلا يتهافت إلى إنكار مكانته في البيان ، فهو يستبيح أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأذى أصحابه ، ولا يستبيح الطعن في مقام القرآن البياني ؛ لأنه يلحقه الطعن بالأذى والتصغير ، ولا يلحق محمداً الذي نزل القرآن عليه وخاطب به الناس أجمعين ، ولذا ذكر

(١) البقرة : ١٧٠ .

لك أخبار من سمع القرآن ، وخر بين يديه صاعراً مع شدة العداوة والملاحاة واللدد والخصومة ، والبقاء على الكفر ، والإصرار على الشرك .

٢٨ - (١) سمعه الوليد بن المغيرة فرق له رقة لم تعرف فيه نحو الإسلام نخشى أبو جهل (عمرو بن هشام) أن يسير في الطريق القويم إلى الإسلام ، فأنكر عليه أبو جهل حاله ، ولكنه لم يستطع أن يقول في القرآن شيئاً ، فقال له الوليد :

« والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني ، أعرف رجزها وقصيدتها ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من ذلك . إن له لحلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أعلاه لمشم ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر . »

ولقد اجتمعت قريش عند الوليد يتذاكرون ماذا يقولون في القرآن . وقد رأوا العرب يقدون ، ويستمعون إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ، فكيف يصدونهم عن ذكر الله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فاتمروا ، واجتمعوا حول الوليد ، ليعلموا ماذا هم قائلون لمنع الحق ، وقد قال لهم أولاً الحق على ريب في نفسه :

قال لهم الوليد العارف الضال : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بمضكم بمضاً .

قالوا تقول « كاهن » .

قال والله ما هو بكاهن ، ما هو برمزته ، ولا بجمعه .

قالوا : « مجنون » ، قال ما هو بمجنون ، ولا بمجنقه ، ولا بوسوسته .

قالوا فنقول « شاعر » :

قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ،

ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر .

قالوا فنقول د ساحر ، .

قال ما هو بساحر ولا نفته ولا عقده .

قالوا فما تقول أنت ؟

قال ما أنتم بقائلين في هذا شيئاً ، إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن كان أقرب القول لأنه ساحر فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس .

(ب) ولنذكر خبر عتبة بن أبي ربيعة ، فقد سمع القرآن وهو على الشرك ، ومن كبراء قريش ، فأدرك بذوقه البياني مقام القرآن ، وقال مقالة الحق د والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالكهانة .

(ح) وقد ورد في حديث إسلام أبي ذر الغفاري أنه قال : د ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية ، أنا أحدهم ، وقد انطلق إلى مكة ، وجاء أنيس إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو ذر فما يقول الناس ؟ قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد ، وإنه لصادق ولهم لسكاذبون .

(د) إن كبار المعارضين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الإيمان واستحبوا العمى على الهدى ، ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن الذين يسمعون يتأثرون بما فيه من علو بيان ، وأنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى ، ومنهم كبراء كانوا ذوى مقام وجبروت . فوجدوا الإيمان يقوى ويكثر أهله ، والشرك يضعف وينقص

عدده ، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن كما أشرنا . وإن يهرجوا
بالقول عند سماعه ، ولقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، فقال تعالى
« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » (١) .
(هـ) ولقد كانوا إذا تلى عليهم القرآن لا ينتقده كبراًؤهم ، وإن كان
السفهاء السفسافون منهم يتطاولون لحقهم ، أما الذين أوتوا حظاً من
الإدراك ، ولو أعمتهم العصبية وأبعدتهم عن الإيمان ، فإنهم يفرون من
مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويقولون « قلوبنا في أكنة مما تدعونا
إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (٢) .

(و) وإن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم في هذا العجز الصامت الذى
يفرون فيه من المواجهة ، ولا يريدون المناصبة ، بل يكتفون بالسكوت
العاجز ، ويحاولون التويه على غيرهم ، كما كفروا فى أنفسهم بالحق ، وقد
عرفوه بل تحسدهم أن يأتوا بمثله ، ليشير حميتهم أو يؤمنوا به . وليبين
ضعفهم أو يستسلموا ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بسورة
مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (٣) ، أى أنه إذا
كان قد نسيه الله تعالى افتراء وهو منه ، فحمد منكم ، فأتوا بمثله إن كنتم
صادقين ، وادعوا شهداء ليشهدوا لكم أو عليكم .

وادعوا أن مافيه غير صادق فتحدهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بمفترى
يكون فى مثل بيانه ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر
سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (٤) ،
٢٩ - وننتهى من ذلك إلى حقيقتين ثابتتين نشير إليهما بالإجمال ،
وستعرض ببعض التفصيل عند الكلام عن وجوه الإعجاز .

الحقيقة الأولى أن قریشاً مع شدة ملاحقتها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم
ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون ، وذكر أولادهم بغير ما يؤمنون

(٢) فصلت : ٥

(٤) هود : ١٣

(١) فصلت : ٢٦

(٣) يونس : ٣٨

لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، وأذعنوا لبلاغته وقوته ، وما أسلم عمر بن الخطاب إلا بعد أن قرأ فيه ، وكذلك جَسْبَيْر بن مطعم ، وإن القرآن تحداً ، أن يأتوا بمثله ، فما فعلوا ، بل ماتحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لا يسفوا في تفكيرهم وهم أمام رجل كبير في قومه وعقله ، ومعه آيات الله تعالى البيّنات ، فدل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : أن القرآن جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة ، وقوة بيان ، وإيجاز معجز وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقصّر ، وهي معلومة بالعبر في طولها وقصرها ، وإطنابها الرائع وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاهها بالعبارة الناصعة ، والإشارة الواضحة فما كان الإيمان نتيجة تحد للمقاريل منهم وعجز ، وإن كان العجز ثابتاً ، وإنما كان الإيمان ثابتاً بالقرآن فهو الذي جذب إلى الإيمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »^(١) .

وإن الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتي بمثله ، ولم يعرف ذلك ، وإذا كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة ، فإنه كان في أيام الردة من مسيلة الكذاب وأشباهه ، وإن هذا الجزء الذي رواه التاريخ الذي روى تلك الكلمات التي حاول بها مسيلة الكذاب أن يجارى فيها القرآن ، يبين مقدار إدراك المشركين ، إذ لم يحاولوا المجازاة ، حتى لا يسفوا ، ويكونوا أضحوكة بين العرب ، وموضع سخريّة ، يسخرون بمقولهم ، ولننقل لك ما نقله الباقلاني^(٢) في إعجاز القرآن ليمتعجب ، وليتبصر :

(٢) توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(١) الحديد : ٢٥ .

الناظر ، كما قال الباقلاني ، فإنه على سخافته قد أضل ، وعلى ركاكته قد أزل ، لأن الزلل سابق على سماعه ، والسكفر سابق على ابتداعه وميدان الجهل واسع ، والحفاة لها أهل ، وميدانها عندهم ، ونحن إذا قلنا إن المشركين ضلوا ، فهم في عقولهم كانوا أوسع إدراكا ، وإن جحدوا .

انظر ما قال الجهول يحاكي القرآن ، واللليل الألقم ، والذئب الأدم ، والجذع الأزم ما انتهكت أسيد من أحرم ، لقد قال هذا افض خلاف وقع في قوم من أصحابه : إنه ليس جديراً بأن يسمى كلاماً فضلاً عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الإدراك البياني .

وهو يقول في الحكم في هذا الخلاف أيضاً .

والليل الدامس ، والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس ، وكان يقول : ضفدع بنت ضفدعين نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها .

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ، وكانت تنبأ ، فاجتمع مسيلة معها ، فقالت له ما أوحى إليك قال أوحى إلى : إن الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لمن أزواجا ، فنولج فيهن فقسا إيلجا ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً ، فينتجن سخالا نتاجاً ، فقالت أشهد أنك نبي^(١) .

٣ . هذه تفاهات القول التي نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ، وقد أسفوا في القول ، وهبطوا في التفكير ، مما لم يرد أن ينحدر إليه أرباب البيان من قریش ، لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٤٠ (طبع دار المعارف تحقيق أحمد صقر) .

بمقامهم من الإدراك البياني فيفندوا ببيانهم وذوقهم الكلامي ، وإن ارتضوا أن يفسدوا عقائدكم ، ويكابروا في دينهم ، ويكذبوا رسالة ربهم .

وقد يقول قائل : إن التاريخ الإسلامي لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا فؤنّفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم ، وذلك كلام قيل من الأفاكين ، ويرده أمران :

أولهما — أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان ، وثمة معارضون للقرآن في جد لا طوفيه ، ولا عبث .

ثانيهما — أن أعداء الإسلام كانوا في كل زمان منذ ظهر محمد إلى أن قبضه الله تعالى ، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجا أفواجا ، فالزنادقة كانوا منبئين في مشارق الأرض ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالاً ، وكان أعداء الإسلام في أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم فبشوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهدامة ، والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذي عورض به القرآن ، إذ يرون فيه هدم الأصل ، وأقصى ما استطاع أولئك الزنادقة أن يفعلوه هو أن يدعوا أن عبد الله بن المقفع^(١) اتجه إلى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن ، وهو إن صح كلامهم فيه يدل على أنه نوى ولم يفعل ، ولو فعل لنظرنا إلى ما أتى به . وإننا نشك في أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يفشى الأعين المريضة ، وإن كان قد أراد هذا فهو دليل على حقه ، ويثبت زندقته التي اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا ، وإن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر .

سر الإعجاز

٣١ - عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتاً لا مجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحد ، ولا يمارى فيه إلا من يهمل عقله ، ويسقط من حساب المفكرين ، فعلى ذلك تواترت الأخبار ، وانفقت الأمصار ، لافرق بين عدو وولى .

ولانه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور :
أولها - إعجابهم بعلوه عن أن يصل إليه أحد من البشر ، ولم يحاول أحد من عقلاء المشركين أن يسف فيحاول المحاكاة إلا من اتصف بالحمافة فكانت حماقته ضعفين أحدهما في محاولته ، وثانيهما في نتائج هذه المحاولة إذ جاء بلغوه من القول لا يحتسب في عداد الكلام ، فضلا عن أن يناهد أبلغ كلام أنزله تعالى في البشر .

ولقد سبوا عجزهم بأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن له حلالة ، وعليه طلاوة ، وأن أعلاه مشر وأسفله مغدق . وقد قال ذلك المغيرة في جمعهم ، فما أنكروا عليه حكمه على القرآن الذى سمعه ، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم ، وكانهم أقروه على الوصف الذى وصف به القرآن ، ولكن أنكروا عليه الإيمان ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم كما وصفهم القرآن الكريم .

ثانيها - أنهم كانوا مع شركهم ، واستكراه نفوسهم لعدم الإقرار به ينجذبون إليه ، ويريدون أن يسمعه ، استعطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب ، وعبارات مشرقة - ونظم منفرد أجمل من سمط الآلى ، ولأنهم عرفوا ميلهم إلى استماعه ، وأثره في نفوسهم ، تواصلوا ألا يسمعه ، وأن يلفوا عند سماعه ، ولكن الذين تواصلوا ذلك التواصل ذهب كل واحد منهم

منفرداً ، ولكن الاستخفاء استعملن عندما التقوا جميعاً ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفرداً ، وقد علموا أن التواصل على عدم الاستماع لاجدوى فيه ، فتواصلوا على الجحود والإنكار ، فلم يكن تواصلهم على الحق ، ولكن كان على الباطل .

ثالثها . . . أن أشدهم عناداً كان أقربهم إيماناً إذا قرأ القرآن صفى قلبه إلى الإيمان ، وإلى الاستجابة لداعيه ، فقد سمع أبو ذر الغفاري القرآن ، فآمن ، وسمعه أخوه أنيس ، فأذعن لعلو بلاغته عن مستوى البشر ، وسمعه جبير بن مطعم فآمن ، وقرأه عمر بن الخطاب ، فانمط قلبه من الشرك وطغيانه ، إلى الإيمان ، وأن يكون فاروق الإسلام الذي كان إيمانه فارقاً بين الاستخفاء والإعلان ، بين ظهور الحق وخفوته .

إن هذه الأمور التي اقترنت بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله دلت على أمرين بدهيين :

أولهما أن الأساس في عجزهم هو ما فيه من بلاغة وورنة قول ، ونعمة بيان أدركوها بذوقهم الياني ، وهم الذين يذوقون بأسماعهم ، كما يذوق الطعام بضمه ، وأنه لم يكن عجزهم سلبياً ، بل كان من كثيرين منهم إيجابياً يتبعه العمل ويقترن بالإيمان بأنه من عنده الله تعالى أى أن وجه الإعجاز فيه أمر ذاتي فيه ، وليس منعاً سلبياً .

الأمر الثاني الذي تدل عليه هذه الأمور التي اقترنت بالعجز عن محاكاته ، هو أن القرآن مع بيانه العالى الذى لا يعالى ، فيه من العلوم ما لم يكونوا يعرفونه ، فيه الشرائع المحكمة التي تنظم العلاقات بين الأحاد الأقربين . وغيرهم ، فيه علم الميراث ، وفيه علم الأحكام المختصة بالأسر ، وفيه بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيه توجيه النظر إلى الكون وما يشتمل عليه ، وفيه من حقائق ما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى أحاط بكل شيء علماً .

وفيه القصص والعبرة ، وما كانوا يعلمون شيئاً من ذلك من قبله ، فيه قصة
أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وقصة بناء الكعبة . إذ يرفع إبراهيم
القواعد من البيت وإسماعيل ، وفيه أنبياء البلاد العربية التي تعلن آثار
الأقوام وما أنزله الله تعالى بهم ، وفيه قصة موسى عليه السلام ، وفيه قصة
مريم ، وتربيتها ، وكيف اختصموا في كفالتها ، وكيف يستخدمون القرعة
بالسهام لتسكون كفاليتها لمن تسكون السهام له : وما كنت لديهم ، إذ يلقون
أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، إذ يختصمون^(١) .
قرءوا ذلك وسمعه ، فكان العجز لهذه الأمور الذاتية ، لا لأمور
أخرى ليست من القرآن .

الصرفة

٣٢ — عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا
عجزهم بما استوعب ما فيه من حلارة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب .
وعمق ما اشتمل حتى إنه مغدق في جذوره كلما تكشف القارىء عن عمقه
رأى ما لا يصل إليه البشر ، وكلما اتجه إلى أعلاه وجد ثمراً شهيماً .
هذا أمر ظاهر ، ولكن الفلسفة التي تسيطر على عقول بعض الناس ،
ولا تسكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها إلى كل ما يرونه بديئاً في التفكير
سواء أكان متصلاً بالحق المجرد أم لم يكن متصلاً ، وسواء أكان متفقاً مع
الإيمان والواقع أم لم يكن ، بل إن المتفلسفين ربما اتجهوا إلى الفسكرة ،
لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وإبطال
الباطل ، ولكن للترف العقلي لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان ، وأمر
لا صلة له بالإيمان .

وإن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة في

كتابهم « الفيدا » ، وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علماءهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأنه يراها صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .
يقول فى ذلك أبو الريحان^(١) البيرونى فى كتابه « مالمهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة ما نصه :

« إن خاصتهم يقولون إن فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها . »

ولم يبين البيرونى وجه المنع أهو منع تكليفى يسبقه الإيمان بهذه الكتب وتكون دلالة وجوب الإيمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكويينى بمعنى أن برهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ، والأخير هو الظاهر لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علماءهم ، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديه .

٣٣ - وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر^(٢) المنصور ، ومن والاه من حكام بنى العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار وبركنون إلى الاستغراب فى أفوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وإن كان لا ينطبق ، فقال قائلهم ، إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله وإن رواج تلك الفكرة يودى إلى أمرين : أولهما - أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز القدر البشرية عن أن تأتي بمثله فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية
وثانيهما - الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه شئ فى بلاغته ، أو فى معانيه .

(١) توفى سنة : ٤٣٠ هـ (٢) توفى خلفاء بنى العباس توفى سنة ١٥٦ هـ

وإن مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها بل وجد من يقوله من بين الذين أنكروا الرأى فى الفقه ، وهو مع جموده فى الفقه ، من أبلغ الكتاب والشعراء .

ولنترك الكلمة للباقلانى المتوفى سنة ٥٠٣ هـ . فى كتابه إعجاز القرآن ، قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .

« فإن قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ، وهلا قلتم إن من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وإنما يصفه الله عنه ضرب من الصرف ، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرب من المنع ، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراه الله تعالى من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجّة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والصورة^(١) ،

ونرى من هذا أن القائلين بهذا القول يشككون فى مرتبة القرآن وكونه من عند الله تعالى من غير أن يقدموا دليلاً ، بل إن القصد الذى يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد فى علو البلاغة القرآنية ، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدون من توهين ثم دعوى بأنه من صنع محمد عليه السلام وهكذا يسير الخط من احتمالات تنافى الواقع إلى توهين لأمر القرآن ، إلى ادعاء أنه ليس من عند الله .

٣٤ - وإن القول بالصرفة ثبت أول نبت فى رواق الفلاسفة الكلامية ،

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤١ ، طبع المعارف .

قاله شيخ من شيوخهم . وهو إبراهيم بن سيار الشهير بالنظام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، فهو أول من جاهر به ، وأعلمته ودعا إليه ، ولا حتى عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول إنه أول من جهر به ، ولا نقول إنه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفيكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ، ويجاهر بها .

جاهر بها ، وكان ذا فصيح وبيان وحجة وبرهان ، وإن لم يكن مستقيم الفكر بل إنه يظن الظن ، فيحسبه يقيناً ثم يبنى عليه ويقايس ، ويصحح القياس ، والتتظير بين الأشياء ، بينما الأصل ذاته يحتاج إلى قياس صحيح . ولقد نقده تلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذي كان معجباً بشخصه ، غير آخذ برأيه ، وقال فيه ذاكرة عيبه ، فقال :

إنما عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر ، والسابق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس المنس تصحيح الأصل الذي قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكأن كلامه خرج مخرج الشهادة القاطعة فلم يشك السامع أنه إنما حكاه عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرتة .

لم يوافق التلميذ أستاذه ، لم يوافق الجاحظ شيخ الكتاب المسلمين ، وأكبر ناقد بين الناقدين شيخه ، وإذا كان إبراهيم بن سيار قد اشتهر بالبيان ، وسرعة الجواب ، ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بأنه ذواق الكلام وصير في البيان ، فإن خالف من يتسرع في الخبر ، ويبنى عليه ، فهي مخالفة الخبير العارف بتصريف القول ، وأفانين التعبير والتفكير .
(٦٢ - المعجزة الكبرى)

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المحاور، ولكنه كان بالعمل، فقد كان أول من كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية، ليكون الرد على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتي .

ولقد أشار إلى رد الجاحظ الذين كتبوا في الإعجاز ومنهم الباقلاني، ومن نسب إليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة، وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلّمهم العلوم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله، ومؤدى كلامه أنهم أتوا المقدر على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة، فهم قادرون على النظم، والعبارة، ولكن ليست عندهم المقدر بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه .

وإن هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملاً على ما في القرآن من علم، واقتصر على التحدى بالنظم والعبارة واللفظ .

فـهذا القول نوع من الصرفة، ونفي للإعجاز الذاتي، ويختلف مع ما اشتمل عليه القرآن .

ومن قالوا بالصرفة الفقيه البليغ العنيف المتشدد ابن حزم^(١) الأندلسي، فقد قال في كتاب الفصل في سبب الإعجاز: «لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى، وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته، ثم قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره .

وإن ذلك الكلام يبدو باديء الرأي غريباً من ابن حزم، ولكن المتأمل فيه يجده سائراً على مذهبه في نفي الرأي . والحكم بظاهر القول من غير تعليل، فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التي علت عن طاقة العرب، والتي جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراه

(١) توفى سنة ٤٥٦ هـ .

ولا جدال يعد تعليلًا ، وهو من باب الرأي الذي ينفيه ، والتعليل الذي يجافيه ، فلا بد أن يبحث عن سبب غير ما ذكر الله تعالى .

٣٤ - وإننا نرى أنه بعد كلام النظام صارت فكرة الإعجاز بالصرفه مجال اختلاف بين العلماء ما بين مقرر لها وما بين مستنكر . وقد آن لنا أن نبين بطلان هذه الفكرة من أساسها ، وإن دلائل البطلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة .

(أ) منها ، ما ذكرنا من قبل أن العرب عندما تلقوا القرآن راعهم بيبانه ، وأنار إعجابهم أسلوبه وعباراته ، وقالوا ما رأينا مثله شعراً ولا نثرًا ، فكان العجز لذاته ، لا لشيء خارج عنه ، وما لنا نفترض ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، وما لم يقدرُوا ، إلا أن يكون ذلك تمويهًا ، وإنكارًا للواقع المستقر ، بفرض وهمي .

(ب) وأيضاً فإنه لو كان العجز لأمر خارجي لا لأمر ذاتي فيه بأن تكون عندهم القدرة على أن يأتيوا بمثله ولكن صرفوا ، فإن ذلك يقتضى أن يثبت أولاً أنهم قادرون على مثله ، وهم أولاً قد نفوا ذلك عن قدرهم ، وليس لنا أن نفرض لهم قدرة قد نفوها عن أنفسهم ، ولو كانوا قادرين لكان من كلامهم قبل نزول القرآن عليهم ما يكون متماثلاً في نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية في شعر أو نثر ، ولكن المتعجب للمأثورات العربية ، في الجاهلية والإسلام لا يجد فيها ما يقارب القرآن في ألفاظه أو معانيه أو صورته البيانية .

ولذا لجأ الباقلاني^(١) في كتابه إعجاز القرآن إلى الموازنة بين القرآن ، وبين المعروف من أبلغ الكلام في الجاهلية ، ويقول في ذلك ولو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وعجيب التأليف ، لأنهم لم يتحدوا به ، ولم تلزمهم حجته ، فإذا لم يوجد في كلام قبله مثله علم أنه ما ادعاه القائل بالصرفه ظاهر البطلان ... ،

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ .

(ج) وإنما لو قلنا إن الذي منع العرب من الإتيان بمثله هو الصرفه ما كان القرآن هو المعجز ، إنما يكون العجز منهم ، ولم يكونوا عاجزين ، وإنما يكونون قد أعجزهم الله ، ولم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقول بالصرفه ينفي عنه خواص الإعجاز .

وإن معجزات النبيين السابقين ما كان في طاقة الناس أن يأتوا بمثلها في ذاتها ، ولم يكن بصرف الناس أن يأتوا بمثلها ، فمعجزة العصا ، وتسع الآيات التي لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ولكن بالعجز الحقيقي . فلماذا لا تكون معجزة النبي محمد عليه السلام كسائر المعجزات ، وهي أجل وأعظم .

(د) وإن الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لاتصل إليها معجزات أخرى، فكانت هذه توجب أن يكون لإعجازه ذاتياً. ولقد قال تعالت كلماته : « ولو أن قرآننا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً ، (١) .

ويقول جل من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فإله من هاد ، (٢) .

وإذا كان القرآن بهذه الأوصاف التي وصفه بها منزله سبحانه وتعالى ، أفيقال بعد ذلك إن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ اللهم إن ذلك بهتان عظيم .

(هـ) وإن مثل الذين يقولون إن إعجاز القرآن بالصرفه كمثل الذين قالوا إن القرآن سحر يؤثر .

وقد أثبت ذلك الرافعي في كتابه إعجاز القرآن ، فقال : وعلى الجملة فإن القول بالصرقة لا يختلف عن قول العرب إن هذا إلا سحر يؤثر ، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى ، وأفسح هذا أم أتم لا تبصرون ، (١) .

وإن التشابه بين القول بالصرقة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة في كليهما من خارج الشيء لا من ذاته فالقول بالصرقة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين ، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر في السحر يشدهم ، حتى يعجزوا .

ولقد سبق أن علل المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير بأنه سحر يؤثر :

قال تعالت كلماته في شأن الوليد بن المغيرة : ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا وممدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لا يأتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، (٢) .

هذا ما وصل إليه الوليد بن المغيرة بعد أن قدر ودبر في ملأ من قومه ، يجيء كاتب متفلسف فيأتي بهذا القول من غير تقدير ولا تدبير .

٣٥ - ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة ، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الله الحكيم ، قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير ، وكما يقول المثل السائر رب ضارة نافعة ، فقد تولد عن

(١) الطور : ١٥

(٢) المدثر : ١١ - ٢٥

هذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ في تلاوة آية ، علم النحو ، تولدت علوم البلاغة العربية . وإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن ، ومحاولة لبيان إعجازه .

وإن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القول بالصرفة ، بين نفي وإثبات كما أشرنا ، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ ، تلميذ النظام ، الذي أنكر عليه قوله ، وعابه في منهاجه الفكري من أنه يظن الظن ، ثم يجعله أصلاً يجرى عليه القياس مصححاً لقياسه بالمنطق ، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه ، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقد كتب في ذلك كتابه النظم ، وقد عابه الباقلاني ، ليدفع بذلك التسليم له بالسبق ، ولأنه معتزلي . ولكن الجاحظ في كتابات له كثيرة غير كتابه النظم ، كان يذكر مواضع من إعجاز القرآن في آيات يتعرض للقول فيها ، ليبين مقامها من البيان ، فهو في كتاب الحيوان يذكر أنه جمع آيات من القرآن يعرف مقامها في البيان ، فهو يقول : « ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن ليعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز واجمع للمعاني الكثيرة ، والألفاظ القليلة ، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون »^(١) وهاتان الكلمتان جمعتهما عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « لا مقطوعة ولا ممنوعة »^(٢) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني .

وهذا الكتاب الذي أشار إليه لم يكشف في التراث الإسلامي ، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الإعجاز ، كلما لمع بريق الإعجاز في آياته .

ولكن التعصب المذهبي يستهين بكلام الجاحظ في إعجاز القرآن بل لأنه يتعامل عليه في كتابته كلها فيقول في ذلك الباقلاني الأشعري عن الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة : « كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه ، والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيياً ، ونطاق قوله ضيقاً ، حتى يستهين بكلام غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر أو مثل نادر ، وحكمة ممددة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك ، فسطور قليلة والفاظ يسيرة . . . فإذا أردت أن تحقق ذلك فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي الرد على النصارى وفي خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى ، (١) .

ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذي كان رداً عملياً على كلام النظام الذي أدخله من الهند ، وهو مذهب الصرفة جاء بعده أول كلام واجه الصرفة في إعجاز القرآن ، وهو كتاب إعجاز القرآن لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية أي بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة ، وهو صورة المجاورة التي كانت دفعا لمذهب الصرفة الذي بلبل الأفسكار ، وكان بين ممانعة من الأكثرين ، ومجاورة من القلة ، حتى صارت نادرة ، وحتى طواه التاريخ وهو في هذا قد طرق باب البلاغة طرقات قويا ، وأصل الأصول المشتقة من كلام العرب ونظمها وطبقها على القرآن ، وثبت من التطبيق أنه أعلاها .

وهذا الكتاب يعد أصلاً بني عليه ، فقد شرحه عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في شرحاً مطولاً ، وأودع ذلك الشرح كتاباً سماه المعتضد ، وله شرح آخر أصغر منه .

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧٧ .

وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجيء بعده ، فالواسطى أكمل البناء الذى وضعه الجاحظ ، أو بنى عليه ، وترك لغيره أن يكمل البناء .

وجاء عبد القاهر الجرجاني فبنى على ما وضع الواسطى ، وكان كتابه دلائل الإعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطى .

وفى الزمن الذى سار فيه الجاحظ والواسطى من بعده ، والجرجاني من بعدهما ، وانتهى إلى تلك الثروة المثرية فى باب الإعجاز البلاغى للقرآن ، كانت هناك محاولة أخرى ، فى طريق مواز لذلك الطريق .

فقد وضع أبو عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٢هـ كتابه فى الإعجاز ، فوضع بناء ثالثاً ، غير بناء الجاحظ والواسطى ثم جاء الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ فوضع كتابه إعجاز القرآن ، ويلاحظ أن تاريخه سابق على دلائل الإعجاز ، وأحسب أن من الحق علينا أن نقول إن دلائل الإعجاز ، لم يبن على الواسطى فقط ، بل إنه أخذ من كل الينابيع التى سبقته وإن القارىء له يجد فيه كل مزايا من سبقه ، وفيه زيادة جديدة بالأخذ ، بل أساس لعلوم البلاغة كلها مستمدة من القرآن ، ووضحة لأوجه البلاغة فيه أولاً ، وعلوه على كل كلام ثانياً ، ثم فيه وضع مقاييس ضابطة لكل كلام بليغ ثالثاً .

فكتاب الباقلانى ، قد تعرض للإعجاز بالمواجهة ابتداء ، ولم يسق علم البلاغة ، ابتداء ، ثم يتعرض للإعجاز انتهاء ولكنه جعل الأصل فى الكلام الإعجاز ، ثم البلاغة تابعة له تبعية الدليل للدلول ، والبرهان للدعوى ، والمقدمة للنتيجة .

ويلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يشر إلى ما سبقه إلا الجاحظ . فقد أشار إليه إشارة لا تكريم فيها ، ولكن فيها استهجان واستصغار لما كتبه ، ولم يشر أى إشارة إلى ما كتبه الواسطى ، وما كتبه الرمانى ، وقد سبقاه

وكان ثانيهما على مقربة من زمانه ، مع أنه أخذ من الرمانى قطعاً ولم يذكر اسمه .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لمن سبقوه في القول ، وإهمال ذكرهم ، فهو الكتاب الذى اختص بأن يكون فى الإعجاز ابتداءً ، كما أشرنا ، وقد وفى فيه بأهميات المسائل .

ويقول فيه الرافعى المتوفى سنة ١٩٣٧ م فى كتابه إعجاز القرآن د على أن كتاب الباقلانى ، وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هدبه وصفاه ، وتصنع له ، إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأفف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ ، لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا ... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ، ذهبت بأكثره ، وغمرت جملمته ، وعدّها فى محاسنه ، وهى من عيوبه ثم يقول : « وكان الباقلانى ، رحمه الله وأثابه ، واسع الحيلة فى العبارة مبسوط اللسان إلى مدى بعيد ؛ يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ . ، ومذهب مقلده ؛ على بعد وتمكن ؛ وحسن تصرف ، فجاء كتابه ؛ وكأنه فى غير ما وضع له لما فيه من الإغراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة ؛ والاستراحة إلى النقل ، .

والرافعى بهذا ينقد الباقلانى ، ويصفه بمثل ما وصف هو به الجاحظ . ومن حق العلم على العالم ألا يتنقص غيره ؛ وأن يعرف اللاحق ؛ أنه متمم لما بدأ السابق ؛ غير ناكر لفضل ، ولا باخس لحظ .

وهكذا فى عصر الباقلانى ومن بعده ؛ حتى كان آخرها تأليفاً من حيث القيمة العلمية ، والدرجة البيانية كتاب إعجاز القرآن للرافعى رحمه الله تعالى ؛ وأثابه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

وجوه الإعجاز

٣٧ - نقصد بوجوه الإعجاز الأمور التي اشتمل عليها القرآن ، وهي تدل على أنه من عند الله ، وما كان في استطاعة أحد أن يأتي ، بمثله ، وما كان في استطاعة الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، ولنتجه إلى أقوال العلماء في هذه الوجوه ؛ ثم نتجه بعد ذلك إلى بيان ما نقصد إلى بيانه من بحثنا هذا الذي نضرع إلى الله أن يمن علينا بالتوفيق فيه كما من علينا من قبل ، فنحن نعيش فيما نكتب ونبحث تحت فيض الله تعالى وتوفيقه ، ولولا توفيقه سبحانه وتعالى ما وصلنا إلى شيء !

يعد صاحب الشفاء أوجه الإعجاز في القرآن فيحصرها في أربعة :
أولها - حسن تأليفه ؛ والتتام كله وفصاحته وبلاغته الخارقة لما عند العرب ..

وثانيها - صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ، ووقفته عند مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة منه .

وثالثها - ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين^(١) » ، وكقوله : « غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين^(٢) . إلى آخر ذلك من الأمور المغيبة التي أخبر القرآن عنها قبل وقوعها ، ف وقعت كما أخبر .

(١) الفتح : ٢٧ .

(٢) الروم : ٢ - ٣ .

ورابعها — ما أخبر به من أخبار القرون والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ، ما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نضه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله عليه السلام لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا اشتغل بمدارسه .

هذا ما ذكره القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى وجوه الإعجاز ، ونجد الأمرين الأولين يتعلقان بالناحية البيانية فى القرآن وإن كان أولهما يتعلق بتأليف كلماته ، وتناسقها مع فصاحتها وسلامتها وخلوها من الحوشى ، والثانى بصورة النظم ومع تخالف حقيقةتهما نجد كلا منهما ينتهى إلى الناحية البيانية .

أما الأمران الآخريان ، فإنهما يتعلقان بصدق الأخبار التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، بيد أن الأول يتعلق بالإخبار عن الغيب فى المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، والثانى يتعلق بالإخبار عن الماضى .

٣٨ — وذكر القرطبي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ فى تفسيره أن أوجه إعجاز القرآن عشرة .

١ — منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيرهم لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء ، ولذلك قال رب العزة . وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، (١) .

٢ — ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ — ومنها الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك فى سورة دق والقرآن المجيد إلى آخرها ، (٢) .

وقوله تعالى: د والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة (١) إلى آخر السورة وقد ضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة .

وهذه الأمور الثلاثة كما نقل القرطبي عن ابن الحصار من النظم والجزالة لازمة في كل سورة بعيدة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز .

٤ - ومنها التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منها الاتفاق على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابتها في وضع كل كلمة وكل حرف في موضعه (باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب ، أو لغاتهم) .

٥ - ومنها الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ، ما كان يتلوم قبله من كتاب ، ولا يخطه يمينه ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أمها ، والقرون الخالية في دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهم السلام ، وحال ذى القرنين في إمامهم وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وليس له بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته قال القاضى ابن الطيب (٢) ونحن نعلم ضرورة أن هذا بما لا سبيل إليه إلا عن العلم وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا متردداً إلى المتعلم منهم ، وما كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه - علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي .

٦ - ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم إلى أخباره المطلقة كوعد الله بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوا والقسم الثانى وعد مقيد بشرط . كقوله تعالى د ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٣) .

(١) الزمر : ٦٧ .

(٢) التوفى سنة ٥٤٣ هـ .

(٣) الطلاق : ٣ .

٧ - ومنها الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطالع عليها إلا بالوحي ، فمن ذلك ما وعد الله به نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على كل الأديان ، بقوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، (١) ففعل ذلك .

٨ - ومنها ما تضمنته القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام وسائر الأحكام .

٩ - ومنها الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

١٠ - ومنها التناسب في جميع ما تضمنته ظاهره أو باطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٢) . بعد أن ذكر القرطبي هذه العشرة قال :

« قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماءنا رحمة الله تعالى عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية إن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، ذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن الإجماع قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن كذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً

٣٨ - ومن هذا نرى أن القرطبي قد أتى بوجوه كثيرة عدها من إعجاز القرآن ، وقد ذكر عشرة ، وإنه لكي يكون استقراؤه كاملاً لا نقص فيه أتى بالصفة ، وعدها وجهاً من الوجوه عند بعضهم ، وقد ردناها كما ردها هو ، واتمى إلى أن إعجاز القرآن ذاتي ، وليس من أمر خارج . وأقننا كما أقام الدليل على ذلك ، بما لا يجعل موضعاً لهذا القول ، وبيننا مصدرها الهندي ، وأنها فكرة دخيلة على المسلمين ، والحقائق تخالفها ، والوقائع تجافيها .

ولكن يجب أن يلاحظ فيما أحصاه القرطبي ، والقاضي عياض أمران :

١ - أولهما - أن الأقسام التي ذكرها يتداخل بعضها في بعض ، أو أنهما جملاً ما يتعلق بالنظم جزءاً منه خاصاً بفصاحة القول وجزءاً يتعلق بالنظم وجزءاً يتعلق بالأسلوب ، وجزءاً يتعلق بالجزالة ، وجزءاً يتعلق بالتصرف في القول وكل ذلك يتعلق بالمنهج البياني القرآني ، وهذه الكلمة تجمع تلك الأقسام كلها ، فلا تخرج من عمومها خارجة .

والأمر الثاني - أن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم ، فقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله ولو عشر سور مفتريات والوجوه الأخرى لم يتحد بها القرآن الكريم ، وإن كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم ، مثل إخباره عن أمور مغيبية في المستقبل ، ثم وقوعها ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه .

وإخباره عن الأمم السابقة ، وإخباره عن شأن عبد الله الصالح مع موسى نبي الله تعالى عليه وعلى نبيينا أفضل الصلاة وآتم التسليم ، ومثل قصة أهل الكهف ، وذى القرنين ، فذكر هذا في القرآن الذي نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن ، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل هي من عند الله .

وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجلات^(١) الإسلامية ، بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكّمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة ، وهي في أحكامها ، لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى .

وكتبنا بحثاً وازناً فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة ، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ، ومع ذلك هو في الملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشية وسيف بتسار ، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى .

والأوروبيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ، ونحن لهذا نقرر أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله سبحانه وتعالى العليم الخبير .

ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولو مفترى ، فكان التحدى للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن ، وهو الذي استرعى ألبابهم . ولعله لم تكن بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما في أحكام القرآن من تنظيم سليم للمجتمع ، فيه المصلحة الإنسانية العالية التي تلو على تفكير البشر ، وإن كان فيهم ذوق بياني يذوقون به الألفاظ الفخمة القوية

(١) مجلة « المسلمون » ومجلس الشؤون الإسلامية هو الذي جمع هذه البحوث ؛ وترجمها

إلى الإنجليزية والفرنسية .

في ريفنها ، المصورة للدعاني في أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ، ومرامى عباراتها ، ويدركون في ذلك المعنى السليم من غير إجهاد فيدركون ما هو جيد المعنى في ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة قانونية أو عقلية أو كونية ، وفي القرآن ما يرضيهم ويملا نفوسهم ، ويعجزون عن أن يأتوا بمثله .

وإن القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة ، وهو يخاطب الأجيال كلها ، والأجناس كلها العرب والعجم ، والبيض والاسود والأحمر والأصفر ، فليس ما فيه من الإعجاز خاصاً بالعرب ، وإنما إعجازه يعم الجنس البشري كله لأنه يخاطب الجميع ، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه . وفيه البيئات المتبته لكل جنس .

وعلى ذلك نقسم وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن إلى قسمين : أولها : ما يتعلق بالمنهاج البياني ؛ وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب ، لما ذكرنا في صدر كلامنا من أنه جاء بلغتهم ، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم ، ومع وجود نبوات سابقة فيهم أبت بعض العلم ، وبمقتضى ثقافتهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس إدراكا لمعنى الإعجاز في القرآن من ناحية بيانه ، ونعمه ، وجزالته وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولاً به ، وبعجزهم قام البرهان الأول .

القسم الثاني : الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبله ، وقعت كما ذكر ، واشتاله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أتى بها القرآن ، وتقررت حقائقها من بعد وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة ، وإن هذا النوع معجزة للأجيال كلها ، وهو يحتاج في بيانه إلى مجلدات ضخام ، ولذلك نتجه ابتداء إلى القسم الخاص بالبلاغة ، وهو الأول .

الإعجاز البلاغي

٣٩ - أخذنا أولاً من أسباب الإعجاز ذلك السبب ، لأنه الواضح بالنسبة للعرب ، ولأنه هو الذى شده به العرب عند أول نزوله خيرهم ، وهم المدركون لأساليبه ، العارفون لمنهجهم ، الذين يذوقون القول بأسماعهم ، ويدركونه بعقولهم ، ويعرفون مواضع الكمال ، ومواضع النقص فى كل ما يسمعون من شعر ، حتى إنهم يتجهون إلى مواضع الحسن ، والمآخذ التى تؤخذ بلفظة فطروا عليها ، ولباقة عرفوا بها .

ولنسق لك مثلاً من تقدم ، فلقد عرض بيتان فى سوق عكاظ على الخنساء لحسان بن ثابت رضى الله عنهما ، فلمحت بقوة الملاحظة الناقدة ما فىهما من عيوب تخفى إلا على من يذوق الكلام ذوقاً ، ويدرك معانيه وألفاظه بأرب وفكر مستقيم .
قال حسان رضى الله عنه :

لنا الجففات الغر يلعن بالضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا ، وأكرم بنا ابنا
فقات الخنساء ضعفت افتخارك ، وأنزرته فى ثمانية مواضع ، قالت :
قلت لنا الجففات ، والجففات ما دون العشر ولو قلت الجفان لكان أكثر ،
وقلت : الغر ، والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض ، لكان أكثر
اتساعاً . وقلت يلعن ، واللمعان شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قات : يشرقن
لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت بالضحى ، ولو قات
بالدجى ، لكان أبلغ فى المدح ، لأن الضيف أكثر طروقاً بالليل ، وقلت
أسيفنا ، والأسيف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر ، وقلت
يقطرن ، فدلت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب
(م ٧ المعجزة الكبرى)

الدم ، وقلت دما ، والدماء أكثر من الدم ، وغفرت بمن ولدت . ولم تفتخر
بمن ولدوك اه (١).

سقتنا ذلك الخبز ، وهو صورة لما كان عليه الذوق البياني ، وإن كان
هنالك شك في روايته ، فإنه يدل على أن روح النقد بالذوق المرفه كان
مشهوراً بين العرب وكثيراً .

وأذكر أن نقاد العرب كانوا يستنكرون بيت امرئ القيس الذي
يقول فيه في معلقته :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعلى

فقد قالوا إن البيت لا يصدر من عاشق برح به الحب ، وأحس بلطف
العشق ، وقالوا إن الغانية إذا لم تغتر بالحب فقيم تغتر ، كأنه يقول لها إن
كنت مغرورة بجي فإني تاركك ، وهكذا ، وما ذلك شأن الحب الملهج .

• ع — هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت أسماعهم ، وألسنتهم على
القول البليغ وإدراك مراميه يستوى في ذلك أهل المدر ، وأهل الوبر ،
فأهل الوبر استفرغوا ذكاهم في تعرف الكلام البليغ ، والترنم بالشعر
وجزه وقصيده ولم يكن عندهم ما يزجون فيه وقتهم إلا سماع الكلام الطيب ،
وتريده ، وروايته ونقله ، يرطبون به ألسنتهم في حلهم وترحالهم ،
وانتجاعهم إلى مواطن الكلام ، وينابيع المياه ، قد صفت نفوسهم صفاء السماء
التي تظلمهم مع قوة الشكيمة التي اكتسبوها من وعورة الصحراء ولأوائها ،
وقسوة الحياة وغلظتها ، ومع الرضا والقناعة التي اتسمت بها النفس العربية .
وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويثرب ، وقد كانوا
قوماً تجراً ، من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية ، قد كانت القبائل تجيء

لإيهامهم، أو يلتقون بهم في مواسم الحج وأسواقه التي كانت تعقد لتبادل السلع، وتبادل الفكر، والسكلم المحكم، ويكون التبارى بين الشعراء والخطباء وكانت مكة، وما حولها تشبه بعض الحدائق العامة في البلاد الأوربية تلتقى فيها الخطب، ويتبارى فيها المتكلمون وحسبك أن تعلم أن قس بن ساعدة الإيادى ألقى خطبته التي ذكر فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عكاظ في موسم الحج .

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تقع من نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم، والقصيدة الطويلة فتهمزهم، وكان حداؤهم لإبلهم رجزاً، وتدليلهم لأبنائهم أماطاً من البيان، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن فأروا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل، فأنجذبوا إليه، وأقروا بتأثيره، ولم يستطيعوا أن يماروا فيه، بل خروا صاغرين أمام بلاغته، معترفين بأنه يسمو على قدرهم، ويعلو على طاقتهم، كنفروا بما يدعو إليه، ولم ينكروا تأثيره، لاحوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في دعواته إلى التوحيد، وتमारوا فيه، مع بداهته، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن، ولما دبروا وقدروا في أمره، قالوا إنه سحر يؤثر وذلك يتضمن الإقرار باستيلائه على نفوسهم وعلوه على كلامهم، وإن كان من نوعه، وسمو معانيه، وإن كانت حروفه في صياغة من حروفهم، وكلماتهم .

وجوه الإعجاز البلاغى

٤١ - إن كل شيء في القرآن معجز من حيث قوة الموسيقى في حروفه، وتأخيرها في كلماته، وتلاقى الكلمات في عباراته ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كل كلمة لفقا مع أختها، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته، ونوح غايته، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن الألفاظ قطعت لها، وسويت على حجمها .

ثم هو الذى يدركه كل ذى قوة فكرية بمقدار إدراكه والمعنى صحيح فى كل إدراك صحيح ، وفى كل ذى طاقة سليم ، بلا تخالف ، يسمعه المؤمن فيقر به ، ويؤمن بما جاء فيه ، ويسمعه المخالف ، فيدرك الحق من ثنايا كلماته ومعانيه إن أخلص فى جانب الحق ، وإن لم يؤمن فإنه يدرك ما فى القرآن من خواص لا يصل إليها كلام كائنات من كان قائله .

جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : وحكى أن عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يوماً نائماً فى المسجد فإذا هو برجل قائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أمرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها ، فإذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهى ، ومن يطع الله ورسوله ، ويمشئ الله ويتقته الآية ،^(١) وحكى الأصمى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافي ولا تحزنى إنا رادوه إليك ، وجعلوه من المرسلين » ،^(٢) لجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين . فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق ،^(٣) .

وهكذا نرى كل إعجاز القرآن من نواح شتى ، ربما تعز على الاستقراء ، فى موسيقاه لا يسه سامعه إلا أن يصغى بقلبه ، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ثم يذهب إليه المتفقون فرادى ، فيلتقون جماعة .

(١) النور : ٥٢ (٢) القصص : ٧

(٣) الشفاء للقاضى عياض ج ١ ص ١٦٩ .

ولقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع ، حتى من لا يفهم العربية ، فإن لكلماته ونظمه ، ومداه وغننه ، ونهاية فواصله ، ووقفه - ما يسترعى من لا يفهم العربية ، وإذا كان لا يفهم معنى الكلمات ، فإن النغم يعطيه صوراً رائعة .

وإن كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية رائعة تصور المعاني كالصورة الكاملة في تصويرها ، التي تتكون أجزاءها من صور ، وتتجمع من الصور صورة متناسقة .

وإنه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتي بكل وجوه الإعجاز البياني ولكنه يقارب ولا يباعد .

ولنذكر ستة وجوه تتكلم فيها عسانا نصل إلى تقريب معاني الإعجاز من غير حد ولا استقرار كامل وهي :

- ١ - الألفاظ والحروف
- ٢ - الأسلوب ، وما يكون من صور بيانية .
- ٣ - التصريف في القول والمعاني .
- ٤ - النظم وفواصل الكلم .
- ٥ - الإعجاز المعجز والحكم والأمثال والإخبار عن الغيب .
- ٦ - جدل القرآن .

١ - ألفاظ القرآن وحروفه

٤٢ - قبل أن نخوض فيما اختصت به ألفاظ القرآن من جمال ودقة وإحكام، وما اشتملت كل كلمة مع أخواتها وجاراتها من صور بيانية لكل واحدة مفردة، ثم ما اشتملت عليه مجتمعة من معنى ذلك، نذكر أن العلماء اختلفوا قديماً وامتد خلافهم إلى المتأخرين تكلموا واختلفوا في أساس الفصاحة أو البلاغة، وهما غير مختلفين في الماصدق، وإن اختلفوا في التعريف اللفظي لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة.

قال بعض علماء البيان وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٥٤٧١هـ. إن اللفظ والحروف ليس لهما أثر في كون الكلام بليغاً أو غير بليغ، إنما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده، إنما تساوق المعاني وتلاقى الألفاظ وتأخيها في تكوين هذا المعنى المؤثر، فيقول رضى الله عنه في كتابه دلائل الإعجاز ما نصه:

ديبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخباراً وأمرأ ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي مرسومة به ثم يقول رضى الله عنه.

هل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقمان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن وهل نجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملامة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافها فاققة ونابية وهستكرهة إلا

وغير ضميم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناه ، وبالعلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأرى لم تلتق بالثانية في معناها ، وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها . وهل أشك إذا فكرت في قوله تعالى : دوقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء ألقى ، وغيض السماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين^(١) ، فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلام ببعضه ببعض ، وإنه لم يعرض لها الشرف إلا من حيث لاقت الأرى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا إلى أن تستقرها إلى آخرها ، وأن الفضل نتاج ما بينها ، وحصل من مجموعها . . إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت أدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ، وابلعى ، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها ، وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . . . ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الآية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت . ثم كان النداء بيا دون أى . . ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء . . . إلى آخر ما قال :

ويستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها أن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، ولو كانت الكلمة إذا حسنت كان حسنها من ذاتها ، لاستحسنتم دائماً ، وما استهجنتم أبداً . وينتهى من هذا إلى أن جمال الكلام ليس فى توالى ألفاظه فى النطق ، بل إن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل . ويسترسل الجرجانى فى إثبات أن الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية ، إنما بلاغتها فى اجتماعها مع غيرها فى تلاقى المعانى ، وأنه ليس للألفاظ

واللحروف حسن ذاتي منفرد، ولا قبح ذاتي منفرد، إنما حسنها في تلاقيها مع أخواتها في الدلالة وقساق المعاني وما تنتج من صور بيانية، ومراتب أهل البيان في مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتأخية في معانيها، ويفهم من كلامه أن النظم لا يلتفت إليه وحده إنما يلتفت إلى معانيه أيضاً وأنه يريد من النظم الكلمات لأذات الكلام كله برنائه القوية، أو الهدنة التي تناسب في النفس، وتتغلغل فيها حتى تصل إلى أعماقها.

٤٣ — هذا رأى الجرجاني، وله مقامه، يقصر البلاغة والفصاحة، على الأسلوب وبمجموع العبارات التي تتضافر في الدلالة على معان متأخية، وتتأخى الألفاظ في الدلالة على هذه المعاني.

وهناك فريق آخر، ومن هؤلاء الجاحظ يرون للحروف، وللشكلمات فصاحة، عندما تتلام حروفها ولا تتجاف مخارجها ولا يكون فيها تكرار فلا فصاحة في مثل ما رواه الجاحظ.

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فإن تكرار الحروف جعلها غير متلائمة، وغير سهلة في النطق.

وقد عقد ابن الأثير في كتابه المثل السائر فصلاً فيما ذكر فيه فصاحة الكلمات، وقبحها في ريفها وفي تأخى حروفها وقال إن من الكلمات ماله نعمة أوتار، ومنها ماله صوت حمار، وضرب على ذلك الأمثال، فقال إن كلمة السيف لها مرادف، وهو الخنثليل، فهل هما متماثلتان في الفصاحة والنغمة الصوتية، ومثل كلمة غصن، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن، فهل هما متماثلتان في النغمة وسهولة النطق.

ويبدو من كتاب إيجاز القرآن للباقلاني أنه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة، وأن تخييرها يدل على قدرة قائلها، وعلو بيانه، فإذا كانت المعاني البلاغية بجملة القول، ففي اختيار الألفاظ المتناسبة في موسيقاها، وفي

نعمتها وفي ربتها قوية أو هادئة على حسب المقام ، فللفظ دخل في الاختيار ويقول في ذلك الباقلاني :

قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان أطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجود التي تتضمن تأييد ما يبدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر ، . ثم يقول :

« وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل في تضاعيف كلام كثير ، وهي غرة جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه بتميزه ، وتخصصه ، برونقه وجماله ، واعتراضه في حسنه ومائه ، (١) .

ومن هذا النقل يتبين أن الباقلاني يرى أن ألفاظ القرآن غرة في كل كلام ، وأن لها رونقاً ، وأن لها دخلاً في إعجازها ، وأن صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ، لأن ذلك من عند العزيز الحكيم .

وإن المتأخرين ممن كتبوا في إعجاز القرآن رأوا أن في الكلمة في القرآن بلاغة خاصة بأدائها ، بدها وغناها ، وبأصواتها الموسيقية ، وبنغمتها الحلوة ، فلا يمكن أن يكون التأخي بينها وبين أخواتها في المعاني فقط ، بل إن التأخي ، كما هو ثابت في المعاني ثابت في الموسيقى ، وإذا كان الله تعالى قد اختار للقرآن ترتيباً يبدو فيه نغمه ومداه ، ورنين ألفاظه ، فلا بد أن تكون ألفاظه قد اختيرت لمزية في كل كلمة لافي مجموعها فقط ، ومن

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٤ .

انصار الرأى الذى نظر إلى فصاحة الكلمة الرافعى رحمه الله تعالى، ورضى عنه ، فى كتابه إيجاز القرآن ، فقد قال :

د لما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جملة ألحاناً لغوية رائعة كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتمهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى إن من عارضه منهم كمسيلبة جنح فى خرافاته إلى ما حاسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ماعداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب ، إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع ، وهو بهذا لا يرى رأى الجرجاني فى أن الكلمات ليس لها مزايا خاصة ، والله أعلم .

٤٤ - هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان فى كون فصاحة الكلمة جزءاً من البلاغة أو الفصاحة ، وإن لم يكن بينهما فرق ، فالأول لا ينظر إلى الجزء وهو الكلمة ، بل لا ينظر إلا إلى المجموع المؤلف ، والآخر ينظر إلى الأجزاء وإلى المجموع معاً ، بل لا يرى المجموع يكون بليغاً إلا إذا انتهى إلى ألحان مؤتلفة ، من حروف فى كلمات ، متألقة ، وكلمات فى أسلوب مؤتلف فى نغمات وترتيله ، وتناسق بيانه .

ولا شك أن الكلمة وحدها من غير أن تكون فى مجموعة ، ليس لها بلاغة ولا مؤدى ، فكلمة شجر من غير أن تكون فى كلام ليس لها مؤدى إلا أن تكون فى جملة مفيدة ، تؤدى معنى ، وتكون بحروفها وقوتها أوليتها متأخية مع أخواتها من الكلام ، ولكن لا بد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منه ، وتحقيقه ، فهى وحدها لا تؤدى منفردة ، ولكن بضمها إلى أخرى يكون المعنى القوى ، ويكون النغم الجميل ويكون الترتيل الذى يملأ النفوس ، وتطمئن

به ، وتقشعر منه الأبدان إن أنذر ، وتهدأ إن بشر ، وتتفكر العقول إن دعا إلى التأمل .

ومن أنصار هذا المذهب الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، فهو يقول في رسالته .

«واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصح المعاني من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيهه له في صفاته ، ودعاه إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء ، ومنها في موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أليق منه»^(١).

وفي الحقيقة - أن الخطابي ينظر إلى الأسلوب على أساس أن الألفاظ قوامه ، وهي دعامة بنيانه ، حتى إن القرآن الكريم لو حاولت أن تنزع كلية من جملة لتضع غيرها المرادفة لها ، لاختل البناء ، واضطرب ، وهو يقول في ذلك «اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الروتق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني . ويحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، .

وبهذا انتهى إلى أن الألفاظ في الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم ، إما لنفعتها وإما لمعناها أو هما معاً . ولا يكون مرادفها صالحاً . لأن يحل محلها .

(١) رسالة الخطابي ص ٩ في ضمن رسائل ثلاث في إعجاز القرآن والخطابي توفى

٤٥ - وكون كل كلمة لها لحن قائم بذاته لانهسب أن الجرجاني ينكره . ولكن مذهبه البلاغى باعباراه من علماء البيان يجعله يتجه إلى العبارة المتألفة . والأسلوب الذى تتلاقى معانيه . ولا يتجه ابتداء إلى الألفاظ . ولعله أيضاً يقبل أن تكون الألفاظ متأخية النغم مؤتلفة الألحان متلاقية فى التيل . وهو يقرره على أنه فرض مقبول فىقول رضى الله عنه فى تلاؤم الحروف فى الكلمات .

د إن أخذنا بأن يكون تلاؤم الحروف فى الكلمات وجهاً من وجوه البلاغة وداخلى فى عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا ضرر علينا ، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد إلى الفصاحة فىخرجها من حين البلاغة والبيان ، وأن تكون نظيرة لها ، وفى عداد ما هو شبيهما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك مما ينبىء عن شرف النظم ، وعن المزايا التى شرحت لك أمرها ، وأعلنتك جنسها ، أو يجعلها اسماً مشتركاً ، يقع تارة لما تقع عليه تلك ، وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ مما يتقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده ، وإن تعسف متعسف فى تلازم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصل فى الإعجاز ، وأخرج سائر ما ذكره فى أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً ، كان الوجه أن يقال له : إنه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هنا نظم للألفاظ ، وترتيب لاعلى نسق المعانى ، لاعلى وجه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفى فساداً .

وينتهى القول فى هذا إلى أن الخلاف بين الجرجانى والخطابى والجاحظ وغيرهما يكون فى أمرين غير جوهريين .

أولهما - أن الجرجانى لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة إلا فى ضمن كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التأخى أولاً وبالذات فى المعانى ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعانى ، والتأخى يكون فى المعانى ابتداء .

ثانيهما - أنه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ؛ لأن الفصاحة عند من يفرقون بين الفصاحة والبلاغة تكون في تلاؤم الحروف وتلاؤم الكلمات ، والألفاظ كما قال ابن الأثير جمال أوتار أحياناً ، وغير ذلك أحياناً .

وإن ذلك اختلاف اصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، إنما المشاحة تكون في المعاني الجوهرية ، لا في الاصطلاح ولا في الأمور الشكلية .

ويسلم الجرجاني بأن الألفاظ جمالا ، وأنها في النظم تكون لنعمتها ، وألحانها مساعداً للمعاني ، ولكنه يمنع منعاً مطلقاً ، ونحن معه أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سبباً للإعجاز ، إنما الإعجاز يكون في أمور كثيرة منها تناسق الكلمات ، وما تشعه من معان وأخيلة بيانية في وسط أسلوب مكتمل البنان يلتقي بنغمه وفواصله ، وصوره البيانية . مع الألفاظ المحكمة . والمعاني السليمة التي لم يكن للناس عهد بها من قبل .

نظرات في ألفاظ القرآن

٤٦ - إن الألفاظ في ضمن الأسلوب البياني الرائع ، وندعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضاً في المعاني العامة للأسلوب والعبارات الجامعة . وإن العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضاً .

ولسنا نستطيع إحصاء تلك النواحي في جمال ألفاظ القرآن إحصاء ، ولكننا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا ، ومن غير أن نصل إلى أقصى الغاية وإنما نسدد ونقارب ، بل المقاربة فوق طاقتنا ، وقد سبقنا إلى تلك المحاولة فحول البيان .

اقرأ قوله تعالى : **ودضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ،** (١)

إذا قرأنا د ورددنا البصر كرتين، وجدنا كل كلمة في حيزها، لا تفارقه، ولو فارقته لوجدناه فارغاً لا يملؤه غيرها. ولتبتد بالإشارة إلى ما في كل كلمة مما اختصت به.

الأولى - كلمة آمنة، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم، أو عدو يساورهم، ولعل ذلك إشارة إلى مكة أو أن هذه القرية هي هي، كما قال تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (١)»، فتجد في هذه الكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغبرهم، واختصوا بها دون الناس أجمعين.

الثانية - كلمة مطمئنة فمضى الاطمئنان يتصل بالنفس. فهي قد منحها الله تعالى القرار، والسكون والدعة من غير ضعف، ومع هذه الدعة كان هو يقويها ويثبتها، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبي على العرب، وهم ملتقى اجتماعهم ومستقر شعائرهم الدينية، ومقامهم الكريم الطيب، فكل هذا يشع من كلمة مطمئنة.

الثالثة - يأتيها رزقها - فإن هذا يشير إلى سهولة الحياة. وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلال. والتنقل في الصحراء لا يتألون الحياة إلا بشق الأنفس. وبذرقهم في طلبهم الرزق حر الحياة وقرها.

الرابعة - كلمة - رغداً؛ فالرغد هو الرزق الطيب المذاق المرء. غير الوبي وهو الواسع الكثير، فهم في رزق يأتيهم سهلاً طيباً، واسماً مريثاً، لا وباء فيه.

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأى صورة بيانية أروع من هذه الصورة، وتجد الكلمات الأربع متآخية في معانيها، متلاقية في ألفتها منسجمة في نغماتها، وكل كلمة منها تعطي صورة بيانية، فأمنة فيها صورة البلد الذي لا يساوره عدو في وسط موطن فيه يتخطف الناس، ومطمئنة

(١) المنكوبون ٦٧.

يشير إلى الاطمئنان النفسى الساكن القار كما الساكن الذى لا تعبت به الرياح ، ويأتيها رزقها طيباً من كل مكان تشير إلى المكانة التجارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان ، وأن لهم رحلة الشتاء .

وإن مجموع الكلمات مع ما تشمه كل واحدة من معان وصور ، يصور حال جماعة من الناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيوض من أنعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم ، فلا تشكر ، بل تجحد الحق ولا تؤمن ، وهنا تجيء الصورة الثانية من عقاب ، ومؤاخذه على ما ارتكبوا من كفر بأنعم الله ، ونجد أن كلمة أنعم فيها فصاحة وصورة بيانية ، إذ أنهم لم يكفروا بواحدة ، بل كفروا بها كلها ، فكان الجحود أشد ، والضلال أبعد ، والكلمة أنعم نعمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، إذ أنها نعم متضافرة ، وفيوض خير من الله تعالى متكاثرة .

هذه حال ما أفاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيها صور النعم واضحة كلا وجزءاً فى كل كلمة سيقمت لذلك .

فلننتقل من الآية الكريمة إلى الصورة التى حلت محل الأولى ، ولننظر إلى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر إلى الصورة التى تتكون من هذه الكلمات التى كانت كل منها صورة قائمة بذاتها ، وهى أيضاً جزء من الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى .

الكلمة الأولى : أذاقها الله فى التعبير بأذاق إشارة إلى أن الإيلام مس نفوسهم ، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر .

يقول الزمخشري^(١) فى معنى الإذافة . الإذافة قد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضرر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم

(١) هو محمود بن عمر الزمخشري إمام عصره فى اللغة والتفسير والحديث توفى سنة ٥٣٨هـ .

بما يدرك من طعم المر، ونرى من التعبير والتقابل ، أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحوا من أمن ، ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل .

والكلية الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة، فهي تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها ، لا يخرجون منه إلا إليه ، ولا يدورون إلا في دائرته ، وإن ذلك بلا ريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاً ، وهذا يفيد استمراره وتجده آناً بعد آناً ، ونقد قال الزمخشري « وإن اللباس قد شبه به لاشتماله على اللابس ، ماغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، كأنه قيل ماغشيمهم من الجوع والخوف ، .

ومهما يكن تصوير إمام البلاغة الزمخشري من أن التعبير باللباس يفيد أنه غشيمهم وأحاط بهم فإن في الكلام صورة بيانية تصور حالهم بعد الأنعم التي أنعم بها عليهم ، وكفروا بها من أنهم في صورة من كان لابساً للجوع والخوف ، وهم يذوقونه ، كمن يلبس ملبساً كله قتاد ، يجرح أجسامهم ، ويذمى جلدهم ، بيد أن هذا لا يذمى الجلد ، ولكن يمس الحشا بالجوع ، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار ، ولنا نجد أن هذه الصورة البيانية التي يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات في تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس جوعاً وخوفاً ، ولباس الجوع والخوف أشد إيلاماً من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حساً ، ولباس الجوع والخوف يؤذى الجسم ، ويؤذى النفس وإذا قربت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ، ورغاء في العيش وطيبه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التي كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر .

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة في تكوين الصورة العامة ، فوق النعمة الهادئة ، والتصور الحكيم .

٤٧ — ولننتقل إلى مثال آخر ، لانتخاره من القرآن اختياراً ، ولكن نأخذه من غير تخير ؛ لأن التخير يكون فيما يكون فيه المختار ، وغير المختار ، وكتاب الله تعالى كله خيار ، وكله فوق طاقة البشر ، ولأن الذى يختار يفرض من نفسه حكماً ، ومن يكون حاكماً على كتاب الله تعالى ؟ إنما يحكم على الكتاب من أنزل الكتاب ، الذى تعهد بحفظه ، وإنما نحن نتلسه ونطلبه من الكتاب من غير تخير ، لأنه فوق طاقتنا ، وفوق التخير .

اقرأ قوله تعالى « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ، ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوساً ، قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ،^(١) .

اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل فى تأخى نعمها ، وتأخى معانيها وتصويرها فى جملتها للنفس الإنسانية - الكلمة الأولى - أنعمنا ، فقد أضافها الله تعالى إليه وإنعام الله تعالى فىض ، وإسباغ يغمر صاحبه ، والإنعام من الله تعالى يقتضى الشكر كما قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ،^(٢) . وكان هذا يقتضى إقبال الإنسان عليه سبحانه ، والإقبال بالطاعة ، ولكنه لم يقبل بل كفر وطغى أن رآه استغنى .

الكلمة الثانية — أعرض ، وهى كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الإقبال عليه تعالى علواً كبيراً وأصل أعرض فى المعنى الحسى أن يولى عرض وجهه بالأيقبل على الله تعالى ، ويطلب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها ، ويجب الله تعالى ويخلص له إذ أنعم ، ولكنه يظن أنه استغنى ،

(١) الإسراء : ٨٣ - ٨٤

(٢) إبراهيم : ٧

وعند ظن الاستغناء يكون الطغيان ، ويكون ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ووراء ذلك الفساد الكبير ، والشر المستطير .

العلمة الثالثة : نأى بجانبه - النأى هو البعد . وكلمة بجانبه ، مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير في ضلاله البعيد ، ويقول الرمحشري : إن كلمة نأى بجانبه تأكيد لمعنى - أعرض - ونقول إنها تأكيد لمعنى الإعراض من حيث إنه الخطوة التالية بعد الإعراض ، فالإعراض عن الكلام عدم الإصاخة إليه ، وعدم الالتفات إلى دعوة الحق ، وإن هذه خطوة يكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ، ويجافيه وترى من هذا أن الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض في نغم مؤلف من حيث إن كل معنى يعقبه أخ له مترتب عليه متناسق معه .

ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفرأبها ، وكيف يتدرج الكفر بها ، حتى يكون البعد التام عن الله ، فتكون الطاعة في جانب ونفس المنعم عليه في جانب آخر ، وهو جانب العصيان والضلال البعيد ، ثم الطغيان من وراء ذلك .

والصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت في تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة ، وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها ، فإنعام الله تعالى يعطى صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى ، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ، ثم النأى من بعد ذلك .

هذه صورة المنعم عليه في وجود نفسه ، وعدم التفاتها إلى الاعتراف بالنعمة وشكرها ، مع أن شكر المنعم واجب عقلا ، وهو منبعث الضمير الطيب الطاهر .

لننتقل من هذه الصورة التي تصورها الكلمات منفردة إذ كل كلمة صورة بيانية رائعة ثم هي بتضامنها وتلاؤمها تعطى صورة كاملة لنفس

كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد ، والكفر
رب الناس ملك الناس .

ثم تتجه إلى صورة تلك النفس ، وقد أصابها الشر ، ولم تنل النعمة ، وهنا
كلمتان كلتاها تصور صورة من نزول الضر ، وأعقابه في النفس الجاحدة ،
الكلمتان هما مسه الشر ، وكان يثوسا . إن المس وهو الإصابة بالشر ،
وإن التعبير بمس يفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تهيب من النفس
ما تجعلها يائسة ، والشر كل ما لا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضارة حسياً
ونفسياً ، وعلى الأمور القبيحة خلقياً والتعبير بالشر هنا يشمل الضار ،
كقوله وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه
ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره^(١) ، ويشمل نتائج الطغيان والعصيان فيكبه
الله تعالى على وجهه ، ويشمل العقاب الذي ينزله جزاء لما ارتكب ، وإذا كان
قد جحد بنعمة الله تعالى ، إذ أنعم بها ، وأعرض ، ونأى بجانبه ، فإن
النفس التي تطفئ بالنعمة تذلل وتهون وتضعف بسلبها ويهيبها اليأس المطلق
إذا نزلت بها النقمة .

الكلمة الثانية كان يثوسا وهنا نجد كلمة كان الدالة على لزوم
والاستمرار فكان في قوله تعالى وكان الله غفورا رحيماً^(٢) ، وكلمة يثوسا
بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس وعدم افتراقه عنها ،
فيكون في حال بؤس مستمر ، ويأس دائم ، يكفر — إذا أنعم الله عليه
ويصاب بالطغيان ، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه .

ولا شك أن هذه الجمل السامية ، والكلمات تصور حال إنسان غير
قار ، ولا ثابت تبطره النعمة ، ويؤنسه الاختبار ، وكل ذلك في ألفاظ
منسجمة في نغماتها ، متضافرة في معانيها ، تدل على النفس المنحرفة ،
وتصورها .

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى : دقل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ،^(١) وهنا نجد النص السكريم يفيد ما يدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء في ذلك ، فمنهم شقي على الصورة التي ذكرها سبحانه ومنهم سعيد ، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل ، ولا يطغون بنعمة تسبغ وكان هذه الجملة في موضع التخصيص من عموم الإنسان المذكورة أولا كالاستثناء في قوله تعالى : وإن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح بخور ، وإن أذقناه صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ،^(٢) .

والكلمة السامية قل كل يعمل على شاكلته ، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور ، فالأمر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول ذلك فيه ما يصور أن بعض الناس كذلك وأن في الناس من ليسوا كذلك ، فدلّت كلمة وقل ، التي تتضمن الرد على هذا الاعتراض المفروض ، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات الفعلية إلى الخطاب الذي أمر به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الأمر تنبيه ، يتولاه صاحب الرسالة المتكلم عن الله نازلا إلى مرتبة المعترضين ليواجههم بالرد ، وفي ذلك فضل تنبيه وتقريب ، وذات الانتقال من المتكلم إلى المخاطب فيه تجديد بياني ، وأصوير بلاغي ، والشاكلة-الهيئة والصورة والسجية ، والمنهج الذي يحطه لنفسه ، ويسير عليه من الضلالة كالأولين والهدى للمهتدين ، والشاكلة تطلق على الطريقة ، ويقول الزمخشري إنها من قولهم : طريق ذو شواكل ، الطرق التي تنشعب منها .

وفي هذا الكلام معان دقيقة تنبعث من صور الكلمات ، ومرامى العبارات ، وحسن المقابلات ، إن الناس قسمان قسم شاكلته ، تلقى النعمة

بالإعراض ، ووراء الإعراض الظلم والظغيان والفساد في الأرض ، وقسم صابر ضابط لنفسه ، لا تبطره النعمة ، بل يصبر عليها فيطيع الله ، ويقوم بحق شكرها ، والأول مضطرب النفس غير منضبط القاب تطغيه النعمة فيستكبر ، وتوئسه النعمة ، فيكفر باليأس من رحمة الله .

وإن لله تعالى العلم الكامل بالصنفين ، وهو مجاز للفرقيين ، وقد ختم النص الكريم بقوله تعالت كلمته « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ، وهنا نجد المعاني تشع بنورها من هذه الكلمات .

فأولاً - الغاء التي تفيد ترتيب الجزاء على الأعمال ، وثانياً التعبير بربكم الذي فيه الإشارة إلى أنه هو الذي خلق فسوى وهو المربي المكمل - الهادي كلا إلى غايته ، وثالثاً - ترتيب العلم الكامل على كونه الخالق ، ورابعاً - ذكر العلم الكامل بأفعال التفضيل الذي يدل على أنه لا علم فوقه إن كان ثمة تفاضل ، وخامساً - التعبير عن الجزاء بأنه أثر للهداية ، وأن الله تعالى أعلم بالممتدين ، وسادساً - التعبير بأفعال التفضيل في أهدى . أى أنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله ، وسابعاً - في التمييز بكلمة سبيلاً ، وفيه بيان بعد نوع من الإبهام ، وبذلك يكون العلم متمكناً فضل تمكين ، علم بالهداية وعلم بمنهجها ، وهو السبيل القويم .

٤٨ - بعد هذا النظر السريع إلى تلك الآية نتجه إلى آية أخرى نجد فيها الكلمة تدل على معنى لو غيرت بغيرها مما يكون في معناها ظاهراً ، مرادفا لها بادی الرأي ، لا يمكن أن يؤدي المعنى الذي يشرق منها ، ويجمع به في الدلالة صورة اللفظ ، وإشراق المدلول .

اقرأ قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس^(١) ، فإننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما .

(١) التكوير : ١٨

الكلمة الأولى ، وهي الصبح ، فإنها تدل على النور الذى يتخلل الظلمة ، ويسرى فيها شيئاً فشيئاً وينبعث فى هذا الوجود ، فيملؤه نوراً ، وتنبعث من بعده الحياة ، ويخرج الناس إلى معاشهم بعد ساعات الليل وسكنه ، وما يغشى به السكون من لباس الظلمة .

ولاشك أن كلمة الفجر قد تدل على بعض معانى كلمة الصبح ، والعلماء يعدونها من المترادفين ، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة ، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة ، ولذلك يقترن بها ذكر الليالى ، كما قال تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر »^(١) ، فقد كان ذكر الليالى مع للفجر متناسباً ، لأن الليل متأخ مع الفجر فى معناه ، وقصد به مجرد نهاية الليالى .

ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار ، فإذا كان وقت الفجر والصبح واحداً ، فإن الفجر فيه بيان لإنهاء الليل ، والصبح ابتداء النهار ، ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر ، ولا يقال طلع الصبح ، بل يقال أشرق الصبح ، وهنا نجد المعنى واحداً فى الجملة ، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة ، فهذا لإشراق ، وذاك لإنهاء .

والكلمة الثانية - كلمة - تنفس - فإن كلمة التنفس فى ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئاً ، ذلك لأن أصل التنفس من النفس ، وهى الحياة ، وهى أيضاً الريح ، وهى الحركة الدائمة المستمرة ، فى الداخل والخارج ، فهى تشمل ما يدخل فى النفس من أسباب الحياة ، وما يخرج منها لتستمر الحياة ، ويقال نفس عنى أى فرج عنى ، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة ، وثانيها حركتها واستمرارها ، وثالثها تدرجها فى الظهور شيئاً

فشيئاً ، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس ، كأن يقال ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى : «والصبح إذا أشرق ، أو أصبح أو أثار أو أضاء ، فإن كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس ، ولا تغني عنها .

ولو أننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها ، وتابعتها مقترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذي يبتدىء به النهار ونظرنا ما يصوره قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) ورأينا كل حي في الوجود ، يفيض عليه الإصباح بالعمل والحركة فالندى يصيب الزهور ، والعضو يضيء الحدائق الغناء والطيور تزقزق بموسيقاها وينبعث كل من في الوجود خارجاً من لباس الليل إلى معاش النهار ، فالزارع يخرج إلى حقله ، والماشية تنبعث من مرايضها ناعقة ، فرحة ، سائرة إلى المراعى ترعاها ، والكلأ تنتجعه ، والصبيان يخرجون من أكنانهم كما يخرج الطير من أكنانها ، وكل ما في الوجود يخرج مما يخفيه الظلام .

وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تندرج في الظهور ، حتى يصل إلى الضحا فيكون المعترك القوي الصاحب اللاغب ، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعاني أبلغ من كلمة : «والصبح إذا تنفس ، وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة في حيزها ، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها .

٤٩ - بعد هذا البيان الذي حاولنا فيه أن نتسامى إلى أن نذكر مواضع البلاغة أو الفصاحة في كل الكلمات التي سبقناها وتلونا آياتها ، وكون كل كلمة في موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة ، وهي مع أخواتها تتلافى في صورة كاملة ، لها أطراف تروع القارىء ، وتستولى على لب المتفهم .

ولنتقل الآن من الألفاظ إلى عبارات لها معان لا يحمل محلها في نسجها ولا في مدلولها ما يقوم مقامها ، ولنتذكر منها أربع آيات .

أولها قوله تعالى «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأبعده

الشیطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخذ إلى الأرض ، وانبع هواه ، فثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ،^(١)

وإن هاتين الآيتين الكریمتین تصوران رجلاً آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة التصديق بالحق ، وأن هذه الآيات أحاطت بقلبه ونفسه ، حتى لا مناص من إنكارها كما يحيط الإهاب بالجسم ولكنه ترك الأخذ بالهدى استجابة لداعى الشيطان وصار من الضالين الذى أغواهم إبليس اللعين ، فكان مثله كمثل من ينسلخ عن الإهاب الذى لبسه ولصق بجسمه ، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال بما آتاه الله تعالى من علم ، ولكنه هو الذى انحط إلى الأرض ونزل إليها ، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائماً ، إن ترك يلهث ، وإن حمل عليه يلهث ، ولننظر فى الكلمات التى تشتمل عليها هذه الآيات .

الكلمة الأولى - انسلاخ - والانسلاخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ ، ووضع هذه الكلمة . فى ذلك النص الكریم له معنى لا يوجد فى لفظ غيره ، وهو يشير إلى أن البيئات والآية المعلمة للحق أحاطت به ، واصتقت بنفسه واتصلت بعقله اتصال إهاب الحيوان بلحمه ، ولكنه انسلاخ من هذه البيئات فكلمة انسلاخ فيها استعارة ، فشبه الكفر والفساد بالانسلاخ فى الأهاب لسكالم الملازمة ، ولأن الانسلاخ يكون بمعاونة وعنفة ، إذ أن مادة المنطاوعة لا تكون إلا للأفعال التى تحتاج إلى معالجة ، فلا يقال كسرت القلم فانكسر ، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر ، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر ، ويقال طويت الحديد فانطوى ، فكان هذا تصويراً لإثبات أن الكفر ضد الفطرة ، وأنه يحتاج إلى معاونة للنفس ، ومقاومة لدواعى الهدى ، ولكنها لا تكون إلا اتباعاً لهوى الشيطان .

الكلمة الثانية - أتبعه الشيطان : أى لحقه الشيطان ، فإنه يقال أتبعه إذا لحقه ، ومن ذلك قوله تعالى ، فأتبعوهم مشركين ، (١) وقوله تعالى دفأتبع سبياً ، (٢) ، وقوله تعالى : د وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ، (٣) د وإن وضع هذه الكلمة فى هذا الموضع لهو وضع بلاغى عميق ، ففيه إشارة إلى أن الشيطان إنما يلاحق الذين يتركون الآيات ، ولا يعملون على الأخذ بموجب البيئات ، فأول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها ، وإذا تركها فإن الشيطان يلحقه ، ويأخذ به إلى آخر غايات الضلال ، وإذا وصل إلى هذه الدرجة صار من الغاوين ، والغواية معناها الجهل المردى ، الذى يصحبه اعتقاد فاسد مردود وكأنه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة ، ودراعى الحقيقة ينقلب من عالم بالبيئات مدرك لها إلى جاهل أرداه جهله فى الفساد .

الكلمة الثالثة - د أخذ إلى الأرض ، ومعنى أخذ إلى الأرض ركن إليها يحسب أن الركون إليها يجعله خالداً ، ويجعله باقياً مستمراً ، وهو يريد البقاء على أى صورة وإن مقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى د ولو شئنا لرفعناه بها ، أى بالبيئات يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع ، والضعفة بدل الرفة ، ويكون فى هذا إثبات أن الرفة تكون بطلب الحق والإيمان والاستجابة لبيئانه ، وعدم الانخلاع من موجبها .

وكل هذه المعانى تشرق من مقابلة الارتفاع بالإخلاق إلى الأرض . وهنا نجد صورة رائعة تلتقى فيها أطراف مميزة بالفاظ مصورة ، فهى تصور شخصاً أفاض الله تعالى عليه بأسباب الإيمان بالحق ، والتصقت به ، حتى صارت كأنها جزء من كيانه ، وقد اتصلت ببيئانه ، ولكنه بسبب أنه

(١) الشعراء : ٦٠

(٢) الكهف : ٨٥

(٣) القصص : ٤٢

أخذ إلى الأرض وكان نزوعه متصلًا بأعلاقه قد مسلخ البيئات الملتصقة بها بانفاس في الضلال متكرر مستمر ، حتى انسلخ من الهداية ، وفي ذلك إشارة بيانية إلى أنه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به ، فهو قد ابتدأ في الشر متبعاً هواه ثم كرره حتى كون له خطوطاً في نفسه ، وتكرر حتى صارت الخطوط مجارى ، فكان الانسلاخ وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فاتبعه بغية الضلال ، وقد مثله تعالى بمثال آخر ، وذكر له صورة أخرى .

وذكر في الكلمة الرابعة : « فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، واللهث كما يقول علماء اللغة أن يخرج الحيوان لسانه مرطبا بلعابه في حال عطشه أو جوعه أو إعيائه ، أو إهاجته ، وذعره ، ويقولون إن أخس أحوال الكلب أن يكون منه اللهث في كل أحواله ، فإنه يكون مكروباً دائماً ؛ وقد ذكر القرآن الكريم حال من ينسلخ من الهداية إلى الغواية بأنه يكون في حال هياج نفسى مستمر لا يستقر على قرار ، ولا يسكن على حال ؛ إذ أن الهداية إيمان ، والإيمان اطمئنان وقرار ، ومن يكفر بالله ، وينسلخ على هدايته اتباعاً لهواه يكون في لهج مستمر ، فيكون كالكلب في أخس أحواله وأذلها ، إن هيج لهث ، وبدت صورته شوهاً ، وإن سكت عنه بدا على هذه الصورة .

وإن هذا تصوير واضح لمن غلب عليه هواه ؛ إذ تغلب عليه شقوته ، ويكون في اضطراب ، وشعور بحرمان دائم يستقر في نفسه ؛ لأن الهوى يجعل النفس طلعة تتطلع ولا تهدأ ولا تستقر ، ولا تطمئن .

ونرى من هذه الآية وما سبقتها كيف يكون كل لفظ مؤدياً معنى خاصاً يقصد ، ويعطى صورة من البيان لها أطيايف كأطيايف صورة التصور ، الحسية التي تصور ما يد صنع لمصور ما هر ، والكلام الله تعالى المثل الأعلى ،

ومن مجموع هذه الصور المتكوّنة من الكلمات تتكون صورة كلية يتمثل فيها أعلى صور البيان .

٥٠ - ولننتقل من هذه الصورة الرائعة التي تتكون من مجموع صور بيانية للعبارات إلى صورة بيانية لبيان حال ، ما ينزل بالكفار يوم القيامة ، ولا يصح أن يحول بخاطر أحد أننا نبحت في ألفاظ القرآن الكريم متخيرين ، بل نفتح فيجدر الأمثال الواضحة من غير تحر ولا تخير .

لقد قال تعالى في سورة الدخان في تصوير غذاء المشركين يوم القيامة ، وترى كل كلمة من النص تبين صورة مؤلمة مزعجة لما يتناولون ، ويشترك في الصورة نغمة الكلمات ونسقمها ، وتأخيرها .

اقرأ قوله تعالى : : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ،^(١) .

ولننظر إليها ، ونبين ما فيها من صورة بيانية ، نتخذ منها ومن أخواتها صور بيانية لأعظ عيش وأفسى حياة ، وكيف يكون الغذاء كله إبلا ما لا إشباع فيه ، وإيذاء لا متعة معه ثم يختم القول بتهمك على من كان يحسب نفسه عزيزاً كريماً ، والمؤمنين أراذل منبوذين .

أول هذه الكلمات شجرة الزقوم - وهذا استعمال قرآني لم يكن كثير أعند العرب ، وإن كان أصل اشتقاقه من لغتهم ، والزقوم صيغة مبالغة من الزقم ، والزقم إعطاء الطعام الكريه أو الأمر الكريه ، ويقال تزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً غير مرغوب فيه ، بل تنفر عنه الطباع وتستهكرهه .

فشجرة الزقوم الشجرة التي لا تثمر إلا ثمراً كريهاً تعانقه النفوس ، ولا يناله المتناول إلا مكرهاً بإكراه من ذى جبروت ، أو من جوع ، أو

من يكون في حال من يريد تناول أى شيء مهما يكن ذلك الشيء ، ومهما يكن مذاقه ، ومهما تكن وباءته ، والتعبير بشجرة الزقوم فيه إشارة إلى أنه طعام مثمر مستمر ، لأن ثمراته الوبيثة السكرية لا تنقطع ، فهي في شجرة دائمة الإثمار .

وفي هذه الآية يذكرها ، وفي آية أخرى يذكر سبحانه أنها تنبت في أصل الجحيم ، فهي من ثمرات شجر جهنم ، وفي ذلك تصوير لحال الطعام ، وتصوير لحال المقام ، وكيف أن المترف في الدنيا يتنقل من واد نيرانى إلى واد مثله وكل حياته منها ، فإقامته فيها وغذاؤه من ثمار أشجارها ، وبئس مشوى الكافرين .

الكلمة الثانية : طعام الأئيم - يقول الذين تكلموا في ألفاظ القرآن إن الإئيم الأمر المبطوء عن الخير ، المعوق عنه أو المؤخر له وعبر عنها بكلمة أئيم ، وهي صيغة مبالغة من أئم وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة ، فهي تدل على أنه فعل الإئيم كثيراً ، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة ، وهو حال دائمة عنده ، إذ الصفة المشبهة تقتضى أن يكون الموصوف بها في حال دائمة في صفتها لا تفارقه ولا يفارقها ، وهما معنيان كلاهما يدل على بلاغة اللفظ ، وعظم مؤداه -

أول المعنيين . ذكر الوصف الذى يشير إلى أن سبب ذلك الجزاء هو الإئيم الدائم الكثير الذى كان منه في الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، والعدل يقتضى ألا يتساوى المسئء بالمحسن ، فهل يستوى الأعمى والبصير ؟ -
ثانيهما ، أن لذلك الثمر الكريه الذى ثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام الدائم المستمر الذى لا يقدم للطغاة إلا هو ، فلا يدوقون طيباً ، لأنهم لم يذيقوا الناس في الدنيا طيباً ، وهل يكون جزاء الخبيث إلا خبيثاً .

الكلمة الثالثة : كالمهل يغلى في البطون - والمهل ددى الزيت أى الراسب أو بقايا الزيت ، وتكون عادة سوداء معتمة ، ثم هي في ذاتها شيء ددى

وأعطاء القرآن وصفاً ، وهو أنه يغلي في البطون ، فهو بقايا رديئة أصابها العطن ، فغليانها إما لمخوضتها ، إذ تغلي كالأشياء العظيمة التي تتخمر ، وتغلي بالزبد ، وإما لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلي من شدة هذه الحرارة ، ولعل غليانها من الأمرين فهي متعفنة تغلي بالزبد من المخوضنة ، أو هي حارة تغلي منها البطون لشدة الحرارة ، وفي كلتا الصورتين تدخل على البطون غذاء وبيئاً ، إن كان فيه مادة الغذاء ، وليس غذاء مريثاً ، فهو إن يمنع غائلة الموت ، ويمتد ، فإنما يبقى لتستمر الآلام ، وتكون حياته تكداً ، فطعام كريبه في مذاقه ، وبيء في مآله ، مؤلم في كل أحواله .

وقد يقال إن الأظهر هنا أن الغليان من العفونة التي تكون من بقايا هذا الزيت ، لأن التشبيه جاء بعد ذلك في قوله تعالى كغلي الجحيم ، وهو الماء الحار إذا بلغ أقصى درجة الحرارة ، فعلا واشتد غليانه ، والجواب أن الزيت يغلي من شدة الحرارة كغليان الماء ، وهو في هذه الحال يكون أشد ، لأنه يكون في درجة حرارة أعلى ، وكان تشبيهه بالماء للتصوير والتقريب ، وكثير من تشبيهات القرآن للتقريب والتصوير ، فالغليان يكون بالعفونة ، وبالحرارة معاً .

الكلمتان الثالثة والرابعة : د خذره فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، فإن كل كلمة من هذه الكلمات تصور صورة عنيفة لهذا الذي عصى وغوى ، وضل إذ حسب أنه استغنى .

فكلمة الأخذ نبيه عن القبض بعنف ، وقد كان في القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى : د وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد (١) ، وكان الأخذ بأمر الله للملائكة غلاظ شداد ، فكان الأخذ في ذاته شديداً ، وكان الآخذون أشداه ، وتجميلهم

هنا مع وصفهم في آية أخرى بأنهم غلاظ شداد ، فيه إرهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين .

وقد فسر سبحانه في الآية بما يدل على شدة الأخذ ، وبيان أنه نوع خاص منه ، إذ قال سبحانه « فاعتلوه ، إذ العتل هو الأخذ بمجامع الشوء والإحاطة به وجره بالقهر والعنف ، فإذا كان الأخذ في ذاته عنيفاً ، فهو في هذا النص أشد عنفاً ، إذ هو جر وإحاطة قوية بالمأخوذ ، وإن الأخذ بهذه الصورة من جر عنيف وإحاطة فيه ما يدل على الإهانة ، والتحقير ، وخصوصاً إذا كانوا يحسبون أنهم وحدهم الكرام ، وغير أراذل دونهم فإن الأخذ بطريق العتل يعطى صورة للمهانة التي يكون عليها من يستكبرون على الحق أن يتبعوه ، ويتبع الحق أهواءهم ، وفي هذا بيان أن هذا العنف جزاء وفاق ، لما كان منهم من خطرسة مقبته ، فإنهم سيعاملون بمثلها يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الكلمتان الخامسة والسادسة : « إلى سواء الجحيم ، فكلمة سواء معناها المكان المتوسط ، والجحيم النار المتأججة التي تكون في مهواة ، والصورة التي توخّجها كل كلمة من هذه أنه يؤخذ عنوة ويوضع في وسط النيران المتأججة التي تشتعل وتتأجج مرتفعة من وهدة جهنم إلى أعلى ، ويبقى في المكان المتوسط بحيث لا يكون قادراً على الخروج منها ، إذ لا يكون في طرف من أطرافها ليستطيع أن يخرج منها ، بل هو في وسطها لا ينتقل إلا إليها ، وليته يستمر على حاله لم يجيء له عذاب من خارجها ، بل إنه يجيئه العذاب من الخارج ، فيلتنق عذاب الداخل والخارج معاً بل يجيء ما تدل عليه العبارات التالية :

الكلمات السابعة والثامنة والتاسعة : « تم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم ، والصب هو نزول الماء من أعلى إلى أسفل ، ويكون متدفقاً مندفعاً ، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عذاب الجحيم ، فالصب في ذاته من على

يؤلم ولو كان ماء بارداً ، فيكيف الحال إذا كان عذاباً ، فهو صب لا لأجل التبريد ، ولكن لأجل التعذيب ، والإضافة هنا بيانية أى عذاب هو الحميم وهو السائل الحر الشديد الحرارة ، فهو عذاب ينزل فوق الرأس ، فيذيب أديمه ، ويصهره دهنا .

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المميين فى غذاء من المهمل من الزيت الرديء يغلى فى البطن من شدة العفن ، ويغلى من شدة الحرارة ، ويساق فى هذه الحال مأخوذاً أخذاً عنيفاً محيطاً بمجماعه إلى وسط جهنم ، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة ، يصب على رأسه صباً عنيفاً يذيب كل ما يقع عليه .

ومع هذا العذاب المميين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوى بالتمكك عليه فيقول لسان الحال وذق إنك أنت العزيز الكريم ، ليعلم أنه كان طاغياً .

٥١ - هذه جملة من الآيات الكريمة تساميناها ولنا أن نسمو إلى ألفاظ قرآنية مشرقة بعمان ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها ، وتدل على معان عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة فى انضمامها لغيرها ، وتتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة ، وإذا كان لكل صورة حسية أطراف تعطى الصورة حيوية ، فالصور البيانية لها أطراف عالية ، تعطى الصورة روعة عالية ، لا توجد فى أى كلام غير القرآن الكريم .

وإن الصور البيانية القرآنية تبدو أوضح ما تكون فى القصص القرآنى وإن كان كل البيان القرآنى رائعاً واضحاً ، فإن القرآن فى وصف الحوار والأجواء الفكرية والاعتقادية يصورها تصويراً واضحاً ، فإذا وصف حالاً لرجل تجده يصور قلبه وخواطره .

اقرأ قوله تعالى : وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : إن الملائمة يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها

خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين ، (١) هذه القصة بسياقها تكل لفظ منها ينبىء عن معنى اللهفة والحذر فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسمى من أقصى المدينة ، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخاصة الطيبة ، ثم كلمة يسمى تدل على أنه جاء عدواً لا قرار عنده ، ولا اطمئنان ، وقوله « إن الملاء ، وهم كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصيحة الرجل الأمين ، فخرج خائفاً يترقب ، وانظر إلى كلمة يترقب ، فهو ينظر يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً يترقب من يأتيه من أمامه ، ومن يأتيه من ورائه ومن يأتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة يترقب تصور تلك الحال ، وتصور النفس المحترسة الآخذة تجدها في اطمئنان نفسى ، واحتراس من غير اضطراب ، فالمترب الخائف غير المضطرب الخائف ؛ لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر ، فيصيبه الطمع فيخاف من غير مخوف ، ويقع بهلعه وفزعه فيما يخشاه ، ولفظ القرآن الكريم ينبىء عن هذه المعانى السامية . والكلمات صور لمعان حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة والله سبحانه السميع العليم ، الحكيم الذى أنزل كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

٥٢ - قلنا إن للكلمة إشراقاً خاصاً ، فكل كلمة لها إشعاع فكري ، ولكنها لا يبدو منها ذلك الإشعاع ، والبلاغة البيانية إلا مع أخت لها تناسبها ، وتتلاقى فكراً معها ، فبالكلمة تنفس التي ذكرناها في قوله تعالى والصبح إذا تنفس ، لا ينبعث منها ذلك الإشعاع الفكري إلا إذا كانت كلمة الصبح معها ، فلا بد لكي يكون ذلك الإشعاع المعنوي مع صحبها واضحاً مؤدياً إلى غايته من أنه يكون مقترنا بالصبح ، ومع أن الإشعاع منها وحدها ، إلا أنه لا يضيء إلا مع كلمة الصبح ، وكلمة الصبح لا تفترق عن كلمة الفجر ، إلا إذا كان يتبعه التنفس ؛ والإسفار فالصبح والتنفس متلازمان ، وإن كان كل منهما مؤدياً معنى مستقلاً ، والتلازم كان بالأولى .

وذلك ما أشرنا إليه في ابتداء الكلام في بلاغة الكلمة القرآنية ، وما ارتضاه الجرجاني الذي حمل عبء القول عن نفي بلاغة اللفظ المنفرد ، فقيده فيه بأن يكون مستقلاً منفرداً ، فإذا انضم إلى غيره بدت بلاغة الكلمة في أنه يكون لها صورة بيانية ، وبانضمامها تكون لها صورة بيانية من الهيئة المجتمعة .

وقد راجعنا من بعد ذلك القاضي عبد الجبار^(١) في كتابه إعجاز القرآن ، فوجدناه يقرر فصاحة الكلمة منفردة ، ولكن لا تبدو بلاغة معانيها إلا إذا تضامت مع غيرها فهو يقول :

د اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام

(١) هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار توفي سنة ٤١٥ هـ .
(م - ٩ - المعجزة الكبرى)

بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة ابتداء ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام رابع ، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر منزلة الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها .

هذا كلام من ذلك الإمام المعتزلي ، نهج فيه نهجاً فلسفياً ، ولكنه يؤدي إلى ما قصدنا إلى بيانه ، ولعله يريد من المواضعة الوضع اللغوي للكلمة ، ويشمل ذلك الأصل اللغوي ، والحقيقة العرفية ، والمجاز والاستعارة والتشبيه ، وغير ذلك ، ويريد من الموقع موقع الكلمة من أخواتها من غير تنافر بينهما ، بحيث تكون الكلمة لقف أختها ، متناسقة متناسبة ولعله يريد من موقع اختيار الكلمة في وضعها بأن تكون فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً ، أو فيها اختصاص ، إذ عبر بالإشارة القرابية ، وهكذا ، فهو لم ينظر إلى بنية الكلمة وحدها بل نظر إلى موقعها من الإعراب .

وعلى ذلك نرى أن الكلمة البليغة تظهر بلاغتها مع أخواتها ، وأن الكلمة قد تكون بليغة في موضع ، ولا تكون بليغة في موضع آخر في كلام الناس ، أما القرآن فالكلمة تكون بليغة دائماً ، لأن منزل القرآن وهو الله تعالى يضع الكلمات في مواضعها ، وفي الكلام الذي ينسب إلى الناس قد تكون اللفظة في موضع بليغة ، وفي غيره غير ذلك ، ولذلك يقول عبد الجبار في تفاروت كلام الناس ولا بد في الكلامين اللذين أحدهما يكون أفصح من الآخر أن يكون إما زاد وعليه بكل ذلك أو بعضه (أى بالأمور السابقة) ولا يمنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره ، والله أعلم .

٢ - الأسلوب القرآني

٥٣ - قد تكلمنا في سابق قولنا في ألفاظ القرآن المفردة ، أن اللفظ المفرد له بلاغة خاصة في ضمن الأسلوب وأن كل كلمة في جملة من الكلام تدل بمفردها على معان تتسارع مع المعنى الجملي للكلام ، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءاً من الصورة العامة للقول وقلنا إن ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطى وحدها ذلك الإشراق ، ولكن يذيق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوءها في ضوءه ، ولا تتمحى صورتها البيانية التي أشرفت بهذا التضام .

وقلنا إن ذلك لم يذكره أحد حتى الجرجاني^(١) الذي تشدد في اعتبار الأسلوب وحده هو سر الإعجاز ، من غير التفات إلى معاني المفردات .

وإذا أردنا أن نحزر القول الذي رآه الأكثرون ، وخالف فيه الجرجاني ومن آف آفه ، فإننا نقول إن كلمات القرآن لها في تناسق حر وفها ، وتلاقى مخارجها إشراق بلاغي ، ولكن لا ينكشف ذلك الإشراق إلا بالتضام ، أي أن الإشراق ذاتي ، وهو الأصل ، ولكن شرط ظهوره ، تضام الكلمة مع غيرها . وفي هذا المقام نتكلم على الأسلوب والصور البيانية التي تتكون منه والتآخي بين ألفاظه في النغم وفي تناسق القول ، بحيث تكون كل كلمة في موضعها الذي وضعت لا تنفر من أختها ، ولا يمكن تغييرها وكأن الكلمات في الأسلوب نجوم السماء وأبراجها ، لا تنزائل أما كتبها ، ولا تخرج من مواطنها ، ويقول في ذلك القاضي عياض في الشفاء :

والوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونزها الذي جاء عليه . ولم

(١) هو عبد القاهر الجرجاني توفى سنة ٤٧١ هـ .

يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر (١)

وإن الإسلوب هو الصورة البيانية التي تظهر في معنى رائع ، وكلام مشرق ، يثير في النفس أخيلة الحقيقة يصورها ويبينها ، ويمس الإنسان فيها بأطراف المعاني ، كما يحس بأطراف الصورة على حسب تثقيف المصور ، وحسن الاختيار في ألوان الصورة ، فلأساليب ألوان تحسن ، وتفسق ، وتصريف في أوضاعها كما قال تعالى : انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون (٢) .

ولقد قال في هذا المعنى الخطابي (٣) في رسالة إعجاز القرآن : د وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الالفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه ، فتقوم له صورة في النفس فيتكلم بها البيان ، وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه ، فقد علم أنه ليس المغرد بذرب اللسان وطلاقة كافيأ في هذا الشأن ، ولا كل من أوتي حظاً من بديهة حاضرة ، وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطرباً بعينه ، ما لم يجمع إليهم سائر الشروط التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه ، وأنى لهم ذلك ، ومن لهم به : د قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بهذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (٤) .

وإن الشروط التي ذكرها في آنف قوله هو اختيار الالفاظ من ناحية معانيها ، وقوة تماسكها ببعضها وأشار إلى أن الالفاظ قد تكون مترادفة في الظاهر ، وليكن عند التحقق في مرماها يكون الاختلاف ، وإن كان المعنى الجملي واحداً .

(١) الشفاء ١٠ ص ١٧٦ .

(٢) الأنعام : ٦٥ . (٣) أديب لغوى محدث توفى سنة ٣٨٨ هـ .

(٤) رسالة الخطابي ص ٣٧ - الإسراء : ٨٨ .

وإن الناظر إلى أسلوب القرآن الكريم في الخطاب والبيان ، يجده مختلفاً ، فمثلاً أحياناً يكون بالاستفهام والاستفهام أحياناً للتوبيخ ، وأحياناً للتقرير وأحياناً يكون للتنبيه ، والكلام يكون بإطناب لا حشو فيه قط ومعاذ الله أن يكون في كلامه تعالى ما يشبهه ، وفي الإطناب يكون تكرار القول ، وأحياناً يكون الكلام إيجاز ليس فيه إخلال ، وأحياناً يكون الكلام تهديداً تضطرب له القلوب وتفزع ، وأحياناً يكون توجيهاً يدعو إلى التأمل والفكر وأحياناً ببيان أحكام الحلال والحرام وتوجيه أنظار المكلفين إلى حكمها ، وكل ذلك في أسلوب متناسب مؤلفة ألفاظه ، ومؤلفة معانيه ، بحيث يتكون من الجميع صورة بيانية متناسقة في معانيها ومؤلفة في ألفاظها لا ينبو واحد منها في لفظ أو معنى بل يتآخى الجميع .

التآلف في الألفاظ والمعاني :

٥٤ - التآلف في الألفاظ ، ألا تكون بينهما نفرة في المخارج ، ولا نفرة في النغم ، بل يتلاقى نغمها ، وتسهل مخارجهما فلا تكون واحدة نايه عن أختها ، بل تتآلف وتتآخى في نسق واحد ، بحيث لا تبدو واحدة بنطق غير مؤلف مع نطق تاليتها ، أو كما قال الجرجاني في دلائل الإعجاز ، كل كلمة لقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى في معناها ، ما ائتلف السياق ولا انسجم الأسلوب ، ويقول في هذا الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) :

«واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المسمى قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت ، عهضة تفظن لما فيه ، وهو أذق من السحر ، وأهول من البحر .. وكيف لا يكون كذلك وأنت نحسب أن وضع الصبح ، في موضع الفجر يحسن في كل كلام ، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ،

وتزل عن مكان لا تزل فيه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها في مظاهها ، وتجدها في غير منازعة في أوطانها ، وتجده الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت في محل نفاذ ، ومرى شرار ، ونابية عن استقرار^(١) .

هذا ما ذكره الباقلاقي في كتابه . وإذا اطرحنا ما فيه من سجع لم يجيء على رسله ، وانجهنا إلى ما يرمى إليه وجدناه سليماً دقيقاً ، وإنه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على القرآن ، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام .

وإن التأليف ليس فقط في نسق الألفاظ ونغمها ، بل إنه يشمل التأخى في المعاني كالتأخى في المباني ، فلا يكون معنى لفظ نافرأ من المعنى الذى يجاوره ، ويتألف من الألفاظ والمعاني وما توقعه من أخيلة ، وما تثيره من معان متداعية يدعو بعضها بعضاً . ويتألف منها علم زاخر ، كثير خصب ، وقد عبر عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله: «إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، .

ولنذكر لك شاهداً على ما نقول . هو قصة الأعرابي الذى سمع قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم^(٢) » ، فأخطأ القارىء وقال غفور رحيم ، فقال الأعرابي ، إنه يقطع الأيدى نكالا ، فلا يتفق القول ، فراجع القارىء نفسه وأدرك المعنى .

٥٥ - وإن التأخى في المعاني والألفاظ ونسقتها ونغمها ومعانيها ، واضح في كل آيات القرآن ، لاني آية دون أخرى ولا في سورة دون

(١) إجاز القرآن ص ٢٨٠ طبع المعارف ،

(٢) المائة : ٣٨ .

سورة . فلا تجرد في لفظ معنى يوجه الخاطر إلى ناحية ، ويليه آخر يوجهه إلى ناحية أخرى ، بل تجرد النواحي متحدة إما بالتقابل وإما بالتلاصق والمجاورة وفي كلتا الحالتين، تجرد معنى كل لفظ يمهّد لمعنى اللفظ الآخر فلا تنافر في المعاني ، كما لا تنافر في الألفاظ. وهما في مجموعهما ينسابان في النفس غذاء رطيباً مريئاً ، ونميراً عذباً سلسبيلًا .

وقد ساق الباقلاني آيات ليست مختارة اختياراً ، لأن آيات القرآن كلها لا نظير لها ، فليس اختيار من ينتقى ، لأن كله خير وسنذكر آيات مما ذكر وأخرى لم يذكر كذا نفتح الكتاب ، فيبدو نوره فنقبس منه قبسة .
اقرأ قوله تعالى : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور، (١) .

هذه الآيات الكريمة بعباراتها وإشاراتها البيانية ، وسياقها تدل على ابتداء الرسالة المحمدية ، وانتهاء أمر الناس في الأخذ بها ، وعاقبة من اهتدى ومن ضل وعصى وغوى .

وإذا نظرت الآيات الكريمت مع ما سبقها ، وجدتها كلاماً متأخياً ، يندمج بعضه في بعضه في ائتلاف ، لا نفرة فيه ، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لحلقه ، لقد قال تعالى قبل هذه الآيات : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم ، (٢) .

ولنبتدىء بالإشارات البيانية التي وعدنا أن نذبه إلى بعضها ، فليست لنا

(١) الثوري : ٥٢ ، ٥٣

(٢) الثوري : ٥١

الطاقة إلى إدراك كهما ، ولعل غيرنا يدرك بعضاً آخر ، ولا أحسب أننا جميعاً نصل إلى كنه إشاراتها .

فمننا نجد كلمة كذلك تربط هذه الآيات بما فيها ، فهي تدل على المتواخاة بينهما ، وهي تشير إلى علو الله في المعنى الذي قرره ، إنه على حكيم ، وتشير إلى حكمة اختيار الطريقة في الرسالة المحمدية .

ولننظر في الألفاظ. نجد التآلف بينهما في النطق والنعيم ، أفلا نجد اتئلاًفاً بين كلمة أوحينا ، وكلمة روحاً ، وكلمة من أمرنا ، لا أنه إلى ما فيه من تآلف في النطق ، وتآخى في المخارج والنعيم فذلك بين لا يحتاج إلى بيان ، وهو يتصل بالنوق والجرس في السمع ، فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه إليه بالمعنى .

ولكن نريد أن ننبه إلى التآخى في المعنى لكل كلمة سبقت ؛ وما تتسع له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتآلف ، فتعطى صورة بيانية رائعة .

فكلمة أوحينا تدل على أن خطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهرأ يعلمه كل واحد ، ويسمعه كل إنسان ، فهو خطاب لرسول ، والرسالة بمجرى الأمور تكون بين المرسل ، وبين من يرسله ، والتعبير بأوحينا أبطال لقول من يقولون أرنا الله جهرة ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته الذين يقولون ، لولا أنزل عليه ملك ، أى نراه ونحسه ولذا رد الله تعالى قولهم بقوله ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، (١) .

فكلمة أوحينا مع حلاوة لفظها فيها إشارة إلى هذه المعاني وفي عمومها ،

ولم يبين نوع الوحي ، إذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامة وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة . وذلك إما برسول يشاهد يرى ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي (يراها النبي عليه السلام وحده) وإما بالقاء في الروح كما قال عليه السلام : « إن روح القدس نفث في روعي ، وإما بمخاطبة الله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان في المعراج وفرض الصلوات .

وبكل تلك الأنواع والطرق كان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم .

ونجد في إضافة الإيحاء إلى الله تعالى بيان عظمة الوحي ، وكون الإيحاء إلى النبي مخاطباً له جل جلاله إعلاء لشأنه وبذلك تتأخى في رفع شأن الرسالة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقوله تعالى « روحاً من أمرنا ، والروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس ، ويكون معنى الإيحاء الإرسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة إلى يوم القيامة وإضافتها إلى من أمر الله تعالى لتشريفها وتشريف من جاءت إليه وبعث باسمها وهكذا نجد مع انتلاف الألفاظ في النسق والنعيم وجرس الكلام تأخياً في المعاني ، فإنها كلها تدل على شرفها بعظم مصدرها وهو الله تعالى ، وكبر المعاني في ذاتها ، فكان لها شرف المعاني ، وكان لها شرف أنها من الله تعالى فأى كلام بليغ يصل إلى كل هذا في التآلف بين المعاني والألفاظ .

٥٦ - والآية السامية تحوى في سياقها ، دليل الرسالة ، فيقول تعالى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، وإن هذا النص الكريم مع إيحازه يرمى إلى ثلاث حقائق :

الأولى : أنه ما كان يعلم علم الكتابة فلم يكن قارئاً ، ولا كاتباً ، وعبر هنا عن العلم بالدراية ، لأن الدراية علم يأتي بالتعلم والممارسة ، فهو علم كسبي ، وأنه ما كان يعلم بالدراية ، ونفى الدراية في الإيمان ، لأنه لم يكن هناك من يلقنه علم الإيمان إلا أن يكون إلهاماً من الله ، تعاونه الفطرة المستقيمة ، وقد يقال إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان مؤمناً منذ بلغ التمييز وقبل ذلك ، فكيف كان لا يدرى الإيمان ، والجواب عن ذلك أنه كان موحداً ، ولكن بقية ما يقتضية الإيمان من صلوات وذكوات وتنظيم للمجتمع ، وطرق التعامل السليم ، ما كان يدرسه ، وبهذا يفسر قوله تعالى د ألم يجحدك يتيماً وآوى ووجدك ضالاً فهدى (١) .

الثانية : أن في هذا الكلام السامى حجة على أن القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمداً لم يأت به من عنده ، لأنه ما كان يقرأ ولا يكتب ، وهذا كما قال الله تعالى في سورة أخرى ، د وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تحطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطون (٢) .

الثالثة : أن قوله د ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، الدراية داخلية على الاستفهام ، فنفي الدراية متجه إلى الحقيقة أى أنه ما كان يدرى حقيقة الكتاب ، ولا تفصيل الإيمان ، وهذه تأكيد لنفي العلم بالكتاب علم دراية ، ونفي العلم بتفاصيل الإيمان علم دراية .

ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وما سبقه تتآخى مع ما بعدها وما قبلها في تقرير حقيقة ثابتة ، وهى أن القرآن روح من عند الله ، وكل روح فيها حياة ، وحياته في الشريعة التى أنزلها ، والتوحيد الذى دعا إليه ، والحق الذى أثبتته ، والصلاح الذى بثه ، ودفع الفساد فى الأرض ، ولكن القرآن

(١) الضحى : ٦ ، ٧

(٢) التكبوت : ٨

نور هذا الوجود ، ، ولكن جعلناه نوراً يهدى به من نشاء من عبادنا .
٥٧ - وننظر في النص ، وانسجام ألفاظه ، وتلاق معانيه ، وإذ لك
تجد للاستدراك هنا موضعاً طيباً ، إذ أن النص الكريم السابق كان فيه
نفى الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الإيمان والاستدراك هنا
لا يفيد أن نفى الدراية دائم ، بل إنه ينتهى بعلم الكتاب الذي هو النور
الذي يهدى به الله تعالى .

ولنترك الكلمة للباقلاني في الإعجاز فهو يقول :

د جعله سبحانه وتعالى روحاً لأنه يحيي الخلق ، فله فضل الأرواح في
الأحياء ، وجعله نوراً ، لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق ، ثم أضاف
وقوع الهداية إلى مشيئته ، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته . وبين
أنه لم يكن ليتهدى إليه . لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا
الإيمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليتهدى لولا هداة فقد صار يتهدى ، ولم
يكن من قبل ذلك ليتهدى ، أي أن القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبي
يدري ما الكتاب ولا الإيمان وبعد نزوله اهتدى ، وعلم ، وبلغ مرتبة أن
يحمل الهداية والإرشاد للناس بعد أن كان لا يدري الكتاب ولا تفصيل
الإيمان وهذا يفيد أن القرآن تعليم الله للنبي ، وللناس من بعده .

وأن الكلام السامى د ولكن جعلناه نوراً ، في هذا استعارة تمثيلية أى
أنه هو كالنور المضيء الذي لا يضل فيه السارى ، ولا يحتفى على من يبصر
بشبهه شيء ، بل إن فيه تأكيد التشبيه بحمله هو النور ، وأن الذين لا يبصرون
حقائقه ، وما فيه من علم ، العيب فيهم ، وليس فيه ، والنقص منهم ، وليس
منه ، وإضافة جعله نوراً إلى الله تعالى تشرىف له فوق تشرىف ، وهو يتفق مع
النسق الذي ابتدأ به النص الكريم ، ولكن مع أنه النور الذي يهدى - لا يتهدى
به الناس من غير أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى ، فقال سبحانه من نشاء

من عبادنا ، فبين سبحانه سلطانه على القلوب ، وخص بالهداية من شرفه بأنه من عباده تعالى سلطانه ، وقام عدله ، وفي هذا إشارة بيانية إلى أن الذى شاء الله تعالى هدايته هو من خلص نفسه ، وجعلها لله وحده ، وشرف بأنه من عباده الله لا من إخوان الشياطين .

ولقد شرف الله تعالى نبيه بأن نسب إليه هداية الإرشاد ، وبيان السبيل فهو نور معه نور الكتاب ، ولذا قال تعالى :

« ولأنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، أكد الله تعالى عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان سبيل الحق ، والدعوة إليه ، وأنه المستقيم الذى لا عوج فيه ، ولا اضطراب .

فهنا هديتان أولاهما هداية التوجيه والإرشاد وبيان الحق ، ودعوته وهى للرسول ، لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فن علم واستنار واهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما الله بظلام للعبيد والهداية الثانية العليا . وهى امتلاء القلب بالإيمان بعد أن سار فى طريقه وأرشد إليه ، وهذا لمن يشاء الله هدايته من عباده المؤمنين .

وقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك الحكيم العدل بإعطاء الطائع جزاءه من ثواب ، وما يستحقه العاصى من عقاب ، فقال : ألا إلى الله تصير الأمور ، أى وإليه وحده مآل الأعمال كلها ، وكل امرئ بما كسب رهين فمن عمل صالحا فله جزاؤه ومن عصى وبقى نال عقابه ما عمل .

ونرى من هذا تأخى المعانى فى الآيات . وتسلسل ما ترمى إليه ، فبين أولا بعث النبي عليه السلام ، وإعطاءه الدليل بمعجزة القرآن الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر ثانيا الحجة على صدق القرآن ، ثم أشار إلى أنه نور ، وذكر أن النبي عليه السلام عمله الإرشاد وبيان الحق والطريق إليه ، وأن الهداية من بعد ذلك .

هذا تأخى المعانى ، وكون كل معنى مقدم للذى يليه ، والتالى مبنى عليه
ودعامة لما بعده ، أما تألف الألفاظ فى النغم ، والحروف ، فأمر فوق
طاقة البشر .

وإنه ليتألف من هذا الكلام صور بيانية للوحى ، والقرآن ونوره
وهداية الأنبياء وموضعها ، وهداية الله تعالى ، وثمرتها فى القلوب وكونه
لعباد الله المخلصين ، لا لعبدة أهوائهم وشهواتهم .

صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم

٥٨ - تلك صورة لمن سيطر عليهم الشح فذاقوا عاقبته ، ثم تنادوا بالتوبة والتلاوة . قال تعالى :

« إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا ، وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون^(١) . »

سبحان الله تعالت كلماته ، وعز قرآنه ، وعلا بيانه ، ولعل من فضول القول أن أقول إن الآيات تصوير رائع لنفس الشحيح . وحرصه ، وندمه إن ذلك من فضول القول : لأن القرآن كله رائع لا يصل إلى روعته كلام مطلقاً ، ولا يستطيعه قائل .

إن الآيات المكرمة فيها (١) صورة بيانية لنفس الحريص العاقل عن سلطان الله تعالى (٢) وصورة بيانية لغفلة الحريص عن قضاء الله تعالى ، وأن كل شيء عنده بحساب (٣) وفيها بيان لحال المناعين للخير . وما يدور في نفوسهم (٤) وصورة بيانية للندم كيف يدخل النفوس بعد التنبه . (٥) ثم حال الندم وما يليه من توبة نصوح . (٦) ثم بيان حال الرجاء في رضا الله تعالى .

وقبل أن نتكلم في تلك الصور البيانية نقول إن الألفاظ ليس فيها نبوة تبدو ، ولو بترجيح النظر كرات ، والتناسق فيها متوافق النغم تفيد برينها ، وتصل إلى القلوب في عميقها ، والمعاني متأخية تتجه كلها إلى تصوير الطامعين أهل الشح ، وكيف يبتدىء بالحرص العنيف ، المغالى فيه ، وتغليب الطمع في كل شيء ، والاستيثاق من تحقق ما يطمع فيه ، كما يصور له الطمع ، ثم يشتم المنع حتى يكون لكل خير ، ثم تكون المفاجأة .

هذا وإن مجال التصوير يظهر في أن الموضوع كله ذكر مثلا لكل مناع للخير ، لأنه ذو مال وبنين ، ودفعه غروره ، بما آتاه الله من مال ، ثم كفر به ، واعتدى ، وكانت عاقبته أنه حرم مما طغى به وصار يوم القيامة أمام الجزاء الأليم بيد أن أولئك أصحاب الجنة وهي الحديقة المشجرة ، كانت لديهم فرصة الرجاء بعد الندم ، أما هؤلاء فقد فانت فرصة الرجاء ولات حين مناص ، ولنذكر بعد ذلك ما نستطيع الإشارة إليه من النواحي البيانية .

٥٩ - الصورة الأولى صورة الطمع المتغلغل في النفس الذي ينسيها كل شيء ما عدا ما تطمع به النفس ، فقد قال لنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستمنون .

اختبرهم الله تعالى بالطمع كما اختبر أصحاب البستان المنمر ، ونرى التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه الثبلي ، وهو تشبيه حال الطامعين الممتدين أن رأهم استغنوا لأنهم ذوو مال وبنين ، فغلبهم الطمع ، حتى أو بأهم في أسوأ الأحوال ، والعناد مع الله تعالى ، بحال أهل الحديقة إذ غرهم الغرور فظنوا أنهم واصلون إلى ما يبتغون ، وأقسموا على ذلك غير مقدرين عاقبة ، ولا حسبا لما يأتي به الله تعالى . والتشبيه بلا ريب للتقريب ، لا للمساواة ، لأن حال الكفار أشد عتواً وأبلغ غروراً ، وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراها بحال ما يقع ليس للتساوي أو لأن المشبه به أبلغ في

وجهه الشبهه ، ولكن لتقريب الغائب بتصويره بالحاضر، ومثل ذلك تصوير المعنويات بالمحسوسات ، وما يكون من جزاء وعقاب هو من المحسوسات ، ولكنه غائب .

وهنا في النص نجد تصوير النفس الطامعة ؛ إذ أنها لشدة رغبتها تتصور محل الطمع واقعا لا محالة ، ولذلك أقسموا جاهدين في قسمهم ليصرمها ، أى ليقطعنها قطعا يستأصلونها من أذناها ، وهذا اللفظ في هذا المقام أبلغ من القطع ؛ لأن الصرم قطع من الجذور ، أى هو قريب من القلع ، ولتصورهم استجابة لطمعهم أنهم واصلون أكدوا الصرم باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ولشدة الطمع لم يتوقعوا تخلفا قط ، ولذلك لم يستثنوا ، فلم يقولوا إن شاء الله ، أو لا ، لأن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستم الله تعالى . ولأن تطلعهم إلى ما تهوى أنفسهم لم تجعل لاحتمال التخلف موضعا في عقولهم ، وكانت اللمفة والحرص على التنفيذ قد جعلاهم معجابين التنفيذ ، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبئين ولا متأخرين لأن القطع أمر محبوب ، لا يرون معه إبطاء ، ولا ترثيئا ، بل يستعجلون ما يريدون بل ما يهون .

وقد صور الله سبحانه وتعالى غفلتهم عما يقدره الله تعالى ، مع أنه متحقق ، فهم يقدرون ويرغبون ، ويستعجلون ، والله من ورائهم محيط ، وقد صورت الآية الكريمة قدر الله تعالى بقوله تعالت كلماته : «طائف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ، الطائف العارض الذى يعرض ليلا من ريج صرصر عاتية ، أو عواصف تقتلع الأشجار ، وتلقى بالثمار ، وهذا الطائف بأمر الله تعالى ، فكل شيء في الوجود بإرادة الله تعالى القدير ، والصريم الأخشاب المتراكمة ، أو الأشجار القائمة المصروم ثمرها المقطوع منها ما أينعت ، وهذا بلا شك تصور بين ، لما

يجريه الله تعالى في الأرزاق ، ومهما يقدر الإنسان في كسب الرزق ويحاول التحكم فيه ، فإن الله تعالى فوق ما يقدر .

ونرى من هذا تصوير ما نفوسهم ، وبيان ما يحيط بهم في بيان متماسك في ألفاظه ، متأخ في معانيه .

٦٠ - ولقد صور سبحانه وتعالى صورة الحرص ، ومنع الخير في أعنف صورته النفسية ، فقال تعالت كلماته « فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، .

أنزل الله بالحديقة ما أنزل وهم لا يعلمون ، فكان حرصهم على ما هو عليه ، وتعجلهم لجنى الثمار ، كما هو ، وقد صور الله تعالى ذلك بذكر حالهم أنهم تنادوا ، أى نادى بعضهم بعضاً بجمعين على ما أرادوا ، أن أصبحوا في الغد مبكرين على زرعكم وثماركم الذى حرثتم أرضه ، وأصلحتم ثمره ، إن كنتم تريدون قطعه ، وقطف ينعه ، ويلاحظ أن التعبير بصارمين ، فيه معنى الإرادة الصارمة للقطع الذى لا ريب فيه .

وإن معنى التعجل والحرص قد أكد بقوله تعالى حكاية عنهم « فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، هذه النصوص تصور اجتماعاً وافتراقاً ، فقد اجتمعوا على نية القطع ، واجتمعوا على المسارعة فيه ، واجتمعوا على أمر خبيث لم يعلموه ، ولكن اتفقوا عليه في تخافت وإسرار ، واجتماع على تلك النية الخبيثة ، وإن كلمة يتخافتون تصوير لحالهم الحسى ولأمرهم النفسى ، ولمعنى المنع ، فإن الامتناع عن الخير ، لا يكون إلا بإصرار النفوس ، والتفاهم في سر ، ولا يكون في جهر ، فتخافتوا على ألا يعطوا مسكيناً ، وعبر عن المنع عن إعطاء المسكين بمنعه من الدخول ، فهم لا يمنعون العطاء فقط ، بل يمنعون من الدخول بنهى مؤكد ، وإصرار (م - ١٠ المعجزة الكبرى)

على المنع ، ولو بالدفع أو القهر ، فضلا عن الطرد والنهر ، وإغلاق الأبواب وإقامة الحراس المانعين ، وأكدوا تنفيذ فمكرتهم بما حكى الله عنهم من تأكيد المنع بالنون الثقيلة . هذه أحوال اجتماعهم ، أما افتراقهم فهو دخولهم على الحديقة ، متفرقين كل في جانب منها ، ودل على ذلك قوله فانطلقوا فهم ذهبوا ليقطعوا ، ويجمعوا كل في جانب تجمعهم فمكرة التعجل ، والتصميم ، والإلحاف في منع المساكين ، وقال تعالى في تصوير تهجيلهم مع سيطرة فمكرة المنع عليهم ، وغدرا على حرد قادرين ، فغدوا معناها أقدموا في باكورة الغداة . والحرد معناها المنع والتشدد فيه ، والمعنى أنهم أصبحوا قاصدين القطع ، ومعتمدين المنع من حق الفقير بل منع دخوله ، وموضع قادرين هنا هو وصفهم بالقوة على العمل والتنفيذ والمنع بكل وسائل .

هذا تصوير لا تعرف اللغات تصويراً للحرص والتعجل ، والاستيثاق بالإيمان وعدم التردد فيما يعملون ، ونية السوء ، والتخافت فيها - مثله ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأنوا بمثله لا يأنون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

٦١ - ولكن الآيات الكريمات بعد تصوير حالهم هذه في التعجل والحرص ، لتصوير المفاجأة ، وتنبيه المفاجأة للغافل وإيقاظها للضمير النائم ، وإثارتها للوجدان الساهى ، فيقول سبحانه في رويتهم لتهدم ما بنوا عليه إشباع طمعهم ، وما حملهم على نية الشر ، فقال تعالت كلماته .

فلما رأوا قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون .

كانت المفاجأة بمقدار الحرص والطمع . واسترسلهم في المطامع المادية حتى استأثروا بها ، ولم يعطوا منها حق الفقير المسكين والسائل والمحروم ، وإذا كان حرصهم يبلغ أقصاه ، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعاً ، أصابتهم بالحيرة الشديدة ، والضلال البعيد ، وأرل الضلال أنهم توهموها غير أرضهم ،

فلما استيقنوا أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا في النفوس وتأثيراً في القلوب ، وهو إحساسهم بالضلال المعنوى إذ قدروا ، ولم يدركوا تقدير الله ، وحسبوا أن الأمر إليهم وحدهم ، والله فوقهم ، فلما أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية ، وهي أن الله تعالى قدر حرمانهم ، وما قدره نافذ لا محالة ولذا قالوا كما حكى الله عنهم مؤكدين « بل نحن محرومون ، فالإضراب معناه هنا أنهم ترقوا من حال الضلال المؤكد إلى حال الإيمان بالحرمان المؤكد .

وإن قوله تعالى عنهم « بل نحن محرومون ، بعد «إنا لضالون» فيه إشارة واضحة إلى الأسف والألم المرير ، أم الضال ، والحرمان من الهداية ، ثم الحرمان المطلق من الثرات التي طعموا فيها ، وتحافتوا على ألا يعطوا الفقير ، وإذا كان قد اجتمعوا على ما كان منهم أولاً ، فقد اجتمعوا على المفاجأة والحرمان ثانياً ، ولكن يظهر أن الشر لا يمكن الإجماع عليه دائماً ، بل لا بد من قائم لله تعالى بحجة ، وإذا لم يستمع له قول ابتداء فإن قوله سيكون له صدق في النتيجة بعد أن تقبدي الأمور وتنجلي .

وكذلك كانت حال أصحاب الجنة ، فقد كان فيهم رشيد ينجيهم إلى خطأ ما أزمعوا أن يفعلوه ، وقد حكاها الله سبحانه وتعالى بقوله « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، .

الأوسط هو الأمثل ، والوسط في أوصاف الخير هو الأمثل دائماً ، ومن ذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً »^(١) وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطعمهم ، وما يسرون به وما يجهرون ، وما يتخافتون وما يعلنون لاحظ أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكان لا بد لكي يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه في أعمالهم ظاهرة وباطنة ،

فهم لا ينقصهم الجسد في العمل ، ولكن ينقصهم الإيمان ، فقال لهم
« لولا تسبحون ، أى هل تسبحون وتنزهون الله تعالى ، وتقديسونه ،
وتعلمون أنه القاهر فوق كل شيء ، وأنه العليم الحكيم ، وهنا كان فيما حكاه
الله تعالى بالتعبير « ألم أقل لكم لولا تسبحون ، الاستفهام الداخلى على النفي
فى معنى الإثبات ؛ لأن نفي النفي إثبات ، وهو يدل على التوبيخ ، وتذكيرهم
بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد ، فقد أرشدهم إلى الطريقة
المثلى والمنهاج الأسلم ، وهو الإيمان بالله تعالى وتقديسه وتنزيهه ، والإحساس
بأنه الغالب على كل شيء القاهر فوق عباده .

٦٢ - إن المفاجأة مع التذكير ، ووجود الضمير والنفس الواوامة من
شأنها أن تحيى موات القلوب ، وخصوصاً أنه وجد من بينهم من ربط بين
الحرمان الذى فوجئوا به ، والضلال الذى كان من نسيان ربهم ، وحرصهم
وطمعهم ، وتفاهمهم على حرمان الضعيف مما أخرج الله تعالى من الأرض
كان ذلك كله سبيل الهداية التى تحيى ، ومن القارعة التى تفرع الحس والنفس
تذهبوا فعلوا ما ينقصهم ، وأنهم لهجوا فى الدنيا ، ولم يذكروا الله تعالى
خالق السموات ، فقالوا فيما حكى الله تعالى عنهم « قالوا سبحان ربنا إنا كنا
ظالمين .

بعد أن تذهبوا من غفلتهم ، واستأنسوا بالحق من تذكير أمثلهم طريقة
استجابت نفوسهم لداعيه ، وعلموا أمرين : علموا أنهم كانوا غافلين عن
ربهم ، وعلموا أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس فيما تحافتوا به ، قالوا فى
إعلان إيمانهم بالله ، « سبحان ربنا ، مقدس ونزه ونسلم أمورنا ، لربنا
الذى خلقنا وربانا وهو الحى القيوم القائم على كل شيء . فرجعوا بذلك
إلى الله تعالى خالق كل شيء ، ولكن لا يكون الرجوع كاملاً ، إلا إذا تابوا
توبة نصوحاً ، وأحسنوا التوبة وأول طريق للتوبة الإقرار بالذنب لإقرار

من يحس بذل المعصية ، وذل الذنب قربه ، كما يقول ابن عطاء الله السكندري « إن معصية أورثت ذلاً خيراً من طاعة أورثت دلاً ، ولهذا الإحساس بالذنب ، قالوا مؤكدين القول « إنا كنا ظالمين ، لقد ظلموا أنفسهم بطمعهم وحرصهم ، ونسيان ربهم ، وظلموا الناس بمنع الفقراء من حقهم وإن الإحساس بألم المعصية من شأنه أن يجعل كل واحد يلقى تبعه التقصير أو التنبه على غيرهم ، فهم كانوا مجتمعين على طمعهم وحرصهم وتعجلهم ، ولكنهم بعد أن أحسوا بجرمهم أخذ كل واحد يتبرأ من أنه الذي ابتدأ بالدعوة بالمعصية ، وأن الآخر هو الذي دعا فأجاب ، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم بعد أن دخل الإيمان قلوبهم وأشر بوا حبه « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، كل واحد منهم يلقى على الآخر لوماً ، لا كل اللوم ، فإنهم جميعاً ملومون لأنهم جميعاً . نوا ، وهموا أن ينفذوا ما نوا ، والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الدميم ، ولكنه من الإحساس الكريم ، إذ أنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملاً ينوء بكل واحد منهم ، فيريد أن يلقى جزءاً منه على صاحب له وإن اتفاقهم لا يجيء من غير داع منهم ، فإذا كان أوسطهم دعاهم إلى الخير ، ولم يستجيبوا ، فقد وجد منهم من دعا إلى الشر واستجابوا له ، وكان شرهم متعدد الأطراف ، فكان من كل منهم من دعا إلى ناحية دون الأخرى ، وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام ، بل إنه في هذا لا ينافي الالتئام .

ولأنهم ينتهون من هذا التلاوم الذي ابتدأ بالألم من عبء المعصية ينتهون بعد التلاوم لفرط إحساسهم بالندم إلى أن يقولوا « قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، كان الإقرار بالذنب في هذه المرة أقوى من الإقرار أولاً ، لأنهم أحسوا بالهلاك الشديد ينزل بهم ، قالوا منادين الويل : يا ويلنا ، أي أيها الويل النازل باستحقاق أقبال فإن ذلك وقتك ونحن موضعه ولا تنزِيل عنه ولا نخرج ، وعللوا الويل الذي يستحقونه بأنهم كانوا طاغين ، والطفبان دائماً

يؤدي إلى الظلم ، فإذا كانوا في الآية السابقة قد اعترفوا بالظلم في هذا النص السامى اعترفوا بسببه ، وهو الطغيان ، والطغيان يجعل صاحبه يحسب أن قدرته ليس فوقها قدرة ، والإحساس بالطغيان يبتدىء من وقت أن يحس الشخص بأنه أستغنى عن معونة غيره ، كما قال الله تعالى : وإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (١) ، وقد ظنوا أنهم لا يحتاجون إلى معونة أحد ، وأن الله لا يمنعهم خيراً أو توه ، وأن الأرض أرضهم والعمل عملهم ، والكسب كسبهم وحسبوا أن الثمرات آتية لا محالة .

بعد ذلك اتجهوا غاضبين إلى ربهم معتقدين أن الخير بيده ، وأن لاساطان إلساطانه فاتجهوا بالرجاء بعد أن رأوا المنع جهارا نهارا وقالوا راجين : عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون ، هنا كان التفويض كاملا ، وإن ذلك النص الكريم يفيد في تفويضهم ثلاثة أمور في أجمل تعبير من الله تعالى عن ضمائرهم الخائفة ، بعد أن خلعوا رداء الطغيان .

أولها - الرجاء ، والرجاء يتضمن معنى التفويض من ناحية أنهم لا يرجون إلا من الله ، ومن ناحية أن كل ما يكون من الله تعالى - خير ، فإذا كان نزل بهم ما يكرهون ، فعسى أن يكون الخير في هذا الحرمان ، كما قال تعالى : فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (٢) ، ومن الخير أن هذبت نفوسهم ، وإذا كان حالهم من قبل حال طغيان وغرور ، فعسى أن يعطيهم الله تعالى بديلا لما منعه ، ويكون مع الاطمئنان .

ثانيها - الانجاه إلى الله تعالى مالك أمورهم ، ومربيهم ، والسكاليه لهم والحامى ، والشعور بانسواة مع المساكين في ربوبية الله الخالق لكل شيء .

ثالثها - قولهم : إنا إلى ربنا راغبون ، ولا أحسب أنه يمكن أن نضع كلمة مكان راغبون ، مع إلى ، وتجدي في هذا التعبير إشارات بيانية رائعة ،

أولاًها في تكرار كلمة ربنا للشعور بنعمه سبحانه الظاهرة والباطنة والثانية في تقديم الجار والمجرور على خبر إن ، فإن ذلك التقديم للقصر ، وهو يفيد أنهم لا يرغبون في مال ولا نشب ، ولا يحسبون شيئاً يمكن أن يكون بغير إرادة ربنا ، إذ كانوا قد حسبوا أنهم بجهودهم يصلون ويمنعون الماعون ، ويقسمون ألا يدخلونها مسكين ، ولكنهم الآن لا يتجهون إلا إلى الله تعالى العلي القدير ، والتعبير براغبون يفيد أنهم يسرون في طريق الله تعالى وحده برغبة ومحبة ، فهم يطلبون طريق الله تعالى لا خوفاً من عقابه ، ولا رجاء لثوابه فقط ، ولكن محبة لذاته العلية ، فانتقلوا من دركة العصيان إلى مرتبة المحبة وطلب الرضوان .

٣٣ - ونرى في هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التي تشتمل على العبرة الواضحة فيها تتلاقى المعاني وكل معنى ردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه في تأخ بين جزئياته ، وتعاقب مع كلياته ، كل جزء من الكلام يوعز لما يليه ، وفيها الألفاظ مؤتلفة في نغم يهز النفس وتآلف بين الألفاظ مفردة ، وجملاً ، وفيها تصوير للنفس الإنسانية كيف يدخل إليها الطمع ، ومع الطمع الشح ، وإذا سكن الشح قلباً دخل منه الظلم وهضم الحقوق ، وإنه لكي ينجو المؤمن من أن يكون ظالماً عليه أن يراقب مداخل الشح إلى نفسه ، فإن سد طرقها إليها ، فقد فاز ، وكان عادلاً ، كما قال تعالى في سورة أخرى : « ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » (١) فإن وراء الشح الهلاك ، ووراء السباحة الفوز .

وإن الآيات تصور لنا حال من يغتر ، ومن يطغيه الاستغناء ، ومن يحرم نعمة الاعتماد على الله تعالى والتفويض إليه ، ثم حاله عندما يفاجأ ، فيجد قدر الله تعالى أمامه يرد عليه طغيانه ، ثم تصور النفس التائبة ، وذلك كلام العزيز الحميد .

النفس الفرعونية

٦٤ - وإذا كانت هذه الآيات التي تلوناها تصور النفس التي تطغى أن رأتها استغنت ، وحسبت أنه لا قدر فوق ما تقدر ، وكيف تفاجأ بقدر الله فتنبه ، فقد صور الله تعالى في كتابه العظيم ، النفس التي تطغى ، فتتغطرس فتمتلك في الرقاب ، وتفرق بين العباد ، فهذه يأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ولا مكان لتوبتها ، إذ تفاجأ ، لأنه لا يكفر ذنوب العباد إلا لردّها ، ولا سبيل لرد ما فعلوه ، ثم كان فسادهم ، وتضييعهم الناس ، ولذلك يؤخذون بذنوبهم . وقرأ قوله تعالى : إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، فبذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من الفسدين ، وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (١) .

ولا شك أن نسج الآيات مناسك ، بخيوط دقيقة غير قابلة لأن تنقطع وهي واضحة في تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو في الأرض ، وكيف يتحكم ، وقد قال في صيغة العبارة الباقلائي بالنسبة للآية الأولى :

هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضيائها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورواقها على ما تعان ، وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق ببذبح الولدان ، وسبي النساء وإذا تمكّم في هذين الأمرين ، فما ظنك بما دونهما ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التنظيم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده بالتخليص بقوله ، وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس (٢) .

هذا ما ذكره الباقلاني من ناحية التآخي في الألفاظ والالتحام في نسجها ، وإنك لتجد ذلك التآخي في سوق العلو الذي تعالى به وهو في الأرض ، فقال تعالى دعلا في الأرض ، فهو علو من في الأرض ، ولاصق بها ، فليس يعلو إلى السماء ، ولكنه مستمر في الأرض ، فهو استعلاء . وليس بعلو ، والاستعلاء طلب للعلو ، أو الإحساس به ، وليس قائما على أي اعتبار ، فكان ذلك التقابل في اللفظ من حيث الانسجام ، ومن حيث المعنى فيه دليلا على أنه استكبار وليس علواً في ذاته .

ولكن كيف يستقيم له هذا العلو ، وهو لاصق في الأرض متنقل فيها ، إنما هو العلو في الكبر ، وحمل الناس على الإقرار أو السكوت ، أو ظهور الرضا وما هم براضين ، لأن أساس الرضا التخيير ولا اختيار ، فإن لم يكن فلارضا ولننتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم إلى ما سلكه لحمل الناس على السكوت عنه ، أو الخضوع له كارهين وإن مردت نفوسهم على الخضوع ، حتى صاروا كالطائمين ، وذلة الإحساس بالتحكم قارة في نفوسهم حتى أخضعتم ، فجعلتها خانعة . وأظهرتها راضية ، ولارضا عندها لأنه لا اختيار لها فيما تختار .

ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسلكه أي طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون في كل زمن ، وفي أرض كالأرض مصر ، وناس كناسها ، كما أشار إلى أنه عمل على تفريق جمعهم ، ونشيت أفعالهم ، وصاروا متفرقين في ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا ثورة على ظلم ، بل كان يقول لهم في استكبار «أنا ربكم الأعلى» ، ويقول في استنكار «ما علمت لكم من إله غيري» (١) .

وقد قال تعالى فيما سلكه «وجعل أهلها شيعاً» ، وهنا نجد كلمات ثلاثاً ،

كل واحدة منها تنبئ عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والالتئام ،
فكلمة جعل هي بمعنى صير . وهي تدل على أنهم كانوا متحدين في المشاعر
والأحاسيس متفقين في المنازع ، والمطامح والآمال فجعلهم متفرقين متشدين
في غير اجتماع ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، والكلمة الثانية أهلها فهم
كانوا قبلها أهلاً - أى أنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين ، فلما يعلو عليهم
أجمعين فرق جمعهم وشقت شملهم ، فكيف يعلو لإنسان مهما يكن طاغوته
ومهما تكن قسوته وغلظته وحيالته على قوم متحدين مجتمعين ، ولكنه
يخذل بينهم ، ثم يملك عليهم .

والكلمة الثالثة كلبه شيعه ، فإن الشياح يتضمن معنى الانتشار ، وأن
يقوى جزء على الآخر بحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر ، وأنه لا تربطه
به رابطة ، ولا يجمعهم به قومية أو رحم ، أو تشابك المصالح ، ودفع
المضار ، فإذا كانوا كذلك استعلى واستكبر ، ولا يجد من يرده عن غيه ،
ويقمعه في شره ، فيكون الهلاك ، وتقطع الأسباب .

وإن النتيجة التي تكون أثراً لذلك ، أن يجعل من طائفة منهم بطانة
له ، وجنداً يستنصر بهم ويتخذهم أسواطاً يضرب بها غيرهم ، ويتحكم في جمعهم ،
ولذلك قال تعالى في ذكر هذه النتيجة الحتمية التي تتبع التفرق تبعية
المسيب لسببه ، والنتيجة المقدمة : يستضعف طائفة منهم ، أى يصور
طائفة منهم ضعفاء ، أو يطلب ضعف طائفة منهم ، ويتبعه ، وهنا إشارة
بيانية رائعة لا تكون إلا في القرآن الكريم ، وهذه الإشارة هو أنه ذكر
الطائفة المستضعفة ، ولم يذكر الطائفة التي جعل فيها قوته يضرب بها رقاب
الناس ، والسبب في أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة ، لأنها وإن لبست
لبوس القوة ليست في حقيقة - أمرها قوية في شيء ، لأنها ليس لها اختيار فيما
اختارت ، ولأنها لا تملك من أمرها شيئاً بل مسخرة لطفواه ، مرادة له ،
وليست بمريدة فيما تفعل ، والقوى هو الذي يفعل ما يريد هو لا ما يريد
غيره ، ويعمل ليرضى شهوة نفسه لا ما يرضى غيره وليس هو من تكون

إرادته فانية في إرادة غيره قد ليس جلد النمر ، وما هو إهابه ، وإذا كانت الطائفة المستضعفة إينذاؤها بدنى مادي . فهو لاء الذين ظهروا بمظهر القوة إينذاؤهم معنوى ، وهو فناء لإنسانيتهم وإرادتهم وتفكيرهم ، وكل مكونات الإنسان الكامل ، فهم ضعفاء ، وإن ظهروا كأنهم الأقوياء ، فجود الساطان الغاشم لا يعتبرون الأقوياء ، لأنهم أداة طائفة ، وإمعات طامعة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذكر الضعفاء تمهيداً لبيان مظاهر الطغيان الذى يفعله الملوك مع من يتحكمون فيهم بحكم الهون والفساد ، لا بحكم المصلحة والرشاد ، وأنهم يرتكبون أقصى ما تتصوره العقول من تذيبح وتقتيل ، ولذا قال تعالى «ينذج أبناءهم ، ويستحي نساءهم» ، وإن ذلك شأن الطغيان دائماً ، يقتل نخوة الأمة بقتل شبابها ، أو زجهم في غيابات السجون من غير أمد ، ومن غير حكم ، كما رأينا في حكم الدكتاتوريات في ألمانيا ، وفي إيطاليا ، وهكذا ، وقد رأينا مثل ذلك في العراق .

وقد ختم الله تعالت كلماته بالنص السامى بالبائع على الطغيان والتحكم والاستعلاء ، وتفريق الأمة ، فقال : «لانه كان من المفسدين» ، أى أن الفساد مستحكم متغلغل في أطواء نفسه ، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة ، وتحكيم طائفة في طائفة ، فأغرى بينهم بالعداوة والبغضاء ، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم ، وظالمه هو الفريق الآخر ، يتظالمون فيما بينهم ، ويتعادون ، ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم في رقابهم ، وأن يقول لهم «أنا ربكم الأعلى ، ولا ينكر أحد ، ولو في قلبه ؛ لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه ، ويريد النكاية به .

وقد أكد سبحانه وصف الإفساد فيهم بان وبكأن الدالة على أن الفساد كان في الماضى ، ومستمر في الحاضر ، وبيان أنه داخل في ضمن المفسدين في الأرض إخوان إبليس ، وينطبق عليه قوله تعالى في شأن الظالمين الذين

يؤمنون الناس الأمانى ويكذبون ويخلفون ، ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد^(١) .
وإن هذا الوصف الذى ساقه الله تعالى للوالى الفاسد ، هو وصف فرعون ، ومن استعلى واستكبر ، ووصف لكل طاغية من طغاة الدنيا يعنى الناس بالأمانى ، حتى إنه ليصور لهم أنه سيجعل لهم الأرض نعيماً ، وخيراتهما ابناً وعسلاً ، حتى إذا حكم تحكماً ، وكان شهوته نظاماً ، وهواه حكماً ولا بدأن يرضى الناس حكومته طوعاً أو كرهاً ، ومن قال له اتق الله قطع عنقه ، أو سلط عليه كلابه الذين جعلوا أنفسهم ملكاً له ، يملك رقابهم ، ويظنون أنفسهم الأحرار ، وهم العبيد حقاً .

٦٥ - هذا ما تصوره الآيات في وصف فرعون وأمثاله من الطواغيت الذين يظهرون في العصور المختلفة ، وإذا لم يتسموا باسم فرعون ، ففيهم صفاته وفعاله ، وفي أتباعه أوصاف أتباعه ، والمستضعفون ما كولون في عهدهم ، كما هم ما كولون في عهده .

وبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون ، كان من نسق البيان الرائع أن يذكر نهايته ، وأنه إذا وصل الطغيان إلى أقصى حده ، كانت النهاية ، ولذا ذكر سبحانه وتعالى في مقابل إرادته الإفساد ، وكونه متغفلاً في كيانه ذكر في مقابلة إرادة الله تعالى ، وإرادته سبحانه فوق كل إرادة ، ولو كانت طغيان فرعون ، ولذا قال سبحانه في بيان إرادته ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون^(٢) .

(١) البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦

(٢) القصص ٦٠ ، ٥١

إرادة طاغية مغرورة مستكبرة ، وهي إرادة الطغيان ، وإرادة كريمة معطية مانحة مانعة من الشر والعيث ، وهي إرادة الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يمن على المستضعفين ، ونجد هنا تعميما في المن ، فلم يذكر سبحانه وتعالى ما يمن به ، بل كان التعميم ، فهو سبحانه يمن عليهم بالحرية بعد الاستعباد ، ويمن عليهم بالقوة بعد الضعف ، ويمن عليهم بالعزة بعد الذلة ويمن عليهم بالثروات بعد الجذب ، وهكذا تتعدد النعم التي يمن بها سبحانه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها (١) . وكل هذه المعاني هي بعض ما تدل عليه كلمة نمن ، وخص سبحانه من بين هذه النعم التي يمن بها نعمة كبيرة هي الخلاص من حكم فرعون إلى أن يكونوا أئمة ، أى ولاية لأنفسهم لا يملك أحد التحكم فيهم ولا السيطرة ، فكل حر أمير في نفسه ، ويجعل منهم أمراءهم وأولياء أمورهم ، لا يفرض عليهم أمير لا يرضونه ولا ولى من غيرهم ، وآراؤهم فى حكمهم هي الغالبة فلا يحكمهم متحكم ، ولا يسير أمورهم متغلب ، فانظر كيف جمعت الكلمة كل هذه المعاني ، وجاءت من بعد ذلك كلمة تدل على كمال إرادته سبحانه فى هذا الوجود فقال ، ونجعلهم الوارثين ، ونجد أنه سبحانه لم يبين الموروث ، وفيه إشارة إلى عموم ما آل إليهم ، إذ أنهم سيخلفونه فى جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ولكن يكون لهم هذا إذا استقاموا على طريقة الحق ، ولم يخرجوا عن جادته ومنهجه ، وغير ذلك .

بعد هذا يبين سبحانه وتعالى أن طغيان فرعون انتهى بالفناء وأن بذوق عاقبة أمره ، كما اغتر أصحاب الحديقة بجديقته المذكورة ، فقال تعالت كلماته .

، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ، .

التمكين كان بإعطاء سلطان لهم في الأرض ، إذا استطاعوا القيام بحق التمكين ، فإنه يحتاج إلى قوى نفسية عالية وإدراك لمعنى العزة والكرامة ، ولم يمدوا على الذلّة والمهانة .

ثم يبين سبحانه عاقبة الظلم ، وأنه لم يدفع المحذور ، فقال تعالى : ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

لقد كان فرعون وحده ووزيره ، وجنودهما تابعين غير مستقلين في فكرة أو إرادة منهم ما كانوا ما يحذرون ، وهو أن يدبر الناس ما ينتقضون به على حكمهما ، أو يقتلوا فرعون ، فقد أراهم رب العالمين ، فكان موت فرعون على ما قدره الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه وهكذا كل طاغية ، يطغى ويستبد ، ويرتكب الفجور في كل ناحية ، حذر أن تخرج خارجة ، وبعد أن يكون منه وما يكون من مثل ما فعل فرعون ، ثم تكون من بعد كلبه الله تعالى هي العليا ، ويقع المحذور في وقت لا يملك الرجوع ، كما قال فرعون ، قد أدركه الغرق . قال وآمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون، (١) .

٦٦ - وبعد ذلك البيان الذي حاولنا به الوصول إلى بعض أسرار المعاني القرآنية التي تعلو ولا يعلى عليها ، واليانعة الثمار الدانية القطوف في أعلاها ، والثروة الخصبية المملوءة حياة في أدناها . كما قال البليغ العربي القرشي يزيد أن نشير إشارة إلى ما وصل إليه تفكيرنا في إجمال ما سبق ، فنجد :

أولا - انساق العبارة في المقابلة بين العلو المصطنع والاتصاق

بالأرض ، الذى يفيد مع هذه المقابلة اللفظية أنه سيطر على الأرض واستمكن فيها وتحكم حتى ساغ له أن يقول : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، (١) » .

ثانياً - أن التعبير باستضعاف طائفة منهم فيه إشارة إلى أن الضعف ليس طبيعياً فطرياً ، ولكنه يكون بالاستضعاف وأن كل من يراد على الضعف لا يستسلم فيستضعف ، بل يتقاوم ويناضل ، فيموت عزيزاً ، أو يمنحه الله تعالى القوة وإن الرضا بالذل يؤدي إلى الموت ، وطلب العزة يؤدي إلى الحياة ، وكما قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « اطلب الموت توهب لك الحياة » .

وثالثاً - أن الاستضعاف يؤدي إلى الموت لا محالة ، ويكون الموت على نحو لاكرامة فيه ، وصوره سبحانه وتعالى بقوله تعالى :

« يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، فهو موت ذليل فيه خسة الذل ، وقتل النخوة ، أما الموت فى سبيل الكرامة فهو موت عزيز كريم ، ورحم الله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إذ يقول : « إن موتاً فى سبيل الحق هو عين البقاء ، وحياة فى ذل هى عين الفناء » .

رابعاً - أن القوة تكون للقوى بتمكين الله تعالى وبمشيئته ، وذلك بأن يهيء الأسباب ليستبدلوا بضعفهم قوة فيمنحهم الأمن ، وذلك بأن يجعلهم يشعرون بأنهم سادة ، وليسوا عبيداً ، وهذا يتضمنه التعبير بقوله تعالى ويجعلهم أئمة ، أى يجعلهم مسيطرين على أنفسهم ، كما نوهنا فيما ذكرنا من قوله تعالى كما من الله تعالى على بنى إسرائيل إذ جعلهم مالكيين لأنفسهم مسيطرين على أمورهم إذ قال تعالى : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا

نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤث
أحداً من العالمين^(١) ، ومعنى جعلهم ملوكا أنه سبحانه وتعالى جعلهم أحراراً
يملكون شئون أنفسهم . ويتولون أمورهم لا مسيطر يسيطر عليهم .

هذه نظرات إلى النص القرآني الكريم في بعض شأن فرعون ومآله ،
ومن يجرى في حكم شعبه على طريقته ، ويتحكم في الرقاب تحكمه ، ونجد
فيه جمال اللفظ ، وجمال القصص ، والألفاظ التي تشع منها المعاني كأها
الضياء المتأليء والماء العذب النير الذي ينساب في النفس المؤمنة ، والله
سبحانه هو العلي الحكيم ، وكلامه هو النور المبين الهادي إلى رب العالمين .

قوة البلاغة في الأسلوب من كلمات متألفة

٦٧ - يقول الخطابي في رسالته في إيجاز القرآن في بيان البلاغة القرآنية : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه إما تبديل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الروق الذي يكون منه سقوط البلاغة ؛ ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكانمت والصفة ، وكقولك أقعد واجلس وبلى ونعم ، والأمر في ترتيبها بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظاً خاصة تميز بها عن صاحبها .

وهكذا يسترسل في بيان التفرقة بين الألفاظ ، ويضرب الأمثلة في القرآن ، وفي اللغة في التفرقة بين الألفاظ التي يزعم أنها تدل على معنى واحد يؤديه كل واحد منها من غير افتراق في المؤدى مع أن المؤدى مختلف متباين .

ولأنه يذكر أن ألفاظ القرآن مختارة تدل على أدق معانيها ، فمثلاً ذكر عن إخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا أكله الذئب ، ولم يقولوا افترسه ، لأنهم لو قالوا افترسه لطلبهم ببعض أثره ، والأكل إفناء الجسم في جسم .

وإن الخطابي ليقول في بحثه القيم : « اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح (م ١١ - المعجزة الكبرى)

المعاني من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ،
وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتخريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ
وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق
وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء منها في موضعه الذي لا يرى شيء
أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه .

وإذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى الذي لا يمكن
أن يناهذ إلى سمائه إنسان أو جن ، شرقي أو غربي ، فإن في القرآن مع جمال
الألفاظ ورونق الأسلوب ، خاصة لا يصل إليها أحد في الألفاظ والأسلوب
والمعاني .

وقد قسم الخطابي الكلام البليغ إلى أجناس ثلاثة ، ومراتبها في نسبة التبيان
متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ،
ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، وهذه أقسام الكلام
الفاضل المحمود ، دون النوع المهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن
شيء منه البتة .

وإن هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدي عليه ملاحظة
لاحظناها ، إنه يفرض أن الكلام البليغ يتفاوت بتفاوتته في الجزالة والسلاسة
والسهولة ، وهذا يوم أن القرآن الكريم يتفاوت بلاغته ، وهذا الزعم
باطل ، فالقرآن كله رتبة واحدة في البلاغة في المنزلة التي لا يمكن أن يسمو
إليها بليغ ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقاً لمقتضى الحال ، فالعبارات
الجزلة القوية تكون في موضع الإنذار ، والعبارات السهلة غير المسترسلة
تكون في التبشير ، والعبارات المسترسلة في مواضع التنبيه إلى وجوب
التفكير والتدبير ، وكل بليغ في موضعه ، ولا يختار سواه ، فلا تكون
عبارات الإنذار كعبارات التبشير ، ولا تكون عبارات الدعوة إلى التأمل

كعبارات التهديد والتخويف ، هذه ملاحظة أبديناها ، على عبارة الخطابي ، وكان حقاً علينا أن نبدئها فلا نجعلها تمر بغير تعليق .

وإن الخطابي قد بين أن القرآن الكريم قد اشتمل على الأجناس الثلاثة في عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبية ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة ، والعدوبة ، وهما على الأفراد كالتضادين ؛ لأن العدوبة تناج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمور دينه ، وإنما تعذر على البشر . الإتيان بمثله لأسباب ؛ منها أن علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبالفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها غير كامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع وجوه النظم التي بها يكون اتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، ... وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظم .

وإننا نوافق الخطابي في أن عدم قدرة البلغاء من الناس على الإتيان بمثل القرآن من أسبابه نقص علمهم باللغة ، جزؤها وسهولتها ، وعدم علمهم بالمعاني وأنى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً .

ونقول من ناحية ثانية : إن البلغاء من الناس يختلفون جزالة وسهولة واسترسالاً ، تبعاً لطبائعهم وبيئاتهم وما يتجهون إليه ، فالفرزدق كان يميل إلى اختيار الألفاظ القوية ، أو الحوشية ، ويتقحم بذلك الوعر من القول وقالوا إنه كان يحاول أن يهجم البديين من الجاهليين ، وجرير يتخير السهل العذب من الألفاظ ، وكذلك كان الأمر في شعراء الجاهلية

فامرؤ القيس كان يتخير الوعر الجزل من الألفاظ ، وهو يقيم في الصحراء العربية ، ولانت ألفاظه لما كرته الكوارث ، ورحل إلى أنقرة ، وهكذا . فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عدوثة الألفاظ ، ومنهم من غلبت عليه جزاتها وقوتها ، بل وعورتها ، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله ، وتغير البيئات عليه .

هذا في بلاغة البشر ، أما القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شيء القادر على كل شيء ، والخالق للناس وبيئاتهم ، فكان في كلامه المبين ، كل أجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت في البلاغة القرآنية ، وإن اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوى : وعذب نهيل ، وكلام مرسل ينساب في النفس انسياب النмир ، وكل في موضعه .

التلاؤم

٦٨ - يقصد بالتلاؤم في الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا ، والانسجام في النغم بينها ، ويعد القاضي عبد الجبار أن تأخى النغم في الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته ، ولكننا نقول إنها بالنسبة للقرآن الكريم من تأثيره في النفوس ، فهو في القرآن طريق الوصول إلى القلوب ، وإن نظمه على ماسنين يسير هو وأسلوبه بألفاظه ومعانيه إلى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضي ليعلو بها إلى الأفق السماوي .

ويذكر أبو عيسى الرمانى فائدة التلاؤم فيقول : « والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراء الكتاب في أحسن ما يكون الخط والحرف وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت في الصورة . وإن كانت المعاني واحدة ، .

وإن الكلام يذاق كما يذاق الطعام ، فكما كان التنسيق والتلاؤم حسن في الذوق .

وإن لغتنا العربية لغة نطق ابتداء ، وصارت من بعد لغة كتابة ، ولم تنفصل عنها خاصتها ، فهي نطق وكتابة ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر في فصاحة الكلام . ولا شك أن مخارج الحروف مختلفة منها ما يكون في أقصى الحلق ومنها ما هو من أدنى الفم . ومنها ما هو في الوسط بينهما ، فالتلاؤم فيها بأن تكون الكلمة حروفها متقاربة المخارج ، والكلمات متقاربة المخارج ليسهل النطق على اللسان ، وتقبله الأسماع .

فإذا أضيف إلى ذلك التأخي في المعاني كان التلاؤم الكامل ، والأسلوب الرائع ، وذلك ما جاء في القرآن .

٣ - تصريف البيان

٦٩ - اختلفت مناهج البلغاء كتاباً وشعراً ، كل يجيد منها جاً معيناً ويمتاز فيه ، ويكون من الأوساط في غيره أثر دون الأوساط ، فمنهم من يجيد الوصف ، ويحكي الأشياء لقارئة كأنه يراها ، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف ، ولا يكون منه السهل الميسر ، ومنهم من يجيد شعر الغزل ، ولا يجيد غيره ، ومنهم من يجيد القول الساخر ، ولا يجيد القول الجاد كما نرى في بعض كتاب العصر ، ومنهم من يجيد الكتابة في السياسة ، فإذا كتب في غيرها هان وابتذل ومنهم من يجيد الكتابة في التحليل ، وإثارة التأمل ، وهكذا ، وقل من يجيد الدخول إلى الكلام البليغ في أكثر من باب أو بابين ويكونان متأخيين ، غير متناقضين .

أما القرآن المعجز الذي هو فوق قدر البشر ، فإن البلاغة فيه في كل أبواب القول ، وهي في كل باب تعلق علواً كبيراً عن المجيدين في هذا الباب وحده ، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وإنذار وتبشير ، وإثارة للتأمل ، ودعوة للتفكير في آيات الله تعالى الكونية والقرآنية ، والتفكير في النفس وفي الحس ، كل ذلك من دلائل الإعجاز وسره .

ولقد قال سبحانه في ذلك : ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذروا ، وما يزيدهم إلا نفوراً^(١) ، أي أن التصرف لزيادة التنبيه ، وكلما زاد تنبيههم بالحق وإرشادهم ازدادوا نفوراً ، فزادوا كفراً وقال تعالى : ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً^(٢) أي أن الله تعالى صرف في القرآن بضرب الأمثال وبيان الأحوال ، رجاء أن يؤمنوا ، ولكن سبق الكفر إليهم جعلهم يابون الإيمان بالله والخضوع

(٢) الإسراء : ٨٩ .

(١) الإسراء : ٤١ .

له ، فزادوا نفوراً عن الحقائق كما ينفر المريض السقيم عن الدواء الناجع ، والغذاء الصالح وقال تعالى : ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (١) ، ذكر الله تعالى أنه يصرف القرآن بذكر الأمثال والأحوال ، والسكن الذين سبق الضلال إليهم يجادلون والجدل في الحق الواضح ، المبين يطمس الحقائق ، ويطفىء النور ، ويختفي نور الحق وسط الأقوال المتضاربة والأهواء المتنازعة .

وقال تعالى : ذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ، (٢) .

وقال تعالى : انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، (٣) .

وقال تعالى : انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون (٤) .

وقال تعالى : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبيته لقوم يعلمون ، (٥) أي نصرف الآيات ليفقهوه ويدركوا الحق إن كانوا غير ضالين ، ولم يطمس على قلوبهم وليقولوا درست وتعلت ويكذبوا إن طمس على قلوبهم ولم يؤمنوا بالحق : كما قالوا يعلمه غيره ، ورد تعالى عليه بقوله : لسان الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين (٦) وقال تعالى : كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون (٧) .

٧ - وهذه النصوص الكريمة تبين أن القرآن كان يصرف الآيات بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات الشرعية التي بها صلاح المجتمع وتكوين مدينة فاضلة تحترم فيها حقوق الإنسان احتراماً كاملاً ، بأوجه

(٢) طه : ١١٣ .

(٤) الأنعام : ٦٥ .

(٦) النحل : ١٠٣ .

(١) الكهف : ٥٤ .

(٣) الأنعام : ٤٦ .

(٥) الأنعام : ١٠٥ .

(٧) الأعراف : ٥٨١ .

مختلفة من البيان ، من تهديد وإنذار إلى تبشير ، وتوبيخ واستنكار ودعوة إلى التأمل في خلق الله تعالى ، وفي الأنفس ، ومن قصص يدركها أولو الأبواب لسياق العبر والمثلات ، وهكذا تنوع أساليب القول ومناسج التأثير ، لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وإن التصريف في القرآن الكريم على ضربين أحدهما - في المعاني ، وثانيهما في الألفاظ والأساليب ، فأما التصرف في المعاني ، فإن المؤدى في جملته يكون واحداً ، ولكن يختلف في دلالاته بالنسبة للسياق ، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر في القرآن في عدة مواضع ، ولكن لها في كل مرة عبرة ، وهذا تصريف في المعاني وإن كانت الألفاظ تختلف أو تقارب أو تتحد العبارات في بعض الأحيان ، ولقد قال في تصريف المعاني الروماني في رسالته إعجاز القرآن : « وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتشفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه ، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة قد جاء في القرآن في غير قصة . منها قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف وفي طه والشعراء . لوجوه من الحكمة ، منها التصريف في البلاغة من غير نقصان ، ومنها تمكين العبرة والموعظة^(١) ،

٧١ - وأول تصريف في مناحي القول في القرآن يكون في السور ، فمنها الطويل التي يجرد فيها القارىء أبواب العلم الإسلامى المختلفة من بيان الوجدانية ، وبطلان الوثنية ، وتوجيه الأنظار إلى الكون ، وما فيه من دلالة على قدرة ، والأرض وما حوت من كنوز وزروع وثمار ، ومن اتصال الأرض بالسماء بالمطر الذي يكون غيثاً يحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويستق كل حي ، ومن شرائع فيها المصلحة الإنسانية وكرامة الإنسان ، وتكريمه بالعقل .

(١) رسالة الروماني من مجموع الرسائل في إعجاز القرآن ص ١٠١ .

وفيهما القصار التي يسهل على القارىء حفظها ، وأن يعيها صدره لما فيها من جمل قصار يسهل وعيها والاعتبار بها ، وذكرها في صلواته ، وفيها بيان الوجدانية وذكر اليوم الآخر ، وفي بعضها تجد أحكاماً شرعية ، مثل قوله تعالى في سورة الكوثر : «إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر» ، ففيها ذكر لليوم الآخر ومقام النبي عليه السلام ، ومقام الشائنين الذين عادوه ، وعادوا الحق معه وحكم الأضحية .

واقراً قوله تعالى : «وَالعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ، ففي هذه السورة القصيرة جماع الخصال الإنسانية التي تصلح الأحاد والجماعات ، وهي الإيمان الذي يعمر القلوب ، ويوجه الجوارح ، فلا صلاح لإنسان أو جماعة إلا إذا صلحت القلوب ، وأمر الإيمان العمل الصالح في الأحاد ، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتعاون ، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم ، وتخاذلوا في نصرته ، وإن السبيل إلى احتمال أعباء الحق ، هو الصبر ، فإن الصبر فيه ضبط النفس ، والابتعاد عن الشهوات وجعلها خاضعة للعقل ، بحيث تكون أمة ذلولا لاسيداً مطاعاً وما تخاذل قوم عن نصرته الحق إلا لأن الشهوات قد استولت على نفوسهم ، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع ، والشح المتبع ، ولذلك نص الله سبحانه وتعالى على أن الجماعة الفاضلة هي التي تتواصى على الحق ، فلا يذلل صاحب حق ، ولا يملو أهل الباطل ، وتتواصى على الصبر ، وضبط النفس ، وقدعها عن أهوائها ، وشهواتها .

وفي القرآن السور المتوسطة التي ليست بالطوال ولا القصار ، ومنها ما يقرب من الطوال ومنها ما هو قريب من القصار ، وهي مشتملة على جل مقاصد الشريعة الإسلامية في عبارة موجزة ، مثيرة ولكن بوضوح ، ومبينة ، ولكن بإيجاز .

وكان الله سبحانه وتعالى بذلك التصريف في السور بين الطويل ،
والمتوسط والقصير ، وكلها في أعلى درجات البلاغة يقدم مائدته الكبرى ،
وهي القرآن للناس أجمعين ذوى العلم الذين يتسع علمهم للإحاطة بالسور
الطوال وما فيها من علم بالشرعة وما فيها من علم الكون الذى لا يحيط
به من دونهم ، وهم أوتوا مدارك تسموا لإليها ، وتستخرج من كنوزها
جواهر .

وأعطى الذين يشغلهم أسباب الرزق عن الإحاطة قصار السور ، وفيها
غناء لا قصور فيه ، بل إنه كمال في كمال .

وبين هؤلاء وأولئك الذين يطلبون السور المتوسطة طولا ، وهم
الشادون في العلم الذين لهم من وقتهم ما يمكنهم أكثر عن كانت لهم
قصار السور .

وقد يقول قائل هل تقسيم القرآن إلى سور قصار وما بينها تنزيل من
الله تعالى .

وتقول في الجواب عن ذلك : إن ترتيب السور بوحي من الله تعالى ،
وقد بينا ذلك فيما أسلفنا من قول في جمع القرآن .

التكرار في القرآن

٧٢ - كانت السور منها القصار ، ومنها الطوال ، وأن الجميع بترتيب من الوحي الإلهي ولم يكن من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وحي ، بل هو من توقيف الله تعالى ، ووحيه ، وإن وضع الآيات بعضها بجوار بعض من وحي الله تعالى ، إذ كانت الآية إذا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها في مكانها من السورة التي يعينها بالوحي . النازل عليه ، والذي كان لا يني عن الاتصال به فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، وإن ذلك من الإعجاز إذ أن الآيتين المتلاصقتين مع أنهما قد تكونان نزلتا في زمنين متباعدين ، نجد أن كل واحدة لقف للأخرى ، وهما صنوان متلازمان متآخيتان ، وذلك من سر الإعجاز ودلائله ، إذ أن التناسق البياني بينهما متصل ، والمعاني متلاقية ، وكل واحدة منهما تتم الأخرى في الموضوع في أحيان كثيرة ، وفي التوجيه النفسى ، والتوائد المعنوى بينهما ، بحيث لا يتصور القارىء للقرآن الكريم ، أو المستمع لترتيبه والمدرک لنغمه لا يحسب أن بينهما فارقاً زمنياً في النزول .

وبجوار طول السور وقصرها ، مع الإعجاز في كلها قد نجد في القرآن تكراراً ، وهو من تصريف البيان ، لامن الإطناب المجرد ، إنما هو لمقاصد ولتوجيه النظر ، ومناسبة المقام ، ولقد لاحظ ذلك الأقدمون الذين تكلموا في سر الإعجاز وقد قال في ذلك الجاحظ. في كتابه الحيوان .

« رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أوحى عنهم جملة مبسوطا وزاد في الكلام . »

وإننا نقدر كلام الجاحظ. حق قدره ، وإن ذلك واضح في كثير من آى القرآن ، وإن الأعراب الذين يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم السلام الموجز ، وأحياناً يغنى فيهم لمح القول ولحنه وإشاراتة ، ولكن نلاحظ ثلاثة أمور :

أولها - أنه قال وزاد في الكلام ، وإننا لا نحسب أن هذه الكلمة تتفق مع بلاغة القرآن ولا مقامه ، فليس في القرآن زائد ، وإن أظن في القول ؛ لأن الزيادة تنسم بالحشو ، ومحال ذلك في ألمخ القول الذى نزل من عندالله تعالى ، ولعله أرادمعنى للبسط والإطناب ، لأصل الزيادة ، ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو ، ولكن مع كل نقول هذه العبارة ليست سائفة .

الثانى - أن الآيات المنكية وقد كان الخطاب لعبدة الأوثان ، فإننا نجد فيها بسطاً في القول ، وخصوصاً في الاستدلال من الكون على أن الله سبحانه وتعالى خالقه ، وفي الاستدلال بعجزهم ، والالتجاء إليه سبحانه :

افراقوله تعالى : « من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعل لكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أ إله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله ، قل ها أتوا برهانكم ، إن كنتم صادقين ،^(١) .

وإن هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون خطاباً لليهود وخدمهم ، وإنما هو خطاب للعرب ، ولم يكن باللمح والإشارة . بل كان بالتصريح والعبارة ، فلم يكن بالإيجاز ، وإن كان الإيجاز القرآني من نوع الإعجاز . بل كان بالإطناب المتسق المبين ، وكان فيه بعض التكرار وهو تكرار في موضعه ، لأن التوجيه إلى النظر فيما تحت أيديهم هو في ذاته مقدمة لنتيجة وهي الوجدانية للمعبود ما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لا بد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لكانت النتيجة ثمرة لمجموعهما ، مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوجدانية نتيجة لها ، دون أن تنضم معها غيرها .

الملاحظة الثالثة ، وهي مبنية على الملاحظة السابقة ، أن الإيجاز والإطناب يكون لكل موضعه ، ومقامه ، فلكل مقام مقتضاه الذي توجه أحوال البيان المعجز .

وقد لاحظنا أن مقام الاستدلال على الوجدانية من المواضع التي يحسن فيها الإطناب ، وكلام الله تعالى اتجه إلى ذلك ، كما رأينا في الآية السابقة ، وكما نرى في سورة الرحمن فإنها تذكر بنعم الله تعالى . وكل نعمة كفر وإذ استعملوها في غير موضعها ، وفي غير أمر الله تعالى ونهيه ، وإذا كان جزاء النعم كفر بالمنعم ، وإشراك غيره معه في العبادة ، فقد قال تعالى في سورة الرحمن « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنعام فيها فاكرة » والنخل ذات الأكام ، والحب ذو العصف ، والريحان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجنان

من مارج من نار فباى آلاء ربكنا تكذبان ، رب المشرقين ، ورب المغربين
فباى آلاء ربكنا تكذبان ... إلى آخر السورة الكريمة .

وهكذا نجد بعد كل نص سام تبين فيه نعمة الخالق بديع السموات
والأرض يكون تذكيراً بنعم الله ، ووجوب شكرها بالطاعة وتجنب المعصية
والإقرار بوحدانية المعبود ، وألا يعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، وفى ذلك
إشارة إلى أن كل نعمة من هذه النعم ، وبينة من هذه البينات توجب وحدها
الشكر ، وتوجب الإقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

قصص القرآن من الناحية البيانية

٧٤ - ومن المواضع التي يحسن فيها الإطناب ، بل التكرار أحياناً قصص القرآن ، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الإعجاز في ذاته ، فلذلك موضع خاص من القول ، إنما نذكره من ناحية التكرار فيه ، وموضع ذلك من مر الإعجاز ، وبلاغة القرآن التي لانساميها بلاغة في الوجود ، وإن ذلك التكرار من تصريف القول الذي هو وجه من وجوه البيان القرآني الذي قصد إليه الكتاب العزيز .

لقد تكررت قصص الأنبياء، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالإطناب أحياناً ، والإيجاز أحياناً ، وذكرت قصة عيسى عدة مرات ، وذكرت قصة إبراهيم عدة مرات ، وذكرت قصة موسى عدة مرات ، وإنه يبدو بادي الرأي أن ذلك من مكرور العقول . وفيه التكرار ، فما وجه البلاغة في هذا التكرار .

إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكاته في البيان العربي ، نجد أن التكرار فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة .

إنما قصص القرآن ، وهو قصص لأمر واقعة ، يساق للبر وإعطاء المثلث ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو قصص للعبارة بين الواقعات ، لا لمجرد المتعة من الاستماع ، والقراءة ، ولذلك قال الله تعالى في آخر قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه

وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، (١) .

ولكى يتبين القارىء الكريم ، أن التكرار بسبب تعدد العبر التي هي المقصد الأول من القصص ، نذكر قصة إبراهيم وقصة موسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فإنهما ذكرا كثيراً في القرآن الكريم .

قصة ابراهيم

٧٥ - ذكرت قصة إبراهيم في القرآن عدة مرات ، لتعدد العبر فيها ، وإن إبراهيم كان أبا العرب فقصصه له مقامه عند العرب ، ونذكر من قصصه بعضه لا كله ، فإنه ليس هذا مقام ذكره في القرآن .

(١) أول ما نذكر من قصة إبراهيم ، هو ما يربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البناء الذي قام به ، وعاونه فيه ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبإبراهيم وإسماعيل تشرف العرب ، بأنهم سلالتهما ، وبالبيت الحرام اعتزوا ، وعلوا في العرب ، إذ كان مثابة للناس وأمناً ، وقد قال تعالى في هذا البناء الذى قام بأمر ربانى :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ، فأمتعه قليلاً ، ثم اضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير ؛ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت

السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، (١) .

ثم بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تبين الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم ، فإذا كان العرب يفتخرون بإبراهيم عليه السلام ، فهذه دعوته قد استجيبت في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

(ب) نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية في نبي الفطرة إبراهيم عليه السلام ، إذ النفوس ولو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل ، لتزداد إيماناً ، وإن كان أصل الإيمان قائماً ، فزيادة البينات تزيد المؤمن إيماناً ، وتزيد الجاحد كفراً وعناداً .

واقراً قصة طلبه زيادة الإيمان : « وإذ قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى . قال أولم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال نفخنا نورة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهم يأتينك سعيماً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ، (٢) .

ومن قبل ذلك في الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه في إثبات وجود الله وكيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يفحمه إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس إذ قال تعالى : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم والظالمين ، (٣) .

(١) البقرة: ١٢٤ — ١٢٨ .

(٢) البقرة: ٢٦٠ .

(٣) البقرة: ٢٥٨ .

وشرى في قصة إبراهيم والطير أنه صور النفس الإنسانية ، ولو كانت نفس نبي مؤمن يدعو إلى تكشف المجهول ، وتعرف المستور ، والمؤمنون يهديهم الله تعالى ، ومن لا يريدون الهداية يتركون في غيهم يعمهون .

وفي قصه إبراهيم مع الملك نجد إبراهيم الأريب يأخذ بالطريق الذي يحسم الخلاف دون الطريق الذي يحدث لجاجة من غير إقدام ، إذ الملك فهم أن القتل إمامة وتركه إحياء ، فلم يسترسل رسول الله الفطين الأريب في تعريف للدوت والحياة ، بل عمد إلى ما يفحمه حسياً ، فبهت الذي كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

ومن هذا نرى أنه ليس ثمة تكرار في المعاني والعبر والعظات ، وإن كان الموضوع في الأحوال الثلاث يتعلق بإبراهيم عليه السلام .

(ج) ولنتنقل إلى قصة أخرى موضوعها يتعلق أيضاً بإبراهيم عليه السلام ، وهو تدرج النفس الإنسانية في الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية ، والإيمان بالوحدانية كيف ابتداء إبراهيم عليه السلام تأمله في السكون ليتعرف من الوجود سر الوجود ، وعظمة الخالق ، فأول ما استرعاه نجم ساطع تألق ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائماً ، فلما غاب نفر بما زعم ثم رأى القمر ، فحسبه كذلك ، ثم رأى الشمس ، وهكذا حتى هدى إلى أن سر الوجود يجب أن يكون غير هذا كله ، فأتجه إلى الله ، وإليك القصة كما ذكرها القرآن ، وكما وقعت ، قال تعالى : « ولما قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إنى أراك وقومك في ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لنن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال

يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه . قال أتحاجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف مما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ،^(١)

ونرى من هذه القصة أنها مغايرة تمام المغايرة لما سبق ، وإن كانت غير معارضة لها ، بل هي متممة ، ولا تكرر في القصص ، إنما الموضوع ، وهو إبراهيم عليه السلام هو المتكرر ، ونرى أنه ابتداءً بنفي عبادة الأصنام على أساس أن البديهة تدعو إلى ذلك ، وأن ضلال العقل هو الذي يؤدي إلى عبادتها ، ثم أخذ يبين أن طريق اليقين يبتدىء بالشك في صدق ما تنزل فيه الأفهام ، فأخذ يعرض على عقله ما يتصور أن يكون فيه نفع ، فاتجه إلى الكوكب الساري ثم إلى القمر المنير ، ثم إلى الشمس السراج ، فوجد أن كل ذلك يأفل ، ويجرى عليه تغير ، فاتجه إلى خالق ذلك كله ، ولذلك يقول بعض العلماء ، ومنهم ابن حزم الظاهري إن إدراك الله ضروري إذا استقامت الفطرة ، ولم تركس في ضلال الأوهام .

(د) انتقل سيدنا الخليل من الاهتمام إلى الله تعالى إلى عمل إيجابى نحو الأصنام دفعه الشباب ونور الله إلى أن يحطمها ، وهذا يحىء في قصص القرآن الكريم ، فيذكر سبحانه أنه عقب أن نال إبراهيم رشده ، وهو في حياة الله ، تقدم ليثبت ضلال عبادتها ، وأنها لا تنضر ، ولا تنفع ، فحطمها ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :

ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكناهه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجمعنا بالحق أم أنت من اللاحين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من

الشاهدين ، وتالله لا يكيدن أصنامكم ، بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جزأاً
إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بأهتنا ، إنه لمن
الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكركم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين
الناس لعلمهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم ، قال بل
فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا
إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون
قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون
من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرّوه وانصروا آلهتكم . إن كنتم فاعلين
قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم
الآخسرين (١) (صدق الله تعالى العظيم) .

هذه قصة من قصص إبراهيم عليه السلام . ذكرها القرآن الكريم في
موضع غير المواضع السابقة ، ولا ترى تكراراً فيها ، وإذا كان قد ذكر
في قصة تدبج الكواكب والقمر والشمس الحكيم على أبيه وقومه بالضلال ،
فقد ذكر ذلك بحملا في الأول ، أما هنا فقد ذكر المناقشة التي جرت بينهم
في ذلك ، ثم ذكر تديره في حطم الأصنام ، وإثبات عجز الأصنام بالدليل
القاطع ثم نجاته من النار ، فكان بهذا مثبتاً بالعمل أنهم لا ينفعون ولا يضرّون ،
ولما سألوه عما فعل بالأصنام قال متهاكاً : « بل فعله كبيرهم ، ، فأنطقهم
بضلالهم إذ نكسوا ثم قالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، وقد أثبت الواقع
أيضاً أن الله وحده هو الذى يضر وينفع إذ جعل سبحانه وتعالى النار
« برداً وسلاماً على إبراهيم ، .

وهنا لا نجد تكراراً مطلقاً ، وإن الموضوع واحد ، فهذه قصة إبراهيم
ولكن فرقت في أبواب شتى لأن النسق القرآنى المعجز اقتضى ذلك ، إذ

يكون كل جزء مكوناً لقصة ذات عبرة مستقلة في ذاتها ، فهي قصة واحدة الموضوع ، في قصص متعددة العبر .

(٥) ولندخل إلى جزء آخر من قصة إبراهيم ، ونراه مستقلاً غير مكرر ، وهو صلة إبراهيم بأبيه ، وكيف كان حريصاً عليه مع رفق الدعوة وإحسان البنوة ، وطرق الهداية الرشيدة ، يقول الله تعالى حكاية عن إبراهيم بعد أن صار صديقاً نبياً .

و اذ كر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم . لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيماً (١) .

وهنا نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة فى عباراتها ، وفى نغماتها الهادئة ، وفى معانيها العاطفة ، ولا يمكن أن يوجد فى أى لغة فى أى كلام عبارات تفيض برفق الدعوة ، والعطف ، والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم .

وبمقدار ما فى عبارات الابن من رفق واسترخاء واستعطاف كانت عبارات الأب كما صورها القرآن جفوة ، وكأنها الجنادل تصك الأذان ، ولم يمنع ذلك الابن العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه ، لأن له مكانه عند الله تعالى ، إنه كان بى حفيماً .

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه ، لأن كل امرئ بما كسب رهين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل إنسان وما قدمت يده ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وقد نهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين ، وعفا عن إبراهيم إذ استغفر لأبيه ولكنه أمره بالبراءة منه فتبرأ ، وقال تعالى في ذلك :

« ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قرى من بعد ما نبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها لآياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » (١) .

هذه قصة إبراهيم عليه السلام قبضنا منها قبضة ، لكيلا يتوهم القارئ للقرآن ، أو المستمع لتلاوته أن فيها معاني مكررة وألفاظا مرددة ، ومنها يتبين أنه لا تكرار قط فيها ، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع ، لتكون كل عبارة بجوار خبرها في القصة ، ولو اجتمعت في مكان واحد ، لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت كل عبارة تميزاً يجعلها كونا مستقلا مقصوداً بالذات ، وبقيّة الأجزاء التي لم نرطب قلنا بذكرها لا تكرار فيها بل كل واحدة لها عبرتها .

قصة موسى عليه السلام :

٧٦ - قصة سيدنا موسى ذكرت في القرآن الكريم كثيراً ، لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة ، وفيها المبادئ المقررة في الشرائع السماوية ، وكثير من أحكام المعاملات فيها لم ينسخ ، بل جملها صدق عليه القرآن الكريم ، كما وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه : « ومصدقا لما بين يدي من التوراة » (٢)

(١) التوبة : ١١٣ - ١١٤

(٢) آل عمران : ٥٠

ولأنها تبين أحوال اليهود ، ولأن فيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد في الحق ، وخذلانه ، وما وسعوا به من خنوع وخضوع إلى آخر ما ذكره القرآن عنهم ، وكل ذكر لهم يحى معه ذكر لنبي من الأنبياء ، ففهم تجارب الإنسانية الفاسدة ، وحالهم في هذه الأيام هي امتداد لما ذكره القرآن من أوصافهم

وإن المتتبع لقصة سيدنا موسى في القرآن يجدها متعددة العبر ، في جهاده ، وفي قومه ، وفيما لقيه ، وهو من أولى العزم من الرسل الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، ففي كل واقعة من وقائع حياته عبرة . ولا تكرار بالمقدر الذي يتوهمه التالى للقرآن أو المستمع لتلاوته ، ولنقبس قبسات من ميلاده إلى جلاده مع فرعون الطاغية الذى كان من أغنى ملوك العالمين ، وأشدهم طغيانا ، ولسنا نحصى كل المواضع بل نذكر ما يتوهم فيه التكرار من قصد جديد .

(١) أول ما نتجه إليه هو ميلاده ، وما أحيط به من خوارق للعادات ، فقد قال تعالى في سورة القصص : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا ، أو تتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون . وحرمنسا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فردناه إلى أمه كي تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، (١)

وفي هذه القصة نجد عدة خوارق للعادات اقترنت بنبي الله موسى عليه السلام في نشأته . فقد ولد ، بخافت عليه أمه ، إذ أن فرعون اللعين الذي يعد أستاذاً لكل طاغية في الأرض ، كان يرهق بني إسرائيل ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم لكيلا تكون منهم في القابل قوة تنساوى حكمه ، وترد طغيانه ، ولكن الله تعالى ألهم نفس أمه الصافية ، أن تصنع له تابوتاً ، وتلق فيه فلذة كبدها ، وتدفعه إلى البحر ، فكان الوحي والإلهام صادقا كل الصدق ، مصدقا كل التصديق ، فالتقطه آل فرعون ليكون المصير والمآل أن ينجو ، وأن تكون رسالته عدواً للشرك ، وحرنا على آل فرعون ؛ إذ أنه سيقارم فرعون ، ويقتلعه من أرض مصر . وقد وهب قلب امرأة فرعون الرحمة لهذا الملقى في اليم ، وقد ألهم الله أم موسى أن تتقصاه ، حتى تعرف أنه آل أمره إلى بيت فرعون ، ويجيء الأمر الثالث الخارق للعادة ، فيمتنع الرضيع عن المراضع بأمر الله التكويني ، وتعرف أخته التي تقصت أخباره . فتدطم - وهي المترقبة المترصدة - على من يكفله ، تدطم على أمه ، وبذلك يردده الله تعالى لأمها ، كما وعد ، وهو أصدق الواعدين ، وقد اقترنت هذه الخوارق بنشأة موسى ، كما تقترن الخوارق بنشأة كل رسول من رب العالمين ، وقد رأيناها من بعده مقترنة بولادة محمد خاتم الأنبياء ، وآخر لبنة في صرح النبوة ، مما هو مذكور في السيرة النبوية العطرة ، وإن سورة القصص يرى التالي لها المتتبع للقصة أنها ذكرت بالإجمال ولادته ونشأته في بيت فرعون إلى أن أرسله الله رسولا نبياً ، ولاقى فرعون في عزيمة المؤيد من الله تعالى ، وفيها ختام حياة فرعون ، وما انتهى إليه من غرق في اليم .

ابتدأت بعد نشأته . ببيان أنه فهم طغيان فرعون ، وإظلمه لبني مصر عامة ، وتخصيصه بني إسرائيل بظلم خاص . فيقول الله سبحانه : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلا يفتتلان هذا من شيعته ، وهذا من

عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . . قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له لأنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت عليّ فإن أكون ظهيراً للمجرمين ،^(١)

أدرك موسى بنفذاذ بهيرته القدرة على الحكيم على الأمور والعلم بمدخلها ، فأعطاه الله تعالى حكمة وعلماً وخرج من سجن القصر إلى حيث الشعب يتحسس الأمور ، ويتعرف مقتضياتها ، وغاياتها وآلاتها ، فدخل المدينة في وقت لا يعلم أهلها أنه من قصر فرعون ، ورأى الإسرائيليين الذى يدل ظاهر الحال على أنه من المظلومين ، يقتتل مع المصرى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من الظالمين ، فاستنصر به الذى من شيعته على الذى من عدوه وقتله ولكنة ندم ، إذ قتل قبل أن يتبين ، وتاب إلى الله ، واعتزم على ألا يعود لمنالها .

ولكن تتكرر المأساة ، وتعاوده رغبته الانتصار لمن هو من شيعته ، فينبهه الآخر إلى أنه لا يصح أن يكون جباراً في الأرض ، إذ جاء من شيعته من يستنصر به على مصرى آخر فيعرفه المصرى فينبهه .

عندئذ يحس الطيب الأمين الذى أراد الله تعالى له أن يكون من المصطفين الأختيار . بأنه صار في خطر أن يبطش به فرعون وأعوانه ، وقد جاء النذير بذلك ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إن الملائكة يأمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إلى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب . قال رب نجني من القوم الظالمين ،^(١)

خرج من المدائن إلى حيث الأمن والاستقرار ، خرج إلى الصحراء ،

(١) القصص : ١٤ - ١٧

(٢) القصص ٢٠ ، ٢١

حيث السماء الصافية ، والنور المشرق ، فتوجه تلقاء مدين ، وارتبطت حاله بشعيب كبير مدين ، وخطبه الله تعالى من وراء الشجرة ، وقد آنس ناراً ذهب ليصطلي هو وأهله بها ، فمداه الله تعالى ، وبعثه إلى فرعون وقومه ليلقى الطاغى الأول فى العالم . وأعطى المعجزة الأولى ، وكانت لأن الله تعالى يحاطبه ، وقد قال الله تعالى لما أتى إلى جذوة النار : « فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ، قال رب إني قتلت منهم نفساً ، وأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى رده أ يصدقنى إني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ، وتجعل لسكنا سلطاناً ، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولى ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون يأبها الملاما علمت لكم من إله غيرى ، فأوقد لى ياها مان على الطين ، فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم لإينا لا يرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، (١) .

إلى هنا بين القرآن حياة الكليم عليه السلام من وقت أن نشأ رضيعاً ، وكيف مَلَائَةٌ عناية الله تعالى ، وهو يتدرج ، حتى صار شاباً سوياً ، قادراً ، ورأى الظلم عياناً ، وصقلته الحاجة الشديدة ، حتى صاح صارعاً إلى ربه

وإني لما أنزلت إلى من خير فقير، فصار من تربي في ترف فرعون في حاجة إلى عيش الكفاف، ووجده في أن يكون أجيراً للشعيب بهم لإحدى ابنتيه، فالتقى فيه ترف النعمة ابتداء حتى زهد فيه، لما تأشب حياته فيه من إحساس مرير بالظلم فأقبل على الشعب يعيش في وسطه عيشاً مريراً، ولكنه هنيء، وحياة لاغبة، ولكنه في راحة الضمير والوجدان.

عندئذ بدت أرهاص النبوة، ثم كانت الرسالة، وشعر بشدة التكليف؛ لأنه سيكون في مواجهة فرعون الذي قتل من قومه نفساً، والتقى فرعون بطغوانه، وجهله، فحسب أن الله في السماء الدنيا، وأراد أن يتخذ الأسباب للارتفاع إليه. ومع جهله بالحقائق الإلهية استكبر هو وجنده، فكان الجنود في جانبه، والشعب ليس في جانبه، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكناً حيث يجب أن يتحرك، ولا يدفع ظلماً يجب أن يدفع، ثم نزل العقاب بفرعون وجنده، فألقوا في البحر. هذه قصة موسى رضيماً، فشأباً قوياً، فأجيراً فتياً، فبعوثاً نبياً، فمجاهداً مجالداً، حتى أدال الله تعالى من الطاغى المتعطرس.

٧٧ — جاء بعد هذا الإجمال تفصيل لما ذكر بالإجمال من الوقائع، وكان في التفصيل ذكر للنعم التي أنعم الله بها على موسى.

وأول تفصيل كان في ذكر التأهب للقاء فرعون، فقد توقع أنه سيلقى عنياً، وما ذكر من بعض التكرار فلأنه لا بد منه ليقوى موسى على اللقاء، وليذكر بالنعم التي أنعمته سابقاً، ليعلم أن الله تعالى معه ومؤيده ومنقذه، ذكره بنعمه عليه رضيماً ثم كيف ابتداء التكليف، ثم كيف استعان بأخيه، ثم كيف استعد للقاء الرهيب، إذ قال: «رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي»، واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً

ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا نصيراً قال قد أوتيت أسؤلك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، (١) ثم ذكره بعظم مننه السابقة ليتأكد أن الله تعالى مؤيده بنصره ، وليعلم أنه مهما يكن أمر فرعون ، فإن الله تعالى لن يمكنه منهما .

ثم جاء التكليف بالرسالة ومخاطبة فرعون نتيجة للآيات التي ذكرها أولاً ، ثم ذكرها ثانياً ليربط التكليف بها ، وهذا نص التكليف الخطير : واذهباً إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالاً ربنا ، إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ، فأتياه ، فقولا له إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى ، (٢) .

وفي هذا النص دعاهم إلى التقدم برقيق القول إرشاداً لسبيل الدعوة ، إذ هي تكون بالنى هي أحسن ليلين الظاعى وليسكن النافر ، وقد أبدى الله سبحانه الخوف من أن يطغى ، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما ، وقد سبق القول ، بسابغ نعمه ، وصادق وعده ، وكان لابد من ذكر ذلك عند دعوتهما إلى ذلك الإقدام الخطير .

وقد كانت إجابة فرعون أن سألهما عن ربهما فأجابا قائلاً أحدهما ومصدقاً من الآخر : قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. ، (٣) .

وأخذنا يذكران أسباب الهداية مبينين حقائق الوجود كله ، ولما تقدم

(١) طه : ٢٥ - ٣٧ (٢) طه : ٤٣ - ٤٧ (٣) طه : ٥٠ - ٥٤ .

موسى له بالعصا التي قلبت ثعباناً مبيناً وقال سبحانه ، ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، لم يفكر فرعون إلا في سلطانه ومن استرقهم ، فقال : أجهنما لتخرجننا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى^(١) . . التقي السحرة وموسى ، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله ، والسحر يؤيده الباطل ، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة فيقول له : لا تخف إنك أنت الأعلى^(٢) .

وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله ، وهنا تتجلى الحقيقة ، وتتجلى الغداة في سبيل الحق والطغيان الفرعوني الذي يستكثر أن من المصريين من يذعن للحق قبل أن يأذن الطاغوت الأثيم ، وينذر بالعذاب العسير ، وقال : آمنتكم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا تطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقي^(٣) .

وهنا تتجلى قوة الإيمان لأنه إذا سكن القلب ، واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذى الأوتاد ، وقالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذي فطرنا ، فافض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آتينا ربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقي ، إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى^(٤) .

وينتهى هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بأنه مقصد قائم بذاته ، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل ، وبين الباطل يؤيده الطاغوت ،

(١) طه : ٥٧ - ٥٨ . (٢) طه : ٦٨ . (٣) طه : ٧١ .

(٤) طه : ٧٢ - ٧٥ .

وفيه قوة الإيمان عند المؤمن ، وما جاء من ذكر لآلاء سبق بيان فيها ،
فلكى يتخذ من التأييد الأول والوعد به وصدق الوعد دليلاً على صدق
الوعد الجديد ، وقد اشتدت الشديدة .

الدعوة في أوساط الشعب

٧٨ — سرت الدعوة بين المصريين مريان النور في الظلمة ، ومع قوة
فرعون الطاغية سرت الدعوة بين الشعب ، بل كان من ملاء فرعون نفسه
من آمن ، ودعا إلى الإيمان ، وتجري المجاورة في ربوع مصر حاضرها
وريفها ، وفرعون يردد ويبرق ، ويهدد ، ولا مستمع يستمع ، لأن الحق
أبلج ، فأنه تعالى يقول عنه : **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء
الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين إلا في ضلال ، وقال
فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن
يظهر في الأرض الفساد ، وقال موسى لاني عدت بربي وربكم من كل متكبر
لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتفتنون
رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه
كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو
مسرف كذاب ، يا قوم لكم انلك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا
من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم
إلا سبيل الرشاد ، وقال الذي آمن يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم
الاحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد
ظلماً للعباد ، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ،
ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من هاد ، وانقد جاءكم يوسف
من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله
من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، (١) .**

استمرت، المجاورة بين الذين آمنوا وبين فرعون ، وكان فرعون ومن معه يصدون عن سبيل الله تعالى . والذين آمنوا يدعون إلى سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ، إلى قوله تعالى «ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما لى لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى لى لى لى له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحق بأل فرعون سوء العذاب ، (١) .

استمرت المجاورة بين الحق والباطل ، فى داخل الشعب المصرى ، وبين آل فرعون والمؤمن ، ولعله - والعلم لله وحده - أن الذين آمنوا من آل فرعون وأهل مصر عدد قليل كالذين آمنوا بمحمد من بعد قد كانوا عدداً قليلاً ، ومن الضعفاء ، فكان لا بد من هجرة موسى من مصر ، كما هاجر محمد من مكة إلى المدينة ، وكان معه الذين اتبعوه بإحسان ، ونالهم ما نالهم من الأذى .

خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر :

٧٩ - كان أنبىاع موسى عليه السلام من بنى إسرائيل الذى جاء لاستنقاذهم ، وبعث للدعوة إلى الوحدانية أولاً ، واستنقاذ المظلومين من الظالمين ثانياً ، فكان لا بد من الهجرة ، ومن أراد أن يلحق بهم من المصريين .

لقد جاء الأمر بالهجرة وأن تكون ليلاً ، كما كانت هجرة محمد عليه السلام خفية ، وقد ساق سبحانه وتعالى قبل الخروج قصة الدعوة الموسوية ، وما

لافتة من فرعون وشيعته . ليتبين أنه لا أمل في إيمان غير الذين آمنوا من قبل ، لذلك جاء الأمر بالهجرة كما جاء بعد ذلك الأمر بالهجرة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى في ذلك : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ، إنكم متبعون ، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشر ذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني إسرائيل ، فاتبعوهم مشرقتين ، فلما ترامى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين ، « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، (١) .

انتهى أمر فرعون بهذا الإغراق ، ولكنه لما أوشك على الغرق جاء إليه الإيمان متأخراً ، فكانت المعجزة أن الله أبقاء مثلاً للآخرين وإن الله يقول مفصلاً مهلكة من غير تكرار ، وإن ذكر المقدمات مفصلاً ، قال سبحانه : « وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيباً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال ، آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت من قبل ، وكنت من المفسدين ، فاليوم نتجيك بيدك لتتكون لمن خلقت آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ، (٢) .

انتهى فرعون ، ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائماً يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه في طغيانه ، ويمالئونه في عدوانه ، وينصرونه ، والشعب لا يذكر في مقام المتاصرة لفرعون .

(٢) يونس : ٩٠ - ٩٢ .

(١) الشعراء : ٥٢ - ٦٤ .

وثانيها: أن الذين آمنوا من الشعب عدد لا يكون كثيرة تهز ملك فرعون، وإذا كانوا كثيرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى ، وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم إن خالفوا الحق نافع منهم من ينافق ، وتعلق من يتعلق ، والشعب وقف موقف النظارة ، ولذلك كانت الهجرة إذ قل النصير المؤيد ، وكثير العدو المناهض .

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تحصل بمصر الزراعية كما ذكر في سورة الأعراف ، لقد ذكر في السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كما ذكرت في غيره العصا والسحرة وكررت لأنها المعجزة الكبرى التي تحدى بها ، كما كان القرآن الكريم يذكر كثيراً في القرآن لأنه المعجزة الكبرى التي جاء بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد اختبر الله تعالى آل فرعون بمعجزات زراعية تتعلق بالزرع والضرع ، فقال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طأثرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فاتقنا منهم فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ، (١) .

وهكذا توالى المعجزات حتى بلغت تسعاً ، كما قال تعالى : « ولقد آتينا

لموسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون
إنى لأظنك يا موسى مسحوراً ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب
السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مشهوراً ، فأراد أن
يستفزه من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعاً ، وقلنا من بعده لبنى إسرائيل
اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً ، وبالحق أنزلناه
وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً،^(١) .

هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر قد ذكرنا جزءاً منها ، وهى
فى فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم ، ونلاحظ مع بلاغة القصص
وقوة تأثيره الذى قد تتكلم عليه من بعد ، أنه لا تكرار فى جزء من القصة
فلا يكرر جزء بمعناه فى آيات واحدة ، بل يذكراً أيضاً بمعناه فى آيات أخرى ،
وإن كل جزء من القصة أتجه فى معناه وجزئياته ، وغاياته ومراميه إلى مقصد
بل لكل جزء معنى سيق له لم يسبق له غيره ، وإذا كانت بعض العبارات أو
المعاني تكرر ، فإن ذلك لبيان المقصد الأصلي من الجزء ، فنلاحظ أننا فى
لقاء موسى لفرعون ذكرت عبارات النعم وهو رضيع ، وكيف سهل الله
سبيل العيش الرغيد ، ليبين له سبحانه أنه معه فى لقاء فرعون ، كما كان مع
أمه فى إلقائه فى اليم ، ليلقى فرعون وهو رابط الجأش ، وهكذا نجد تكرار
بعض المعاني ، لأنها ذكرت فى موضعها الأول مقصودة ، وذكرت فى موضعها
الثانى تمهيداً لقصد ، وتثبيتاً لمغزاه ، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار ، بل
هو تجديد للمعنى ، وليس ترديدا ، والفرق بين التجديد ومجرد التردد أن
الترديد يكون تكراراً لا غاية لها ، أو يكون لمجرد التوكيد ، أما التجديد فى
تكرار اللفظ فإنه يكون لغاية بعده لا تتم إلا به .

موسى مع بنى إسرائيل

٨٠ - قد قسمت قصة موسى فى القرآن إلى قسمين: أحدهما ما كان وهو فى مصر يجاهد فرعون ويجالده ، وقد أشرنا فيه إلى أنه لم يكن تكرر إلا لتجديد الأمر ، إذ يكون تمهيداً للقصد من الجزء لا يتم البيان إلا به ، أو هو مقدمة يتلوها الجزء الذى سيق له القول ، وكان لقصد غير الأول .

أما القسم الثانى فهو ما كان بعد الهجرة إلى الطور ، وصار موسى مع بنى إسرائيل ، وقد خلاصوا من فرعون وجنده ، وفى هذا القسم تلقى الألواح وعلم التوراة ، ولاقى المرارة فيها من بنى إسرائيل وضعفهم وتقليدكم كاللقى من قبل الجهاد مع فرعون .

وفى قصة بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام يتبين ما يكون عليه قوم قد مردوا على الخنوع ، وضعفت فيهم النفوس ، واستمرروا الهون من الحياة ، ورضوا بالمكان الدون واستقروا فيه ،

انتقل بهم موسى عليه السلام إلى الطور ، فأرسل الله لهم السلوى والمن طعاما ، وأظلم الله تعالى عليهم بالغمم حتى لا تلفحهم شمس الصحراء ثم توالى عليهم النعم ، وتوالى خوارق العادات ، ولقد ذكرت الآيات القرآنية فى أول سورة البقرة بعض أخبارهم ، فقال تعالى :

يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين (١) ، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعاة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ، وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ؛ يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، وإذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم

(١) هو تفضيل نسى ، وليس تفضيلاً ذاتياً ، وذلك لأن الله اختارهم بقيادة موسى لمقاومة فرعون ولأنه فضلهم واختار بعض الأنبياء منهم ، وقد حصوا فأنكروا نعمة الله فاستحقوا سخطه .

تنظرون ، وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده ، وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ، وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه ، يا قوم ، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ، وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ؛ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتلها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً ، فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، إن الذين آمنوا والذين هادوا وال نصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم

كونوا قردة خاسئين ، فجعلناهما نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين
وإذ قال موسى لقومه ، إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا ألتخذنا هزوا
قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي :
قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا
ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؛ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء
فاقع لونها تسر الناظرين ؛ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا
وإننا إن شاء الله لمهتدون ، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض
ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها
وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم
تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته
لعلكم تعقلون ، ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة
وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن
منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ،^(١) صدق الله العظيم

وفي هذه النصوص السامية المعجزة المحيكة نجد القرآن الكريم يذكر
بنى إسرائيل بأن الله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم ، وأنه فضلمهم في
عصرهم بأن جعل منهم الذين يقاومون طاغوتاً من أعظم طاغوت الأرض ،
وخصهم بكثرة المعجزات التي تجري على أيدي نبيهم الذي هو من أولى
العزم من الرسل ، وأنه سبحانه جعل من ذرية يعقوب أيهم أنبياء كثيرين
ومرسلين ، ومع هذه النعم المتضافرة ، والآيات المتكاثرة يكفرون بالنعمة
ويطرون معيشتهم ، ويتخذون تفضيل الله لهم تفضيلاً نسبياً في عصرهم ذريعة
للكفر بالنعمة ، لا نشكرها ، وإن الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا
غيره ولا يؤمنوا إلا به ، وإسكن نفوسهم التي مردت على التقليد والخنوع

للقوى ، سولت لهم أن يعبدوا العجل ، كما كان يعبده المصريون ، وفعلوا ذلك تقليداً ، وخصوعاً للأهواء ، وتركوا وراهم ظهرياً أوامر الله تعالى الذى أنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ويأمرهم الله تعالى بأن يدخلوا متطامنين خاضعين فيحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه ، ويمن الله تعالى عليهم بخير الضعاف ، وأطيعيه فياخذهم الإيف إلى مادونه ، ويستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنهم خاضعون لأهوائهم غير مستطيعين لرزق ربهم ، وبرون المعجزة نهاراً ، وينعمون بها ، إذ يطلبون الماء فلا يجدونه فيأمر الله نبيه موسى الحكيم بأن يضرب الحجر بالعصا ، فينبعث اثنتى عشرة عيناً ، ويكون لفرقوم الاثنتى عشرة مشاربهم ، قد علم كل أناس مشربهم،^(١) .

ومع هذه النعم المتوالية والآيات البينات الباهرة يأمرهم الله تعالى بالطاعات ويأخذ عليهم الميثاق ، ويؤكد به بأن يرفع عليهم الطور حتى يصير كأنه ظلة فوقهم تأكيداً للميثاق بالآية التى اقترنت به ، ومع ذلك لا يطيعون عامدين ، إذ يتولون معرضين عن ذلك البيان الموثق ، لأنهم قد طبعوا على الجحود ، وكانوا مضرب المثل فيه ، وإذا كانت الآيات قد تضافرت بالبيان عليهم ، فإن الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بينة تدل على أن الجحود لا ينشأ عن نقص الدليل ، بل يكون مع تضافر البينات ، فيزيدهم الآيات كفرةً وعناداً .

وإن الله تعالى يأمرهم بيوم السبت لكي يكون لهم راحة واستجماماً ، وأن يبتعدوا فيه عن المادة ويعكفوا على أنفسهم يهذبونها ويفطمونها عن دواعى المادة ، فيذهب شرهم المادى ، ورغبتهم فى طلب المادة إلى أن يعملوا فيه شرها وطمعاً فيمسخ الله تعالى نفوسهم قردة تنزوا مثلها ، وخنازير تطلب الخسائس طلبها .

وإن الله تعالى يختبرهم في إيمانهم بأن يذبحوا بقرة، ولكنهم تأثروا بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل، يترددون في ذبح البقرة فيجادلون في ذبحها متجاهلين أمرها، ولو أتوا إلى أي بقرة فذبحوها لكان في ذلك الاستجابة الكاملة، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب، سألوا عن حقيقتها، وعن كونها صغيرة أو كبيرة، فأجيبوا، ثم سألوا عن لونها، فأجيبوا، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء والتوالد، أم هي ذلول عاملة، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليداً للمصريين وتأثراً بأفكارهم، وأوهاهم في دينهم.

هذه قصة بني إسرائيل في تلقيهم لأوامر الله تعالى، وما جاء من القرآن خصوصاً بهم في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فهو لمقاصد أخرى من أجزاء القصة كما ذكرنا في قصة موسى ذاته.

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

٨١ - لم يكن بنو إسرائيل في عهد موسى لإقوما أذهم الخضوع وضربت عليهم الذلة، وأرضتهم الطاعة الذليلة التي كانت رقا أو ما يشبهه، وقد بدا ضعف نفوسهم في عهد موسى، فقد أراد أن يدخل بهم الأرض المقدسة، فضعفوا ووهنوا، وتلسوا لأنفسهم المعاذير، وما هي إلا معاذير المستكين المؤثر للاستكانة، والرضا من الحياة بأدناها.

طلبهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يدخلوها، ولنسمع إلى كتاب الله تعالى يحيى حالهم من الجبن والخنوع والذل.

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: «وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكاً، وأنا كم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم،

ولا تردوا على أديباركم فتنقـلبوا خامرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال ، فإنها محرمة عليهم أربعين سنة . يتبينون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين^(١) ،

هذا نص القرآن الكريم فى قصة جن اليهود وتخاذلهم عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله سبحانه وتعالى عليهم أن يدخلوها ، ويجب أن ننبه هنا إلى أن المراد أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخلوها ، لا أنه كتبها لهم ملكاً دائماً مستمراً باقياً ، يطالبون بحقه ، وإن ذلك هو مفهوم الكتابة ، ويستفاد من النص الكريم ذلك ، أن النص الكريم ليس فيه أنه كتبها لهم ، بل كتب فقط عليهم أن يدخلوها ، إذ يقول سبحانه عن طلب موسى منهم الدخول : **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لىكم ، فالىكتابة التى فرضها الله تعالى هو الدخول وهو واجب وليس بحق ، فلم يكتب لهم أرضاً ، بل فرض عليهم أمراً بدليل عودة الضمير على الدخول المكتوب لا على الأرض .**

ولأن منطق الحوادث يوجب عليهم أن يدخلوها ، ليقيموا فيها شعائر الموسوية ، إذ أنهم خرجوا من مصر لعدم صلاحيتها لأن تقوم فيها شرائع موسى ، كما لم تصلح مكة ، لأن تكون موطن الشرع الإسلامى إلا بعد أن

تخطيم الاوثان ، وأن يمنع المشركون من دخولها ، لانهم تجس لا يدخلون المسجد الحرام بعد عامهم .

وإن دخولهم فيها كان لاجل إقامة التوراة فيها ، وجعلها الحكم الذي لا ترد حكومته ، وما كانت لذواتهم ، فلم تكن لانهم بنو إسرائيل ، بحيث يكون الاستحقاق ذاتياً ، أو ميراثاً يرثه الاخلاف عن الأسلاف ، وقد انتهى عهد موسى ، وانتهى شرعه ، وحالت أحوالهم و تغيرت أمورهم وليست الارض ميراثاً يؤخذ ، إنما الامر هو الدخول لإقامة الشريعة الموسوية ، وقد نسخت بشريعة محمد ، فصارت الخلافة النبوية إلى محمد خاتم النبيين ، فقومه الذين يقيمون شرع الله هم أهلها ، والذين يجب عليهم أن يدخلوها آمنين مطمئنين ، فلم يست أرض الله ميراثاً يورث للذوات ، إنما هي مقام الشرع الناسخ لا المنسوخ .

ويلاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت إليها الآيات الكريمات:

أولاً - أن الاسترخاء والضعف النفسى قد أصابهم بسبب ترفهم أولاً ، واستضعافهم ثانياً ، وطغيان فرعون في حكمهم ثالثاً ، وبأنهم حرموا حب الفداء ، وإذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن ؛ وكذلك بنو إسرائيل ، فقد خافوا من غير مخوف ، وماتت فيهم النخوة ، كما تدل الآيات الكريمات .

وثانيها - أن ضعفهم أفقدهم قوة الإيمان ، والشك في حكم الديان ، حتى إنهم ليقولون لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . وذلك تهكم يدل على وهن إيمانهم ، كما وهنت نفوسهم .

وثالثها - أن الأمم لا تترى إلا بتعود خشونة العيش ، كما تعودت نعومتها ، وأن تذوق جشبه كما ذاقته حلاوته ، ولذلك بين الله سبحانه

وتعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى عليهم أن يدخلوها قال ، فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيمون في الأرض ، .

وهذا كما يبدو من الآية تحريم كوني ، أي أنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول إلى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين إلا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن ، ويأتي جيل جديد قد ذاق طعم الشدة ، وعلم الحياة نضالاً ، ولم يعلمها استكانة وضعفاً ، والتقدير بالأربعين ، لا أحسب أنه يقصد به العدد ولكن يقصد به الكثرة التي تنشيء جيلاً تربى في شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها .

ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون ، وجعل أساس قوة الأمم شدة الحياة وصلابتها ، فإنها إذا استرخت أدال الله منها بقوم أولى بأس شديد تربوا في البداوة ، وذاقوا بأساءها .

٢ -- قصص القرآن لون من تصريف بيانه

٨٢ -- ذكرنا أن البيان القرآني فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة في حقيقتها متلاقية في غايتها ، ولا يمكن أن يكون لكلام بشر مع سمو البلاغة ، وبلوغها المقام الذي لا يناصي في كل أصنافها ، بل لا يمكن أن يبلغ الغاية في صنف واحد من أصنافها ، وقد ذكرنا ما في القرآن من إطناب من غير تكرار ، وذكرنا ما يتوهم فيه التكرار في القصص وبيننا أنه لا تكرار يعد ترديدا ولو على سبيل التوكيد ، إنما ما يتوهم فيه التكرار إنما هو تجديد المعنى لغاية أخرى ومقصد آخر ، وكان الذكر لما يتوهم تكراره فيه كمال المعنى ، ولا يمكن أن يستغنى القول عنه ، إنما التكرار المردود يكون فيما لو حذق المتوهم تكراره ما نقصت الغاية ، وما اختل بيان المقصد ، وتكرار القرآن ليس على هذا بل هو تكميل لا بد منه ، وتمام لا يستغنى عنه ، وذلك يكون في القصص ، وفي الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية ، على وحدة من خلق وكون وأبدع ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال .

والآن نذكر القصص القرآني على أنه لون من تصريف البيان القرآني ، وتغير أشكاله كما ذكر الله تعالى في القرآن ، ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل .

إن القصص القرآني فيه العبرة ، وما ذكرت قصة إلا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثالات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالاقوياء الذين غرهم الغرور ، والجبايرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط .

وإن القصص فيه إيناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار أخوانه من المصطفين الأخيار ، وإثبات قوله ، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة

ما كانت لتعلم إلا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال في بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، ولما كنت لديهم ، إذ يختصمون ، »^(١) . وكما قال في قصة موسى عليه السلام ووقائعها ، فقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قروناً ، فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور ، إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتتذرقوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ، »^(٢) .

لم يكن محمد مشاهداً الأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهي صادقة ، وثابتة في الصادق من أخبار النبيين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف .

ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ، ولا نصارى إلا خمار الحدوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منه كذباً وبهتاناً ، فقال الله تعالى ردأ عليهم « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ، »^(٣) .

وكانت مكة بلداً أمياً ، ليس به علم . ولا رياضات ، إلا مباريات رياضية في البيان ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبتلون ، »^(٤) .

لذلك نقول : إن القصص القرآني ذاته فيه إعجاز ذكره الكتاب جاء

(٢) القصص ٤٤ - ٤٦ .

(٤) المنكوت ٤٨ .

(١) آل عمران ٤٤ .

(٣) النحل ١٠٣ .

على لسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ، إذ هو النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

ويتساءل أي تال للقرآن من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئاً ، إنه من عند الله العزيز الحكيم علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدى .

التصريف البياني في قصص القرآن :

ذكر الله تعالى الحقائق الإسلامية في القصص ، فلم يكن عبرة فقط ، بل كان بياناً لحقائق الإسلام ، فتجد فيه بياناً لعقيدة التوحيد ، والبرهان عليها جاء في سياق القصص عن النبيين السابقين . فقد رأيت في قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام ، كيف كانت الدعوة إلى التوحيد ، وكيف أبطل عبادة الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جذاً إلا كبيراً لهم . وأنهم أرادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً على إبراهيم .

واقراً بعض القصص عن سيدنا نوح الأب الثاني للبشر ، تر الأدلة على التوحيد بأن تجد في بعضها أدلة التوحيد تساق للضالين ، ويوجه أنظارهم إلى الكون وما فيه ، فقد قال تعالى :

• قال يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه ، وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأمررت لهم بأسراراً ، فقللت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم

جنات ، ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرمكم لإخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبيلاً فجاجاً ، (١) .

ألم تر في هذه للنصوص السامية تسليية واضحة للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ فيها بيان ما لقيه نوح ، وكيف كانت الأدلة القاطعة لا تزيدهم إلا نفوراً من الحق وفراراً من اتباعه ، وإصراراً على الباطل ، وفي كل ذلك عزاء للنبي صلى الله عليه وسلم لئلا تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلة القاطعة .

ومع هذا العزاء الروحي ، والعبرة التي تريح الدعاة إلى الحق ، نجد في السياق البرهنة على التوحيد ، وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وأنه بالتالي المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه .

وسوق الأدلة على التوحيد في سياق قصة ، يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط في النفس خطوطاً ، وتعمق الخطوط فيكون الإيمان .

ولأنك لترى الدعوة إلى التوحيد واضحة في قصة يوسف عليه السلام ، فهو في السجن يدعو إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه ، وهو في السجن الدعوة إلى الوحدانية ، وسوق الأدلة ، فالله تعالى يحكي عنه أنه يقول لصاحبه في السجن : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأناكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربى ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، وانبعث ملة آباءى إبراهيم واسحق ، ويعقوب

ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) .

انظر إلى الاستدلال القيم على أن الواحد الأحد ؛ خير من أرباب متفرقين ، يتيه العقل فيهم ، وأنهم لا حقائق لهم تتعلق بالألوهية ثم يذكر ذلك عقب أن بين تأويل ما عجز عنه المؤولون من رؤى ، وقال إنه قد علمه ربه .

ثم انظر إلى هذا القمص وذكر التوحيد يجيء في أثناء السجن بسبب فرية نسائية افتريتها عليه ، ويجيء في وسط قصة نسوة المدينة ، إنه يكون طريفاً ، فيكون له تأثير أقوى وأشد .

٨٤ - وليس القمص القرآني فيه لإثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التي هي أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بل فيها لإثبات الوحدانية أمام الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام .

واقراً قصة عيسى عليه السلام ؛ فإن فيها الدليل على أنه ليس إلا عبداً لله تعالى ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته أنقأها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ،

وكفى بالله وكيلًا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، (١) .
ونرى من هذا أن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ، وإثبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلاثة ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شيء وله كل مافي السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كئيله وإن اختلف طريق غيره فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأى مخلوق سواه ، ولا يؤثر في هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وإن كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب ، فإن ذلك لا يجعله إلهاً أو ابن إله ، كما قال تعالى في مقام آخر فيه إشارة إلى قصة عيسى ، إذ قال الله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (٢) .

واقراً قصة أخرى لسيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قال الله تعالى :
« وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصبوا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصبوا كثير منهم والله بصير بما يعملون ، لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، وما أواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم ، » (٣) .

(٢) آل عمران : ٥٩

(١) النساء : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٣) المائدة : ٧١ ، ٧٦ .

ما أنماكم عنه ، وفي ذلك إشارة إلى أن من يدعو إلى أمر يهدمه إن خالفه في عمله ، وأن الاستجابة إلى الداعي إلى الخير تقتضى أن يكون الداعي مستجيباً له وهكذا ، فإن الله تعالى يأخذ على بنى إسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى « أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (١) .

ميزان العدالة في الحكم :

٨٦ - ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآني - لأنه من تصرف البيان ، كما أشرنا - أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطاناً في الحكم . فإن كان الهوى كان الشطط في الحكم ، ومظنة الوقوع في الظلم ، وإن كان الحاكم لا بد أن يكون مدركاً للحق فلا بد من عنصر العلم ، وإبعاد الهوى .

واقراً قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داوود ففرع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخطأ ، ليبنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما قتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢) .

(٢) س : ٢١ - ٢٦ .

(١) البقرة : ٤٤ .

منكم آمنوا بالذي أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، (١) .

أما ترى في هذا النص القرآني الذي تتضمنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة إلى ناحية عملية ، تتصل بالإصلاح الاجتماعي ، ومنع الفساد في الأرض ، والقيام بحق الأمانة في التعامل .

وفي موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالإصرار على الشر ، وكيف كان الإصرار عليه إلى أن يدل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدي إلى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب: « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بحير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محبط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء لأنك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، (٢) .

ونرى من هذه المجاورة أنهم يصرون على ما هم عليه ، ويعدون لإرشادهم إلى الحق في المعاملة ، تدخلا في شئونهم المالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة له بالتدين ، كما يجرى على السنة بعض الذين لا يريدون بالدين الحق وقارا ، ويبين سيدنا شعيب عليه السلام أنه إذ ينههم ، هو أول من يتمسك بالأمر ما نهى عنه ، إذ يقول عليه السلام : « وما أريد أن أخالفكم إلى

(١) الأعراف : ٨٥ — ٨٧ .

(٢) هود : ٨٤ — ٨٨ .

ما أنها كم عنه ، وفي ذلك إشارة إلى أن من يدعو إلى أمر يهدمه إن خالفه في عمله ، وأن الاستجابة إلى الداعى إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيباً له وهكذا ، فإن الله تعالى يأخذ على بنى إسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى « أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (١) .

ميزان العدالة في الحكم :

٨٦ - وبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى - لأنه من تصرف البيان ، كما أشرنا - أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطاناً في الحكم . فإن كان الهوى كان الشطط في الحكم ، ومظنة الوقوع في الظلم ، وإن كان الحاكم لا بد أن يكون مدركا للحق فلا بد من عنصر العلم ، وإبعاد الهوى .

واقراً قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داوود ففرع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنهما ، وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخصماء ، ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢) .

(٢) م : ٢١ - ٢٦ .

(١) البقرة : ٤٤ .

هنا نحمد القصة عن نبي الله داود عليه السلام تتضمن ثلاثة أمور في التنبيه على كل واحدة منها تنبيهه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل في الأحكام .
أولها : أنه سبق إلى الحكم من غير أن يستمع إلى كلام الخصم ، فقضى لأحد الخصمين ، قبل أن يستمع إلى كلام الآخر ، فإن ذلك مدرجة الظلم ، بل قد يكون ظلماً .

ثانيها : أنه لم يكتف بالحكم في القضية المعروضة ، بل عمم الحكم ، والقضاء يكون في القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها .

الأمر الثالث ، وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل ، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة وأما الحكم الظالم فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة وإن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهوائهم ، فهم يتبعون أهوائهم فيما يحكمون به ، وما ينزلونه بالناس ، فهم يسندون النظم تبعاً لأهوائهم ، ويطبّقونها تبعاً لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم ، ولا يفهمون المصلحة إلا تابعة لأهوائهم ، فإذا نهى الله تعالى نبيه داود عن اتباع الهوى وهو خليفة حاكم ، فإنما نهاه عما يؤدي إلى فساد الحكم ، وبهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم في الماضي ، كما هو مصدر الفساد في كل الأزمان ، وذكر ذلك في قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبديناً وتأكيداً ، وقد بينا أن ذكر أي أمر في قصة يجعله يسرى في النفوس . ويدخل إلى الضمائر إن كان فيها استعداد للحق .

ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصرفاً ليكون أقرب إلى التأثير والدفع إلى العمل ، وليس ذكر القصص للعبارة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك إلى أقوم السبيل ، والله أعلم .

بيان بعض الأحكام بالقصص القرآني :

٨٧ - من صور التصريف البياني بالقصص القرآني بيان ببعض

الأحكام الشرعية ، فإن ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاماً متفقاً عليها في كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسخ ، وأنها مؤكدة ثابتة . وفي القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك قصة قابيل وها بيل ولدى آدم .

فقد قال الله تعالى فيما : « وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ، ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أختي ، فأصبح من النادمين (١) ،

هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان إلى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس ، فهو فيها دفين ، نعم إنه مرض ، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء فمنهم شقى وسعيد .

وإذا كان الأمر كذلك فلا علاج إلا بستر من استكن في قلبه إن تعدى استجابة له ، والاعتبار في النظم لصالح الجماعة ، لا لصالح الأحاد فقط ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدى آدم :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

جميعاً ، ولقد جاءتهم رسالتنا بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون^(١) ،

وإننا لنرى هذا القصاص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو في جزء من القصاص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربه فطرة الآخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملاً على ارتكاب جريمته ، إذ هي مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « فطوعت له نفسه ، حتى إذا تمت الجريمة رأى بشاعتها في جثة أخيه ، فأراد أن يواريه فضل ، حتى رأى غراباً يبحث في الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بداله جهله ، وندم إذ رأى غراباً هو أحسن على أخيه منه ، وهو أعلم كيف يوارى سوء أخيه .

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، مجرم من مجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة في كل إنسان ، ومن قتل نفساً بغير حق فهو على استعداد لقتل غيره ما في عمله أمر يرض النفوس الإنسانية لاعتداء المعتدين المنفذين ، ومن أحيأها بالقصاص من القاتل ، فكأنما أحيأ الناس أجمعين ، كما قال تعالى : «ولكم في القصاص حياة»^(٢) ،

وإن هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت في الشرائع السابقة ، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ، ونتيجتها ، وهي إحياء الأمة وإهمالها أهانة لها .

ولا شك أن ذلك تصريح بياني قرآني في بيان الأحكام .

وقد جاءت الأحكام أكثر تفصيلاً في بيان القصاص في الأطراف مع النفس في قصص عن بني إسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها . ولنتل على القارىء

(١) المائدة : ٣٢ .

(٢) البقرة : ١٧٩ .

الكريم ما جاء في ذلك ، وإن كنا سنتلو أكثر مما تلونا من الماضي ولقد قال الله تعالى في وصف بعض بني إسرائيل في عصر النبي صلى الله عليه تعالى وسلم الذين أرادوا أن ينفروا من حكم التوراة في مجرم ارتكب جريمة لاجئين إلى النبي صلى الله عليه تعالى وسلم حاسبين أن عنده حكماً أخف من حكم التوراة ، لهوى في نفوسهم . قال تعالى : «سماعون للكذب أكالون للسحت ، فإن جاءوك فاحكمم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به ، فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ، وقضينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقها لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لعل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله

أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، ألكم
الجاهلية ييغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون^(١)،

وترى من هذا النص الكريم بياناً للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص
في تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص في الأطراف ، كما هو
ثابت في النفس ، بل إنه يثبت القصاص في الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها
نفذت في الإنجيل ، إذ جاء الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها
بأن القرآن مصدق لما جاء في التوراة ، ولكن له هيمنة ، وسلطان ، يبق
ما يبق ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها ، فهو منسوخ ،
لأن له الهيمنة الكاملة .

وفي القصاص الشرعية باقية . وفي التوراة كما هو في القرآن جواز
المفو عن القصاص ، إذ يقول سبحانه فمن تصدق به ، فهو كفارة له .
والقصاص ثبت بالقرآن ، فأنه تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد
بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه
ياحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب
أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ،^(٢)

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التي لم يعترها تغيير ونسخ بطريق
القصاص نوع من تصريف البيان وتثبيت الأحكام .

(١) المائدة : ٤٢ - ٥٠ .

(٢) البقرة : ١٧٨ - ١٧٩ .

أسلوب القصص في القرآن

٨٨ - قد ذكرنا في القول السابق ما يختص به أسلوب القرآن من صور بيانية في ألفاظه فكل لفظ يعطى صورة بيانية ، يناسب المقام الذي ذكر فيه ، ويتجمع من الأسلوب صورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها ، وإن كان لها صفة الاستقلال ، ومن المجموع تتكون صور تصور المعاني ويكون لها أطراف في اجتماعها وانفرادها .

وذلك ثابت في أسلوب القصص ، كما هو ثابت في كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها ، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا إليها ، فكل لفظ له إشعاع نوراني يشع منه ، وكل جملة ينبثق منها النور الإلهي الذي تنطق به بجوارحه كل الأنوار .

ومع هذا فالقصص القرآني باعتباره قصصاً فيه أخبار عن أمم ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم وأشخاص يعاندونهم وإن القصص يمتاز مع الصور البيانية التي تنبعث من الكلام مجرداً ، صور أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد فإذا ذكرت حال شخص صور تصويراً واضحاً كأنك تراه وتشاهده ، والعبارات تصور حاله من خوف ، أو حنان ، أو انزعاج أو جحود ، وكان المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصوراً متحركاً يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ، ما كان أكثر تصويراً من الألفاظ القرآنية والأساليب في تصويرها .

ولنذكر في ذلك بعض ما تلونا من قبل ، لتعيد تلاوة حال أم موسى ، وقد ولدت ولدها ، وهي تعلم أن فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وتضطرها الفطرة الملهمة التي كانت بمثابة وحى أو وحى لها أن تلتقي ولدها في اليم ، لأنها خير لها أنه يلقي لقدر الله تعالى وقضائه من أن يذبح بين

يديها ، وهذا ما نعيد تلاوته ، وما أطيب القرآن في إعادة تلاوته ، وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه ، فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدي به لو لا أن ربنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون ، وحرمت عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، (١) .

إن القصة ترينا صورة أم مضطربة مزعجة خائفة لما أثقلت أقلت حملها ، فإذا إنقال جديد ، إنها تريد نجاة ، فيعلوها الاضطراب والخوف والفرع ، وإذ الإلهام يجيشها بإلقائه باليم مع إنلاج قلبها بالأتخاف ، وألا تحزن ، ومن الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود إليها ، وهكذا يكون الاطمئنان في موطن الخوف ، والقرار في موطن الاضطراب ، والسكون في موطن الهلع ، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبها ، ويغلب الفرع على الاطمئنان وهي تغالب حال الفرع بحال الاطمئنان إلى أن وعد الله تعالى بالاطمئنان ويصطرع الأمران في نفسها ، يغلب الإلهام فتطمئن ، ويغلب الفرع القلبي فتكاد تبدي أمرها ، وتظهر مرها ، ولو علم به أعداؤه وأعداؤها أعداء الله تعالى ؛ ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر وهي تصبر ولكنها لاتسكن بل تتحرك بعمل ، فترسل أخته لتتقصى أخباره ، وتتعرف أحواله فتري المعجزة الكبرى ، إذ يتمتع عن المراضع ، حتى يعود إلى أمه وتأخذه أخته إلى الأم التي تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل

اقرأ النص القرآني ، وتراه مصورا لحال تلك الأم الرءوم ، فهل تجد مصورا متحركا أو واقفاً يستطيع تصوير هذه الحال ، ولكنه القصص القرآني المصور الذي نزل من عند الله تعالى .

٨٩ - ولانعد إلى قصة موسى وقد تربى في قصر فرعون ، حيث الترف والبطر ، وفي جو الغطرسة والسلطان ومن يدعى لنفسه الألوهية ، فهل شعر موسى بما يشعر به المترفون المسرفون ، الذين يستعبدون الناس ولكنه في الوقت ذاته كان يعيش في أحضان قومه ، حيث كان على كשב من يقتل فرعون أبناءهم ، ويستحى نساءهم فهو البعيد عنهم بحسه القريب منهم بنفسه ، يعيش معهم ، وإن جفاهم في المسكن والإقامة ، ولذلك كان القريب في قصر فرعون المستأنس بمن يؤويهم فرعون ، فيعيش معهم .

ولقد بدا ذلك على أكله يوم أن بلغ رشده ، واستطاع أن يخرج من محبس فرعون في النعيم ، ويلاقى الحياة التي يلاقيها قومه ، ولقد قص الله سبحانه وتعالى قصصه بعد أن بلغ رشده ، وصار رجلا سوياً ، في أسلوب ينم على الرغبة في الجهاد وتحمل شدائد الحياة ، فيقول سبحانه في أحسن قصص مصور ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ،^(١) .

خرج موسى من المحبس ، ودخل المدينة ، وأهلها لا يتوقعون أن يخرج رجل في ظل القصر ، إلى حيث الشعب ، ينازل من ينازل ويسالم من يسالم إلى حيث الحياة اللاعبة العاملة ، فكان ذلك مفاجأة ، عبر عنها القرآن بقوله على حين غفلة من أهلها ، خرج ونفسه ملوثة غيظا على الذين كانوا أداة في يد فرعون يسوم بهم الناس عذابا ، فوجد مصريا يقتل واحداً من شيعته فسارع إليه زعمه أنه اليهودي يعتدى عليه ، فاندفع فقتل المصري .

(١) القصص : ١٤ ، ١٥ .

ولكنه وقد استرجع ضميره الذى كان فى غفوة بسبب العداوة المستحكمة بين العنصرين ، وبسبب ما رأى من فرعون ومن معه من جند وأشباع ، وأهل مصر صامتون كدأبهم عندما يرون ظلماً عنيفاً صارخاً يقفون كالنظارة ، لا يتحركون لظلم واقع ، ولا لهم مستحكم مانع .

وتكررت المأساة بين اليهودى الذى استنصره بالأمس ومصرى آخر فيقوى صوت الضمير على استغاثة اليهودى ، ويعلم أنه فرعونى ضال كثير الشكاس ، وأن المصرى مظلوم فى معاملته ، ولكنه مع ذلك تغالبه فى نفسه مشاعر ، فيهم بأن يطش بالذى هو عدو لها . عندئذ نطق المصرى لاأثماً ، مذكراً بأنه يريد أن يكون جباراً فى الأرض ، وما يريد أن يكون من المصلحين الذين يعملون على الإصلاح بين المتخاصمين من غير إضافة اعتداء إلى اعتداء ، ويقول له فى عتب لائم : إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ،^(١)

وموسى فى نفس حائرة بين عز الدنيا وقد تركه وراء ظهره ، وجعل نداءه دبر أذنه ، وبين الحق والعدل والإخلاص وهو إلى الثانى يميل ، ومن الأول ينفر ، وبيننا هو على هذه الحال يتردد بين ماضٍ مريح ، وجديد يريد أن يخوض فى شدائده ، ليعيش كما يعيش قومه ، فيشاركهم فى ضرائهم ، وإذا النذير ينذره : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إن الملائم يأمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين^(٢) ، قضى الأمر ، وانتهت الحيرة ، واستقبل الحياة الجديدة بلأوائها وجهاً لوجه ، ولنترك القول لكتاب الله تعالى يذكر لنا حاله من بعد ذلك الإنذار . إذ نجد التصوير الذى تعجز عنه كل أدوات التصوير الساكن والمتحرك ، وهو يصور موسى قد أحس بخطر قوم فرعون ، وفرعون ، وآل مصر ، يتقربونه ، فاقه يقول

في كلام مصور للأرواح والأشباح : « نخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب
نجني من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني
سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد
من دونهم إمراةين نذودان ، قال ماخطبكما ، قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء
وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إني لما أنزلت إلي
من خير فقير ، (١)

تصوير للحيرة . فريب النعمة خائف يترقب المتتبع ، والمترصّد ،
ويتوجه من ريف مصر وخضرتة إلى لفح الصحراء وجذبها ثم هو يحس
بالحاجة ، وهو الذي كان يتناول ويرمي ، وإذ لفته الشمس آوى إلى الظل ،
لا يرجو إلا الله ويعلم أن الله تعالى لا يتخلى عنه .

وإني مهما أحاول من تصوير للقصة بعبارتي ، فلن نصل إلى ما يقع في
نفس القارئ إذا تلاها مجردة من غير تعليق عليها ، إنها تصور ريب النعمة
في صورة كأنها المرئية ، وكأنها مشاهدة محسوسة ، وليس أخباراً مكتوبة
أو متلوّة .

إنه حائر ، فيفاجأ بإحدى المرأتين تأتيه تمشي على استحياء ، وهي تدعوه
إلى أيها ليجزبه أجر ماسق لهما ، ويذهب الشاب القوي إلى الشيخ الضعيف ،
وهنا يرى الشجرة الوارفة ، في وسط الصحراء ، ويجد الحياة الزوجية ،
وراحة الحياة بعد شقائهما ، ويذوق طعم الدنيا ، ولم يكن في بيت فرعون
يذوقها ، ذلك أن النعيم معنى نسبي لا يذوقه إلا من ذاق الألم في هذه الدنيا ،
والنعيم من غير ألم يرفقه يكون راحة عفتة ، فهو على السلام ، بعد أن
نال عيشه بالكد واللغوب ، وعاش بين الرجاء والخوف أحسن بطعم الحياة
ومعناها ، وتأهب للرسالة ، لأن الرسالة لا تكون إلا لمن اصطفاها الله تعالى

من ذاقوا طعم الحاجة وعزة الحق ، ولم يترفوا بالنعيم ، وكذلك أمر النبيين
والصديقين ، وكذلك كان تاريخ كل الأنبياء ، وخصوصاً أولى العزم
من الرسل .

هذا وأنا نطالب القارىء أن يقرأ أى جزء من قصة موسى فإنك تراه
مصوراً للوقف الذى يعرض له أبدع تصوير ؛ وكأنك تشاهد ، ولا تسمع
وتتلو ، وإنه هو القصص الحق .

٩٠ - وإنك إذا قرأت مجادلة المشركين مع نبي من الأنبياء ، كنوح
وإبراهيم وعيسى . وشعيب وهود ، تحس بأنك تشاهد مشهداً مرئياً ، لأنك
تستمع إلى كلام متلو ، فتنتقل أنت وعقلك وجوارحك كلها إلى هذا المشهد
الكريم الذى يصور عقلية الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحملة
في سبيل إقتاعهم ، أو إلزامهم كلمة التقوى ، ولا يريدونها ، اقرأ مجادلة نوح
عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون في الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله
تعالى ، واتل قوله تعالى : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ،
ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين
كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم
أراذلنا بادي الرأى ، وما نرى لك علينا من فضل . بل نظنكم كاذبين ،
قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده ، فعميت
عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن
أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى
أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرف من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون
ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ،
ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما فى أنفسهم ،
إنى إذا لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا

إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين (۱) ،

هذا مشهد من مشاهد القول تجد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، ووجود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصور أمام البصيرة وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبيّنات ، والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحس دليلاً على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أنبأها الفقراء الأرزلون في أعينهم الذين يزدرونهم والنبي عليه السلام يجادلهم بالنبي هي أحسن ، وهو يسوق البيّنات ، ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق .

ولاشك أن العبارات لا تدل على المعاني المقصودة فقط ، بل وضعت الألفاظ ، ومعانيها ، وأطرافها في بيان مصور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس ، لا قصص متلو فقط .

وبعد ذلك بين الله تعالى لنوح أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق إلا إنزال العقاب بهم ، وقرأ صورة العقاب تراه قصصاً مجرداً ، ولكنه مشهد واضح بيّن يصل إلى درجة المرئي للقارئ المتنبه أقرأ قوله تعالى :

« وأوحى إلى نوح أنه إن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتمس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرّقون ، ويصنع الفلك ، وكلها مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال : إن نسخروا منا ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون ؛ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا ، وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان

في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سأوى إلى جبل يعصني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المفترقين ، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ، قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، (١) .

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يثس من إيمانهم وأخبره ربه العليم الحكيم أنه بلغ الحجة وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن . وأن العقاب نازل لا محالة ، وترى كل نص من نصوص هذا الجزء من القصة مصوراً بيانياً لما أنزله تعالى ، فترى جزءاً يصور كيف أخذ نوح يبنى سفينته ، والقوم ينظرون إليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التي تنتظرهم ، والغاية التي قدرها الله تعالى من هذا البناء والخيال يرى الصورة من وراء العبارات كأنها بين يديه حقيقة بالعيان ، وليس خبراً من الأخبار ، وإن كان يذكر في أعلى صور القصص المصور ، ثم ترى الإيدان بالابتعاد عن موطن الفرق ، وقد فار التنور ، وإنى قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار إذ فار التنور فتمحرت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وإن كان اللفظ دالا ، بل هو مصور لتور فار فحرك ببخاره ما حرك من آلات تسير السفينة ، وتجري بهم في موج كالجبال والقارىء يرى في هذا صوراً تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئياً أو كالمرئى ؛

وإن ذكر الموج في هذا المقام يصور كيف كان السيل عارماً ، وأنه لم يكن غيثاً حتى لم يبق إلا من خرج بالسفينة نجياً .

ثم نجد في ذلك القمص أمراً معنوياً مصوراً كأنه ملبوس ، وهو حنان الأب ، ورفقه بولده ، فقد رأينا في النبي المجاهد عاطفة الأبوة تملو ، فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء في مشهد من مشاهد الأبوة ، ثم نجد الابن ، وقد غره غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق إذ اعتصم بجبل آوى إليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين ، والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ، ويتجه إلى ربه باكياً حزيناً إذ نجح أهله إلا ابنه ، فيقول ، وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب ، بعد أن نجح كل من في السفينة ، وقد استوت في طريقها وهلك الظالمون ، يضرع إلى ربه يقول إن ابني من أهلي ، وكان قد وعده ربه بأن ينجي أهله ، فيقول إن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، وهنأ نجد رب العالمين يبين أنه داخل في عموم الكافرين ، لأنه كفر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك . ويقول سبحانه : « لأنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق بما نطق فنبهه الله تعالى إلى الواجب ، ولم ينبه غافلاً ، ولكنه نبه يقظاً مؤمناً ضارعاً وإن كان قد ناجى ربه بصوت البشرية ، فتأب ، وقال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين

القصص الحق المصور في أهل الكهف،

٥٩ - ومن أروع القصص القرآني المصور في صدقه ، ومردحقاته قصة أهل الكهف التي هي آية وحدها في التصوير البياني القصصي الصادق ، وهي في كل جزئية تصور الأمر كأنه مرثى بالحس ، لا مذكور بالخبر وحده (م ١٥ - المعجزة الكبرى)

واقرا قوله تعالى : د أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، إذ أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيهنا لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق لأنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا إذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فنأظلم من افترى على الله كذبا ، وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ومثلت منهم رجبا ، وكذلك بعثناهم ليقسموا لو يدينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم بزرق منه ، وليتلفظ ، ولا يشعروا بكم أحدا ، إنهم إن يظروا عليكم يجموكم ، أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ، ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يدنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستمتت فيهم منهم أحدا ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ،

وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً ، ولبشوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بما لبشوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً ، .

هذه قصة أهل الكهف ، والرقيم ، وهو الحجر الذى رقم عليه أنه رمز لمأواهم ليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلاً ناطقاً ، على الإيمان بالبعث والنشور ، وإن الذين يمجدون بهما يرونهما عياناً فيهم ، إذ بعثهم الله سبحانه وتعالى ، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم .

والقصة الكريمة كما ذكرها القرآن الكريم فى قصصه الحق لها مشاهد تذكر كأنها ترى ، وكأن الإنسان يعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ، ولا ارتياب .

المشهد الأول : إراء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية إلى الوحداية ، ومن الوثنيين إلى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم . فاستمسكوا بأيديهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الإيمان قد سكن وعاء القلوب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يتشعب أمام أى حادث وإن الإيمان إذ سكن ، واطمأنوا كانت رحمة الله تعالى أن ضرب على آذانهم بمعنى أنه خيم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وإنهم إذا آروا إلى الكهف قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية وظلم أهلها ، فاجتمع لهم الانزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحس ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم ، وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتاً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، وكل ذلك فى تصوير قصصى كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون إلى الكهف يأوون راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ، فجعلهم رقوداً ، وهنا نجد الصورة واضحة أن

ناساً يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود ، وقد بقوا على ذلك سنين عددا تجاوزت ثلاثمائة .

والمشهد الثاني : بعثهم ، وقد اختلف الناس في أمر المدة التي استمروها في الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم أيقاظ ، فقد استمروا كما ذكر في القرآن الكريم ثلاثمائة سنة وزادوا تسعاً .

ويجىء بعد البعث الكلام في المدة التي مكثوها ، والسبب في اختيار ما واهم ، فقص الله خبرهم بالحق تفصيلاً بعد أن ذكره إجمالاً ، لقد قاموا من سباتهم ، وهم يرددون لإيمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم وهؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون إلا الله تعالى ، ونرى الصورة القصصية واضحة بيّنة ، هادية مرشدة تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم ، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم ، مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة ، حتى إنه يصور الكهف ومن فيه وخرجوا منه في مشهد واضح بين ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم .

والمشهد الثالث : منظرهم وهم رقود ، وحال الكهف ، وصورته ، فهم في فجوة منه ، يتجهون فيه إلى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يمينا ، وتودع الكون في غربهم . فالشمس والهواء ، يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، إذ يستقبل الشمس في غدوها طالعة ، وفي غروبها راتحة ، والهواء من البحر يجىء لإيهم ، فينعشهم نسيمه العليل . فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيأة لهم ، وهم رقود ، وإن كان الرائي يحسبهم أيقاظاً ، والوصف القصصي مصور المكان كأن القارىء للقرآن يراه ، وهو يتلو كتاب الله تعالى .

وإنهم في هذه المنامة يتقبلون كالأيقاظ الأحياء بإرادة الله تعالى وأمره الكوني ، ونقلهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يترك القرآن الكريم من

الصورة المكانية شيئاً إلا بينه ، وصوره ، فيذكرهم وكلهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو بجملة بالجبل الذي فيه الكهف ، فالتصوير القصصى كامل يرى فيه القارىء صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاماً متلوأ ، ولكنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم .

وإن المكان فيه رهبة ، وحالهم فيها هيبة ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملت منهم رعباً .

المشهد الرابع : الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب فيه ، وهو تيقظهم بعد الرقدة ، وحالهم ، وقد رأوا الحياة اللاعبة التى كانوا عنها غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به ، سألوا به أنفسهم ، كم لبثوا فى منامهم ، وقد سألهم هذا السؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم يجمعون لبثوا يوماً أو بعض يوم ، ولكنهم كسأئهم لم يتخبطوا ، ولعلمهم ظنوا أن المدة أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ربكم أعلم بما نبثتم ، وهنا نجدهم اتجهوا إلى الحياة يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية قد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الإيمان أهل تسامح ، فقد طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يشعر بهم أحداً ، حتى لا يكون منهم أذى ويظهر أنهم بهذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقةتهم ، وكان لإلهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقةتهم وتسكون حياتهم فى الكهف ورددتهم فيه دليلاً محسوساً على أن وعد الله تعالى بالقيامة حق ، ولذا قال سبحانه « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، وهذه كلها مشاهد فى القصة تعين فى أحداثها فى قصص محكم .

التصريف في صور العبارات القرآنية

٩٢ - من أدل شيء على بلوغ القرآن أعلى درجات البلاغة ،
تصريف المعاني والألفاظ في كل باب من أبواب القول ، وقد أشرنا إلى
ذلك في أول كلامنا في بيان تصريف الكلام القرآني ، وتصريف القول
يتناول الألفاظ ، وتصريف الألفاظ يتضمن لا محالة تصريف المعاني ،
لأنه لا مرادف في القرآن ، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحداً ، من حيث
الإحكام والدقة ، ولا يوجد أسلوب يؤدي معنى يؤديه الأسلوب الآخر ،
وإن كان يبدو بادى الرأي أن المعنيين يتحدان في جوهر المعنى ، ولكن عند
التأمل في الإشارات البيانية التي تشير إليها الألفاظ ، والتي تطيف حولها ،
وتشع منها ، تجدها مختلفة ، وإن كل تغيير في العبارات القرآنية عن أخواتها
في مثل موضوعها يحدث تغييراً في المراد ، ولمح القول ، حتى الوقوف
والفواصل تؤدي باختلاف نغمها ما لا تؤديه مثيلاتها بما هو في موضوعها ،
وإن النغمات القرآنية التي تتخالف أحياناً تكون كل نغمة في مقامها
تسمى بموسيقاها إلى إشارة لا تسمى إليها نغمة أخرى لآية في هذا
الموضوع نفسه .

ولنضرب في ذلك بعض الأمثال في الاختلاف في الأسلوب ،
والموضوع واحد ، وتغير المعاني قوة ورفقاً . وكل فيما يناسبه .

الاستفهام والنفي :

٩٣ - لاشك أن النفي المجرد ، والنفي بطريق الاستفهام كلاهما يدل
على أصل النفي . ولكن النفي بطريق الاستفهام أقوى دلالة في معنى النفي ،
لأن النفي بالاستفهام فيه معنى أن المخاطب سبق إلى النفي ، فكان النفي من
القاتل ، والإقرار به من المخاطب ، اقرأ قوله تعالى في ادعاء المشركين أن

الله تعالى حرم بعض الأطعمة ، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : د قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؛ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ، قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون^(١) ، ألا ترى أن هذا الاستفهام للنفي ، إذ المعنى الجملي د ما عندكم من علم بأن الله تعالى حرم عليكم إن أنتم إلا تخرصون ؛ تتوهمون ما ليس له حقيقة واقعا . ولا شك أن المجيء بصورة استفهام فيه مزيان لإحداهما نفيه إلى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذى يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الله ما لا يعلمون . والثانية - أن فى الاستفهام حملا لهم على أن يقرروا بالنفى ، وفوق ذلك كله فإن سياق الكلام فيه توبيخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة ، لأساس لها من حق ولا علم ، وإن هذا نوع من الاستفهام الذى يراد به النفي يعبر عنه علماء البلاغة بأنه استفهام إنكارى؛ لإنكار وقوع موضع الإنكار ، وهناك إنكار يقال له إنكار الواقع ، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ما وقع على أنه لا أصل له .

اقرأ قوله تعالى : د قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق^(٢) . وهذا إنكار لما وقع منهم ، وإنكار الواقع توبيخ ، ذلك لأن المشركين كانوا يوجبون الطواف عراة ، وكانوا يجرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك التحريم الواقع منهم بهذه الصيغة د قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، والنفى بصيغة هذا الاستفهام فيه مبالغة ، لأن فيه إشارة إلى أنه لا يسوغ لعاقل أن يكون منه ذلك التحريم ، لأنه عمل غير معقول فى ذاته ، إذ المؤدى : لأحد حرم زينة الله من لباس ساتر ، ولا أحد يجرم طيبات الرزق

التي لا خبث فيها من حيث الحقيقة ، ولا من حيث المعنى ، مادام طريق الكسب طيباً ، وأن الله لا يأمر إلا بالقسط الذي يتفق مع الفطرة ، ولذا قال تعالى من بعد ذلك ، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون^(١) .

وقال سبحانه من قبل هذه الآيات : قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تهودون ، فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين^(٢) .

٩٤ - وقد ذكر عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز الحكمة في سبب تسمية الاستفهام بالإنكارى ، سواء أكان لإنكار الوقوع بمعنى النفي أو لإنكار الواقع ، بمعنى التوخيخ ، فقال رضى الله تعالى عنه .

واعلم أننا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا الإنكار بالنفي ، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتبين السامع ، حتى يرجع إلى نفسه ، فينجل ويرتدع ، ويبين الجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل ما لا يقدر عليه ، فإذا ثبتت على دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله . فإذا روجع فيه تنبه ، وعرف الخطأ وإما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له فأرنا في موضع وفي حال ، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت ، ولو كان يكون للإنكار ، وكان المعنى فيه من بدء الأمر لكان ينبغى ألا يجيء فيما يقوله عاقل : إنه يكون حتى ينسرك عليه ، كقولهم أتصعدا بي إلى السماء ، أتستطيع أن تنقل الجبال ، إلى ردم ما قضى من سبيل .

ومؤدى هذا الكلام أن الإنكار إذا كان نفيًا لوقوع أمر ، فوؤداه أن الأمر لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفى مؤكد ، إذ هو ليس نفيًا للفعل فقط ، بل هو نفى له مع بيان أنه لا ينبغي ولا يجوز أن يقع ، وإذا كان الفعل قد وقع فهو توبيخ على الوقوع ، واستنكار له ، كما رأيت في قوله تعالى : «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق»^(١) ، ويلاحظ أن الإنكار سواء أكان إنكاراً للوقوع بمعنى النفي أم إنكاراً للواقع بمعنى التوبيخ ، فإن فيه حمل الفاعل على الإقرار بالنفي أو إثبات ما أوجب التوبيخ .

٩٥ - ومن الاستفهام في القرآن ما يكون لبيان الاستحالة ، وهو يقارب في معناه معنى إنكار الوقوع إلى حد أنه يكون احتمال غير معقول ، ومن ذلك قوله تعالى «وأفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى» ، بمعنى أنك تخلق فيهم بصراً يبصرون به وإن هذا فيه استفهام إنكارى ، وفيه استعارة تمثيلية ، فقد مثلت حالهم بحال الأصم الذى لا يسمع ، أو فى آذانه وقر ، وبحال من فقد البصر ، وإن من يطلب هدايتهم كمن يطلب السمع من الأصم ، أو يطلب الإبصار من فقد البصر ، فالاستفهام لاستحالة موضوع السؤال وانه لا يقع .

ومن ذلك أيضاً الاستفهام الذى عبر به القرآن عن حال الجاحدين الذين يتوهمون أن الفقراء فى الدنيا لا يمكن أن يكونوا هم أول المهتمدين متوهمين أن الفضل بسعة الرزق وكثرة المال ، لا بالتقوى والمسارعة إلى الخير ، فآله تعالى يصور حالهم بهذا الاستفهام ، فيقول تبارك وتعالى : « وكذلك فتبا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا»^(٢) ، فالاستفهام على مقتضى نظرهم يوجب ألا يكون الله تعالى من عليهم قبلهم ، وذلك من فساد القياس ، إذ قاسوا الفضل بمقياس المادة ولم يقيسوه بمقياس تفضيلة والتقوى والمسارعة إلى الخير .

ومن الاستفهام الذى، ينهى عن استحالة الجواب ، قوله تعالى أمرأ نبيه :
« قل أئندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد
إذ هدانا الله ، كالذى استموته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه
إلى الهدى ، انتأقل إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين^(١) ، فى
فلا استفهام هنا واضح أنه لبيان استحالة أن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
ما يدعون من دون الله تعالى ، وإن حالهم فى عقيدتهم الباطلة ، كحال من
يسير فى بيداء وقد استموته الشياطين الصارخة فاندفع إلى غير هدى حتى
تاه فى المهمة القفر ، وله أصحاب ينادونه فلا يستجيب لهم لأن الباطل
قد ضرب على قلبه ، ولأن استهوا الشياطين قد غلب عليه .

ومن قبيل الاستفهام الداخلى على ما لا يجوز التغيير فيه ما جاء على لسان
إبراهيم عليه السلام ، وقومه يحاجونه يريدون أن يروه ، فقد قال تعالى
« وحاجه قومه قال أئحاجونى فى الله وقد هدن^(٢) ، .

ومن الاستفهام الذى يدل على استحالة موضوعه ما ذكره سبحانه وتعالى
من أنه يوجه إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام يوم القيامة ، إذ يقول
سبحانه : « وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم ، أنت قلت ثلثناستأخذونى وأمى
لأهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى
بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك
أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ،
وكننت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ،
وأنت على كل شىء شهيد . لأن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت
العزیز الحكيم^(٣) ، .

وهنا نجد تلك المجاورة التى أعلننا سبحانه وتعالى أنها ستكون بينه

(٢) للثالثة: ١١٦-١١٨

(١) الأنعام : ٧١

(٣) الأنعام : ٨٠

وبين المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم كان الاستفهام فيها لبيان استحالة أن ابن مريم قال لهم اعبدوني وأمى إلهين من دون الله ولذلك جاءت الإجابة على السؤال باستحالة موضوعه ، وأنه ما كان ولا يمكن أن يكون من عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام .

٩٦ - ومن الصيغ الاستفهامية تلك التي تجيء في القرآن الكريم ما يكون للإلغام ، والرد ، كالرد بالصيغة الاستفهامية ، إذ يقول سبحانه وتعالى عنهم . « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير (١) » .

وإن ذلك الاستفهام مع دلالاته على استنكار قولهم فيه دلالتان أخريان : إحداهما - إعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم مأخوذون بما يقتضون من سيئات ، وما يجتريحون من مآثم ومظالم . الثانية - الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه ، وعمل السوء له عقابه ، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل ، وما كان لهم أن يدعوا محبة الله ، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء ومع ذلك يعصونه ، وينشرون في الأرض الفساد .

فهذا استفهام مع ما فيه من إحكام واستنكار يتضمن معاني سامية فيها التهديد لمن يعصى ، والتبشير لمن أطاع .

وهناك لون من ألوان الاستنكار يكون منصباً على المساواة الظالمة بين الخير الأدنى ، وما هو أعلى منه ، كما في قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٢) » .

لقد كانت قريش تتنافس على السقاية وسدانة البيت الحرام ، وتسابق

إلى عمارته إن احتاج إلى عمارة ويحسبون أن ذلك يجعل لهم فضلا على الناس ولو كانوا مشركين ، وقد قرر سبحانه أن الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيله ، والتقدم لفداء الحق ونصرته لا يساويه مجرد السقاية والسدانة والعمارة ، ولو كان لبيت الله الحرام الذى هو مثابة للناس وأمن ، فالإيمان والعمل الإيجابي لنفع الناس وحماية الحق والذود عنه ، هو فى المكانة السامية وقد أتى سبحانه بذلك فى صيغة استفهام إنكارى ، وهو منصب على التسوية بين الأمرين ، وهو استنكار فيه توبيخ ، وفيه إبطال للباطل ، وإحقاق للحق ، وإعلاء لشأن الإيمان والجهاد ، وأنه فوق كل شأن .

ومن الاستفهام الذى يحكى عن المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما يذكر على سبيل الاستغراب ، وظن الاستحالة ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين : « وقالوا أنذا كنا عظاما ورفانا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رموسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (١) » .

ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : « وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلal فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢) » .

وإن هذه الاستفهامات هى من قبيل الإنكار ، والاستغراب ، فترى المشركين يعلمون إنكارهم للبعث ، ويستغربون أن يكون ، يستغربون البعث فى ذاته ، ويقرنون ذلك بحال الذين يموتون من بعثة أجسامهم بعد أن يصيروا رفاًنا ، ويضيفون إلى استغراب البعث فى ذاته ما يقررونه فى اعتقادهم من أحوالهم ، يحسبون أنها تبرر الإنكار ، أو تزيد الاستغراب ، فيسألون من الذى يبعثهم من مراقدهم ويوهم قولهم أن ذلك غريب .

وفي سورة الرعد في النض الذي نقلناه يستغربون ويتعجبون يبين الله تعالى أن موضوع العجب هو عجبهم ، لأن البعث فيه سر الوجود ، إذ أنهم لم يخلقوا عبثاً ، وإذا كان الابتداء ليس فيه عجب ، فالإعادة ليس فيها عجب أيضاً ، فالاستغراب موضوعه استغرابهم هم .

وإنا نجد في كل الأمثلة التي ذكرناها في الاستفهام تصريفاً في القول يوجد جدة في جملة عن سابقتها ، وإنه لو كان النفي أو الاستغراب والتعجب أو الاستنكار والتوبيخ بلغة واحدة ما كان التنويع في التعبير ، الذي هو ميزة لكل كلام ، فضلاً عن أبلغ كلام رآته الإنسانية ، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإنه بديع في نسقه ، في أعلى درجات من الإبداع ، وإنه كما قال الكافر الذي سمعه : يعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ذو القطوف الدانية ، والجمال دائماً .

٩٧ - ومن الاستفهام ما يكون تقريراً للواقع ، وذلك يكون في الحال التي تستوجب العجب ، أو توجب الاستنكار ، إذ يكون الواقع المقرر مستنكراً ، لأنه ليس من صنيع أهل الإيمان ، ولا مما تستسيغه الفطرة السليمة ، أو تستحسنه الأخلاق الحكيمة ، اقرأ قوله تعالى : رأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون^(١) .

وإن هذا الاستفهام التقريري الذي يؤكد الرؤية العالمية من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن معنى رأيت ، لقد رأيت الذين يكذبون بالدين ، وإن مجيء العبارة بطريق الاستفهام فيه تأكيد لمعنى الرؤية لأولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الغريبة التي تتماسك كل صفة مع أختها ، كأنها ملازمة لها لا تفترق عنها ، وكأنها منها ، فالتكذيب بالدين هو صفة الجاحدين ، لا يؤمنون بالحق ، ولا يهتدون بهديه ، وأولئك دأبهم النفرة من الناس ،

والأ تكون فيهم رحمة بالضعيف ، فهم يقهرون اليتيم ويذلونه ويرهقون ، ويمنعون كل عون ، إذ يمنعون الذكوات التي هي عون الأقبياء للضعفاء ، وهم لا يتذكرون ربهم ، ولا يدنون منه ، حتى في الصلاة ، وصلاتهم ويل عليهم ، وليست قرابة لهم ، وهي محسوبة عليهم على أنها من السيئات ، ولا تحسب لهم على أنها من القربات ، وهم في أعمالهم يراون ، والرياء شرك خفي ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك .

وإن موضع الاستفهام هنا لا يفتى عنه التقرير المجرد ، لأن مؤدى الاستفهام أن المخاطب قد سئل عن الرؤية مثلا ، فأجاب عنها بالإيجاب ، فكان تقرير الواقعة بإقرار من المسئول ، فهو تقرير معه التصديق وهو مع ذلك تنبيه إلى الصفات المرذولة التي انصف بها أولئك الجاحدون بأصل الدين ، من قهر اليتيم ، ومنع المسكين ، والصلاة الساهية عن معنى القرب إلى الله تعالى ، وهم يراون الناس ويمنعون كل عون حقيق .

ومن الاستفهام التقريرى الذى يثير الانتباه إلى الحقائق التي يتضمنها قوله تعالى : **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، قل أرأيتم إن أناكم عذاب الله بغتة أوجهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون** (١) ، وإن هذه الآيات الكريمات فيها عدة استفهامات أولها تقريرى ، وهو تقرير الرؤية كأهم سئلوا عنها . فأجابوا بالإيجاب ، فكان التقرير مؤيدا بالإقرار ، وكان حكما مؤيدا بالدليل ، وهو الإقرار سلطان الأدلة والاستفهام كان موضع الاستفهام الأول ، وهو قوله تعالى **وإن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم** ، وهو استفهام فى معنى النفى ، فهو إنكارى ، أى أنه لا إله غير الله يأتيكم فهو يتضمن مع النفى لإقراراً من السامعين بأنه لا إله غيره وإثارة العجب من لا يقرون بهذه الحقيقة

فهى موضع البرهان وقد تضمن النص الكريم استفهاماً ثالثاً لتوجيه النظر إلى ما يصرفه القرآن من أدلة مختلفة ، وذلك الاستفهام توجيهى تبيينى تقريرى ، وهو قوله تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدقون » فقوله كيف نصرف الآيات فيه توجيه النظر إلى تصريف للآيات ، وجاء بصيغة الاستفهام لتصوير التصريف فى الآيات التى أنزلها الله تعالى ، أو كانت فى الكون ، وما كان ذلك التصور لها ليتحقق إذالم تكن الدعوة إلى النظر ، ثم الاستفهام الذى يأخذ النظر ليضعه على ذلك التصريف ، ثم كان الاستفهام متضمناً معنى الاستنكار لحالهم ، إذ أنهم مع تصريف الآيات وجعلها فى صورها جديدة تسترعى الالتفات والاتجاه إلى إدراكها ، والتنبه لها ، ومع ذلك - لكثرة وجودهم ولجاجة الباطل فى نفوسهم - يعرضون ، ولا تستولى عليه نفوسهم ، كشأن الفكرة المجددة ، فإنها تسترعى الأفهام وتأخذ بالآليات ، وليكنهم عموا ، فلا يجديهم تصريف ، ولا يأخذ بالبابهم تجديد الأسلوب لأنهم معرضون ، إنك لا تسمع الصم الدعاء إذا ولو أمدين .

وفى النص استفهام تقريرى على منهاج لا يعرف إلا فى القرآن ، فإنى لم أقرأ كثيراً فى غير القرآن ذلك المنهاج الاستفهامى إذ يقول سبحانه « أرايتكم إن أناكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون »^(١) ، فالتعبير فى الاستفهام - أرايتكم - ليس مشهوراً فى الأساليب العربية ، ونجد هنا الخطاب تكرر فيه ، فالتاء المفتوحة خطاب ، والكاف خطاب التاء خطاب للفرد ، والكاف خطاب للجمع ، والتاء متجهة إلى مخاطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والكاف متجهة إلى خطاب الجمع ، فاجتمع خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطاب الجماعة ، وذلك لأن فى الاستفهام تقريراً لرؤية النبي عليه الصلاة والسلام وتقريراً لرؤية كل المخاطبين بالقرآن الكريم ، وكان لابد لاجتماع الخطابين ، خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) الأنعام : ٤٧

ليقرر الواقع وهو علمه عليه السلام ، وتقرير الحقيقة الثابتة للناس أجمعين ، وهي أن عذاب الله الذي يحىء بغتة في خفاء ، أو جهرة في وضوح النهار لا يهلك إلا القوم الظالمون فهو جاء لأجلهم منصّباً عليهم ، وهنا أمران يجب التنبيه إليهما .

— أولهما — أن الزمخشري ، ومن حاكاه ، كالبيضاوي وغيره قالوا إن الكاف حرف لتأكيد الخطاب لا موضع لها من الإعراب فهي ليست ضميراً ، ولكنها من الحروف التي تبنى على غير محل من الإعراب ، ووجهتهم أن رأى استوفت المفعولين من غير تقدير الكاف في موضع الضمير ، ونحن نميل إلى أنها ليست زائدة ، لتأكيد الكلام ، وليست حرفاً ، ولكنها اسم بمعنى أنفسكم ويكون تأويل القول على هذا أرايت أنفسكم ، وجمع ليشمل كل الناس ، وكل المخاطبين ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى أرايت أيها النبي الناس ، وقد صاروا عرضة لعذاب يعم الجميع أم يخص الظالمين الذين طلبوا أنفسهم وظلموا الناس وظلموا العقل فضلوا وأضلوا كثيراً ، وأفسدوا في الأرض والله لا يحب الفساد .

— الأمر الثاني — أن قوله تعالى : دهل يهلك إلا القوم الظالمون فيه استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع والمعنى لا يهلك إلا القوم الظالمون . واقتزن الكلام بالوصف يدل على سبب استحقاق الهلاك . وهو الظلم ، فبظلم منهم هلكوا ، وكان ذلك تأكيداً للنفي بذكر السبب في أنهم اختصوا بالهلاك . ومن هذا النوع في الاستفهام الذى اقتزن بناء الخطاب والكاف ، وكان كلاهما بالمفرد قوله تعالى : دارأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فئن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً (١) ،

والله سبحانه وتعالى يحكى عن إبليس اللعين قوله وهو مخاطب رب العالمين والاستفهام لتقرير الواقع ، لا لنفيه والكاف على قول الزمخشري هي

تأكيد لمعنى التأكيد ، ونحن نرجح ذلك ، لأن التاء مفرد والكاف مفرد ، وهو تأكيد لفظي يتوافق المؤكد مع المؤكد في الإفراد والجمع ، أما الاستفهام السابق فعنى التأكيد فيه بعيد ، للتخالف في الإفراد والجمع ، وهذا النوع من البيان لتصريف القول ، وقد ذكر طبيعة إبليس الفاسدة بأنه سيجعل ذلك الذى كرمه تعالى عليه الهلاك لذريته إلا قليلا ، وهذا من غرور إبليس ، ومن يسكن الشيطان قلوبهم ، وهذا كقوله : « لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .

ونلاحظ أن خول الاستفهام على رأى ، مع وجود ضميرى خطاب فى جملة واحدة أو على قول الزمخشري ضمير خطاب وحرف خطاب - هو استعمال قرآنى ، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيراً قبل القرآن ، وفيه من معانى الاستنكار أو التنبيه أو التعجب فى أبلغ صور . وإن هذا من سر الإعجاز ، ودليل على أن القرآن لم يكن عليه البيانى عند العرب من قبله .

٩٨ - والاستفهام أحياناً يكون للتسوية « بين أمرين ، ويكون هذا لبيان وحدة النتيجة والغاية مثل قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذروهم لا يؤمنون »^(١) ، وإن أداة الاستفهام فى هذه ليست للاستفهام الحقيقى ، ولا للإنكار ، ولا للتعجب ، ولا لغير ذلك مما ذكرناه مقاصد للاستفهام ، وفى النص القرآنى تأكيد لوجود الذين كفروا ، والإشارة إلى أنهم سبقوا إلى الجحود ، فالأدلة مهما تكن قوية لا تجد مكاناً فارغاً لتلاؤه ولسكنها تجد قلباً ملؤه أجموداً ، فلا سبيل لأن يدخل الحق ، ومن ذلك قوله « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص »^(٢) .

فإنها كانت التسوية بين أمرين من حيث الانتهاء إلى نتيجة واحدة ، فإن الأمر الذى لا يكون ثمة مفر منه ، يستوى فيه الصبر والجزع من حيث

(٢) إبراهيم : ٢١
(م ١٦ - المعجزة الكبرى)

(١) البقرة : ٦

إن كليهما لا يدفع المحذور ، وإن كان الصبر أجدى لأنه يوجد في الجملة
قراراً ورضاً وتقديراً للأمر . كما قال عليه الصلاة والسلام «إن صبرتم أجزتم ،
وإن جزعتم وزرتم .

وقد تكون ألف الاستفهام للترديد بين أمرين في ظاهر القول ، وليست
الغاية متحدة ، والعقل يقرر صدق أحدهما كما في قوله : « أأتم أشد خلقاً
أم السماء بناها ، ورفع سمكها فساها وأغطش ليلها^(١) » ، فإن هذا الاستفهام ليس
فيه تسوية بين أمرين في الحكم أو النتيجة والغاية ، بل المعقول يثبت أحدهما ،
وينقض الآخر بدليل من العقل والحس ، فإنه لا شك أن الأشد خلقاً هو
الأكبر حساً ، والأعظم تأثيراً ، والأدق لإحكاماً ، وهو السماء بما تصف
فيها ، وإذا كان سبحانه مالك السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ،
من دابة فهو على ما يشاء قدير .

ومؤدى هذا الكلام نفي سلبي ، وحكم إيجابي ، فأما النفي السلبي فهو
أن الإنسان ليس أشد خلقاً ، وأما الحكم الإيجابي ، فهو بيان سلطان الله
سبحانه وتعالى القاهر فوق كل شيء .

وهذا النوع من الترديد إنما يكون دائماً لحمل المخاطب على الحكم الصحيح
فهو لا يدل على التسوية ، بل يدل على التفرق في الحكم وينضقوا بالصواب
أو يلتزموا به ، إن لم ينطقوا ، أو ليفحموا إن لم يسترشدوا وضلوا ،
وهو استدلال على الحكم ومن ذلك النوع من الاستفهام قوله تعالت كلماته .

« أفأرأيتم ما تمنون أنتم تخلقوه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم
الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون
ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفأرأيتم ما تحرثون أنتم تزرعونه
أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناهم حطاماً فظلمت تفكهم ، إنا المغمرون ،
بل نحن محرومون ، أفأرأيتم الماء الذي تشربون أنتم أنزله من المزن أم نحن

المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا نشكرون. أفرأيتم النار التي تورون ،
أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشثون ، نحن جعلناها تذكرة ، ومتاعا
للقوين^(١)، ونرى هذه الاستفهامات المتقابلة التي يجيء فيها بين الاستفهامين
لفظ أم التي تدل على التعادل بالظاهر من اللفظ، ولكنها ليست متعادلة
من ناحية الحقيقة الثابتة فهي مقابلة بين حق وباطل ، للتنبيه على الحق
بالدليل والتنبيه بالاستفهام بطريق التقابل، فإذا كان التقابل بين أن يكونوا
هم الخالقين لأنفس في ظهور الآباء وبطون الأمهات إذ أن الخالق هو الله
سبحانه : فالفطرة والبدهة والحس تقرران الأول فالحكم بلا ريب ينتهى
بمقتضى التقابل هو أن الخالق هو الله سبحانه ، وكذلك الأمر في الزرع ،
وكذلك الأمر في الماء ، وكذلك الأمر في النار .

فهو استفهام ليس على حقيقته ، ولا للإنكار المجرد ، ولكنه للتنبيه ،
والاستدلال على الحق بالإشارة إلى البطلان الذي يكون في الجانب المقابل
للحق ، فإنه إذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه ، فإذا كان التردد
بين كونهم الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم
بالخلق فقد ثبتت صفة الخلق لله تعالى ، وبذلك يكون الاستفهام للتنبيه
والاستدلال، كقوله تعالى ، « وإنا أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين^(٢) .
ومن ذلك النوع ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف وهو يقول لصاحبي
السجن : «أرأيتم مفرقون خير أم الله الواحد القهار^(٣) ، فإن هذا التقابل بين
باطل ثبتت البدهة بطلانه ، وإذا بطل أحد المتقابلين صدق فكان الاستفهام
للتنبيه إلى الحق مؤيدا بالدليل القاطع .

٩٩ - والاستفهام للتنبيه كثير في القرآن ، وكذلك لإثارة العجب حول
ما يدعون من ترهات وأباطيل وبيان وجه غرابتها ولا يمكن إحصاء ذلك ،
واستقراؤه وتبعه ، ولكن يمكن ضرب الأمثال ، وما يذكر يكون شاهداً

(٢) يوسف : ٣٩ .

(١) الواقعة : ٥٧ - ٧٣ .

(٢) سبأ : ٢٤ .

على ما لم نرطب ألسنتنا بتلاوته ، ولا أسمعنا بالاستماع له والإنصات والتدبر فيه .

اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل حنيد ، فقرر به إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا نخف ، وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم^(١) إلى آخر القصة ، وترى القصة ابتدأت بالاستفهام للتشويق ، وللتنبية إلى الاستماع ، وقد ابتدأت بعبارة فيها إجمال لتكون تمهيداً لما يجي بعد ذلك من التفصيل .

ومن الاستفهام الذى للتنبية إلى قدرة الله تعالى ، وهم لا ينكرون الجواب فيكون الاستفهام للإقرار به وتقديره قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فإذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل أن يهدى إلى الحق ، أفن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهدى إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم إلا ظننا إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون^(٢) » .

ففي الآية الأولى كانت أربعة استفهامات عن الرزق من رزقه وعن يملك السمع والأبصار فيسلبهما إن شاء ويقيهما ، ويردهما إن سلبهما ، وسألهم عن يخرج الحى من الميت ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فى إجابة هذه الأسئلة ، فجاء الاستفهام الأخير فى هذه محرضاً على التقوى ، إذ أن التقوى

(٢) يونس : ٣١-٣٦ .

١٠ نذرت : ٢٤-٢٩ .

كانت من نتائج إقرارهم بالإجابة الصادقة عن هذه الأسئلة التقريرية التنبؤية إذ أن العبادة لا تكون إلا للخالق وحده ، فالمعبود الذي يستحق أن يكون لها هو الخالق النافع الضار .

ونرى أن الأسئلة كانت إجابتها بالإيجاب لا بالسلب وبين سبحانه وتعالى ما ترتب على الإيجاب بإقرارهم الصريح ، وهو أن تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى ، فلا تعبد غيره .

وجاءت بعد ذلك الآيات أسئلة الإجابة في بعضها بالسلب لأنها خاصة بما يشركون بها عبادة الله سبحانه وتعالى من أوثان ، وغيرها .

الاستفهام الأول كان عن شركائهم هل يفعلون ما قرروا أن الله يفعله ، ولسان حالهم أن يجيئوا بالسلب لأنهم يرون أنهم لا يضرون ولا ينفعون ، وسألهم عن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولسان حالهم يقول الله .

وهكذا نرى أن الاستفهام في كل هذه المقامات في القرآن كان لإثارة التنبيه إلى الحقائق ، وإذا انتهت العقول اتجهت إلى طلب الحق في غير عوج بل بطريق مستقيم .

وإني أحسب أنه بعد أن نزل القرآن وأشرب الناس مناهجه ومسالكه ، كان من أجود الطرق التعليمية إثارة الانتباه بالاستفهام تنبيهاً إلى ما يوجه إلى التلاميذ من علم ، فكان استفهام القرآن موضحاً أقوم المسالك للتنبيه إلى الحقائق وإثارة الأذهان إليها ، وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعاني ، والحقائق العلية .

١٠٠ - وإن القرآن سلك في الاستفهام مسالكاً نره كثير الاستعمال عند العرب من قبل نزول القرآن ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو إلى مسلك القرآن ، وهو دخول أداة الاستفهام على حرف النفي ، مثل قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ،

وألقينا فيها روامي ، وأنبئنا فيها من كل زوج بهيج، بنصره وذكري اكل عبد
منيب، وانزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبئنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل
باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١) .

فأنت ترى من السياق القرآني أن همزة الاستفهام دخلت على لم التي
هي حرف نفي ، فالاستفهام دخل على حرف نفي وجاء بينهما فاهي للدلالة
على أن السؤال مرتب على ما كان قبله ، وما قبله كان تعجبا من أمر البعث ؛
إذ قالوا أنذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد ، وأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم
فكانت الآيات التي وليت الاستفهام رداً على تكذيبهم ، وفيها الدلالة على
إثبات ما أنكروا ، فالفاء للدلالة على ترتيب الاستفهام ، ولكنها أخرجت
عن أداة الاستفهام ، لأن الاستفهام له الصدارة ، فهي مؤخرة عن تقديم
في نسق الترتيب الفكري .

والاستفهام الداخل على النفي مؤداه الحث على النظر ، لأن الاستفهام
عن نفي النظر ، وتقرير عدم النظر ، فإذا كان الاستفهام ابتداء يقرر أنهم
لم ينظروا ، وفي النظر تعرف لآيات الله تعالى في الكون ، فالاستفهام
وحرف النفي يدلان على الإثبات وهو هنا طلب النظر ، فكان المعنى على
هذا المنطق المستقيم ثبت أنكم لم تنظروا ، فالواجب أن تنظروا فالاستفهام
ابتداء كما يبدو من سياق الكلام يقرر أنهم لم ينظروا ، لأن عدم النظر
كان موضع الاستفهام ، ومن المقررات البلاغية أن الاستفهام دائماً يدخل
على ما يكون موضع شك ، ويقدم فيه ما يكون موضع الشك ، فإذا كان
موضع وقوع الفعل . كان الاستفهام مسلطاً على الفعل ؛ مثل قول الموحدين
للوثنيين : « أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا (٢) » ، فهنا نجد موضع
الاستنكار هو ذات الفعل ، فكان عقب أداة الاستفهام ، وإذا كان الفعل

قد وقع ، وموضع الشك هو الفاعل ، فإنه يحىء وراء الاستفهام ؛ كقوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم إذ رأوا أصناما جذاذا ، قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا له «أأنت فعلت هذا بألهتنا يا إبراهيم^(١)» ، فالفعل ثابت بالعيان أمامهم ، ولكن الفاعل هو الذى يريدون البحث عنه ومعرفة .

وبهذا المنطق البيانى نرى أن الاستفهام فى هذا النص أفلم ينظروا داخل على الفعل المنفى ، فإذا كانت الهمزة للتنبيه أو التقرير ، أو التوبيخ ، لأنهم لم ينظروا ، وهو الراجع فى نظرى فىكون لإنكار الوقوع وإنكار الواقع ، وإذا كانوا يوبخون لأنهم لم ينظروا ، فالتوبيخ يكون دعوة للفعل ، وحثاً على النظر .

ومن الاستفهام الداخلى على النفى ، قوله تعالى فى قصص القرآن عن أنبيائهم : « ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لنى شك مما تدعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض^(٢) ، ونجد فى الاستفهام الذى صدرت به الآية السكرية أن همزة الاستفهام دخلت على (لم) النافية ، فكان موضع الاستفهام عدم إتيان نبا الذين من قبلهم ، ولو سرنا على ما يقتضيه السياق اللفظى للنص السامى يكون الاستفهام عن عدم الوقوع ومعناه أنه لم يأتكم ، وإذا كان الاستفهام للتقرير أو التنبيه فؤداه أنه لم يأتكم ذلك ، وفى هذا تشويق لمعرفة ، وتوجيه لطلبه ، ولذلك جاء من بعد ذلك النبا عن الرسل السابقين ، ويكون فى هذا تثبيت الخبر لمن يطلبه مصغياً إلى حقائقه ، معتبراً بعبره .

ولقد جرت بين كتاب علم البلاغة كلية نفي النفي إثبات ، ويطبقونه على

(١) الأنبياء : ٦٧

(٢) إبراهيم : ٩ - ١٠

استفهام يدخل على فعل منفى فيكون الاستفهام داخلا على منفى ، والاستفهام نفى ، فيكون نفيا لمنفى ، ونفى المنفى إثبات ، وإن ذلك يسير إذا كان الاستفهام للإنكار ، إنكار الوقوع ، فيكون إنكارا للمنفى فيكون إثباتا ، وقد قلنا إنه حتى في هذه الحال ، لا يخلو الاستفهام من تنبيه ، وإقرار بما جاء الاستفهام عنه ، ولكن الاستفهام الداخلى على المنفى يتضمن الحث على طلب الأمر المنفى الذى دخل عليه الاستفهام كما رأيت فى قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كما تلونا من قبل ، وقد يكون إلى تلقى علم ما نفى فى حيز الاستفهام كما رأيت فى الآية السابقة .

وقد يتضمن الحث على العمل ، والتحريض عليه إذا كان ذلك العمل غير محقق فى الوجود ، أو هناك شروع فى تحقيقه ، وذلك يكون غالبا عند نفى الأمر المستقبل كما نرى فى قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدهكم أول مرة ، أتحشونهم ، فإله أحق أن تحشوه ، إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصرهم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء (١) » .

ونرى من ذلك أن الاستفهام دخل على المنفى ، وهو عدم القتال أو عدم الأبهة له ، والاستعداد للتقدم ، فالمستفهم عنه عدم القتال والاستعداد له وقد وجدت أسبابه ، وتعددت موجباته ، فكان الاستنكار منصبا على المنفى ، والاستنكار لحال مستمرة ، حث على تغييرها ، وإذا كان الاستنكار على ما وقع توبيخا لمن أوقعه ، فالاستنكار لأمر لم يقع بظاهر الحال واستصحابها تحريض على تغييرها ، وتوجيه للإتيان بها .

وإن الاستفهام الذى ينطبق عليه قول بعض الكتاب فى علم البلاغة

وهو نفي النفي إثبات يكون في مثل قوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمى ، ثم كان علقه مخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (١) » ، وترى من هذا أن الاستفهام دخل على المنفى ، فكان إنكاريا لنفى الوقوع ، فنفى على زعمهم القائل أنه لم يك فى نشأته من منى ، أو كانوا عن ذلك فى غفلة ساهين وكانوا فى حاجة إلى التذكير ، والإحساس بمبدهم ، ليعرفوا منتهام ، وأن الذى أوجدهم من منى يمى أشخاصاً ذكورا وإناثا قادر على إعادتهم ، كما بدأهم يعودون .

فلاستنكار لجهلهم هذه الحقيقة ، أو تجاهلهم ، وكأنهم لا يعلمون ، فاستنكر هذا عليهم فكان نفيا مستنكرا لحال التجاهل .

ولاشك أن هذا فيه تنبيه ، وفيه لوم على تجاهلهم تلك الحقيقة ، وبيان أنه يجب عليهم أن يعرفوها ، ليكفونوا فى تذكر دائم بقدرة الله تعالى فى تدرجهم فى الوجود من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ويعلموا بذلك قدرة الله تعالى على الإعادة .

ومن الاستفهام الداخلى على النفي الذى من قبيل أن نفى النفي إثبات ، التنبيه إلى أن النبى يصنع على عين الله تعالى ، ويتولاه وألا يكون فى يأس من رحمة الله تعالى ؛ لأنه فى ولايته ، ولا يضيع من يكون فى ولاية الله تعالى . ومن ذلك قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ، (٢) » .

فإن الاستفهام هنا لإنكار الوقوع ، أى لإنكار أن الله تعالى لم يشرح صدر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليتلقى الوحى الذى أوحى به إليه ،

وإذا كان الإنكار نفيًا فالمؤدى للقول: قد شرحنا صدرك ، وكان الاستفهام للنفى .

١٠١ - وإننا في ختام هذا البحث من التصريف البياني في القرآن نقرر بالنسبة للاستفهام فيه ، أن الاستفهام باب من تصريف القول في القرآن ، وفيه من أسرار الإعجاز ما فيه ، فن الاستفهام ما يكون بعبارات تتفق مع النسق العربى السليم ، ولكنه لم يعرف بين البلغاء قبل القرآن وإنى أرى أن أكثر صيغ الاستفهام التى جاء بها القرآن غير مسبوقه قبله ، وإن الاستفهام كان يستعمل أحيانًا للتنييه ، وأحيانًا للاستدلال ، وأحيانًا للتعجب ، وأحيانًا ليوجه الأنظار إلى الكون وما فيه ، وما يجرى بين الناس ، وإن ذلك كله ما يدل على علو القرآن على مستوى ما كان عليه أكبر البلغاء ، وأقواهم سلطانًا فى الأسلوب العربى .

الحقيقة والتشبيه والاستعارة في القرآن

١٠٢ - هذا باب من أبواب تصريف القول في القرآن ، وضرب الأمثال به ، والحقيقة في اصطلاحنا ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه ، فقط بل هي مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة ، وهي ضرب من ضروب المجاز ، وإذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة ، إذ أن أساس الحقيقة في نظرهم أن يستعمل اللفظ فيما وضع له والتشبيهات التي تكون بأدوات التشبيه الألفاظ موضوعة في مواضعها ، والمجاز الذي يقابل الحقيقة أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وضعت لعلاقة بين المعنى الأصلي ، والمعنى الذي استعملت فيه مع قرينة دالة على هذا ، وعدم إرادة المعنى الأصلي .

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة ، ولا غبار عليه ، ولكننا في مقام الإعجاز القرآني نذكر الحقيقة - غير المجاز ، وغير التشبيه ، ونزيد الحقيقة المجردة ، أي استعمال الألفاظ فيما وضعت له من غير ذكر مقابلة لفظ ولفظ طريق التشبيه الذي يجمل المعاني أو يقربها ، أو يأتي بصورة إيانية تلتقي فيها الحقيقة مع إثارة خيال يكون كأطياف الصور .

فالحقيقة التي نطلق عليها حقيقة ونحن نتكلم في القرآن ما تدل عليه الألفاظ في أصل وضعها من غير مجاز ، ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، وتكلم هنا في الحقيقة ، والتشبيه ، والاستعارة التي هي التشبيه من غير ذكر أداة التشبيه أو ما يدل عليه . وفي القرآن هذه الأمور كلها مع أنواع المجاز المرسل الذي لم تكن العلاقة فيه بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي المشابهة بينهما .

١٠٣ - إن القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ؛ وهنا نجد السكاكي يعتبر

التعبير المجازى أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التي وضعت لها ، وقد يكون ذلك في غير القرآن ، ولكنه ليس على إطلاقه حتى في غير القرآن ، أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جزءه ولا أبين ، بل كل في موضعه وفي منهاجه ، بلغ أقصى درجات البلاغة التي لا تسمى ولا تناهد وليس في طاقة أحد من البشر أن يأتي بمثله .

ولا شك أن بعض الموضوعات القرآنية لا يكون للجواز أو للتشبيه موضع ، بل إن المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها حتى في كلام الناس ، وليس من النثر الفني فيها التشبيه إلا أن يكون للتقريب .

وإن الحقيقة نستعمل في كثير من مواضع القرآن كالأحكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج إلى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها إذ أن المطالبة بعمل توجب تعميته بما لا يوجد فيه احتمال لمعنى غير المراد ، ليتم التكليف على بيغته وعلم واضح بالمطلوب .

وكذلك القصص ، فإن القصص ذكر لحقيقة ما وقع لتكون به العظة الكاملة ، بحيث يتجه التالي للقرآن إلى مغازى القصة . ومراميتها من غير تزيد ، كما رأينا في كثير من القصص القرآني فيما تلونا من قصص نوح وإبراهيم وموسى ويوسف من قبله ، فإنك ترى فيه الحقائق مجردة إلا من بيان وجه العبرة ، ولا تجد للجواز والتشبيه إلا قليلا .

وكذلك الاستدلال على الوحدانية بالنظر في الكون وما اشتمل عليه ، والنظر في الشمس والقمر والنجوم المسخرات وهكذا ، مما يوجب الاتجاه مباشرة إلى الحقائق .

١٠٤ - وإن بلاغة الحقائق التي تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التي كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أو غيرها ،

فإن ذلك يكون لمعان مقصودة ، وغايات أخرى وراه فكرة البلاغة التي هي وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت ، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولو كان معه الجن والإنس ، كما قال تعالى ، **« قد قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »** (١) .

ويقول في ذلك الباقلاني ، في كتابه إعجاز القرآن **« إن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير ماثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، وتجدد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع بمختلف على حسب الاحوال . وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجددون من أبواب ، ثم يقصرون في غيرها فيقول : « وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا . ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا ، وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً وتبيناً . ويختلف اختلافاً كبيراً ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، فملنا بذلك أنه عملاً يقدر عليه البشر ، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه .**

ونرى من هذا أن الإجماع على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته (٢) لأنه من عند الله الذي لا تفاوت بين الأشياء عنده ولا فرق

في البلاغة بين ما كانت الحقائق فيه تذكر مجردة عن التشبيه ، والمجاز .
ولنذكر بعض آيات الأحكام التي تذكر الأحكام مجردة ، اقرأ آية
المحرمات قال الله تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ،
إنه كان فاحشة ومقتاوساء سييلا، حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم وأخواتكم
وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم
وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربابنكم اللاتي في حجوركم من
نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ،
وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد
سلف ، إن الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت
أيماكم ، كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم
محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن ، فآتوهن أجورهن فريضة ،
ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليما حكيمًا ،
ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيماكم من
فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلن ،
وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات اخدان ،
فإذا أحصن ، فإن أنهن بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ،
ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (١) .»
هذه آية من آيات الأحكام لم يستعمل فيها المجاز ، ولا التشبيه ، ومع
ذلك هي بالغة من البلاغة حد الإعجاز القرآني فالتأخرى بين الألفاظ والمعاني
ثابت ، حتى إن كل كلمة فيها حكم ، توميء إلى التي تليها ، مع بيان الحكمة
الشرعية ، والتعليل لبيان المحرمات التي حرما وكانت حلالا في الجاهلية في
زعمهم ، كزواج من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه
لما لها من خطر وشأن ، إذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم وما يبتدأ به الكلام
يكون قوي التأثير ، وقد وصفه سبحانه بأنه فحش في الواقع ، لأنه أمر

غير مألوف في الطباع السليمة ، والأخلاق الكريمة ، وأنه عموت عند الناس لا يفعله رجل يألفه الناس ، بل يمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب (نكاح المقت) ، فمع أن الجاهلية ما كانت تحرمه بزعمها ، كانت تكتره وتمقته ، ولا يفعله الكرام .

ولما جاء النص الكريم بتحريم الامهات ، وهن الأصول من عل استشرفت النفس لمعرفة حال البنات ، أنحل أم تحرم ، فجاء التحريم في وقت الاستشراف إليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة إليه وكذلك الأخوات وهن أولاد الآباء والامهات ، والعلاقة بين تلى العلاقة بالأولاد ، ثم جاء من بعد أولاد الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الحالات فكانت كل طائفة مهدة لذكر التي تليها ، تجذبها إليها بمقتضى تداعي المعاني ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها في تآلف لفظي ، وتآخ معنوي .

ولقد كانت المرضع تعد أمآ ، كالأم النسبية ، لأن هذه إذا كانت قد حملته في بطنها ، وغذته من دمها جنيناً فتلك قد وضعت في حجرها وغذته من لبنها رضيعاً وأنشزت عظامه ، وأنبقت لحمه ، كما كانت الأولى ، فكان من تداعي المعاني ، أن يذكر في إيجاز غير مغل ، الامهات الرضاعيات من أولادهن ، ومن التقي معه على ثدى واحد .

وكان من مقتضى التناسق المعنوي أن تذكر بعد صلوات النسب الصلوات السببية ، وهي المصاهرة فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسانكم إلى الربائب ، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس إلى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء ، وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن في حجره وكبناته .

وإذا ذكرت أمهات الزوجات ، وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يكون
لتنميم القول ، ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات
الآبناء أمن حلال ، أم لا .

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق
ونسق جامع .

وكل ذلك فى نغم متأخ ، وفى صور بيانية من مجموع القول ، فعندما
تقرأ الآيات من أولها إلى آخرها ، تجد صورة بيانية ، لأسرة متكاملة ،
ليس فيها تقاطع ، بل فيها تراحم ، وتواصل ومحبة ومودة فما كان ذلك
التحريم إلا لتكون المودة هى الواصلة فلا يفحش ابن مع أبيه ، ولا يمت
ولد أباه ، ولا يعتدى أب على ابن .

وإن ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق فى البيان ، وتوافق
فى العبارات من غير منافرة ، ولا معاضلة ، متحقق ثابت لا مجال لإنكاره ،
وما اختصت به العبارات من إشراق وضياء ، تجده منيراً حول الكلمات .

وإذا كنا قرأنا آيات الزواج وتكوين الأسرة ، فلنقرأ حكم الله إذا
تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمراً لا بد منه ، وإن يتفرقا يغن
الله كلا من سعته ، فقد قال تعالى :

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا
الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة
مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى
لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ،
أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله
ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له
مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله

بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ، واللائئ يثن من المحيض من نساءكم . إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائئ لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلمن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن ، وأنمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ، (١) .

وترى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاما كثيرة؛ تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات وتضمنت بعض أحكام الرضاعة ، وأحكام النفقات بين الأزواج ، وخروج المعتدات من بيوتهن .

وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه إليها القرآن الكريم في اللفظ تعبير وأعطف نص وكأنه بلسم لشفاء نفوس مجروحة ، قد أرنتها حرقة الألم بسبب الفراق ، ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق وهو لا يكون إلا إذا تعذر الوفاق ، فالنفوس تكون مضطربة ، واليأس يكون مخيما ، والعلاقات تكون في حال يابسة ، ولذلك نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التي اعترأها يأس من الحياة الزوجية السليمة . إذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود ، وأن من يتعدها يظلم نفسه ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، (٢) ، ثم يبين سبحانه وتعالى العدة ، ويبين أنها فيصّل تفرقة ، أو عودة ، وأن المطلوب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ويذكر أن الأمر قد يكون في طياته ما يخرج

(١) الطلاق : ١ — ٧ (٢) الطلاق : ١

النفوس من مضطرب الخلاف إلى متسع الوفاق ، فيقول سبحانه ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ^(١) من ذلك المزدحم الذي تعترك فيه الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة أو فرقة لا ظلم فيها ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك المقام أيضاً « قد جعل الله لكل شيء قدراً ، ^(٢) وبعد أن يبين سبحانه وتعالى العدة للآيسة من الحيض ، ومن لم تره ، وهي ثلاثة أشهر ثم يبين عدة الحامل ، بعد أن بين عدة الحائل هنا ، ويقول لنفوس محرجة آسفة حزينة عرفت الحاضر والماضى قد فات إن خيرا وإن شراً ، وهي تجهل للقابل ، فهي تجهل ما يطويه ، فيقول سبحانه « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ^(٣) » ويذكر سبحانه وتعالى وجوب النفقة في مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والإرضاع ، ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب ، على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ، ^(٤) .

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها ظمأنة النفس على ما يطويه المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وإن هذا النوع من القول هو الذى يقال عندما تتأزم النفوس ، وتقطع العلاقات بعد ودكان دائماً أو كان يرجى له الاستمرار ، ويشترط لتحقيق ذلك الذى الأمر فرج الله به الكروب التقوى والعمل الصالح ، وإن هذين إذا تحققتا فى تلك الحال طابت النفوس ورضيت بالواقع إن لم يكن منه مناص وغيرته بالإيمان إن كان ثمة محل للتغيير .

وإن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت صدور أهلها حرجا ، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة بأس وغلبت شدتها ، وذهب رخاؤها أن يفتح باب الرجاء فيها بعد إغلاق الآمال ، وأن

(٢) الطلاق : ٣

(٤) الطلاق : ٧

(١) الطلاق : ٢

(٣) الطلاق : ٤

يكون ميسراً ، ولا يكون معسراً ، وأن يكون مبشراً ، ولا يكون منقراً .
وإن تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التي تصل إلى أعلى
الدرجات في ذاتها لا في نسبتها ، فابتدأ الله تعالى الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه
وسلم ، ثم خاطبت المسلمين من بعد مواجهمته ، وخوطبوا بالجمع للإشارة إلى
تكافل جمعهم ، وتضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى في المواطن الحرجة ،
والاستعانة بالمشورة والرأى ، وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها إلا وهي
متصلة بحال العدة ، لكيلا يرهقها بإطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء في
قلق نفسى ، وهكذا استمرت الأحكام الرفيعة تبين الآيات منها حكماً
بعد حكم .

وجمال التعبير يشرق دائماً ، وحلاوة النغم تنساب في النفس انسياب
الخير العذب ، كما تنطلق الأحكام إلى العقل والقلب في انعاظ واعتبار واهتداء
إلى الحق وفي انسجام فكري .

وإذا كان سرد الأحكام خصوصاً في موضع دقيق كأحكام الأسرة
يكون بادی الرأى في كلام الناس جافاً غير مشرق ، فإن ذلك في كلام الناس
أما في كلام الله تعالى فإنه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسّمات في نغم
هادىء يطب للقلوب جفاؤها ، فيذهب وللنفوس فتق الشح ، وهو عظة وهداية
وتوجيه إلى العدل المطلق المنظم للأسرة في سلامتها وبقائها ، وفي فصلها
وانتهائها ، وسبحان الله العليم الخبير .

التشبيه في القرآن

١٠٥ - انتهينا إلى أن التشبيه في القرآن ليس هو مقياس البلاغة ، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون في حال التشبيه والاستعارة والمجاز ، تكون أيضاً في الكلام الخالي من كل هذا وأخص ما يكون ذلك في آيات الأحكام ، وقد يكون في القصص والاستدلال ، وغير ذلك مما نعرض له ، وقد تلونا عليك آيات من آيات الأحكام ، وجدنا فيها النص الكريم في حقايقه ، وفي بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام ، وهو بديع في ذاته من غير حاجة إلى البديع الصناعي ، أو الاصطلاحي ، فإنه فوق قدر البشر ، وفوق ما يصطنعه البشر ، وما يصطلح عليه العلماء ، وإنه يتعلم منه ، وإن كان لا يحاكي ، ويؤخذ منه ، وإن كان الوصول إلى مقامه غير ممكن . ولنتكلم الآن في تشبيه القرآن .

لقد ذكر الرماني في رسالته أنك في إعجاز القرآن : التشبيه هو العقد على أن أحد الشيتين يسد مسد الآخر في حس أو عقل وإن ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به في مرتبة واحدة ، وإنى لا أرى ذلك ، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبي الحسن الرماني المتوفى سنة ٥٣٨٦ - فإنهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشيتين في مقام الشيء الآخر لأمر مشترك بينهما . وهو في ثانيهما أقوى مظهراً أو أبين مخبراً ، كما تقول على كالأسد في الشجاعة ، فهو في الأسد أظهر ، ولا يمكن أن يقال : إن أحدهما يسد مسد الآخر ، صورة أو معنى .

ولنترك التعريف مع رأينا فيه ، ولننظر في قوله من بعد ، فهو يقول : وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وهو على طبقات في الحسن ، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيتين بمعنى يجمعهما ، والأظهر

الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه ، ويذكر وجوه التشبيه وأنواعه فيقول في ذلك :

« منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة ، فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء النهار . »

ولاشك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه كتشبيه غير الواضح بالواضح كما ترى ذلك في كثير من الآيات القرآنية ، وكالتشبيه الذى يقصد به بيان ما أكنه سبحانه وما خلق وما دبر فهو تقريب بالمغيب عننا إلى المعلوم لنا ، وما عند الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلى من المعنى الجزئى أولتصوير المعنى الكلى فى بعض جزئياته ، كقوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »^(١) فإنه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلى ، وهو المعنى الجامع الذى يوضح به الحقائق بالأمثال التى ضربها وبينها للناس ، ومن ذلك الأمثال التى تضرب لتقريب أصل الخلق والتكوين من عقول المكلفين ، وهكذا وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه ، ولكنه غير بين .

وأقد قسم أبو الحسن الرماني التشبيه بالنسبة للغرض منه إلى قسمين فيقول التشبيه على وجهين تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت .

ونحن نقول إن ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكلام الناس ،
أما القرآن الكريم ، فإن كل تشبيهاته ، فيها البلاغة وفيها الحقيقة ، والمثل
الذي ذكره وإن كان في أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة ، فإن التشبيه
صادق في الواقع لأن أعمال الذين كفروا هي السراب الذي ليس له واقع ،
ولكنه وهم يسيطر بإبصار ضال ، فكما أنه لا جدوى والمتعلق به لا يتعلق
بأمر واقع ، فكذلك إذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم
واهمون ، والصفة المشتركة في التشبيهيين هي أن الوهم وهو ما ليس واقعاً
وتصوره على أنه واقع ، فقد تصوروا أن أعمالهم حسنة ، إذ زينت لهم
أمرأ فظنوها أمراً حسناً ، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء .
ولذلك نقول إن الوجهين محققان في كتاب الله تعالى ، ففي التشبيه
القرآني الحقيقة الصادقة ، والبلاغة القائمة المعجزة . وقد أتى بالأمثلة على
وجه التشبيه التي ذكرها ، وتبعه الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ، فلا ضير
علينا إذا تابعناه ، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره .

١٠٦ - وقد ذكر الرماني ، وتبعه الباقلاني مثلاً للتشبيه الذي شبه
فيه ما لا يقع عليه الحس بما يقع بقوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب
بقيمة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» (١) .

هذا ما ساقه الرماني من الآية ، ولنتمه بيان ما فيها من تشبيه ، فقد قال
تعالى بعد ذلك « ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو
كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات
بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له
من نور» (٢) .

وقد علق الرماني على التشبيه الأول في الآية الأولى ، فقال : « وهذا
بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، وإن اجتمعا

في بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الغافة ، ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظلمآن أشد عليه حرصاً ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الأمانة حصل على الحساب ، الذي يصيره إلى عذاب الأبد ، نعوذ بالله من هذه الحال ، وأشبيهه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

ولم يبين لنا الرماني ، لماذا كان تعبير القرآن في التشبيه حيث يرى السراب ، أبلغ من أن يقال يحسبه الرائي ماء ، لم يبين بوضوح أوجه ذلك ، ونرى أن قول القائل يحسبه الرائي ماء يفسد التشبيه ، ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة في طلب الماء وشدة الحاجة إليه ، وذلك محقق في المشبه ، إذ أن الذين كفروا بآيات الله في وقت حاجتهم إلى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون إلى ما يتقدمون به إلى ربهم من عمل صالح فهم في وقت حاجة إلى عمل صالح ، كالظلمآن يطلب الماء .

وإن التشبيه يدل على حيرة الكافرين ، حتى يتوهموا ما لا يقبل الوقوع واقعا وقد أكد حيرتهم ما جاء بعد ذلك ، إذ يقول سبحانه وتعالى :
« أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكدرها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٢) » ،

فإذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون في عملهم خيرا ، فيكونون كالظلمآن يحسب السراب ماء لحيرتهم ، واضطرابهم وحاجتهم إلى الماء ، فالمثل الثاني يصور حيرتهم ، بسبب أنهم في ظلام دامس فقد شبه

سبحانه وتعالى حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم ، وانقطاع الأمل وأنهم يظنون الخير حيث لا مظنة ، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها ، وفوق هذه الظلمات سحب يوجد غمة ، فليست أعمالهم خيراً ولكنها شر عظيم عليهم ، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالى أعمال الشر فيهم ، وسيرهم في طريق الغي الذي لا حذ له ، وقد تكاتف عليهم سوء ما فعلوا .

- و خلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم في حيرة يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه ، وإذا توهموه في أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهم بسوء أعمالهم في ظلمات بعضها فوق بعض وهي في نفوسهم ، وما يحيط بهم ظلمه داكنة لا يجدون بصيصاً من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته .

والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان ، تدلان على كمال الحيرة وكمال الظلمة ، فالمثل الأول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه في سراب فيجربى وراءه عطشان صادياً ، حتى إذا أجهده المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئاً ، والثاني يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة فوق واحدة ، وإذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل إليه النور للسحاب الذي به كانه الغمة ، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس ، كالمثل السابق في قوله تعالى : « مثل الذين كفروا يربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد^(١) » .

ويقول الرماني في التعليق على التشبيه « فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع ، والمعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة ، هذا كلام الرماني ، وهو صدق ، وإن

(١) إبراهيم : ١٨ .

أذوق من التشبيه شيئاً بيانياً آخر ، ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر في الوجود في زعمهم . ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا ، ولكنهم يفاجئون بريح شديدة في يوم عاصف ، تبسّد ما كانوا عليه من أحلام ، كانوا يتوهمون أن مالمهم في الدنيا ينفعهم ، فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم ، فتقدموا عاطلين في حلبة العمل الطيب وكان ذلك هو الضلال البعيد ، لأنهم زعموا باطلاً ، ثم رأوا الحقيقة عياناً وفي ضمن القول عبر عن عملهم بأنه مراب ، أي أنه شيء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء في ذاته .

١٠٧ - وقد جاء الرمانى بمثل فيه تشبيه ما لم تجربه العادة بما تجرى به العادة ، وهو قوله تعالى في توثيق الميثاق على بنى إسرائيل « ولأذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون^(١) » ، ويقول في ذلك الرمانى « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة ، وفيه أعظم الآيات لمن فكر في مقدرات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ، ليطلب الخير من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . هذا ما ذكره الرمانى في معنى التشبيه . وهو تشبيه ما لم تجربه العادة ، إلى ما جرت به العادة ، كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى ، وتصوير الغريب كأنه قريب ، وذلك في تشبيه الجبل مرتفعاً كأنه ظلة ، وهذا المعنى في ذاته صحيح ولكنه فيما اعتقد ، لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه ، لأن رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به وإثبات قدرة الله تعالى ، وإلقاء المهابة في قلوبهم ، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الإحاطة وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع عليهم ، ليعرفوا أن ميثاق الله له رهبته وأن عليهم طاعته ، ولذلك قال سبحانه بعد أن رأوا الجبل مرفوعاً عليهم

(١) الأعراف : ١٧١ .

وأنه يحيط بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة - أى بعزم شديد - واذكروا ما فيه لعلكم تتقون .

ومن هذا النوع الذى ذكره الرماني قوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم يتفكرون ، (١) .

وقد خرج الرماني التشبيه كالأية السابقة في نظره ، فقال : « قد أخرج ما لم تجر به العادة ، إلى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه ، والمشبه به في الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير ، وإن طالت مدته ، وصغير ، وإن كبر قدره . »

وما ذكره الرماني حق في إيجازه ، ولكنه ناقص ونوضحه بعض التوضيح فنقول إن التشبيه تصوير للحياة ، فإن مثلها في بهجتها ومسراتها ، وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهي ، والزينة الباهرة ليس لها بقاء ، وإنما مآلها إلى الفناء ، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذى يأكل منه الناس مستمتعين ، والأنعام والدواب ، وإنه إذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرتة ومتعته ، وامتلأ أهل الأرض بالغرور ، وظنوا أن كل شيء فى قبضة أيديهم جاءهم أمر الله ، فصار النبات هشياً ، والإنسان ومما كان لم يقم أحد بالأمس .

وإن ما ذكره الرماني صادق فى إيجازه ، ولكنه لا يصور الصورة التى يدل عليها التشبيه ، وهو يريك الحياة كالعروس فى جلوتها ، ثم كالهشيم فى صفاره .

(١) يونس : ٢٤

ومن التشبيهات التي ساقها الرماني قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، (١) »

ويقول الرماني في بيان وجه التشبيه ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به عادة وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكهما في ذلك توحيد الآية الدالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة .

وإن هذا القدر الذي ذكره الرماني متحقق ، ولكن لا يمكن أن يكون وجه التشبيه هو تشبيهه ما لم تجر العادة به بما جرت به العادة فقط ، إنما الألفاظ والأسلوب ، وما يثيره من صور بيانية تعلو به عن أن يكون مجرد إثبات ما لا تجرى به العادة إلى ما تجرى . إنما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحا شديدة البرد ، في يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل في آلامه ، ومستمر فيها ، ولو كان في الزمن قصيرا ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بما لهم وطغوا بهم ، وينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الإصرار على البقاء ، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره في أعماق الأرض .

هذا بريق التشبيه المرعد الذي يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد .

ومن التشبيهات التي ذكرها الرماني على أنها تقرب ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، قوله تعالى تعالت كلماته « فإذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان (٢) » .

وقال في التشبيه قد أخرج ما لم تجرب به عادة إلى ما قد جرت به عادة ، وقد اجتمعا في الحمرة وفي لبن الجواهر السيالة ، وفي ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتصرف الهمم إلى ما هناك بالأمل .

وإن تصوير التشبيه ، وقصره على ذلك الوجه ، وهو تشبيه ما لم تجرب به عادة إلى ما تجرى به عادة ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه ، وما يثير من صور .

إن التشبيه تصوير لما يقع إذ تقوم القيامة ، فالسما ذلك البناء الذى تجرى فيه الكواكب والنجوم ، كل فى مساره ، وهى البناء الذى بناه الله تعالى شاحناً عظيماً ذا بروج صار وردة كالدهان .

وفى ذلك تصوير للدنيا إذ تقوم القيامة ، فتكون السماء لينة كالورد الذى يشبه الدهن مبالغة فى ليونته التى تصل إلى حد السيولة .

١٠٨ - ويسوق الرماني أمثلة أخرى يتبين فيها تشبيه ما لم يعلم إلا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال ، ومن ذلك قوله تعالى :
« وجنة عرضها كعرض السماء والأرض »^(١) ، ويقول فى التشبيه هنا ،
« قد أخرج ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة وقد اجتمعا فى العظم » .

وإنا نجد الآية الكريمة فى تشبيها ليست من قبيل تشبيه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة ، فإننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة ، بل يعلم بالنقل المصدق ، فهما سواء فى صلتها بالعلم الضرورى ، وإنما إذا قيل إن المراد تصوير المعقول بما يتصور أن يكون مشهوداً محسوساً ،

والجميع بإخبار الله تعالى ، لا بمجرد النظر ، سواء كان الأمر ضرورياً أم نظرياً . ولأننا إذا تلونا ما قبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ^(١) » .

ونرى من هذا أن المراد السعة في النعمة ، وإن السعة في النعمة كالسعة في المكان ، وهي تدل عليه ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى ، وإن الكلام كله يصور الجنة ، بأنها خير الوجود كله ، وأنها أوسع ، وأنه إذا كانت النار تسع كل المجرمين ، لأن لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الأبرار ، لأنها واسعة عريضة كعرض السماء والأرض .

ومن التشبيه الذي ذكره الرماني على أنه تشبيه ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بها قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » ^(٢) ثم قال : « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبداهة إلى ما يعلم بالبداهة ، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا ، وفي ذلك العيب لمن ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير ، ولسنا نرى في الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم بالبداهة ، والمشبه به يعلم بالبداهة . إن الذي نراه ليس علم الرواية وعلم الدراية ، إنما الذي تتجه إليه الآية الكريمة في صدرها ونهايتها ، هو تشبيه علم لا يقرنه العمل ، بعدم العلم ، فهم يحملون علماً لا ينتفعون به عملاً ، بل يعملون بتقيضه ، يحملون علم الهداية ولا يهتدون ، كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وكان تشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفاراً وهو غير صالح

للانتفاع ، وفي التعبير القرآني إشارة بيانية تبين أن العمل هو ثمر العلم ، ولا يقال إنه قد ناله من أخذه من غير عمل ، وذلك قوله تعالى « حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، إن الله حملهم التوراة علماً لأجل العمل ، فعلوها ولم يعملوا بها . فكانوا غير حاملين .

١٠٩ - وقد ساق الرماني من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون أضعف صفة من المشبه به فيلحق به لأنه أقوى صفة منها ، ومن ذلك قوله تعالى « وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام ، ^(١) ويقول في ذلك « فهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعما في العظم إلا أن الجبال أعظم ، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة ، فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها ، وإن ذلك الكلام حق ، فإنه إذا كان الجمع بين المشبه والمشبه به القوة ، فالجبل أقوى ، وإذا كان الظهور فالجبل أظهر ، ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لا يعني به الرماني كثيراً ، بل تكون عنايته بالأوصاف الظاهرة ، أو المقاصد القريبة . وإن المقصود في هذا السياق هو بيان سر الله تعالى في خلقه وتسخيره للإنسان ، فإنه إذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الإنسان كذلك ، وهي رواسي الأرض ، وبها ثباتها ، فإن الجوارى ، وهي السفن التي تقارب في علوها وفي قوتها وأثقالها الجبال تجري على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه ، وتجرى فيه ، وتنقلهم إلى بلد لم يكونوا واصلين إليه بغيرها ، فقدرة الله تعالى فيها أظهر ، لأنها منشأة ترى نفعاتها ، وهي تجري بأمر الله تعالى ولا يجرونها .

وبضرب الرماني مثلاً فيما يجري في المعنويات ، ومن ذلك قوله تعالى « أجمعتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كن آمن بالله واليوم

الآخر،^(١) . ثم يقول : د وفي هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد ، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس ، وفي ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يساويه مخلوق على صفته في القياس . ومثله قوله تعالى د أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ،^(٢) . ونجد الرماني في المثال يأتي بالتشبيه منفيًا مستنكرًا ، كما أتى به محققًا موجهاً ، فإن الاستفهام هنا لإنكار الواقع ، فهم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت ، قائمين بالسقاية والرفادة ، وتنافسوا على ذلك زاعمين أن فيه الخير كله ، وأنه قد يغنيهم عن الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله ، بل يزعمون أنهم بسدانة البيت الحرام ، والقيام على السقاية والرفادة أفضل من آمن بالله وجاهد في سبيله . والحقيقة أنهما لا يستويان ، فالإنكار للمشابهة والتساوي بينهما فضلًا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضل وأشرف . والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا ما ساقه الرماني من وجوه التشبيه ، وقد نقلناها ، كما نقلها الباقلاني لأنها وجوه لها اعتبارها ، ولأن فيها ضبطاً لأقسام التشبيهات القرآنية ، وإن كانت غير شاملة لكل الأقسام ، بل إنها ذات وجوه شتى . ولكنه لم يتعرض إلا قليلاً لأغراض التشبيهات ومراميها ، وما تصورم من صور بيانية ، وما تتجه من بسط للمعاني النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ، ووصف للملائكة الأطهار ، والآدميين الأخيار . ولنضرب بعض أمثلة لتشبيهات القرآن الكريم التي تجعل فيها المعاني كأنها صور محسوسة لافتة العقول إلى الكون وما فيه ، اقرأ قوله تعالى في تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل ، وظهور ضوء الحق ، وعمى بصائرهم عنه ، فقد قال تعالى :

(٢) الجنانية : ٢١ .

(١) التوبة : ١٩ .

د مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١) ، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل ، ولكن يريد الحق تابعاً لطواه ، فهو يطلبه ليستضيء بنوره ، ولكن ما أن يبدو النور ، حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذي يسيطر على قلبه ، فيضيء النور ما حوله ، ولا يستضيء به ، وهو الذي استوقد النار ، ثم ينتهي أن يصير كالصم الذين لا يسمعون ، لأنه لا يستمع لنداء الحق ويصير كالبكم ، لأنه لا ينطق بالحق الذي يجب عليه أن ينطق به ، وكالاعمى الذي لا يميز بين الأشياء لأنه وقد طمس الله تعالى على بصيرته ، فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه ، وحق قامت البيئات عليه ، وفي الحكم عليهم بالصم والبكم والعمى تشبيهات فردية ، وهي تقوم على التشبيه .

والتشبيه في هذا النص تشبيه حال بحال ، والآية صريحة في ذلك لأن الله تعالى يقول : د مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، أى حالهم كحال الذي استوقد ناراً ، فهو تشبيه تمثيلي شبهت حال المنافقين ، وأكثرهم من اليهود في كونهم كانوا يتطلعون إلى نبي قدحان حينه ، وأدركهم إبانته ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلما بدا الضوء أضاء من حولهم ، ولم يستضيئوا هم به ، فلم يهتدوا بقول سمعوه ، ولا نطقوا بحق عرفوه ، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صما بكياً عمياً .

وقد ضرب سبحانه وتعالى في السياق القرآني مثلاً بتشبيه آخر ، يمثل جانباً من جوانبهم ، فقال بعد التشبيه الأول د أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله

على كل شيء قدير (١) .

وفي هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين : كل واحد منهما تشبيه قائم بذاته ، أولهما : أنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصباباً ، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيه رعد وبرق ، وفيه الإنذار بالعذاب الشديد ، فهم في خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت ، ويجعلون أصابهم في آذانهم حذر الموت ، وفي هذا تصوير لنفس منافقة ، فهي نفس تائمة فارغة دائماً لا تستقر على أمر ، ولا تطمئن على قرار ، فهم في اضطراب ، لأنهم لا يؤمنون بشيء ، والإيمان هو المطمأن دائماً . ألا يذكر الله تطمئن القلوب ، وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم في طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والجحود الموروث ، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر ، وخوف من غير مخوف ، ولذلك يقول بعض علماء النفس : إن النفاق منشؤه ضعف في النفوس .

والتشبيه الثاني متفرع عن التشبيه الأول ، وإن كان يصلح تشبيهاً قائماً بذاته وهو ما أوما الله إليه تعالى بقوله يكاد البرق يخطف أبصارهم . ، وإن هذا تشبيه الأول ، وهو أيضاً قائم بذاته ، فإنه إذا كان الرعد يجعلون أصابهم في آذانهم به ، فالبرق الذي يصحب الصيب شديد مفرغ له بريق يكاد يخطف أبصارهم ، ولكن كان هو تشبيهاً لحالهم ، وهى أن المنافق متردد دائماً . فالبريق يعنى لهم فيمشون فيه ، ولكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم من نفاق ، ويختم الله تعالى النص القرآني في هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة الله تعالى وسيطرته عليهم وأنه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم حقيقة ، كما فقدوا سماع الحق استماع انصات ، وإدراك إدراك طالب للحقيقة .

(١) بقره : ١٩ ، ٢٠

والتشبيه في هذا المثل كسابقه ، تشبيه تمثيلي ، إنه شبه حالهم في ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثاً منقذاً ، بل كان مرهباً ومفزعاً ، فكانوا في خوف واضطراب من غمام مظلم ، وريح عاصف ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف وصاروا يجعلون أصابهم في آذانهم حذر الموت ، فهو تصوير لضعفهم وفي التشبيه الثاني الذي هو فرع بالنسبة لما قبله تصوير لفرعهم من البرق ؛ وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم ، وهي في ذانها مضئبة ، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم ، ويستمرون في غيهم ، والله قاهر فوقهم ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم .

١١٠ — وقبل أن نغادر الكلام في التشبيه إلى الاستعارة ، وهي لون من ألوانه لا بد أن نشير إلى أمور ثلاثة .

أولها — أن التشبيه بلاشك من أسرار الإعجاز ، ويعده الباقلاني من أسباب الإعجاز ، ولكن يعد الكلام في القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأى لون من ألوانه معجزاً يبلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سبباً واضحاً يدرس على أساسه ، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من إشعاعه وليس معنى ذلك أن الإعجاز ليس بيانياً ، بل هو بياني ، ويبدو ذلك في تسارق المعاني ، وأخذ الألفاظ بعضها بحجز بعض في أحكام قول . ونغم ورنين يكون أحياناً شديداً يصلك آذان المنذرين ، وأحياناً كأنه نسيم عليل يحيي النفوس ويشفي أسقام القلوب وأحياناً يكون وصفاً عميقاً لخواطر النفوس ، وما يستمكن في القلوب ، وهذه هي البلاغة في القرآن التي تعلق عن أن توضيحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه ، وكما تحس بالحرارة الدافئة ، ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شيء قدير .

الأمر الثاني — أن تشبيهات القرآن أياً كان وجهها صور بيانية ،

تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعاني العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية ، فإذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرأه كأنك ترى رأى العين رجلاً استوقد ناراً ، والسين والتاء للطلب ، وهما يدلان على أنه بذل مجهوداً في طلب الضوء ، وعالج الأمور في طلب الوقود ، حتى وصل إليه بجهد ومشقة ، ولكن ما أن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن في الضوء فائدة له ، لأنه غلبته شهورته ، فغلبت شهورته ، فكان الضوء لمن حوله ولم يكن له ، فلم ير النور الذى طلبه ، وأصم أذنه عن الحق ، وانقبض لسانه فلم ينطق بحق ، والبيان القرآنى الكريم صور ذلك كأنك تراه ، لا تقرأه تعالت كلمات الله .

والتشبيه بما تضمن من تشبيهة فى آخره ، يريك صورة الضعف ، وما يحدثه النفاق فى النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار ولا تطمئن على قرار ، فهى تسير برعونة نحو المطامع ، وتستخذى وتذلل وتخضع أمام المفازع ، وقد شبهمم يقوم نزل عليهم مطر ينصب انصباباً ، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم والرعد بهزيمه يزعمهم ، والبرق يخطف أبصارهم ، وذلك تصوير كأنه المرئى ، وتبين لمعنى الخوف والاضطراب الذى يسكن قلوبهم ، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم ، ومطامع تحركهم ، والشتر يحوط بهم فى كل احوالهم .

الأمر الثالث الذى نجد فى تشبيهات القرآن أننا نجد يقرب المعانى ، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً ملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهرأ هل يستترون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم، (١) .

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام إذ يسوى بينها وبين الخلاق العظيم - بحال من يجعل العبد المملوك الذى لا يقدر على شيء بحال من رزقه الله تعالى رزقا حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لا يستوى صنم لا يقدر على شيء بالله تعالى الذى يملك الوجود كله ، وهو على كل شيء قدير .

وفي التشبيه الثانى كان التشبيه بين حال المشركين فى تسويتهم بين الله القادر ، والحجر الذى لا يضر ، ولا ينفع ، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كل ، وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان ، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله .

وإن الله سبحانه وتعالى يقرب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات ، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق ، وتوضيح الأدلة بما يقربها ، ولو كان ذلك بالأشياء التى يستحقها المشركون ، وهى فى ذاتها ليست بحقيرة ، ولكنها جليطة ، لأنها من خلق الله تعالى ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ وما يضل به إلا الفاسقين ، (١) .

وبعد فإن القرآن غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس مختلف ألوانها ، وكلها طيب الثمرات ، نفعنا الله به ، وجعله درعنا فى الأحداث التى تنزل بنا فأوى عنده وزكن إليه ، ولا تمشو إلا إلى ضوئه .

الاستعارة

١١١ - الاستعارة ضرب من ضرب التشبيه وتكون العلاقة بين المعنى الأصلي للفظ بالوضع الأصلي والمعنى في الاستعمال المجازي المشابهة ، فإذا قال القائل عن رجل شجاع معبراً عنه بكلمة الأسد ، أو قال عن رجل خطيب شجاع إنه على بن أبي طالب فإن العلاقة تكون في الأول الشجاعة التي يضرب بالأسد المثل فيها ، وفي المثل الثاني الشجاعة والخطابة .

وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال ، وإن شئت فقل إنها طريق من طرق التشبيه أو هي تشبيه فيه مبالغة فإن المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد المشبه به ، ولذلك لا بد فيها من أمرين : أولهما ألا تكون ثمة أداة تشبيه كالسكاف أو الاستعمال أو أن يكون المشبه محمولا عليه والمشبه محمولا مثلاً ، وألا يكون المشبه مذكوراً بأي صورة من الصور ، وثانيهما — أن يكون اللفظ الدال على المشبه به لفظاً عاماً كاسم جنس ، لكي يدخل المشبه في عموم أفراد مظهر اللفظ ، كأن يقول تقدم للأعداء أسد له ليد ، فاتقم الله تعالى به منهم ، فإن قرينة القول تدل على أنه إنسان ، وكأنك ادعيت أنه من أفراد الأسد ذلك الرجل الشجاع الذي أطلقت عليه اسم الأسد .

وقد عرف أبو الحسن الرماني الاستعارة ، فقال : وهي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، وهذا التعريف هو في معنى ما ذكرنا ، غير أنه أشار إلى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذي وضع له إلى معنى آخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين . وهو في المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاماً ، فدخل في عموم المشبه ، ويفرق بين المعنى بالوضع الأول والمعنى بالوضع الثاني بالقرينة ، فهي مانعة من إرادة المعنى بالوضع الأصلي .

والاستعارات في ألفاظ القرآن كثيرة منها قوله تعالى: وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ، (١) .

فالتعبير بأم الكتاب تعبير مجازي بالاستعارة ، لأن الأم هي الأصل وهي التي تقوم على أولادها ، ويرجعون إليها في غذائهم وعواطفهم ، فشبهت بها الآيات المحكمات التي هي أصل الدين ومرجعه ، وإذا كانت متشابهات ، فهي تفسر بالرجوع إلى هذا الأصل ، وهو المحكمات .

ومثل ذلك قوله تعالى : ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، (٢) والتعبير مجازي بالاستعارة ، والمراد بالأم الأصل ، وهو الشريعة المتفقة في كل الديانات ، فينسخ الله تعالى ، ويثبت ، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير ، وهو الذي بينه الله تعالى في قوله : د شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب ، (٣) ،

ومن الاستعارة في الأفعال قوله تعالى . د إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن (٤) . فقد شبه سبحانه وتعالى

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) الرعد : ٣٩ .

(٣) الشورى : ١٣ .

(٤) التوبة : ١١١ .

تقديم المؤمنين أنفسهم رجاء ما عندهم من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر شبه ذلك بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم ، ورجاء ما طلبوه من رضوان ونعيم مقيم ، وهي استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية فيما تشبيهه حال بحال ، لا تشبيه ألفاظ مفردة يمثلها ، وإن المشبه محذوف ، ولذا تحقق كونها استعارة .

ومن الاستعارة التعبير عن النفاق بالمرض ، وإن ذلك كثير في القرآن ومنه قوله تعالى في وصف المنافقين: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً» (١) وقوله تعالى «وإذا ما أنزلت سورة ، فنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون ، (٢) .

وفي الآيتين الكريمتين نجده سبحانه وتعالى عبر عن النفاق بالمرض ، وذلك للدشابهة بين مرض الأجساد والنفاق فهو يفسد القلوب ، والعقول والمدارك ، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشملها ، ومعه الوهن دائماً .

ومن الاستعارات القرآنية التي تعلق إلى أسمى مراتب البلاغة ، ولا يصل إليها بيان إنساني ، إنما هو بيان القرآن فقط قوله تعالى : «و ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، (٣) .

ففي هذا النص السامي تلاقينا عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو والبياني ، ولنأت من آخر النص الكريم فآخره كأوله في اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر إلى معانيه ومبانيه . أضاف اللباس إلى الجوع ، وفي ذلك تشبيه اللباس بالجوع من إضافة المشبه إلى المشبه به على سبيل الاستعارة ، فالجوع القائم المستمكن الذي يعم

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) النحل : ١١٢ .

فيه القل ويكثر العدم ، والخوف الذى يفزع النفوس ، وينهب بالاطمئنان ، ويلقى بالاضطراب شبه اللباس السابغ ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع إذا عم ، والخوف إذا طم ، فإنه لا يبقى فى الجماعة أحد لم ينله ، لأن الأزمات الجائحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحال باللباس ، وفوق ذلك فإن اللباس يلتصق بالجسم ويلزمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف ، وفى ذلك تصوير للأمة أو المدينة إذا عمها البؤس والشقاء وداهما الخوف من كل ما يحيط بها .

وهناك استعارة أخرى ، وهى قوله تعالى « أذاقها الله لباس الجوع ، فإن اللباس يلبس ولا يذاق ولكن لباس الجوع والخوف لأنه يتصل بالنفس ، وبالنعمة تزول بعد أن كفروا بها ، عبر عنه بالذوق ، فشبه حال النزول بحال الإذافة ، للنزول الذى ترتب عليه أن أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا فى بجموحة العيش ، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى .

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوفة فلما كفرت بانعم فلم تقم بحقها ، ولم تؤد الطاعات ، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتىها رزقها واسعاً من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق رزقها ، وبدأت من الأمن خوفاً ، ومن الرغد جوعاً .

١٠٢ - ومن الأمثلة التى ساقها الرماني للاستعارة قوله تعالى :
واشتعل الرأس شيباً ،^(١) ويقول فى التعليق على هذا النص الكريم : « أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس إلا أن الكثرة لما كانت تزايد تزايداً سريعاً ، صارت فى الإلتشار والإسراع

كاشتعال النار ، وله موقع في البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النار .

وإن هذا التعبير لم يكن معروفاً عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار ، للسرعة ، وللبياض ، وللملازمة ، ولأنه ينتمى بتمهير ما تتصل به ، وتجعل حطامه تراباً .

ويسوق الرماني من أمثلة الاستعارة قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون »^(١) ، ويقول الرماني في ذلك : « نسلخ مستعار ، وحقيقته يخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ، لأن السلخ إخراج الشيء عما لا يسه ، وعسر انزاعه منه لالتصاقه به ، فكذلك لباس الليل ، .

هذا ما قاله الرماني ، ولكي نتصور الاستعارة ، وما تصفيه من معان على الحقيقة المجردة ، نقول : إن مفردات الراغب الأصفهاني جاء فيها في مادة سلخ « السلخ نزع جلد الحيوان . وقال تعالى « نسلخ منه النهار ، أى نزعته ومؤدى هذا الكلام أن المسلوخ المنزوع هو النهار ، وأن الجسم الذي انسلخ منه هو الليل ، ولذلك قال تعالى كنتيجة للسلخ « فإذا هم مظلمون ، أى أن النزع كانت نتيجته أن صار الناس في ليل مظلم ، ويكون معنى الاستعارة أن القرآن الكريم شبه فيه النهار بالنسبة لليل بإهاب من النور أحاط بالليل إحاطة الإهاب بالشاة مثلاً ، فلما نزع منه كان الليل ، والجامع بين السلخ والنزع ، هو الرفع لشيء ملازم محتمك ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ كما ذكر الرماني ، ولكن ما وجه البلاغة المفضلة ، نقول فيما نحسب إن الاستعارة تدل على أن الذي أحاط هو النهار ، ونسلخ لا تدل على أن أيهما هو المحيط بالآخر وإنما السلخ هو النهار ، إن هذا يدل ، على أن النور بالنسبة للكرة الأرضية عارض من نور الشمس ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى دوران

(١) يس : ٣٧

الشمس فقال: «والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قد رناهُ منازل حتى عاد كالعرجون القديم ،» (١) .

ومن الاستعارات الواردة في القرآن التعبير عن العلم والإيمان بالنور وعن الكفر والعناد بالظلمات مثل قوله في أول سورة إبراهيم «الكتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وقد قال في ذلك الرماني : «كل ما جاء ذكر من الظلمات إلى النور ، فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل إلى العلم والاستعارة أبلغ ، لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار .

وإن الظلمات ليست الجهل فقط ، بل هي تشمل الجهل والكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسيطر على الأنفس من غير سلطان من الحق ، ولا العقل ، ولا الاتجاه إلى الحق في طريق مستقيم لا التواء فيه ، ولذلك عبر عن الباطل بالظلمات ، لأن له أسباباً متكافئة بعضها فوق بعض والنور واحد ، وهو الحق وظلمه والإذعان له .

وإن الإخراج من الظلمات إلى النور . نقول إنه استعارتان ، إن جعلنا الاستعارة في معنى الظلمة ، فاستعير لفظ الظلمة وهي حسية للجهل والكفر ، وتحكم الهوى والجحود ، لأن هذه يحدث منها ضلال في طلب الحق ، كما يحدث الضلال من السير في الظلام ، فكان وجه الشبه الضلال في كل ، والإيمان مع الإذعان له يعد عن الضلال بالنور إذ يبعد عن الضلال ، كما يبعد النور عن السير في الطريق الضال ، ويهدى إلى الطريق المستقيم .

أو نقول إن القرآن الكريم يشبه حال الصالحين الذين يطلبون الحق ، ويجدون الهداية يأخذون بها ، ومع رسولهم الكتاب المبين الذي يهدى بحال أولئك الذين يكونون في ظلام دامس لا يهتمون معه ويخرجون من الظلمة الخالصة

إلى النور فهو تشبيهه حال بحال بجامع الحيرة ثم الاهتمام في كل .

١١٣ - ويذكر الرماني من الاستعارة البيانية قوله تعالى « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم »^(١) ويقول في ذلك الرماني العقيم مستعار للريح ، وحقيقته ريح ليس بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ ، لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن ما يقع لأجل حال منافية أوكد مما يقع من حال متافية وأظهر ، والمعنى أن الاستعارة هنا في لفظ عقيم ، لأن العقيم لا يريجى معها خير قط ولا تنتج ، لأن العقم حال تمنع الإنتاج ، فعدم إنتاج الريح بما ذكر سببه ، وهي أنها ليست منتجة بذاتها كحال العقيم التي لا تحمل ولا تلد ، والوصف بالعقم مناسب لأنهم توقعوا أن يكون غيثاً ، فكان فيها الهلاك ، ولقد بين الله تعالى معنى عقمها في آية أخرى فقال تعالت كلباته فلما رأوه عارضوا مستقبل أرويتهم قالوا هذا عارض مطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين ،^(٢) .

وهكذا نجد الاستعارات البيانية في القرآن كثيراً وذلك لأسباب

كثيرة نذكر منها ثلاثة :

أولها : أن اللغة العربية لا تسع للمعاني النفسية السامية في القرآن ، فإنه علم لا تدل على حقائقه ألفاظ ذات دلالة معينة وكانت بلغة العرب الذين لم يصلوا هم ولا غيرهم إلى الحقائق العلمية والنفسية التي يتصدى القرآن الكريم لبيانها ، وكشف عيون الحقائق فيها . فكان لابد من الاستعانة بالاستعارة من الألفاظ التي وضعت للمعاني الحسية لتكشف بها العلوم النفسية والاجتماعية والعقلية ، ولتقرب المعاني إلى ذهن الأعراب ، ومن

(١) الناريات ٤١ .

(٢) الأحقاف : ٢٥ .

هم أعلى منهم إدراكاً لأنه الكتاب المبين ، وليخرج الأميين إلى حيث العلم ،
وإلى الكتاب الذى علم الإنسان ما لم يعلم .
ثانيها : أن القرآن الكريم فيه الأخبار عن الأمور المغيبة التى وقعت فى
الماضى ، والأمور القابلة ، وخصوصاً ما يكون فى الجنة وفى النار من عذاب
أليم ، فنعم الجنة فيه فاكهة ونخل وورمان ، وفيها أنهار من عسل مصفى ،
وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين ، وهكذا ، ولكن أهى من نوع خمر
الدنيا ، وفاكهتها ، لقد ورد عن ابن عباس أنها ليست كخمر الدنيا ،
وما يذكر فيها ليس من نوع ما فى الدنيا ، ولا من جنسه ، ولقد قال عليه
الصلاة والسلام : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر .

ونحن نؤمن أولاً بأن نعم الجنة حسي وعذاب النار حسي ، ونؤمن
ثانياً ، بأن كل ذلك ليس من جنس ما هو فى الدنيا ، بل هو أعلى وأعظم ،
فكان الألفاظ التى تقال عن ذلك مستعارة من ألفاظ الدنيا ، ليتمكن تقريبها
إلى النفوس والأشخاص الذين لا يرون إلا المحسوس .

ثالثها : أن الاستعارة تثير صوراً بياضية فى الألفاظ والمعانى كالتشبيه ،
لأنها تربط بين المعانى بعضها مع بعض وفيها نقل ألفاظ من معان إلى القريب
منها المتناسب معها ، فوق ما يثيره من أخيلة تحلق بالتالى للقرآن فى أجواء
من البيان اقرأ قوله تعالى فى تصوير حال من اعتراه الندم ، ولا يجد مخلصاً
إلا أن يعترف قوله : ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم
يرحمنا ربنا ويغفر لنا لتكونن من الخاسرين ، (١) .

فالتعبير بقوله تعالى «سقط فى أيديهم» هو استعارة فى الدلالة على الندم ،
لأن التادم يحس بالسقوط ، ويحس بأنه هبط ، فشبه القرآن حالهم فى أن
الندم برَّح بهم بمن سقط فى يده وهو دال على سقوطه فيما لا يلبق ، فشبه المعنى

الخاص بالندم من ألم ، ومن ظهور للخطأ ، أو الإحساس بالخطيئة بمن سقط في يده دليل لئمه ، ولا يجد مناصاً من التخلص من جرمه ، وإن الصورة البيانية التي تصورها كلمة سقط ، وتبين حالهم لا يقوم مقامها كلمة ندموا .

ولقد صور سبحانه وتعالى حال أهل الكهف في أنهم لا يسمعون ، فقال تبارك وتعالى « فضر بنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، (١) فإن كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع السماع ، كأنه غلق عليهم باب السمع ، وضرب عليه ، فلا يفتح سنين عدداً ، وذلك يصور حالهم من أنهم لا يسمعون ما يجري ، والناس بحسبوتهم أيقاظاً يحسون بما يحس غيرهم ، ولقد قال الرماني في معنى الاستعارة هنا ، فقال : « حقيقة معناه ، منعناهم الإحساس بأذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ، لأنه كالضرب على الكتاب ، فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يحس ، وإنما دل على الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير ذهاب للبصر فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الأسماع من غير صمم في الآذان ، لأنه إذا ضرب عليها دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن كانت طريقة إلى الانتباه ، فلما ضربوا عليها لم يكن سبيل إليه . »

ومؤدى هذا الكلام أن الضرب على الآذان يفيد فقد الإحساس المطلق بعمل الله ، وهو غير الضرب على الأبصار ، لأن عدم الإبصار لا يقتضى فقد الإحساس إذ قد يكون غير مبصر بإغماض ، ولكن الإحساس لا يفقده مع بقاء الآلة سليمة إلا بفقد الإحساس ، فإذا كان الله تعالى قد ضرب على آذانهم ، مع بقاء الآذان سليمة ، فإن ذلك لا يكون إلا بفقد الإحساس والله على كل شيء قدير .

المجاز والسكناية

١١٤ - المجاز يعم الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ، إذ أن المجاز معناه أن ينقل اللفظ من دلالاته على المعنى الذى وضع له إلى معنى آخر ، لعلاقة بينهما ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، مثل قوله تعالى ، وفليدع ناديه،^(١) فإن المكان لا يدعى إنما يدعى من يحلون في هذا المكان . والقرينة الاستحالة . والعلاقة هي المحلية ، أطلق المحل وأريد الحال ، ومثل قوله تعالى ويجعلون أصابعهم في آذانهم،^(٢) والآذان لا تدخلها كل الأصابع ، وإنما أريد بعضها والعلاقة هي الجزئية أطلق اسم الكل وأريد الجزء . وهكذا .

وتختص الاستعارة من بين أنواع المجاز بأها مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الأصلي ، والمعنى الذى نقل اللفظ إليه وقد كان التقسيم المنطقي يوجب أن تتكلم في استعارات القرآن بعد الكلام في المجاز ذاته ، لأن الكلام في العام يسبق الكلام في الخاص ، إذ أن العام جزء من الخاص . والخاص جزئى والعام كلى ، ومن المقررات المنطقية أن كل عام جزء لجزئية ويضربون لذلك مثلا بالحيوان والإنسان ، فالإنسان حيوان ناطق ، فيتكون من جزئين جزء هو الحيوانية ، والثانى النطق بمعنى العقل والإدراك ووزن الأمور ، فالحيوان وهو الكلى جزء من الإنسان ، وهو النوع الجزئى .

ولكن عدلنا عن منطق التقسيم في التصنيف إلى تقدم الجزئى على الكلى أو إلى تقديم الاستعارة على عموم المجاز لأن الاستعارة من حيث إن العلاقة

(١) الملق : ١٨

(٢) البقرة : ١٩

فيها المشابهة كانت ضرباً من ضروب التشبيهة دخل فيه المشبه في عموم المشبه به فكانت المناسبة بينها وبين ماسبقها من تشبيه أقوى من دخولها في عموم المجاز .

وقدمنا الاستعارة لأنها أشهر وأكثرت في القرآن ، وأكثرت تصويراً لمعاني البيان ، والصور البيانية القرآنية فيها أوضح ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ، وقد قصر عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز القول على الاستعارة وما يتبعها من تمثيل وضرب للأمثال ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .
د وأنا اقتصر هنا على ذكر ما هو أشهر منه (أى من المجاز) وأظهر ، والاسم والشهرة لشيئين الاستعارة والتمثيل ، وإنما يكون التمثيل مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة .

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجره عليه ، تريد أن تقول رأيت رجلاً هو كالأسد ، في شجاعته وقوة بأسه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً .

وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيبك به على حد الاستعارة فمثاله قولك فى الرجل يتردد فى الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلاً ، وتؤخر أخرى ، فالأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام ، وجعل كأنه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى على الحقيقة ..
وكذلك نقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تنفخ فى غير فحم ، وتخط على الماء ، فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه يخط . والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ، ويقول فى الرجل يعمل الخيلة ، حتى يميل صاحبه إلى الشيء قد كان ياباً ، ويمتنع منه ، مازال يقتل فى الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أراد ، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان من قتل ذروة وغارب ، والمعنى على أنه

لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير الصعب، فيحككه، ويفتل الشعر في ذروته وغاربه، حتى يسكن ويستأنس، وهو في المعنى مثل الرجل يقول فلان يقرء فلانا، يعنى به أنه يتألف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذ لذلك، فيسكن ويثبت في مكانه، حتى يتمكن من أخذه، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحووا فيه هذا التمثيل، ثم لم يفصحوا بذلك، وأخرجوا مخرجه، وإن لم يريدوا تمثيلاً.

وإن الأمثال كلها من قبيل التمثيل، وهو من باب الاستعارة، كما قال عبدالقاهر، ذلك، لأن الاستعارة ذات شعبتين، أحدهما أن تكون في تشبيه شيء بشيء، من غير أداة تشبيه كتشبيه الرجل بالأسد، وتشبيه شيوخ الشيب في الرأس باستعار النار في وقودها وتشعبة الثانية تشبيه حال بحال، وهو التمثيل، وهاتان الشعبتان تجريان في التشبيه الذي يكون بأداة التشبيه، كما تكونان في الاستعارة، إذ أنهما متلاقيان في المعنى والاختلاف في طريق الأداء.

ومن الاستعارة التمثيلية ظهرت الأمثال التي تعد من جوامع الكلام، فهي ليست إلا تشبيه حال بحال، فهي تشبيه حال مضرها بحال موردها، تقول العرب الصيف ضيعت اللبن، فوردتها أن شيخنا طالب يذفتاة فوردتها، وكان الزمان صيفاً لكبر سنه، ثم احتاجت من بعد إلى قدر من اللبن عنده، فقال لها الصيف ضيعت اللبن فصار مثلاً، يضرب لمن يرفض أمراً، ثم يجيء يطلب شيئاً، ما كان يحتاج إليه لو لم يرفض.

وهكذا، والأمثال من أبلغ كلام العرب، لأنها تؤدي معانيها في أوجز لفظ، وأروع خيال.

١١٥ - وإن عبد القاهر يعد طرق التعبير ثلاثة، الحقيقة، ويدخل فيها التشبيه على طريق علماء البلاغة، وقد يدنا من قبل أننا نعد الحقيقة

مالا يدخل في عمومها التشبيه، ولا مشاحة في الاصطلاح، والاختلاف لفظي.
والثاني من طرق البيان المجاز، وقد أشرنا إلى القول فيه .

والثالث من الطرق الكناية، ويعرف عبد القاهر الكناية بأنها : وأن
يريد المتكلم لإتيان معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة،
ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيؤتى به إليه، ويجعله
دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم طويل النجاد، (أى طويل علاقة السيف)
يريدون طويل القامة، وكثير الرماد يعنون كثير القرى، وفي المرأة نتوم
الضحى، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في
هذا كله - كما ترى - معنى، ثم لم يذكره بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا
إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان،
أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثرت القرى كثرت رماد
القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام
إلى الضحى .

ويلاحظ في الكناية أنه لا مجاز في المعنى، واللفظ على ظاهره بآدى
الرأى، ولكن لا يراد ذلك الظاهر، وإنما يراد لازمه وسماه عبد القادر
رادفه، أى أنه يفهم تبعاً له، واللزوم ليس هو اللزوم العقلي دائماً، بل
قد يكون في بعض الأحوال لازماً عادياً يجوز أن يختلف، فمثلاً طويل النجاد
يلزم عقلاً أن يكون طويل القامة، ولكن كثير الرماد، لا يلزم لزوماً عقلياً
أن يكون كثير نار القدر، فقد يكون وقود النار لغير القدر، ونتوم الضحى
قد تكون لأنها مترفة عندها من يقوم بحاجاتها، وقد يكون ذلك كسلاً،
أو مرضاً .. إلى آخره، ولكن الكثير في العادة أن يكون ذلك عن ترف.
وقد ذكرنا في الماضى مكان المجاز، بكل صورته في دلالات الإعجاز،
وفد ذكر عبد القاهر مكان الكناية في الكلام البليغ فقال رضى الله عنه
(م ١٩ - المعجزة الكبرى)

و قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإصاح ، والتعريض أوقع من التصريح . . . إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب به العلم حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغفل الفكر في زواياه وحتى لا يبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة ،

١١٦ - هذا وإن هذه الطرق البيانية من تشبيه واستعارة وسائر أنواع المجاز ، والكناية ليست في ذاتها أصل البلاغة ، بحيث إذا وجدت في أى قول كان بليغا ، إنما البلاغة لا بد أن تكون متحققة ابتداء في مادة الكلام وفي موضوعه ، وفي صورته البيانية ، وإن هذه طرق تكون جزءاً من بلاغة الكلام البليغ ، وليست هي الخاصة التي تجعله بليغا ، ولو لم يكن ذا موضوع ، أو كان موضوعه من سفاسف القول ، وغث المعاني ومبتذها ، لإنهاهي تكون مع أخواتها في مثل جمالها ، وجلال موضوعها ،

وقد ذكرنا ذلك في ماضى قولنا في الاستعارة في قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا ، فإننا نجد أنه بلا ريب جمالا واضحا في تشبيهه شيوع الشيب في الرأس باشتعال النار ولكن في الحقيقة لا نجد الجمال في هذه الاستعارة وحدها ، بل فيها وما معها من نظم . وتأخ في الكلمات وقد بين ذلك عبد القاهر في دلائل الإعجاز . فقد في بيان أن الجمال والجلال إنما يكون في مجموع القول لا للاستعارة وحدها : وإنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : واشتعل الرأس شيباً ، لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يروا للزينة موجبا سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ولا هذه الروعة التي تدخل على النفوس لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذى هو الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد ، وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل

الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا .
وقر عمرو وعينا ، وتصيب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجهاً وأشباه ذلك
ما نجد الفعل فيه منقولا إلى ما ذلك الشيء من سببه (١) ، وذلك أنا نعلم أن
اشتعل للشيب في المعنى ، وإن كان هو الرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس ،
وقر للعين ، وتصيب للعرق وإذ أسند إلى ما أسند إليه كان لأنه سلك فيه
هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب وإن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ
اللفظ فتسند به إلى الشيب صريحا . فنقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب في
الرأس ، ثم ننظر هل تجد ذلك الحسن ، وهل ترى الروعة التي كنت تراها
فإن قلت ، فما السبب في أنه كان ، اشتعل . إذا استعير للشيب على هذا
الوجه كان له الفضل ، ولم تأت بالمزية من الوجه الآخر فما وجه هذه
البيئونة ؟ إن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل
المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من كل نواحيه وأنه قد استقر
به وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ،
وهذا ما لا يكون إذا قيل اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ،
بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة .

وقد أجاد عبد القاهر في بيان وجه البلاغة في الاستعارة مع أردافها
من مجموع الكلام ، وإذا كانت هي في ذاتها ، تجمل القول ، فإن سر
الإعجاز فيها ، وفي مجموع العبارات .

وقد ضرب الإمام عبد القاهر مثلا آخر مقارباً لقوله تعالى واشتعل

(١) يريد عبد القاهر أن يقول إن الجمال في اشتعل الرأس شيئا ليس في الاستعارة فقط لأنها
ابتداء في التمييز المحول من الفاعل . ففي ذكر الفعل غير مستند لفاعله بل أسند لما هو في موضع
الفاعل . ثم ذكر بعد ذلك الفاعل الحقيقي . وهو الشيب على أنه تمييز . وفي التعبير بالتمييز بدل الفاعل
إشارة إلى سبب اسناد الفعل . وسبب ذكر الاشتعال .

الرأس شيباً ، وهو قوله تعالى . « وفجرنا الأرض عيونا ، » (١) فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه في بيان أن التمييز بعد التعميم ولو من غير استعارة بلاغة معجزة .

« ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الأرض عيونا ، التفجير للعيون في المعنى واقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيونا وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل ، وفجرنا عيون الأرض ، أو العيون في الأرض ، لم يفد ذلك ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض ، وانجس من أماكن منها . »

وهكذا يتبين من ذلك الكلام القيم أننا إذا كنا قد ذكرنا التشبيه والمجاز والسكناية فليس الإعجاز لها وحدها ، بل لها مع مجموع الألفاظ والأسلوب وتناسق العبارات ، فن كل ذلك يتكون إعجاز الذكر الحكيم .

السكنايات في القرآن

١١٧ - قد تكلمنا في التشبيه والاستعارات ، وسائر أوجه المجاز بكلام مجمل ، واقتبسنا شواهد من القرآن ، وإن لم تكن كثيرة فإنها منيرة ، وإن لم يكن فيها استقراء فصيها غناء .

ولكن لم نتعرض للسكنايات في القرآن بقدر كاف إذا كانت السكنايات كإبدال عبارات اللغويين وعلماء البلاغة هي الدلالة على اللازم عادة أو عقلا بذكر الملزوم ، ، فكثرة الرماد كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد

يلزمه طول القامة ، فإن الكنايات في القرآن كثيرة ، ولكنها تمتاز بإرادة اللزم والملزوم ، وفي ذلك كثرة المعاني مع إيجاز الألفاظ ولنضرب على ذلك بعض الأمثال نقتبسها من كتاب الله سبحانه وتعالى . يقول الله تعالى في وصف المتقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (١) .

هذا وصف حسي لمشيمهم ، ولقائهم ، فهم يمشون غير مسرعين ، ولا متباهين بل يمشون مشياً هيناً لا سرعة فيه ولا إبطاء ، وإذا خاطبهم الحق ، لا يمارونهم ولا يجادلون ، فان المرء يخل بالرقار ، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء . هذا هو الظاهر وهو المراد ، ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه ، والاطمئنان إلى عفوه ، فيلتقي الخوف بتكبير الذنوب ، مع الرجاء في العفو والغفران .

والمعاني الثانية ملازمة للأولى ، فكان المراد ابتداء هو اللزم والملزوم في ذاته ، ولكن السياق كان للثاني .

ومن الإشارات الكنايية التي أريد فيها اللزم ، وذكر الملزم كان للدلالة عليه قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) ، فإن ذلك الكلام السامى فيه حكم على أولياء الله المخاضين له سبحانه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وذلك مراد لاريب فيه ، وذلك يلزمه أن يكونوا قريبين من ربهم ، قد أخلصوا له ، واستحقوا رضوانه ومن يكون قريباً من حبيبه ، لا يخافه في مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه ، لأن المحبة تجعله قريب الرجاء في

(١) الفرقان : ٦٣

(٢) يونس : ٦٢

العقران ، والطمع في الرحمة ، وقد بين سبحانه الطريق لمحبة الله تعالى
ونيل رضوانه ، وهو التقوى ، فقال تعالت كلماته : « الذين آمنوا وكانوا
يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة (١) » .

ومن كلام الله تعالى في التنزيل ما جاء عن وصية لقمان لابنه إذ
قال تعالت كلماته :

« يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل ، فتسكن في صخرة أوفى السموات
أوفى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير يا بني أقم الصلاة ، وأمر
بالمعروف ونه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم
الأمور ، ولا تصمر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرجحاً إن الله
لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن
أنكر الأصوات لصوت الحمير (٢) » .

وإن هنا عبارتين ساميتين فيهما كناية واضحة ، وقد علمت أن كنيائات
القرآن تدل على اللازم والملزوم ، ويقصد ان بالعبارة الأولى قوله : « إنها
إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أوفى السموات أوفى الأرض
يأت بها الله » ، أنه يراد بها ما تحويه الألفاظ الظاهرة من معان عالية ، وفيها
إثبات قدرة الله تعالى بإخراج حبة الخردل من صخرة أوفى السموات أو
في الأرض هذا هو ما تدل عليه الألفاظ ، وهناك اللازم لهذا ، وهو
إثبات علم الله الذي لا يخفى عليه خافية ، وإثبات قدرة الله تعالى الذي
لا يعجز عن شيء في السماء ولا في الأرض ، ولازم لهذا اللازم ، وهو
البعث والنشور ، لأنه لذا كان سبحانه وتعالى قادراً على أن يأتي بالحبة من

(١) يونس : ٦٤

(٢) لقمان : ١٦ - ١٩

الصخرة أو من أى جزء فى السماء أو الأرض ، فهو قادر على إعادة ما خلق ويتلاقى ذلك القول الحكيم مع قوله تعالى « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلة إما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رموسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا^(١) ، العبارة السامية الثانية حكايته تعالى لقول لقمان : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض ، إلى قوله تعالى . إن أنكر الأصوات لصوت الحجر^(٢) » فإن هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصعر خده للناس بأن يميله عن شكله ، فلا يقبل عليه بكل وجهه ، ومن أنه يقصد فى مشيه فلا يتباطأ ، ولا يسرع ، بل يسير بتؤدة واطمئنان ، ومن أنه يغضض من صوته ، فلا يتعالى ، ويتكلم صياحا ، ويراد أيضا معنى لازم لها ، وهو التظامن والاتصال بالناس اتصال رفق ومودة من غير كبرياء ، وألا يغمط الناس حقوقهم ، وألا يبطر نعمة الله تعالى ، وألا يدل نفسه بغرور ، لأن الغرور مطية الشيطان ، والسبيل إلى العصيان .

١١٨ - هذا وإن الكنايات فيها الإشارة البيانية التى تكون لوازم للعبارات ، ولقد قسم علماء الأصول دلالة الألفاظ القرآنية إلى دلالة العبارات ، سواء أكانت هذه العبارات تدل بالدلالة الحقيقية من غير تشبيه أو دلالة فيها تشبيه أو فيها مجاز ، بالاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز ، ويجوز ذلك دلالة الإشارات ، وهى دلالة اللوازم ، وإنه كلما كانت دلالة اللوازم كانت البلاغة . .

ولنقبض قبضة من الآيات التى قال الفقهاء فيها إن فيها دلالة على الأحكام بالإشارة ، أى بالكناية أو بدلالة الملزوم على اللازم ، وهى تفهم كنتيجة

(١) الإسراء ٥٠ - ٥٢

(٢) لقمان : ١٨ : ١٩

لازمة للعبارة ، وقد قالوا في تعريفها إن الدلالة بالإشارة هي ما يدل عليه اللفظ بغير العبارة التي تدل عليها الألفاظ ، ولكنه يكون نتيجة لازمة لما تدل عليه ألفاظ العبارة ، ومن ذلك قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا^(١) » ،

وإن عبارة النص يفيد طلب العدالة مع اليتامى ، وإفادة لإباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، وإباحة الدخول بملك اليمين ، هذه أحكام علمت من العبارة نفسها .

وهناك أحكام أخرى فهمت من لوازم العبارة ، وهي الدلالة بالإشارة التي هي ضرب من ضروب الكناية : الأول وجوب العدل مع الزوجة ، وأن الرجل لا يحل له أن يتزوج إذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة ، إذا تأكد أنه لا يعدل ، والثاني الذي يدل عليه لازم الآيات أن المساواة بين الأزواج في الأمور الظاهرة ، كالطعام والمسكن ، والكسوة ، والمبيت إذا عدد الأزواج واجبة ، وتدل باللازم أن عليه نفقة زوجته ، وأنه لا يتزوج إلا إذا كان قادراً على إعالة زوجته .

وذكروا من الآيات التي تدل بلازم المعنى فيها آية المدائنة ، فقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا ياب كاتب أن يكتب ، كما عليه الله ، فليكتب ، وليلل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبغض منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيفاً أو ضعيفاً ، أو لا يستطيع أن يعمل هو ، فليملل وليه بالعدل . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا

رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يَأْبُ الشهداء ، إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أفسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم^(١).

وإن الأحكام التي وردت بهذا النص كثيرة ، لا نريد أن نحصيها . ولكن ورد فيها أحكام ليست من النص ، ولكنها لازمة للنص ، منها أن المكتوب يكون حجة على من أملاه وخصوصاً أنه موثق بالشهادة ، وهو حجة لمن أثبت الاستدلال بالكتابة في المرافعات ويفيد باللزم بأن السفية أو الضعيف الذي له ولي مال تكون عبارة الولى المالى عبارته ، ويلتزم بما تثبته .

ويفيد ثالثاً بأن شهادة المرأة لا تسمع وحدها ، بل تسمع مع أختها التي تشهد معها ، لأن الله تعالى يقول : أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وذلك يقتضى أن تحضرا معاً لتسترشد كل واحدة بالأخرى إن ضلت ، وذلك فهم من مقتضى أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، لأنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا اجتمعتا في الأداء ، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى ، وذلك بخلاف شهادة الرجل فإنه لا بد أن يسمع كل واحد منهما منفرداً ، لكيلا يوميء أحدهما إلى الآخر .

ومن النصوص التي تدل بإشارتها وعبارتها قوله تعالى : **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ**

والدة بولدها ، ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أرادوا فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتهم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ، (١) .

قد فهمت الأحكام التي ذكرتها الآية الكريمة بالنص ، وفهم بالإشارة معان أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له . وما نص عليه في العبارة هو ملزوم والثاني لازم له .

ومن ذلك أولاً - أن المولود ينسب إلى أبيه لا إلى أمه ، لأنه المولود له ، فاللام تفيد ذلك الاختصاص ، وتفيد ثانياً - أن المولود لأبيه له عليه شبه ملكية ، فالولد لأبيه عليه نوع ملك فالولد كسب أبيه ، ولقد صرح بذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « أنت ومالك لأبيك » ، ويفيد ثالثاً - أن الأب لا يشاركه في نفقه ولده أحد وأن الولد لا يشاركه في نفقة أبيه أحد ، ويفيد رابعاً - أن الأصل في الإرضاع أن يكون على الأم ، ويجوز الاسترضاع بانفاقهما وأن أجره الرضاعة تكون على الأب ، وتفيد خامساً - أن فصل الولد الذي لإرادة له عن الأم في رضاعته يكون عن تراض منهما وتشاور .

وهكذا نجد أمراً لبيان القرآني تتكشف عن طريق هذه الوازم التي تجيء تبعاً للمنطوق ، وتتفاوت فيها الأحكام من غير أن تكلف الالفاظ من المعاني اللازمة ما لا تطبق بتكلف التأويل ، وتجيء الأسرار القرآنية العالية التي لا تكون إلا لكلام الله سبحانه وتعالى .

ومن الآيات القرآنية التي تدل فيها العبارات على معان من الالفاظ ، ثم تجيء لازماً لها عن طريق الإشارة كما يعبر الأصحابون . أو الكنايات

كما يعبر علماء البلاغة - قواه تعالى: د وأمرهم شورى بينهم^(١)، فإن هذا النص الكريم أفاد بالعبارة أن الحكم الإسلامى وإدارة الدولة الإسلامية فى اقتصادها ونظمها ، وإدارتها تقوم على الشورى ، وهذا ما تنفذه الآية بالنص .

وتفيد مع ذلك بطريق الإشارة ، والنتائج التى تكون ثمرة لهذا النص أو طريقاً لتنفيذها - أولاً - أنه لا بد أن يكون اختيار الحاكم أو الخليفة برضا المسلمين فلا تصح الخلافة إلا باختيار المسلمين ورضاهم ، ولذلك كانت البيعة فى الإسلام ، وتفيد ثانياً أنه لا ينفذ حكم أو قانون إلا إذا أقرته جماعة المسلمين ، أو الصفوة المختارة منهم ، وتفيد ثالثاً أنه لا بد من وجود جماعة مختارة من الشعب اختياراً أساسه الحرية والرضا ، يكون عملها مراقبة الحكم ، والنظر بعين فاحصة فى أعمالهم وألا يسن قانون إلا برأيهم فكل هذه لوازم لتحقيق معنى الشورى وتنفيذه ، وتفيد رابعاً أن الأعمال الفنية كقيادة الحرب ، والصناعة تكون ثمة تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم ، يكون عملها التوجيه .

وهكذا تثبت هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى .

وإن دلالة العبارات التى يمكن معرفتها بالسنة واللغة هى المفاتيح لما تومىء إليه ، فلا يمكن أن تعرف أسرار القرآن الكريم إلا إذا عرفت المعانى الأولى ، وإن معرفة ما تومىء إليه ألفاظ القرآن من إشارات لا يكون إلا بعد الدخول إلى الساحة العليا ، والارتفاع بالعقل إلى أعلى المدرجات الإنسانية ، ولذلك يقول الغزالى رضى الله تعالى عنه إن معرفة السنة واللغة هى المفتاح الذى يدخل منه العالم إلى علوم القرآن ، وفيه علم كل شىء يتعلق بالشرائع والنفوس الإنسانية ، وعلاج أدوائها ، واليوم الآخر ، وما أخبرنا به العزيز الحكيم علام الغيوب .

٤ - نظم القرآن وفواصله

١١٩ - تكلمنا في ماضى قولنا في وصف عام لبلاغة القرآن ،
وتكلمنا في ألفاظه ، وبيننا بشواهد الآيات أن كل كلمة لها صورة بيانية
في السياق الذى سيقف له ، ثم تكلمنا عن الأسلوب ، وذكرنا مستشهرين
بالآيات البيّنات أن كل كلمة تقف مع أختها ، ويتكون من مجموع الكلمات
المتلازمة المتأخية صورة كاملة للبيان تعطيك صورة بيانية ، كل كلمة تعطيك
جزءاً منها ، مع كونها في ذاتها صورة بيانية وحدها ، وضر بنا لك الأمثال .

ثم تكلمنا من بعد على تصريف البيان القرآنى ، فبيننا كيف كان التصرف
في الاستدلال على وحدانية الديان ، وبطلان عبادة الأوثان ، وكيف كان
التنويح في البراهمين التى يسوقها ، والتى تعلقو في دقة الحكم على الأدلة
الخطائية ، وتعلقو في النسق البياني ، والنغم الموسيقي عن البرهان المنطقي ،
مع اشتغالها على أدق معناه ، وإن غير الأشكال .

وذكرنا الاستدلال على الوحدانية في سياق القصص والمعبر ، ثم بيننا
من بعد ذلك تصريف القول بطريق القصص ، والتصوير القصصى للوقائع ،
حتى كأنك ترى المشاهد ، لا أنك تقرأ القصص .

ثم تكلمنا في الاستفهام القرآنى ، وخصنا في التشبيه والاستعارة
والمجاز والكناية والإشارة البيانية لمن يغوص في علوم القرآن الكريم ،
ويتعرف أسرار الحقائق التى اشتمل عليها ، سواء أكانت حقائق كونية
أو نفسية ، أم كانت تتعلق بنواميس الاجتماع وتربية المجتمعات .

ذكرنا ذلك في إجمال يشير ولا يحيط ، وبوجز ، ولا يفصل .

ولكن مع ذلك نرى للقرآن صورة هي في الإعجاز أبعد مما سبق ، ذلك

أنك إذا قرأت القرآن مرتلاً ، أو كاشفاً بالصوت مع الترتيل تحس بأنه ليس من نوع الكلام الذى سمعته وتسمعه وتقرؤه ، وإنك تميز بذوقك القرآن عند سماعه عن غيره ، فله نظم يعلو عن كلام البشر ، وله نغم أعلى من أن تسميه موسيقى ، يذوقه كل فاهم ، وإن كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه ، ولا بيان سره ، كما يذوق الذائق طعاماً طيباً ، ولا يعرف اسمه ، ولا أرضه ، ولا سر طيبه ، ولكنه يحكم بطيبه وإن كان تفصيل السبب لا يعرف .

وليس ما نقوله هو من قبيل ما فندناه من قبل ، وهو ما سمي بالصرفة ، فإن الصرفة على قول الذين يزعمونها ، عجز عن المحاكاة أو المشابهة بصرف الله تعالى . إنما الذى نقوله ، هو أن الإعجاز من خصائص القرآن البيانية وغيرها وإن كانت البيانية أظهرها ، وهى التى تحدى الله تعالى بها العرب أن يأتوا بمثلها ولو مفتريات ، فالنظم والنغم ، والفواصل ، وما يشبه الموسيقى وإن كان أعلى أوصاف ذاته ولعلنا ننزل بالقرآن إن سميناه ما نذكر موسيقى ، فروعة القرآن أعلى ، وذلك سبب من أسباب العجز ، وهو غير الصرفة .

لقد وجدنا للقرآن حلاوة فى الألفاظ والأسلوب والفواصل ، وغير الفواصل - ليست فى غيره ، وهذا ما سميناه النظم تقريباً للفهم ، وكلام الله تعالى المثل الأعلى ، وهو ما وصفه الوليد بن المغيرة بقوله :

إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر ، .

١٢٠ - وبعد هذه المقدمة التى نهد بها للقول ، نقول إن نظم القرآن ليس من أى نوع من أنواع النظم الذى يعرف عند أهل البيان ، فليس نثراً مرسلأ ، وليس نثراً مصنوعاً ، وليس نثراً فيه ازدواج ، كما أنه ليس نثراً مسجوعاً ، وليس فيه فواصل تشبه السجع ، ولكنه شئ غير هذا ، وغير ذلك .

ويقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن عن بديع نظمه ، إنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التي أضلقوها ، ثم يتكلم عن الإعجاز في النظم فيقول :

« فالذي يشمل عليه بديع نظمه وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أنه نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الضرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعايير الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفي ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل لإرسالاً ، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيهه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ؛ لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الوضع .

فهذا إذا تأمله المتأمل ، تبين له بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم ، أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز وهذه خصوصيات ترجع إلى القرآن وتميز حاصل في جميعه .

وإن الباقلائي لا يكتفى بذكر ما بين أن القرآن ليس على الصفة التي
امتاز بها بليغ الكلام عند العرب ، بل هو أعلى من ذلك يأتي بأبلغ الشعر
وأبينه وأجود الخطب وأوقعها ، ثم يأتي بأكمل الكتب ، ولا يكتفى
بذكر كلام البلغاء ، بل بكلام صاحب جوامع الكلم وهو محمد رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر أنه وإن كان فوق أى كلام للبشر ،
دون كتاب الله ، المعجز بكل ما اشتمل عليه ، وبكل ما فيه من لفظ
ونغم وأسلوب .

ويذكر رضى الله عنه وجهها آخر من وجوه الإعجاز في نظم القرآن
وأسلوبه ، فيقول .

« ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ،
والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ،
والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ،
وإنما تنسب إلى حكمهم كلمات محدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم
قصائد محصورة (قليلة أو كثيرة) يقع فيها ما ندينه بعد هذا من الاختلال
ويعترضها ما تكشفه من الاختلاف ، ويشملها ما نبديه من العمل
والتكلف والتجوز ، والتعسف ، وقد كان القرآن على طوله متناسبا في الفصاحة
على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل : « الله نزل أحسن الحديث
كتابا متشابها مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ،
وقلوبهم إلى ذكر الله ^(١) ، وقوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا
فيه اختلافا كثيرا ^(٢) ، فأخبر سبحانه أن كلام آدمي إن أمقد وقع التفاوت ،
وبان الاختلال .

(١) الزمر: ٢٣ .

(٢) النساء: ٨٢ .

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا ذكره ، فتأمل تعرف
الفضل .

وفى ذلك معنى ثالث ، وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت
ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر
قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ووعد ،
ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة ،
وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجسد كلام البليغ
الكامل ، والشاعر المفلح ، والخطيب المصنف يختلف على حسب اختلاف
هذه الأمور .

ثم يقول رضى الله عنه : « وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع
ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم ،
وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ،
ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما تنصرف إليه وجوه
الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها ، على حد
واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة
الواحدة تفاوتاً بينا ، وبخلاف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد
ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت ، بل هو نهاية
البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلينا بذلك أنه بما لا يقدر عليه^(١) .

ويذكر الباقلانى أن من دلائل الإعجاز تفاوت كلام البلاغ فى الوصل
والفصل . والاتقال من معنى إلى غيره ، وتقريب المعانى وتبعيدها . وأن
القرآن ليس فيه ذلك النقص الذى يعرو كلام البشر ، وبخلاف قوة وضعفا
فى ضم المعانى وتفريقها والقرآن فى ذلك النمط المتمسق الذى لا يجارى .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى .

١٢١ - هذه أمور تقريرية تقرب معنى الإعجاز ، ولا تحده ، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها ، إنه كمثل الأمور التي تحس بها ولا نستطيع تعرف دقائق أمرها ، فهو كتاب الله الذي يعلم السر وأخفى ، ولكننا نقر بالعجز عن الإتيان بمثله لأننا ندرك علوه ، ولا نعرف الأسباب التي علت به . وليس هذا من الصرفة . كما ذكرنا ، إنما الصرفة أن نعرف قدره وقدرتنا على مثله ، ولكن ننصرف عن ذلك .

وإن القرآن ليس من قبيل ما اصطلح عليه الناس في علوم البلاغة ، فليس نثرًا مرسلًا كما ذكرنا ، لأن النثر المرسل ليس له نغم مؤتلف ، وهو في قدرة كل إنسان بليغ ، وقد تلونا عليك بعض الآيات في الأحكام الشرعية ، فرأينا اختلافًا في النغم ، وروعة في البيان ، لا تجعلانها كلامًا مرسلًا كسائر الكلام . فإنك واجد التآخي بين الألفاظ والتناسق في الأسلوب ، والمعاني التي تداعى ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، وكل كلمة تومي إلى أختها .

ولنضرب مثلا من الكلام الذي ليس ما يشبه السجع ولا القافية ولا الازدواج ولا الشعر ، اقرأ قوله تعالى :

« إن الله فلق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى توفىكون ، فالحق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (١) .

إنك واجد فى كل كلمة مع أختها إشرافا ، وصورا بيانية ، لقد ذكر سبحانه ، كيف يفلق الحب فيكون زرعا ، إذا أتى حصاده أكل منه الإنسان

(١) الأنعام : ٩٥ - ٩٨

والحيوان ، وازينت به الأرض، وأنت من كل زوج ، وغير ذلك من الصور والاحياء ثم التعبير بفالق النوى ، وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارفة الظلال ، والأشجار الدانية القطوف ، واليانعة الثمار ، ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه النواة اليابسة ، وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء ومن الحب الجامد ، والنواة الصلبة غصونا حية ، وزرورها رطبة ، وكيف تدور الحياة إلى موت ، فيخرج الميت من الحى وإن ذلك مرئى، وإنما يذبت الزرع ويخضر ، ويستوى على سوقه بعد أن يخرج شطأ ، ثم يصير حطاما .

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه فى إشارات بيانية ، فيها استعلاء ، وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه ، ثم كان الختام باستفهام إنكارى وتعجب ؛ لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته ، ثم ختم الكلام بختام فيه رنانة قوية لائمة فى معناها ، ومنبهة للعقول فى نعمها وفى موسيقاها ، ثم جاء بعد البيان عن الأرض وما فيها من زرع وضرع ، وباسقات - إلى السماء ، وما فيها من بروج وأفلاك ونجوم وشمس وقر ، وما يصدر عنها من نور وضياء ، وكان الانتقال من الأرض إلى السماء بتقريب فى الألفاظ والمعانى ، فعبر سبحانه عن خروج النهار من الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام ، فقال سبحانه - فالق الإصباح - وفى ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب ، والنوى ، وشق النور فى الظلام ، ثم جعل من بعد ذلك نتيجة لهذا الإصباح أن كان الليل سكناً ، ووجه الأنظار إلى الشمس والقمر ، فجعلهما سبيلاً لحسبان الأيام والليالى والشهور ، ثم ختم النص بما يفيد أن ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى القدير ، وهنا نجد المعنى واللفظ يختان مختام من القول يدل على انتهاء هذا الجزء ومثله فى ذلك - ولسلام الله تعالى المثل الأعلى ، كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق بما يليه ، وقد كانا على مقربة بعضهما من بعض فى نسق

٢٤٧ - والغزالي يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، وثبتت بعضه من السماع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولاً ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة إلا بالمعاني الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالي فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولاً ، لىتنقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتبع للفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إمكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة الترك ، فإن ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لا بد منها للفهم » .

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالي هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأمرار التى لا يدركها إلا العلماء الراسخون فى الإسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإخبار ، وعموم ، وخصوص ، وإطلاق وتقييد ، وإن ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« إنما يتكشّف للراسخين فى العلم من أمراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة إلى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً ، فأمرار كلمة الله عز وجل لانهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم ، بعد الاشتراك

ولو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم وتلك الموسيقى ، وذلك التآخي لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق ، إنما نعرف تأثيره في نفوسنا إذا تدمت ووصلت إلى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ، ولا يعرف سره .

وإن النظم القرآني تأليفه كله له رنين الموسيقى ، لقد جرى العرب كتاباً وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم في فاصلة سجع أو قافية شعر ، لكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخية في كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها تطمن النفوس ، والكلمات في تأخيها في العبارات تنتج موسيقى ونغماً يختص به القرآن وحده وإن أى كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لا بد أن يكون متخلفاً عن القرآن لا يمكن أن يلحق به ، لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر .

ويعجبنى ما كتبه في هذا الكاتب المؤمن مصطفى الرافعي إذ يقول: وكان العرب يترسلون في منطقتهم كلما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت إلى أن يتفق من هذا قطع في كلامهم تفي بطبيعة الغرض الذي تكبرن فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقي إن لم يكن في الغاية ، ففيه قرب من هذه الغاية .

فلما قرى عليهم القرآن رأوا حروفه ، في كلماته ، وكلماته في جملة الحاناً لغوية رائعة ، كأنها لا تلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها ، فلم يقتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين في عجزهم ، حتى إن من عارضه منهم كسيلة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنما فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما هو في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق

ذلك فى شىء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع ، .

التلاؤم :

١٢٢ - إن المعنى الذى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو ما سماه الرومانى بالتلاؤم ، أى تكون نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض ، فى الجمل ، والجمل يتآلف بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فإن الآية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء إن كانت الآية فى تبشير أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت فى عظة ، وتتلأم نغماتها قوية إذا كانت فى إنذار ، أو فى وصف عذاب أقرأ قوله تعالى : الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليل وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية (١) .

إنك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى إنذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شديد يترقبهم - ترى فى النغم قوة شديدة قارعة لآسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ، ويعتدون ، ويظلمون ، ويشتركون فى نغمة التهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الآسماع بها .

ثم أقرأ فى صورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة ، إذ يقول سبحانه :
و الضحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك

(١) الحاقة : ١ - ١٠ .

من الأولى ، واسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث (١) .

وانظر إلى الآيات الداعية إلى التأمل في الكون ، وما فيه من أمور هادية تجدد فيها النعمات الهائلة اللافئة الموجهة من غير قرع الأسماع ، بل بتوجيه للأفهام ، اقرأ قوله في سورة الغاشية .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر ، إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » (١) .

وإنك ترى في هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النعمة الهائلة الموجهة من غير عنف في جرس يسترعى الأسماع ويصرف الأنظار ، واجتمع الإنذار الشديد القوى ، ولم يكن ثمة تنافر بين الإنذار الشديد ، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام إلى مقام لا يبدو فيه التباين ، وإن كان المقام الثاني إنذاراً ، ذلك لأن الإنذار كالثمره للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات ، وتوجهه النظرات إلى الكون وما فيه .

وإنك إذ تنظر في وصف الجحيم تجده في نغم كأنما يخرج منه ريح السموم ، وإن وصف الجنة تجده في نغمه أصواتاً حلوة كأنها ريح وريحان لأنها جنة ، وقرأ بعض السورة التي تلو نامها آتفاً ، وصفاً للجحيم ووصفاً للنعيم ، فإنك واجد لا محالة الفرق في النغم ، اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ، ولا يغني من

(١) سورة الضحى كلها

(٢) الغاشية ١٧ - ٢٦ .

جوع - وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ، فيما عين جارية ، فيما سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة، (١).

تجد فى هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين ، أولهما وصف الجحيم وأصلها ، وتجد فيه الألفاظ والمعانى والنغم ، كله يلقى بالآلم فى النفس ، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العتيد . والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيها الراحة ، والاطمئنان والقرار ، والسعادة ، ويشترك فى هذا الغاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لاتسمع .

١٢٣ - وإن الكلام الذى يتسم بالبلاغة لا بد أن يكون فيه التلاؤم ، والتلاؤم ضد التنافر ، وعرفه الرماني . فقال « التلاؤم نقيض التنافر ، وهو تعديل الحروف فى التأليف ، والتأليف متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ، ثم يضرب الأمثلة على التنافر الذى هو ضد التلاؤم ، ثم يذكر أن التلاؤم الذى يكون فى الدرجة الوسطى هو التلاؤم الذى يكون فى كلام البلغاء وأهل الفصاحة من الناس ، أما التلاؤم فى الطبقة العليا ، فإنه لا يكون إلا فى القرآن الكريم ، ويقول فى ذلك رضى الله عنه :

والتلائم فى الطبقة العليا فى القرآن كله وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق ، والسبب فى ذلك تعديل الحروف فى التأليف ، فكأما كان أعدل كان أشد تلاؤماً .

ويستفاد من معنى هذا الكلام أنه يرجع السبب في علو التلاؤم في القرآن كله إلى التعديل بين الحروف بأن تكون الحروف متلاقية في النطق ، فليس فيها تباعد في المخارج شديد ، بحيث يصعب الانتقال من مخرج إلى مخرج ، ولا التقارب الشديد الذي يجعل بعض الحروف يندغم في بعض .

وإن ذلك ينطبق على النطق ، فالتعديل في المخارج بالبعد عن الاختلاف الشديد أو القرب الشديد ، إنما هو يتعلق بالنطق ولأنك بلا ريب تجد ألفاظ القرآن الكريم وجمله بعيدة عن هذا كل البعد ، بل إنه المثل الأعلى في ذلك .

وإن التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس في المخارج فقط ، بل هو فيما هو أعلى من ذلك ، إنما هو في النغم ، وجرس القول وموسيقاه ، فلا تجد حرفاً ينشز في موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها ، والآية كلها تكون مؤلفة النغم في الغرض الذي سيقمت له ، فإن كان إنذاراً كان النغم إرعاداً ، وإن كان تبشيراً كان نسيماً ، وإن كان عظة كان تنبيهاً ، وإن كان تفكيراً ، كان توجيهاً لافتاً عما سواه ، وهكذا .

وقد قال الرماني د والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد وذلك يظهر بسهولة على اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتقبله في الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما تظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما وقدعم التحدى للجميع لرفع الإشكال ، وجاء على الاعتبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الإعجاز فقال عز وجل : د وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين ، ثم قال : فإن لم

تفعلوا ولن تفعلوا،^(١) فقطع بأنهم لم يفعلوا ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،^(٢) ولما تعلموا بالعلم والمعاني التي فيه قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات^(٣) » ، فقد قامت الحجة على العربي والعجمي ، .

وإن هذا يدل على أن العجز لم يكن لأجل المعاني فقط ، وإن كانت معجزة في ذاتها ، ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب ، لانهم أمة بليغة ولكنها أمة .

وقد أدركوا من أول الأمر مافي الألفاظ من جمال ، وما في تأليف القول من نسق وانسجام ، وما في جرسها من نغم ، ولما تورط بعض منهم في أن يحاكيوا القرآن ، لم يكن اتجاههم إلا إلى النغم أرادوا محاكاته في نغمه ، فجاء كلامهم غثاً ، ليس فيه نغم ولكن فيه ما يدل على إدراك سقيم .
الفواصل :

١٢٤ - يعرف الروماني الفواصل بأنها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن لإفهام المعاني ، ويقول « الفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع ، فالمعاني تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، إذ كان الفرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي إلیها الحاجة ماسة ، فإذا كانت المشاكلة موصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولسكنة ؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجاً ، ثم ألبسه زنجياً ساقطاً ، أو نظم قلادة ، ثم ألبسها كلباً ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم ، فن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والارض والسماء

(١) البقرة : ٢٤

(٢) الإسراء : ٨٨

(٣) هود : ١٣

والغراب الواقعة بتقعاه ، لقد نفر المجد إلى العشاء ، . وهكذا نجد الرمانى يفرق بين السجع والفاصلة بأن الفاصلة بلاغة ، وأن السجع عيب ، وأن الفواصل الألفاظ فيها تتبع المعانى والسجع الألفاظ فيها مقصودة ، والمعانى تابعة ، ويظهر أنه لم يكن بين يديه إلا سجع الكهان ، ولكن أكل السجع كذلك ، وألا يوجد سجع يزيد المعانى قوة ، وتكون فيه المعانى هى المتبوعة ، وليست تابعة ، وأن السجع يزيد المعانى ، ويعطيها قوة ويسهل قبولها ، ويكون باباً من أبواب تأكيدها .

ولذلك خالف الرمانى فى ذلك الكلام الذين كتبوا البلاغة من بعد ، وقبل أن نخوض فيما قالوه ، نقرر أن الفرق ، هو بين الفواصل والسجع ، إن الفواصل معناها أن تكون مقاطع الكلام متقاربة فى الحروف كالنون والميم فى قوله تعالى الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، ، وأما السجع فهو أن تكون المقاطع متحدة فى الحروف ، ونلاحظ أن الرمانى متأثر فى فكرة السجع بسجع الكهان الذى قصد به اتحاد الحروف من غير نظر إلى المعنى ، ومن غير أن تكون المعانى فى ذاتها ذات قيمة ، بل لا يقصدون إلا إلى رص الكلمات متحررين اتحاد المقاطع .

وأنه عند التحقيق نجد أن الفواصل أعم من السجع ، فهى إما سجع تتحد فيه حروف المقاطع أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع ، وذلك رأى ابن سنان فى كتابه سر الفصاحة^(١) فهو يقول : د الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعاً ، وهو ما تماثلت فيه حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعاً ، وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ، ولم تماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أنه يأتى سهلاً طوعاً وتاباً للمعنى ، وبالضد من ذلك ، حين يكون متكلفاً يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول

(١) سر الفصاحة ص ١٦٥ .

فهو المحمود الدال على الفصاحة ، وحسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذموم .

وإن هذا الكلام معناه أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فيكون الحسن والإفصاح والإحسان وليس كل سجع تكون المعاني تابعة للألفاظ ، فيكون التكلف ، بل التعميم بالحسن في غير السجع والقبح في السجع هو الخطأ ، ولا شك أن فواصل القرآن كلها من البليغ الذي تكون فيه الألفاظ تابعة للمعاني .

وأنه بلا ريب في القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع أيضاً لا تتحد فيها الحروف ، ولكن تتقارب ، ومن المقاطع التي تتحد فيها الحروف قوله تعالى في سورة الغاشية : هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسمعها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة ،^(١) . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : والطور وكتاب مسطور في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ،^(٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات ضبحا ، فأثرن به نعقا ، فوسطن به جمعا ، إن الإنسان لرببه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ،^(٣) .

(١) الغاشية : ١ - ١٦ .

(٢) الطور : ١ - ٨ .

(٣) العاديات : ١ - ٨ .

وهكذا نجد اتحاد حروف المقطع ، في مقطعين أو أكثر ، ثم تتغير ، إلى اتجاه المقاطع في حرف آخر ، ومن القرآن ما تتقارب فيه المقاطع ، مثل قوله تعالى « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذامتنا ، وكنا تراباً ذلك رجوع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ، أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج ، (١) .

إننا لانجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن نجد أموراً ثلاثة :
أولها - تقارب مخارج الحروف في المقاطع ، فالدال والباء ، والظاء مخارجها واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها .

ثانيها - وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو حرف الباء في خمسة منها ، وواحد بالواو والوزن في الخمس الأول منها هو وزن فاعيل .

وبهذين الأمرين كان التقارب في المقاطع ، تقارباً يبيّننا يجعل نسق القول واحداً ، ولو لم تتحد المقاطع .

والأمر الثالث هو اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع ، فهي كلها مؤلفة في حروفها وألفاظها ، وجملمها ومقاطعها ، حتى كوت صورة بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال .

وقد يكون الكلام في القرآن خالياً من المقاطع في بعض الآيات ، ولا ينزل في نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الأعلى ، ومن ذلك قوله تعالى « محمد رسول الله ، والذين معه أشداه على الكفار رحما بينهم ، تراهم ركعا

سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً ، (١)

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام مثل آية المواريث ، فأنه تعالى يقول : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم أبنائكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم ، إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك ، فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم ، تلك حدود الله ، ومن يضرع الله برسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ، (٢) .

وإننا لا نجد في هذا الكلام إلا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ، ولا فواصل متحدة في آخرها بحروفها ، إنما هو كلام الله المنثور من غير إرسال ، بل النغم متأخ ، والمعاني متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، ومتلازمة مع بيان للأحكام ميسراً سهلاً ، فلم ينزل ذكر الأرقام ، بمرتبة الكلام ، عن حد التلاؤم والتأخى .

(٢) النساء : ١١ - ١٣ .

(١) الفتح ٢٩ .

أفي القرآن سبج ؟

١٢٥ - الأمر الذي لامراء فيه أن القرآن الكريم فيه فواصل قد تتحد فيها حروف المقاطع ، أحياناً وقد تلونا فيما مضى من القول آيات بينات فيها المقاطع متحدة الحروف ، فهل تعد هذه سجماً ! اختلفت في ذلك عبارات كتاب البلاغة في القديم .

ونجد الرماني يحكم بأن القرآن فيه فواصل ليست من السجع ، وبذلك يعلو القرآن في نظره عن أن يكون سجعاً ، ويقاربه في ذلك الرأي أويوفقه الباقلاني في كتابه دلائل الإعجاز ، وسنعود إلى الاستدلال لذلك الرأي إن شاء الله تعالى .

ولكن الآن نتكلم في وجهة نظر الذين أثبتوا أن القرآن فيه سجع ، وإن كان أعلى مما يستطيعه الناس أو يزاولونه .

ومن هؤلاء أبو هلال العسكري في كتابه الصناعاتين ، فهو يقول :

دو جميع ما في القرآن مما يجري على القرآن من التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة ، لما يجري مجراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه د والعاديات صبحا ، فالمربات قدحا ، فالمنغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا (١) .
قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن :
د والسما والأرض ، والقرض والفرض والغمر ، والبرض ، ومثل هذا من السجع مذموم ، لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرجل أندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطال : دأسجعا كسجع الكهان ، لأن التكلف في سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال : أسجعا ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا

(١) العاديات ١ - ٥ .

سلم من التكلف ، وبريء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام .

ونرى من هذا أن أبا هلال العسكري بخالف الرماني في أن السجع كله مذموم ، بل منه المذموم الذي يظهر فيه التكلف ، ويرهق الألفاظ والمعاني ، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رصاً غير متماسك بملاط من المعاني .

ويرى أنه لا مانع من أن يوصف القرآن بأن فيه سجعاً ، ولكنه سجع في أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاربه أحد ، ولا يصل إلى علوه أحد من الخلق .

وابن سنان في كتابه سر البلاغة يسمى ما فيه المقاطع متحدة سجعاً ولكن في درجة العلو القرآني الذي لا يستطيع أحد أن ينهض في كلامه إليه .

ويسوق نصوصاً قرآنية يمدّها من السجع منها ما نلونا ، ومنه قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ، »^(١) وقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد »^(٢) .

ويقول ابن سنان إن نغم السجع كان مقصوداً ، فقد حذفت الياء في يسرى ، وحذفت في الواد ، وذلك صحيح في اللغة . ويقول قصد إليه طلباً للوافقة في الفواصل .

ويستدل أيضاً بقوله تعالى : « افتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن روا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »^(٣) .

(١) الفجر ١ - ٥ .

(٢) الفجر ٦ - ١٢ .

(٣) القمر ١ - ٢ .

ويتكلم ابن سنان في البواعث التي بعثت الذين ينكرون أن يكون في القرآن سجع ، فيحمد تلك البواعث مع الإصرار على المخالفة فيقول : « وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه بسجماً ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وكلاماً عربياً مؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج إلى زيادة في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع .

ويقول فارضاً اعتراضاً ، « وإذا قال عليه ، فإذا قال قائل « إذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه في ورود بعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه ، والتصنع ، لاسيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً ، جريباً على عرفهم في الطبقة العالية من الكلام ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها ، وعابها ورد في فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً في الفصاحة ، وقد أخل فيه شرط من شروطها ، وهذا هو السبب ، فأورد القرآن مسجوعاً ، وغير مسجوع ، .

ونحن لا نفرض احتمال التكاف في القرآن قط ، لأنه من عند الله تعالى ولكن نقول هكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هكذا كتابه ، وإذا أردنا أن نلتمس حكمة لذلك ، فهي فيما قال سبحانه « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، فتصريف القول في القرآن ، كان من جماله الذي يعلم على كل البشر ، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحياناً إن ارتضينا مذهب السجع ، أو الفواصل المتقاربة حروفها في المقاطع أحياناً

أو إطلاق الألفاظ في القرآن ، من غير مقاطع ، مع ملاحظة أن ذلك كله في أعلى ذلك درجات البلاغة التي لا يصل إليها أحد من البشر .

وابن الأثير في كتابه المثل السائر يستنكر قول الذين يذمون السجع ، ويستنكر قول الذين لا يسمون ما في القرآن من اتحاد المقاطع في الحروف سجماً ، ويقول في ذلك :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة .

وترى أنه يستحسن السجع ، ويرمى الذين لا يستحسنونه بأنهم لا يجيدونه ونقول إنه لا يمكن أن يكون حسناً في كل الأحوال ، فمثلاً بيان الأحكام الشرعية في أى كلام بليغ لا يصح أن تكون سجماً ، ولكل مقام مقال كما يذكر علماء البلاغة .

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع في القرآن أنهم يعتمدون على ما يتلونه من اتحاد الحروف في مقاطع القرآن ، ويقررون مع ذلك أن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله في كلام الناس ، لأنه أعلى من كلام الناس .

١٣٦ - من هذه النقول التي نقلناها نجد الذين يقررون أن في القرآن سجماً يعتمدون أولاً - على نصوص القرآن التي ثبت فيها أن الفواصل المتحدة في الحروف كثيرة في القرآن ، وثانياً على أن السجع ليس عيباً في القول ، وإنما هو من محسنات القول ، وقد وقع كثيراً في كلام العرب الجيد وإنه لم يكن سجماً السكمان هو السائد فقط ، بل كان من بلغاه العرب من (م ٢١ - المعجزة الكبرى)

اتجه إلى السجع البليغ ، فقد وري عن أبي طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذى يزن :

« أنبتك الله منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، ونبت زرعه في أكرم موطن ، وأطيب معدن . »

وإن الذين نفوا السجع من القرآن قالوا إنه مذبوم ، وعلى رأسهم الرمانى ، وجاء من بعده أبو بكر الباقلانى ، فمنهج ذلك المنهج وسار على ذلك الخط ، ونسبه إلى الأشاعرة ، فقال :

« ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشهرى في غير موضع من كتبه . »

وإذا كان الذين ردوا على الرمانى قد بينوا أن السجع ليس مذبوماً على إطلاقه ، إنما المذبوم منه سجع الكهان ، وما كان فيه اللفظ هو المقصود ، والمعنى تابع له .

وقد أنكروا الباقلانى أن يكون في القرآن سجع ، وما ادعوه من سجع فيه وساقوه ، هو وهم لا أساس له فقال :

« والذين يقدرون أنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وإن لم يكن سجماً ، لأن ما يكون به الكلام سجماً ، يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما انفق بما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ لا يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون السجع منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت إفادة السجع كإفاده غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيحه ،

وإننا هنا نجد افتراقاً بين الباقلاني وابن الأثير وابن سنان وأبي هلال العسكري في تعريف السجع ، فأولئك يعتبرون السجع ما اتحدت فيه ألفاظ المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسیناً للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفي الأول يكون السجع محموداً ، وفي الثاني لا يكون لانقاً بمقام القرآن الكريم .

أما الباقلاني وسائر الأشاعرة ، ومن سلك طريقتهم ، فإنهم لا يذكرون السجع إلا في الصورة التي يكون فيها اللفظ مقدماً على المعنى .

وإن الذي دفع الباقلاني إلى هذا هو تشبيهه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافي والمقاطع المتحددة في الألفاظ . ثم تسكيف المعاني على الألفاظ . ليستقيم المقطع ، كما تستقيم القافية ، وإذا كان الشعر منفيماً في القرآن بالاتفاق فكذلك السجع الذي يهيج منهجه ، ويتبع طريقته ، وتجيء المعاني تابعة للألفاظ مكيفة بكيفية ، مأخوذة بطريقها ، وإن الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن ، أدخل السجع في النبي ، وهو السجع الذي يكون فيه المقصد الأول للفظ .

وإنه إذا كانت الفكرة نفيماً أو إثباتاً قائمة على الاختلاف في الاصطلاح ، فإنه قد زال الخلاف ، إذ لا مشاحة في الاصطلاح .

وبذلك ننتهي إلى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها في البلاغة كانت المعاني هي المقصد الأول ، وجاءت الألفاظ بجمالها وإشراقها وحسن نغمها ، ورنة موسيقاها تابعة لذلك ، وقد يكون اتحاد المقاطع في الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم . وانسجام الموسيقى وفي ذلك قوة التأثير ، بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله .

وعلى ذلك نقول إن من يفسر السجع بأنه الاتحاد في حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعاً للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق

قدرة البشر أن يأنوا بمثله ، ومن يقول إن السجع كاشعر يكون المعنى فيه تابعاً للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزهاً عنه .

ونحن نميل إلى أن اتحاد المقاطع في القرآن لا يعد سجماً ، لأننا نرى السجاعين يتجهون إلى الألفاظ أولاً ، وقد يكون سهلاً وحلواً ولكن الاتجاه فيه أولاً إلى الألفاظ ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن .

١٢٧ - وبذلك يكون الحكم في أمر اتفق الطرفان المتخاصمان فيه على تقديس القرآن الكريم ، وتنزيهه عن أن يكون مشابهاً لكلام الناس ، وإن كان من جنسه ، ومكوناً من حروفه .

ونحنم الكلام بكلام لكاتبين مؤمنين قال أحدهما في وصف ألفاظ القرآن ونظمه ، وقال الثاني في فواصله ومقاطعته ، أما الأول فالباقلائي ، فقد قال :

« إن القرآن سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الأفهام ، يبارد معناه لفظه إلى القلب ، ويساوق المغزى منه عبارته إلى النفس ، وهو مع ذلك يتمتع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه ، ولا موهم مع دنوه في موضعه أن يقدر عليه ، أو أن يظفر به ، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبذل ، والقول المسفسف فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة ، فيطلب فيه ، ولكنه أوضح مناره ، وقرب منهاجه ، وسهل سبيله ، وجعله في ذلك مدهشاً متماثلاً ، وبين مع ذلك إعجازه فيهم » .

أما الثاني فهو الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ورضي عنه وهو يقول في فواصل القرآن ومقاطعته .

« ما هذه الفواصل التي تنهى لإيها آيات القرآن ؟ ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت

اتفاقا عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يساق إليه بما ليس وراءه فى العجب
مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى
الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ... قال بعض العلماء :
كثير فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون ، وحكمة
وجودها التمكن من التطريب بذلك . كما قال سيبويه إنهم (أى العرب)
إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون
ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء ذلك فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع ..
فإذا لم تنته بواحدة من هذه (بالميم والنون والمد) كأن انتهت بسكون حرف
من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة ، وتقطيع كلماتها ،
ومناسسته للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه . وعلى أن ذلك لا يكون
أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع
القلقلة أو السفير ، أو الصفير أو نحوهما مما هو صروف أخرى من
النظم الموسيقى .

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس
تفهمه وكل نفس لا تفهمه . ثم لا يجد من النصوص على أى حال إلا الإقرار
والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع
فيه أو فى أكثره ، ولما وجد أثر يتعدى أهل هذه اللغة الغريبة إلى أهل
اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز . فتألفت كلماته من
حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر . لكان
ذلك خلاما بينا ، أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفى
حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند
الحروف ، وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرايت لذلك هجئة فى السمع كالذى
تنكره من كل مرتى لم تقع أجزاءه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ،

وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقي منها إلى جهات متناكرة .

وإن هذا الكلام يفيد فائدتين : إحداهما — أن موسيقى القرآن الكريم ونغماته هي التي استرعت أسماع العرب ، واستهوت نفوسهم ، ورأوا لها حلاوة ، وعليها طلاوة ليست من الشعر ، وإن علت على أعلى ما فيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ وإن كانت من جنس كلامهم ، وأن ذلك التأليف في النغم والجرس مع علو المغزى ، والمعنى ، وإحكام التعبير ، ودقة الإحكام ، لا يمكن أن يصل إليه أحد .

وقد يقول قائل هل هذه الأنغام المؤلفة مقصودة في ذاتها ، وهي الإعجاز فنقول إننا مهما نحاول في رد الإعجاز إلى أسباب لا نجد سبباً واحداً بذاته هو الذى اختص بالإعجاز ، بل تضافرت في ذلك الأسباب ، وكل واحد منها يصلح سبباً قائماً بذاته . ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجل ، والفواصل ، وأبعادها كل هذا فيه إعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها .

وإن الدليل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمات هو من الإعجاز أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا بمجرد القراءة ، فقد قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً ، وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً^(١) ، فالله تعالى علم نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم الترتيل ، وهو علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، إنما الترتيل قراءة منعمة تنغيماً يظهر التماسق في الحروف والجل والآيات ويكشف معانيها ، ونغماتها ، وتلك هي موسيقى القرآن .

الفائدة الثانية التي يفيدها أن إعجاز القرآن لغير العرب هو بنغمه وجرسه الموسيقي ، فإن الموسيقى لغة الإنسانية ، وتهتز لها كل القلوب ، ونحن نوافق في اتجاهه إلى أن القرآن معجز للعرب وغيرهم ، ولكن لا نقصر إعجاز غير العرب على الموسيقى وحدها ، بل نقول إن ذات العبارات ، وشرائعه ، والعلم المبتوث فيه ، وكونه من أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ في بلد أمي ليس فيه معهد ، ولا مدرسة - هذا كله فيه الدلالة على أنه من عند الله تعالى .

٥ - الإيجاز والإطناب في القرآن

١٢٨ - إن القسمة العقلية للكلام كثرة وقلة بالنسبة لمعناه تحصره في أربعة أقسام ، أولها الإيجازة بأن تكون الألفاظ قليلة والمعاني كثيرة . وثانيها التقصير بأن تكون الألفاظ غير كافية للدلالة على المعاني . وثالثها الإطناب بأن تكون المعاني كثيرة ، والألفاظ كثيرة لاحشو فيها . ورابعها التطويل ، وهو أن تكون الألفاظ كثيرة ، وفيها ما لا حاجة إليه وهذه الأقسام الأربعة من الناحية البلاغية متقابلة ، فالإيجاز والتقصير متقابلان ، وأولها باب من أبواب البلاغة وثانيهما عى في القول ، ونقص في البيان . والإطناب والتطويل متقابلان ، وأولها بلاغة وحسن أداء ، وثانيهما عى وعيب في البيان ، يدفع إلى الملل والسآمة ، حتى يتبرم به السامع .

وقد ذكر الرماني هذه الأقسام المتقابلة ، كل مع ما يقابله ، فقال : « والإيجاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عى ، والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال ، فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى ، وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإن لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعاً ، يكون به أولى من الآخر ؛ لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب ، وعى ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل فكان كالمسالك طريقاً بعيداً ، جهلاً منه بالطريق القريب ، وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من الزهة الكثيرة ، والفوائد العظيمة ، فيحصل في الطريق على غرضه من الفائدة ، على نحو ما يحصل له بالعرض المطلوب . »

وله يستفاد من هذا الكلام أن الإطناب هو في زيادة المعاني ، لا في

زيادة الألفاظ، فإن اللفظ إذا زاد لا يكون الكلام من الإطناب البليغ المستحسن إلا إذا زادت معه المعاني، وذلك يكون بتفصيل القول، لا بإجماله. اقرأ قوله تعالى: «وما تلك بيمينك يا موسى»، قال هي عصا أنوكاً عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى^(١)، إننا نرى هنا إطناباً حلواً تترطب به الألسنة والأسماع، كان الإيجاز أن يقول هي عصا. وبقية المعاني تفهم، ولكن محبة موسى لربه، ورغبته في أن يطيل المحادثة، صرح بما يفهم ضمناً، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان.

واقرأ مرة أخرى ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة، فقد قال راغباً في حديثه مع ربه: «رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشد به أئزرى، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً، قال قد أوتيت سؤالك يا موسى، ولقد مننا عليك مرة أخرى، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي أن ائذنيه في التابوت، فاؤذنيه في اليم فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني، إذ تمشى أختك، فتقول هل أدلكم على من يكفله، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن، وقتلت نفساً فنجيناك من الغم، وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين، ثم جئت على قدر يا موسى، واصطنعتك لنفسى^(٢)».

وهنا نجد في هذا الكلام إطناباً في خطاب كريم الله تعالى لربه، فهو لا يكتبني بالملزوم حتى ينطق باللازم، لأن الخطاب محبب إلى نفسه لأنه يخاطب ربه فيسهب في القول من غير تزيد.

(١) طه ١٧ - ١٨.

(٢) طه: ٢٥ - ٤١.

ثم تجد بعد ذلك في كلامه إيجازاً غير مخل ، قد حذف منه ما صرح به في آيات آخر من قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فذكر أن أخته قالت دل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ولم تذكر أنه حرم عليه المراضع ، وقد عرف هذا من الآيات الأخرى ، وفهم من هذه الآية ، إذ أنه لا يمكن أن يكونوا في حاجة إلى من يكفله لهم ، إلا إذا احتاجوا إلى ذلك ، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون ، وقد فهم ضمنا من قوله تعالى ، وألقيت عليك محبة مني .

وذكر هنا قتله نفسا ، وطوى ذكر ما كان منه عند ما بلغ رشده ، ورؤيته رجلا من شيعته يستغيثه فأغانه وقتل الذي من عدوه ، ثم طوى سبحانه وتعالى خبر الاتهام به ليقضه المتآمرون ، ثم خروجه ، والتقاؤه بأبنتي شعيب وسقيه لهما ، ومجيء إحداهما تمشي على استحياء ، ثم زواجه ، على أن يكون المهر عمله ثمانى حجج أو عشر ، ثم إيناسه بالنار ثم مكالمة الله تعالى ، وقد ذكر ذلك كله في قوله تعالى فلبثت سنين في أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى ،^(١) .

وهكذا نجد أن الإطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط ، بل بكثرتها مع كثرة المعنى ، والإيجاز لا يكون بكثرة المعاني فقط ، بل لا بد أن يكون في الألفاظ دلالة واضحة على المعاني الكثيرة ، أو أن تكون هذه المعاني ذكرت في مقام آخر من القرآن ، فإن القرآن الكريم كل كامل لا تنقص معانيه ، ولا تستغلق على قارئه ، وقد يحذف القول في مكان ، لأنه يفهم بدلالة الأولى في مكان آخر .

وبين أيدينا في هذا الباب آيات في الميراث .

لقد قال تعالى في ميراث الأولاد : ويوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كس نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت

واحدة ، فلها النصف ، (١) ، ونرى هنا أن النص الكريم ذكر أن ميراث الواحدة إذا انفردت النصف ، وميراث الأكثر من اثنتين الثلثان ، ولم يذكر الميراث إذا كانتا اثنتين فقط ، ولم تزيدها عن اثنتين ، أيكون النصف أم يكون الثلثين ؟

لقد تبين ذلك في ميراث الأخوات ، فقد قال تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ، إن امرؤ هلك ، ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (٢) .

وهنا نجد الإيجاز المحكم ، فنجد في الآية الأولى تحذف ما يفهم بالأولى من الآية الثانية ، ويحذف من الثانية كذلك ، فقد ذكرت الآية حكم ما فوق اثنتين ، ولم تذكر حكم الاثنتين ، وهو ما بين في الآية الأخرى لأنها ذكرت أن ميراث اثنتين هو الثلثان ، وإذا كانت البنت أقرب إلى الميت من الأخت فيكون ميراث البنتين الثلثين بدلالة الأولى ، لأنه إذا كانت الأختان وهما أبعد تأخذان الثلثين ، فأولى أن تأخذهما البنتان اثنتين ، لأنهما أقرب ، فلا يمكن أن يكون نصيبهن أقل من الثلثين .

والآية الأولى نصت على أن الأكثر من بنتين تأخذان الثلثين ، فلا زيادة عن الثلثين ، فالأولى بالأكثر من الثلثين نصيب الأكثر من أختين لأن الأكثر من اثنتين من ذوى القرابة القريبة لا يزيد عن الثلثين ، فأولى ألا تزيد عن ذلك ذوات القرابة الأبعد .

وأما ذلك كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن

(١) النساء : ١١

(٢) النساء : ١٧٦

ثلاثة قروء ، ولا يحمل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك^(١) ، وهذه حال المطلقة الحامل ، وذلك إيجاز لا تفصيل فيه ، وبينت حال الحامل ، في قوله تعالى : « وأولات الأحمال أجملهن أن يضعن حملهن »^(٢) .

١٢٩ - وإن الأمر الذي يجب أن نعرفه ونؤمن به ونؤكد ، وهو الذي يليق ببلاغة القرآن التي لا تسامى ، ولا تناهد ، وتتحدى بها الأجيال كلها - في كل اللغات - أن الإيجاز ليس فيه تصور في الألفاظ بجوار كثرة المعاني ، وليس فيها إبهام أو عدم وضوح ، بل الألفاظ تكون على قدر المعاني مع كثرتها ، فهي واضحة الدلالة ، كما أن المعاني وفيرة غزيرة مغدقة . وإن الإطناب كذلك فإن المعاني تكون كثيرة ، والألفاظ على قدرها لازيادة فيها بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضه ، بل إنك لو أردت حذف كلمة ، بل حرف من كلمة لأحسست بأنك قطعت جزءاً من الصورة البيانية : فلا تكون الصورة كاملة بدونها ، بل تحس بفرغ في مكانها لا بد أن يملأ .

وإذا كان الإطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعاني بحيث لا يستغنى بكلمة عن كلمة ، والإيجاز كذلك ، فما الفرق إذن بينهما ، ولم يكن ثمة حاجة . لأن يقسم بيان القرآن إلى إيجاز وإطناب ، وقد اتفق علماء البلاغة على أن في القرآن الكريم النوعين .

وإننا نقول في الجواب ، إن الإيجاز والإطناب طريقان للبيان ، كل منهما واف في موضعه ، يؤدي الغرض الأول في موضعه ، وهما يتباينان لا يجمعهما إلا البلاغة البينة الواضحة ، وكل له مقامه .

(١) البقرة : ٢٣٨

(٢) الطلاق : ٤

ولنوضح الفرق بينهما في الحقيقة ، ثم نوضح الفرق بينهما في مواضعهما من القرآن الكريم .

فالفرق بينهما في الحقيقة أن الإيجاز يكون بحذف كلمة دلت القرائن عليها مع الوفاء في حذفها ، كالوفاء في ذكرها ، والبلاغة تكون في الحذف في مقام البيان إن كانت الدلالة قائمة ، والقرائن مثبتة ، ويكون في الحذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف كقول الله تعالى عن قول أخوة يوسف لأبيهم «واسئل القرية التي كننا فيها، والعرير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون» (١) وإن القرية وهي مجموع المساكن والطرقات لا تسأل إنما يسأل من فيها، بل يسأل بعض من فيها ، وذلك دليل على أن المسئول هو البعض ، فمنها إيجاز بالحذف ، ولا نقص بذلك الحذف ، بل فيه زيادة معنى ، وهو أن الأمر شائع عام للجميع ، وكأن كل من في القرية يعرف حتى البنيان ، والمساكن والأسواق ، أي أن ذلك أمر معروف ، لا موضع للكذب فيه .

وحقيقة الإطناب أن المعاني تكون والألفاظ على قدر واحد في الأكثرية ، والألفاظ بناء متكامل لا ينقض منه لبنة ، ولكن الإطناب يكون متجها إلى تفصيل الألفاظ في الدلالة ، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم ، ولا بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص ، ولا بخاص عن عام ، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ ، ولا بالإشارة عن العبارة ، بل كل ما يقتضيه المقام يجيء في وضوح كامل ، لا يكتفى فيه بالتضمن ، ولا بالإشارة ولا بالالتزام ، ومثال ذلك في الحسيات ، وإن كان لكلام الله تعالى المثل الأعلى أن تطلب من شخص وصف قصر ، فيصف أبعاده ، طوله وعرضه ، وارتفاعه وزيناته ، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة ، ودعائم بناء القصر ، ويسترسل في وصفه كأنك تراه وهذا إطناب يكون له مقامه إذا كان لمن يريد شراءه أو سكنه .

وقد يقول في وصفه أحياناً إنه على أكل صورة لتصور المترفين
طلاء وحلية .

ولاشك أن الأول إطناب لازيادة فيها مادام غير قاصد إلا لبيان ما فيه
والثاني إيجاز لا قصور فيه .

ولنضرب لذلك مثلاً سورة الطلاق التي بينت وقت الطلاق، وما يكون
بعده ، وما يجب للمطلقة ، وما يجب على المطلق ، مع الإيجاز في بعض
الأحكام التي تشمل حال الطلاق وغيره .

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ،
وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ
إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ
ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعْنُ اللَّهِ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ، فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ
فَأَمْسَكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ ،
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ ، مَنْ كَانَ يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنْ اللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، وَاللَّائِي
يُتَسَّنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ، إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتُمْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ
يَحْضُنَّ ، وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ
وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ، أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ، وَلَا تَتَزَاوَرُوهُنَّ
لِتَضْيَعُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ، حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ
تَعَاوَرْتُمْ فَسَرِّضْنَ لَهُ أُخْرَى ، لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ
فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ

عسر يسرا، (١) .

وإنك ترى في هذا النص الكريم المعاني الكثيرة ، فهي تكاد تشمل أحكام المطلقات، وفيها إشارة إلى بعض أحكام عدة المتوفى عنهن أزواجهن، وإن الألفاظ ليست قليلة ، ومن المؤكد أنه لازيادة فيها ، بل تخلل الإيجاز بعضها .

وإن أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الإطناب الذي لا تزيد فيه الألفاظ عن المعاني ، لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده ، ولا بد أن يكون ذلك واضحاً ، للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون في ذلك موضع لإبهام تكون فيه معذرة للمكلف ، بل إنه بيان الله تعالى الشامل الذي لا إبهام فيه ، ولا مظنة لإبهام اقرأ قوله تعالى في تحريم الخمر، إذ أطنب سبحانه ، فقد قال تعالت كلماته: « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم ، فاعلوا أئمتنا على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ، (٢) .

وإننا نرى القرآن الكريم يأتي بالإطناب الذي لازيادة فيه في آيات الأحكام كما أشرنا بذلك، وتلوناً من كتاب الله تعالى ، فإنك لا تجد أن حكماً أصلياً يأتي به القرآن يكتفي فيه بالإشارة عن العبارة ، وباللزام عن الملزوم ، بل كل ذلك صريح في القرآن الكريم ، وليكن الفقهاء في استنباطاتهم كانوا

(١) الطلاق : ١ - ٧ .

(٢) المائدة : ٩٠ - ٩٣ .

بأخذون أحكاماً من إشارات العبارات وكنياتها ، كما رأينا فيما استنبطوه من قوله تعالى ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن ، فإنهم فهموا منه أن الولد لأبيه ، وأن له حق التريبة ، وأخذ الفقهاء من إشارات العبارات كثيراً في أبواب الفقه ، وعد ذلك من بلاغة القرآن الكريم .

وإن أخذ الأحكام بطريق الإشارة دون العبارة لا يمنع أنه لم يكتف بذكر الملزوم في بيان الحكم الأصلي ، وإن ذلك ثمرات الحكم الأصلي فهمت منه ، وأما الأصل فلم يفهم إلا بالعبارة الواضحة .

هذا ومن مواضع الإطناب الواضح في القرآن الكريم ، القصص القرآني في مواضع العبرة ، وتسليمة النبي صلى الله تعالى ببيان ما نزل بالأنبياء السابقين ، وما لاقوا من أقوامهم ، فإن الإطناب في ذلك يزيد قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تثبيتاً وأنساً ، وإن القصص فوق ذلك يكون مشتملاً على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم ، وأدلة التوحيد التي جاءت على ألسنتهم ، وفيه بيان أحوال السابقين ، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيتاتهم .

ولأنه من مواضع الإطناب الذي لا يكفي فيه الإيجاز بطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين ، ورد مطالبهم من معجزات غير القرآن ، وبيانات تثبت الرسالة سواء ، فإن القرآن مشتمل على الكثير منه .

ومن مواضع الإطناب توجيه النظر إلى الكون ، وما فيه من خلق السموات والأرض وما بينهما ، فإن هذه مواضع تحتاج إلى الإطناب الذي لا تغنى فيه الإشارة عن العبارة ، وفي القرآن الكريم من ذلك ما يدل على عظمة الخالق من مظهر الخلق ، ودلالة الأثر على المؤثر والموجود على من أنشأه ، والحاضر على الغائب .

ومن مواضع الإطناب مناقشة أهل الكتاب ، وبيان إنكارهم ، وإثبات ماضيهم الذي امتد في حاضرهم .

١٢٨ - ويجب أن ننبه هنا إلى أن التكرار ليس من الإطناب ، وهو من الحشو إذا كان في سياق واحد ، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى ، ولا يتكرر فيه اللفظ ، وإذا بدا للقارىء الذى لا يمحص المعانى والحقائق أن فى الكلام القرآنى تكراراً للمعنى ، فإن ذلك عند ذوى الفهم السليم تفكير سقيم ، لأن تكرار المعنى له وصف آخر يؤدي فسكرة جديدة ، ومن ذلك قوله فى وصف ميثاق بنى إسرائيل الذى أخذ عليهم وأقروا به ثم أعرضوا عنه ، فقد قال تعالى : «وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، لا تعبدون إلا الله وبالو الدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلاً منكم ، وأنتم معرضون ، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون» (١) .

ولقد ادعى بعض الناس أن فى الكلام تكراراً فى المعنى فى موضعين ، وإن كان اللفظ لا يتكرر ، فى الأول يقول تعالى « ثم توليتم إلا قليلاً منكم ، وأنتم معرضون» فيدعى بعض الناس أن فى النص الكريمة تكراراً ، لأن التولى هو الإعراض ، فما معنى وأنتم معرضون ، إلا أن يكون تكراراً ، وإن النظر العميق يثبت أولاً أن التولى هو الانصراف ، والبعد بالجسم ، والإعراض هو الانصراف بالقلب ، فأشبهه هذا قوله تعالى « فأعرض ونأى بجانبه» (٢) ، وفى هذا تصوير حسي للإعراض فهو لم يعرض بالقلب بعدم الإذعان بل قرن المعنى النفسى بالمظهر الحسى ، كذلك هنا قرن الإعراض النفسى بالمعنى الحسى لتصوير الإعراض - وجعل الحق وراءهم حسياً ، ثم قوله تعالى : (وأنتم معرضون) حال وفيه معنى توليتم

(١) البقرة : ٨٣ - ٨٤ .

(٢) الإسراء : ٨٣ .

إن كانت بمعنى الإعراض عامة ، وذلك لأن معنى هذه الجملة الحالية أى أن الإعراض النفسى عن الحق ، وججودهم حال مستمرة من أحوالهم ، فالحق لا يصل إلى قلوبهم .

والثانى وهو قوله « ثم أقررتهم ، وأنتم تشهدون ، فإن الذين يدعون التكرار فى المعنى يقولون إن الشهادة هنا هى الإقرار فما معنى ذكرها بعد الإقرار إلا أن يكون تكراراً .

ونقول فى الإجابة عن ذلك إن ذكر وأنتم تشهدون بعد الإقرار ليس تكراراً ، لأن الشهادة هنا ليس معناها الإقرار لأن الإقرار قد يكون عن أمر مغيب ، وإنما معناها الحضور والرؤية ، والمعنى على ذلك أنكم حضرتم الميثاق وأقررتهم على ما فيه ، فهو إقرار موثق لا تستطيعون أن تدعوا الغفلة إذ هو قول وحضور ، فعن أيهما تغفلون .

ومن الآيات القرآنية التى يدعى فيها التكرار بآدى الرأى قوله تعالى قصة فى صالح عليه السلام مع قومه .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، (١) .

وقد قالوا إن هنا تكراراً فى المعنى لأن العثى هو الفساد ، فعنى لا تعثوا لا تفسدوا ، فكلمة مفسدين تكون توكيداً للمعنى ، والجواب عن ذلك إنه لا تكرار ؛ لأن النبى الأمين نهى عن الفساد ، وعن القصد إليه فكلمة مفسدين تدل مع لا تعثوا على عدم القصد إليه ، ومن جهة أخرى فيما لإيمان إلى أن الإفساد رصف لهم ، فعليهم أن يتخلوا عن الوصف ، وهى كذلك تدل على شناعة حالهم ، وفساد جمعهم ؛ إذ أنه فساد لا صلاح معه ، فهل يقال بعد هذا ان تمة تكرارا فى المعانى فى أى جملة من آيات كتاب الله تعالى .

وإنه لا يوجد تكرار لفظي في جملة واحدة ، ولا في موضع واحد .

وقد ادعى بعض العلماء التكرار في مواضع في القرآن وعلمه بما لا يتنافى مع إعجاز القرآن الكريم بل إنه من دلائل الإعجاز ، إذ أن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة في مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمال في مواضعها المختلفة ، كأن يكرر المعنى في قصة ، في سور مختلفة ، وكل عبارة معجزة في ذاتها ، ويتحدى بها في نعمها وموسيقاها وألفاظها وجمالها ، وعجز العرب عن أن يأتيوا بأى عبارة منها داليل على كمال الإعجاز في جملة وفي أجزاءه .

ونحن نرى أنه لا تكرار في عبارات القرآن بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة إليه بل ذكرنا أنه إذا تكرر لفظ أو معنى ، فإنما يكون ذلك لمناسبة جديدة ، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار إخلالا ، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى .

وقد ضربنا على ذلك الأمثلة من قصص القرآن ، ومن أنواع الاستفهام وذلك في صدر كلامنا في تصريف القول في القرآن .

اقسام الإعجاز :

١٢٩ - يقسم الرماني الإعجاز إلى قسمين إعجاز حذف ، وإعجاز قصر فيقول رضى الله عنه : « الإعجاز على وجهين حذف وقصر والحذف إسقاط كلمة للاجتراف فيها بدلالة غيرها من الحال أو أقوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، فمن الحذف ، « وسائل القرية ، ومنه « ولا تكن البر من اتقى ، ومنه « طاعة وقول معروف ، ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله « جل ثناؤه ، « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، ومنه قوله تعالى : « وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها

وفتحت أبوابها^(١) ، ، كأنه قيل حصلوا على النعيم ، وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس فيه تذهب كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قولك : « لو رأيت علياً بين الصفيين أبلغ من الذكر ، لما بيناه » .

هذا كلام الرماني في الإيجاز بالحذف ، ونلاحظ في ذلك أمرين :

أولهما — أن الإيجاز هنا نسبي في جزء من الكلام ، فقد يكون الكلام في مقام الإطناب ، ولكن في جزء منه يكون الحذف ، وذلك موجود في بعض ما ذكره من أمثلة ، من ذلك قوله في آية البر ، فإنها مطنبة بالنسبة لبيان المستحقين للبر . فقد قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢) .

ونرى من هذا أن مجموع الآية فى بيانها لا يعد من قبيل الإيجاز ، بل هو إطناب على المعنى الذى بيناه فى الإطناب .

ولكن ذلك لا يمنع أن فى جزء من الآية السكريمة إيجازاً ، وعلى ذلك نقول إن الإيجاز هنا نسبي أو جزئى .

ثانيهما — أن الحذف فى ذاته بلاغة إذ أنه يعطى الكلام قوة ، ويشير الخيال لیتصور المحذوف أعلى من المبين ، وقد بين ذلك فى حذف الجواب فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » .

(١) الزمر : ٧٣

(٢) البقرة : ١٧٧ .

ومن ذلك في معناه الذي يريدُه قوله تعالى : ولو يرى الذين ظلموا ،
إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب (١) فإن
جواب لو محذوف يلقي الرهبة في النفوس ، وتذهب فيه العقول كل مذهب
وتقدير ، ولم يذكر البلاغة في إيجاز الحذف في مثل قوله تعالى : د واسأل
القرية (٢) ، وفي مثل قوله تعالى د ولكن البر من اتقى (٣) ، وقد نظم
بلاغة الحذف في قوله تعالى د واسأل القرية ، إذ أن في ذلك إشارة إلى شيوع
القول فيها ، وأن القرية كلها تكلمت ، ومثل ذلك قوله تعالى : فليدع ناديه ،
وأما قوله تعالى : د ولكن البر من اتقى ، فإن فيه تزكية للمتقين بجمعهم
البر ذاته ، وأن نفوسهم علمت وزكت قلوبهم حتى صارت هي ، وفي ذلك
فوق هذا تصوير للمعنى قائماً بالذين يتصفون ، فيكون محسوساً معلوماً
فيهم .

١٣٠ - ويعد الرماني إيجاز القصر الذي عرفه بأنه بناء الكلام على تقليل
الألماظ - ويعدّه أغمض من إيجاز الحذف لأن الحذف فيه غامض يحتاج
إلى العلم بالمواضع التي يطبق فيها ، ويقول : د فمن ذلك قوله تعالى : د ولكم
في القصص حياة (٤) : ومنه قوله تعالى : د يحسبون كل صيحة عليهم هم
العدو ، (٥) ، ومنه قوله تعالى : د وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله
بها (٦) ، ومنه إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس (٧) : د إنما بغيبكم

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) يوسف : ٨٢

(٣) البقرة : ١٨٩

(٤) البقرة : ١٧٩

(٥) المنافقون : ٤

(٦) الفتح : ٢١

(٧) النجم : ٢٣

على أنفسكم (١) ، ومنه ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله (٢) ، وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير .

وهو المثل الكامل لجوامع الكلم ، وجل كلام الله تعالى عن أن يكون له مثل ، ونلاحظ أن الأمثلة التي ساقها تتصل بكلام قبلها ، فليست منقطعة . فهي إما أن تكون حكمة أو أعلى من حكمة أو قضية مستقلة مؤيدة للحكم الذي سبقها ، مبينة حكمته ، كقوله تعالى : ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ، فهي ختام آية القصص ، التي يقول الله تعالى فيها : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والآثي بالآثي ، فمن عفي له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (٣) .

وترى من هذا أن الآية الكريمة تتميم لآية قبلها ، لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة في القصص ، ليقدموا عليه غير نافرين لأنه اتقاء لشر مستطير ، وإذا كان القصاص في ذاته أمراً لا تقبل عليه النفوس ، لأنه قتل أو قطع فالمصلحة أعظم من المصرة ولا شك أن الالفاظ قصيرة ، والمعاني التي تنطوي تحتها كثيرة ، وخصوصاً أن تنكير كلمة «حياة» يدل على تعظيم هذه الحياة التي تترتب على تنفيذ القصص ، لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لا مزعجات فيها ، وخصوصاً إذا كان مع حق القصص حق العفو من المجنى عليه فإنه ربي التواد ، ويحل المحبة والمودة محل البغض والعداوة .

والآية الثانية التي ساقها الرمانى هي وإنما بغيكم على أنفسكم ، ونلاحظ

(١) يونس : ٢٣

(٢) فاطر : ٤٣

(٣) البقرة : ١٨٨ - ١٧٩

أن الرمانى قطعها عن سابقها ولاحقها من لفظ ، إذ الآية هي قوله تعالى :
د فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس : إنا بغنيكم
على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إنا مرجعكم فننفيكم بما كنتم تعملون (١) .
ولا شك أن الجملة التي اختارها من الآية الكريمة فيها إيجاز القصر
الذي يعد من أعلى جوامع الكلام ، ولكن يقطعها عما قبلها وما بعدها
وما جاءت فيه من أن الظالمين يدعون الله تعالى ضارعين في حال فرعهم
وخوفهم حتى إذا أمنوا بغوا وطغوا ، وفي قطع الكلمات عن أخوانها ، قطع
للمعنى عما يكنها ويظلمها .

وقوله تعالى : د ولا يحيق المسكر السيء إلا بأهله (٢) ، هي في عمومها
وشمولها فيها إيجاز قصر ، ويمكن أن تكون مثلاً عالياً يستشهد به في القول ،
ويصدق على كل خب لئيم ، ولكنه قطع الكلام عما قبله وما بعده ، فالآية
الكريمة بهذا النص السامى . واستكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق
المسكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا لسنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن
تجد لسنة الله تحويلاً ، وكانود أن يأتي بالمثل الطيب في بيئته من كلمات
سابقة له ولا حقة .

وقوله تعالى : د وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على
كل شيء قديراً ، هو كلام محكم بالغ أعلى ما اتصل إليه بلاغة القول ، وهي
آية مستقلة ، ولكنها متممة لما قبلها . فهي متممة بالعطف على قوله تعالى :
د وعدكم الله مغائم كثيرة تأخذونها فاعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس
عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً وأخرى لم تقدرُوا
عليها (٣) .

وقوله تعالى : د إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، (٤) هي حكمة

(١) يونس : ٢٣

(٢) فاطر : ٤٣

(٣) الفتح : ٢٠ ، ٢١

(٤) النجم : ٢٣

عالية في ذاتها ، ولكنها مسبوقه ولها لاحق بها يجدها ، فهي جزء من قوله تعالى : « إن هي إلا أسماء سميتموها ، أتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وإن إخراجها عما قبلها وما بعدها يكون إخراجاً لها عما يجد أطرافها .

وقوله تعالى « يحسبون كل صيحة عليهم العدو » وصف كامل لكل جماعة يغلب عليها الخور والجهن ، ولكنها وصف للمنافقين ، وإخراجها عما جاءت فيه يعمم معناها ، وهي مخصوصة في السياق .

١٣١ - وننتهي من هذه النظرات إلى الكلمات السامية ، نجدتها في ألفاظها ذات عموم ، ولكن لها في حيزها خصوص لإقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة ، فهي في حيزها ، ذات عموم ، لأن كونها حكمة لأحكام مقررة يجعل لها عموماً ، ولا يقيدتها حيزة ، لأنها منطلقة ، وكذلك مثل قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقوله تعالى لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، أما الآيات الكريمت الأخرى ، فإنها إذا ذكرت منفردة عن أخواتها كانت مثلاً من جوامع الكلمة وكان لها العموم ، وإذا أخذت مع أخواتها قيدت .

وعلى أى حال ، فإن إيجاز الحذف فيها ثابت ، ولا مانع من استعمالها كأعلى مثل سائر ، وانه أعلم .

وإن الإيجاز بغير حذف كلمات كثيرة في القرآن لاتكاد تخلو منه سورة ، بل جزء من السورة ، بل صفحة من صفحاته النورانية ، وقد قلبنا بعض صفحات في القرآن فوجدنا العبارات الآتية ، وكلها فيها إيجاز قصر ، ومن ذلك :

١ - قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن

تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً ، وهو شر لكم ،^(١) فإن هذا النص له معان كثيرة شاملة يطبق في كل أمر يحبه الإنسان ، وعاقبته وببئته أو لا يدرى عاقبته ، ولا ما يترتب عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى :
دفعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ،^(٣) فإن هذا النص الكريمة يشير إلى المعركة الدائمة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد في الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد ، وفيه إشارة إلى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار إلى الرذيلة ، رحمة بالناس ، فدفع الشر رحمة ، ورد الاعتداء ، وفي هذه الآية إشارة إلى نظرية الحرب الفاصلة ، والسلم الفاصلة .

٣ - وقوله تعالى : وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون^(٤) ، فإن هذه الآية تبين وحدة الأمة الإسلامية مع غيرها بأوجز عبارة ، فتشمل الوحدة الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، والبادي والخضري ، وسكان الوب ، وسكان المـسـدن ، لانفرقهم الألوان ، ولا الالسنه ، وإن التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم ، وهى التى تعلى ، ومثل ذلك قوله تعالى فى إيجاز : إنما المؤمنون إخوة .

٤ - ومنها قوله تعالى : وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء ،^(٥) فهى فى إيجازها اعتذار عما كان من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ،

(١) البقرة : ٢١٦

(٢) النساء : ١٩

(٣) البقرة : ٢٥١

(٤) المؤمنون . ٥٢

(٥) يوسف : ٥٣

وإنها لأحداث كثيرة ، فوق ما فيه من دلالة على معان نفسية تكون في الوجدان الذي تحكمه شهوات ، الضمير اللائم ، المحاسب الذي يصوره قول الله تعالى « النفس اللوامة » .

٥ - ومنها قوله تعالى : « ووجدوا بها ، واسيقتها أنفسهم » ، فإن هذا النص السامى بكلماته القليلة الموجزة ، فيه تصوير لحال المشركين الذين ألزمتهم الحجة ، ولا يمكن لم يذعنوا عصبية وعناداً ، ومحافظة على سيطرتهم الغاشمة .

٦ - ومن ذلك قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزين ، (١) » ، وفي هذا النص لإيجاز فيه ألفاظ قليلة ومعان كثيرة بمقدار جرائم المشركين في الاستهزاء بالنبي وأصحابه ، ومضايقتهم في العبادة ، ومنها الطواف بالبيت فقد كانوا كلما لقوهم سخروا منهم ، فعنى كفيناك المستهزين عاقبتهم على ما فعلوا في الماضي ، وخضدنا شوكتهم في الحاضر ، وشغلناهم في القابل ، وسلط الله الحق على باطلهم إلى آخر ما نالهم في الدنيا من خزي وما نالهم في الآخرة من عذاب .

٧ - ومنها قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً (٢) » ، فإن هذا النص قليل الألفاظ فيه معان كثيرة ، لأنه سبحانه يشير إلى أن هلاك الأمم إنما يكون إذا شاع الفساد بين آحادها وإنما يشيع الفساد عن غلبت أهواؤهم وسيطرت عليهم شهواتهم ، وإن ذلك من الذين نشئوا مترفين لا يرون حق الحياة خالصاً إلا لهم ، فيعم الفساد في الأرض ، وتقطع الأمة وتتناز ، وكل ذلك من سيطرة المترفين .

ومن ذلك قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » ، أي أنه (٣) مجزى بعمله إن خيراً بخير ، وإن شراً فشر ، ومثله قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان

(١) الحجر : ٩٥ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

(٣) الطور : ٢١ .

إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى^(١) ، ومثل قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ،^(٢) .

١٣٢ - وإن العرب كانوا يميلون إلى الإيجاز في القول ، ويعدون الإيجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهل بيان باللسان ، وقد صدقت بذلك كتبهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ إن الإيجاز في القرآن كان عند محاجة العرب الأميين الذين يفهمون القول بالكلمات المشيرة غير المفصلة ، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان .

واقدم كانوا يتبارون في الكلام الذي تدل ألفاظه على معان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب «القتل أنفى للقتل» ، أى من يريد القتل إذا علم أنه سيقتل ، فإنه لا يقتل ، ولا شك أن ذلك حق وقد اتجه كثيرون من الأدباء والمفسرين إلى الموازنة بين ما يعدونه أبلغ قوهم ، وقوله تعالى «ولكم في القصص حياة» والموضوع أيهما أبلغ وأجمل أداء ، والكلام الله تعالى المثل الأعلى .

وقدم عقد الرماني في رسالته موازنة بين الجملتين ، وإن كانت الموازنة ليست بين متماثلين ، بل ليست بين متقاربين وإن كان الموضوع متقارباً فقال :

وقدم استحسن الناس من الإيجاز قوهم : «القتل أنفى للقتل» ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلازمة ، أما الكثيرة في الفائدة ففيه كل ما في قوهم : «القتل أنفى للقتل» ، وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل ، لذكره القصص ، ومنها إبانة القرب المرغوب فيه ، لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء

بالرغبة والرغبة لحكم الله تعالى ، وأما الإيجاز في العبارة فإن الذي هو نظير القتل أنفى للقتل والقصاص حياة ، والأول أربعة عشر حرفاً والثاني عشرة أحرف وإنما بعده عن الكلفة بالتكرار الذي فيه مشقة على النفس ، فإن في قولهم القتل أنفى للقتل تكرر آ ، غيره أبلغ منه ومتى كان التكرار فهو مقصر ، في باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ وأحسن وإن كان الأول بليغاً حسناً .

وهناك وجه لم يذكره الرماني ، وهو أن كلمة العرب مقصورة على القتل أما كلمة الله تعالى ، فإنها تشتمل القتل والاعتداء على الأطراف ، فتشمل النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، بل تشمل الجروح ، فمعناها أشمل . وأمر آخر لم يذكره الرماني ، وهو أن كلمة القرآن إيجابية وسلبية معاً ، فهي إيجابية في أنها تبين أن ثمة حياة رافهة هادية أمينة بالقصاص ، وفيها معنى النفي ، وهو ألا يكون اعتداء بأي نوع ، أما كلمة العرب فلا تتجاوز المنع ، وهو أن القتل يمنع القتل .

وأيضاً فإن كلمة القصاص فيها معنى المساواة بين الجنائية وعقوبتها ، والقتل أنفى للقتل لا تستدعي بظاهر لفظها أن يكون القتل بالمساواة ، بل لا تمنع أن يكون القتل اعتداء ، والنص القرآني السامى الذي لا يسامى فوق كل ما يدخل من معان على كلمة العرب القتل أنفى للقتل .

هذا ما بدا لنا من زيادة كلمة القرآن من معان على كلمة العرب ، ولنعد من بعد إلى ما قاله الرماني في هذا المقام فهو يقول :

و ظهور إعجازه في الأمور التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة ، لإعجازه وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول علي رضي الله عنه : قيمة كل امرئ فيما يحسنه فهذا كلام عجيب ، يعني ظهور حسنه عن وصفه ، فبمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فإذا انتظم الكلام ، حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدى في قوله تعالى : دفأنا بسورة من مثله ، فإن الإعجاز عند ظهور مقدار السورة .

ومؤدى هذا الكلام أن الإعجاز القرآني ربما لا يبدو في الكلمة أو الجملة مقطوعة عن سابقها وللاحقها ، ولو كانت الجملة إعجازاً إنما يبدو في السورة أو العائفة من القرآن ، ونحن نخالف الرماني في ذلك ، فإن كلمات القرآن مع أخواتها لها إشعاع من المعاني يثير الخيال والتأمل في معانيها مادامت الجملة مستقلة في دلالتها ، تأتي بمعاني مفيدة ، مثل قوله تعالى : والصبح إذا تنفس ، (١) والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها والهار إذا جلاها ، (٢) فكل جملة من هذه الجمل لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها .

ولقد ختم الرماني كلامه في الإعجاز بذكر فضله وخواصه ، فقال رضي الله تعالى عنه :

و إذا عرفت الإعجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والإعجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والإعجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخفيضها من الدرن ، والإعجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والإعجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير والإعجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهر في جملة العدد

(١) التكوير : ١٨

(٢) الشمس : ١ - ٣

وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة ، واثنان في موضع عشرة ، وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة ، وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز . وإذا كان الإطناب في منزلة الأمر بحسن أكثر منها ، فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه فأطناب فيه إيجاز .

وإن الرماني يتجه بهذا إلى معان ثلاثة :

أولها - أنه يصف الإيجاز بأن فيه تصفية للألفاظ من السكرية ودرن القول وحشوه ، وأنه البيان عن المعنى بأقل ألفاظ ، وأن المعنى الكثير يكون في أقل مقدار من اللفظ ؛ وأن المتكلم أو الكاتب يجهد فكره عند الاتجاه إلى الإيجاز ليأتي بأوجز لفظ يحمل أكبر معنى ، وقد قال إمام من أئمة عصرنا في البيان في كتاب أرسله إلى صديق له وأطنب فيه داعرني في هذا الإطناب فإنه ليس عندي وقت للإيجاز ، لأنه بالنسبة للبشر ليس سهلاً ، لأن الإطناب إرسال الحقائق إرسالا ، أما الإيجاز ، فإنه جمع للحقائق في أقل الألفاظ وأجملها ، . وأبعدها عن السكر والدرن .

ثانيها - أن الإطناب نسبي ، فإنه إذا كان المعنى كثيراً واللفظ كثيراً ، فإنه يكون إطناباً ، وإذا كان المعنى الكثير يمكن أن تكون ألفاظه أكثر فإن ذلك يكون إيجازاً مسيئاً .

ثالثها - أن كل ألفاظ ذات معان كثيرة ، وقد وضعت على قدرها ، فإن كان الواضح قلة الألفاظ مع كثرة المعنى كان الإيجاز ، وإن كان الواضح الكثيرة في اللفظ والمعنى من غير تزيد ، بل لمقصد ، فهو إطناب .
والقرآن في حالي الإيجاز والإطناب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

طوال السور وقصارها

١٢٣ - ونحن نتكلم في الإيجاز والإطناب لا بد أن نمس موضوع السور الطوال والسور القصار . لقد علمت بما قدمناه جمع القرآن في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإعادة جمع ما كان في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مصحف جامع ، وما أعاد به عثمان جمع ما جمع أبو بكر وعمر ، ونشر نسخ مما جمع في الأقاليم للمسلمين .

وقد قررنا في ذلك أن الإجماع على أن السور رتبت بوحي إلهي ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن قرأه على جبريل عليه السلام بذلك الترتيب ، وذلك موضع إجماع ، بل موضع تواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن ترتيب السور في المصحف العثماني كانت بهذا الترتيب الذي نقرؤه .

وإن هذا الترتيب في آيات السورة الواحدة لم يكن على حسب النزول ، بل كان كما ذكرنا بالوحي فكانت الآية إذا نزلت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عليه السلام لـكـتـابـه وصحـابـته : ضـمـوها في موضع كذا من سورة كذا ، كذلك لم يكن ترتيب السور فيما بينها تابعا لنزول الوحي ، بل كان بوحي توجيهي لوضع السور في أماكنها ، فإذا كانت السور الطوال في هذه المواضع من القرآن ، والسور القصار في هذا الموضع من الطرف الأخير فيه ، فإن ذلك بتوجيه من الله سبحانه وتعالى .

وكان من المستحسن أن نتكلم في هذا لا في مقدار البلاغة فيها ، فالجميع سواء ، ولكن من حيث الحكمة إن أمكن أن يؤدي تطاولنا إلى معنى ندركه ، فكتاب الله فوق طاقتنا في إدراك مراميها كلها ، لأنها إرادة الله تعالى ، وهي لا تقبل التعليل ، لأنه لا يسأل عما يفعل ، وعباده هم الذين يسألون .

ولكن مع ذلك نحاول أن نتعرف حكمة الله تعالى ، أو ما نراه من
أوصاف للسور الطوال وأخواتها القصار .
إننا نجد في قصار السور ، وصفين :

أحدهما - أن نظم السور القصار كله يكاد يكون على نسق واحد
مؤتلف النغم متأخى الألفاظ متلائم في نظمه ، اقرأ قوله تعالى : «والشمس
وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء
وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها جورها وتقواها ،
فدأفح من زكاتها ، وقد غلب من دساها ، كذبت ثمود بطغواها ، إذ أنبعث
أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فمقرها ، فدمدم
عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ، .

وإنك لترى النغم متحداً ، والفواصل متحدة ، والتلازم بين الألفاظ
منهاجه واحد ، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام .

الثاني - من الأوصاف الواضحة في الصور القصار إيجاز القصر ، فتجد
القصة من قصص القرآن تذكر في كلمات جامعة ويعد فيها الأسلوب عن
الإطناب في القصة لحالها في مواضع من القرآن الكريم ، وكلها معجز ببيانه
وبلاغته .

اقرأ قوله تعالى : «د والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل
إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم
ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جاؤا الصخر بالواد ،
وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب
عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه
ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه
رزقه فيقول ربى أهانن ، .

وترى من هذا كيف كان الإيجاز المعجز ، لقد أشار سبحانه وتعالى إلى قصة عاد وثمود وفرعون ، وقد وصف طغيانهم كما وصف قوتهم في صنائهم ، وصلابة أرضهم ، وكل ذلك في إيجاز .

والسورة القصيرة كلها في موضوع واحد ، كما ترى في قوله : « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبرء » وكما ترى في سورة الفيل في قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وكسورة قريش : « لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، .

ولأننا نرى أن الجزء الأخير في ترتيب القرآن الكريم الذي اختص باهتمامه على قصار السور ، والذي يسهل حفظه على الناشئين الذين لا يريدون جمع القرآن كله في صدورهم ، قد اشتمل على بيان العقيدة الإسلامية ، وعلى معاندة قريش ، وعلى جهود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما لاقاه من عنات في قومه ، وعلى المبادئ الخلقية الإسلامية وما على أن كل مسلم يتحمل التبعية ، وعلى أصول المبادئ الاجتماعية ، وفيه لإجمال كامل لقصاص القرآن الكريم .

هذا شأن قصار السور وهي جزء من ثلاثين من القرآن الكريم . أما الطوال والمتوسط والأقرب إلى الطول والأقرب إلى القصر فهو يشمل نحو تسعة وعشرين جزءاً من ثلاثين جزءاً من القرآن .

وإن السور المدنية أكثرها ليس من القصار ، وهو يشتمل على الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية ، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت في الأسرة أم في المعاملات المالية ، أم في الزواجر الاجتماعية ، أم في العلاقات الدولية ، وأحكام (م ٢٣ - المعزة الكبرى)

الجهاد ، وفيها كل ما يتصل بالسلوك الإنساني الذي فرضه القرآن الكريم وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة أو المعاملات المالية جاء في السور التي بين القصر والطول كسورة الممتحنة وكسورة الطلاق .

وإن السور الطويلة أو القريبة منها مع أنها ليست مرتبة على حسب النزول بالوحي ، بل هي كما ذكرنا مرتبة بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحي عن ربه ، لأن النبي عليه السلام كان يأمر بوضع الآية عند نزول الوحي في موضعها من السورة التي أمر بوضعها في موضعها فيها .

ومع هذا الترتيب الموحى به الذي لم يكن على حسب النزول نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة ، يأخذ بعضها ببعض في نسق بياني رائع ، وكل آية مرتبطة برباط معنوي وبياني . فالآية تتبع ما قبلها ، لا في الموضوع ولكن في نظام يشبه تداعى المعاني ، فالآيات تثير في النفس المؤمنة المتبعة خواطر تجيء التي تليها لإشباعها وكأنها تجيء في وقت الحاجة إليها ، فيكون التناسق القرآني في الألفاظ والأنغام والفواصل والمعاني . وكل ذلك سر من أسرار الإعجاز الذي لا يمكن أن يكون إلا إذا كان القرآن كله من عند الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ، الذي اختار القرآن معجزة صفيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم .

القصار وتيسير الحفظ :

١٢٤ - يأمرنا الله تعالى بأن نحفظ ما تيسر من القرآن ، لأنه سبحانه وتعالى قال « فاقروا ما تيسر منه ، وإنه سهل سبحانه وتعالى علينا أن نحفظ المتيسر حفظه من القرآن ، فكانت تلك السور القصار الموجزة في ألفاظها الغزيرة المعاني في مؤداها وهذا المهني ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى كامل الرافعي رضي الله تعالى عنه في كتابه إعجاز القرآن ، ولنترك الكلمة له فقد قال : « إن لهذه السور القصار لأمرأ ، وإن لها في القرآن

لحكمة، من أعجب ما ينتهي إليه التأمل حتى لا يقع من النفس إلا موقع الأدلة الإلهية المعجزة، فهي لم تنزل متتابعة في نسق واحد على هذا الترتيب الذي تراه في المصحف، إذ لم يكن أول ما نزل من القرآن ولا آخره: «قل أعوذ برب الناس»، ثم هي (أي القصار من السور) بحملتها وعلى إحصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء واحد والقرآن كله ثلاثون جزءاً؛ وهو يتسع من بعدها قليلاً قليلاً، حتى ينتهي إلى الطول، فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول، فيسره للحفظ بأسباب كثيرة، أظهرها في المنفعة، وأولها في الميزة، هذه السور القصار التي تخرج من الكلمات إلى الآيات القليلة، والتي هي مع ذلك أكثر ما تجيء آياتها على فاصلة واحدة، أو فواصل قليلة، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير. وهي تماسك في ذاكرته بهذه الفواصل التي تأتي على حرف واحد أو حرفين، أو حروف قليلة متقاربة، فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور، حتى يلمتم نظم القرآن على لسانه، ويثبت أثره في نفسه، فلا يكون بعد إلا أن يمر فيه مرأً، وهو كلما تقدم وجده أسهل عليه، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى إثبات ما يحفظ... فهذا معنى قوله تعالى: «ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»^(١)، وهي لعمر الله رحمة وأى رحمة.

وإذا أردت أن تبلغ عجباً من هذا، فتأمل آخر سورة في القرآن، وأول ما يحفظه الأطفال (أي بعد الفاتحة) وهي سورة «قل أعوذ برب الناس»، وانظر كيف جاءت في نظمها، وكيف تكررت الفاصلة، وهي لفظ الناس، وكيف لا ترى في فواصلها، إلا هذا الحرف (السين) الذي هو أشد الحروف صغيراً، وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير، وأبعثها لنشاطه واجتماعه، وكيف يناسب مقاطع السورة عند النطق تردد

النفس في أصغر طفل يقوى على الكلام ، حتى كأنها تجرى معه ، وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته في أحرفها ونظمها ومعانيها ، ثم انظر كيف يحىء ما فوقها على الوجه الذى أشرنا إليه وكيف تمت الحكمة على هذا الترتيب العجيب .

وهذه السور القصار ، لو لم تكن في القرآن كلها أو بعضها ما نقصت شيئاً من خصائصه في الإعجاز ، ولكن عسى أن يكون الأمر في حفظه على غير ما ترى إذا هي لم تكن فيه ، فتبارك الله سبحانه ، ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا .

ويضاف إلى هذه الحكمة فائدة أخرى ، وهي تيسير القرآن ، وأداء الصلاة على العامة ، فإنهم لولا هذه السور الصغار لتركوا الصلاة جميعاً وإنه لا تصح الصلاة (أى كاملة) إلا بآيات مع الفاتحة ، وقد أعانت الصغار ، ويسرت عليهم ، فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى ، . انتهى كلام الرافعى .

١٣٥ - وإذا كانت ثمة سور طوال وأخرى قصار ، فإنه يجب علينا أن نلتفت إلى أن هناك آيات تطول ، وآيات تقصر مع أن الإيجاز والإطناب يكون في طوال الآيات وقصيرها ، ففي أثناء الآية الطويلة نقرأ قوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر^(١) ، وهى كلمات ذات معان غزيرة ، فيها حكمة شرع الله وغايته ، وتكليفاته ، وأنها تتجه إلى التيسير ولا تتجه إلى التعسير .

وأكثر الآيات الطوال تكون في الأحكام التكليفية التى تحتاج إلى التوضيح ، ولا يكتفى فيها بالإجمال بدل التفصيل كآية المحرمات فى قوله تعالى حرمت عليكم أمهاتكم وأخواتكم ... إلى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم^(٢) » .

ومثل ذلك آية المدابنة ، وهي أطول آية في القرآن فقد قال تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ
بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ،
وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ ، فَلْيَمْلِكْ لَهُ
بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَاتِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ لِإِحْدَاهُمَا
الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدَاتُ إِذَا مَدَّعُوا ، وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا
أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَسْطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا
إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا
تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا
فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَعْلَمَ اللَّهُ مَا يَكْتُبُكُمْ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١) .

وقريب منها في الطول آية المحرمات كما أشرنا ، ومثلها آيات الموارث
ومن الآيات الطوال المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم . اقرأ قوله تعالى :
« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمَلُوا
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي
لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ، أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسٌ لَّكُمْ
وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمُ كُنْتُمْ تَخْتَاتُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، وَعَفَا
عَنْكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ، وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ

يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، ثم أتوا الصيام إلى الليل ، ولاتباشروهن وأتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون^(١) .

وترى أن الآيات الاخيرة فيها بيان جزء من أحكام الصوم ، ولاتعد قصيرة ، بل طويلة ، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة بني إسرائيل ، وإذ قلتم يا موسى إن نصر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وفنائها ، وفومها وعدسها وبصلها ، قال أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبأوا بنضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون^(٢) .

وإننا إذ نقول إن بعض الآيات فيها ضول ، وبعض الآيات الكريمات فيها قصر ، ليس معناه أن ما فيه طول هو من قبيل التطويل في الكلام بل هو من قبيل الإطناب الذي لاتجد فيه كلمة زائدة ، ولاتجد فيه عبارة ليس ثمة حاجة إليها ، بل إن الآية التي يكون فيها تطويل قد تجيء في جملة ما هو من قبيل إيجاز القصر مثل قوله في أثناء آية الصوم الطويلة ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، كما ذكرنا آنفاً .

وليس المراد بالتطويل أن تكون الألفاظ أكثر من المعاني ، بل المراد ما لا يتجاوز حد الإطناب البليغ المستحسن . فالمعاني مع الألفاظ متكافئة وربما كان فيها إيجاز لا إطناب فيها فضلا عن التطويل ، والطول الآية ألفاظ كثيرة ومعان كثيرة ، ربما تكون أكثر من الألفاظ .

(١) البقرة : ١٨٥ ، ١٨٧ .

(٢) البقرة : ٦١ .

وإن الطول لا يبعد عن حلاوة النغم ، وجمال النسق ، وحسن النظم ،
وحلاوته وطلاوته ، ومن الآيات ما يكون قصيراً كما ذكرنا والفواصل
متآخية ، والمعاني متكاملة . اقرأ قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى
قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنا قومك
من بعدك وأضلهم السامرى . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم
ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفضال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم
غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولـكننا
حملنا أوزاراً من زينة القوم ففقدناها فكذلك ألقى السامرى (١) .

وترى أن هذه الآيات بعضها قصار ، والأخير كان منها طويلاً نسبياً ،
لأن فيها عتاباً ، وطبيعة العتاب لا يكون قصيراً ، ولا يكون بالإشارة .

واقرأ قوله تعالى في هذه السورة « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً
فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يقبعون الداعى
لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لا تنفع
الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ، ورضى له قولاً ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون به علماً ؛ وعنت الوجود للحى القيوم ، وقد خاب من
حمل ظلماً (٢) .

ولننسا نجد في الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصار تختص عن
غيرها بأن لها خاصة وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة خير
المتباعدة ، فتكون وقفة يقتضى السكون عندها ، فالجواب عن حال الجبال
وهي أوتاد الأرض وبها تناسك بأمر الله تعالى ، بأن الله تعالى ينسفها نسفاً ،
وفي هذه الوقفة الصامته يتدبر أمر الله في نسف الجبال ، ويتمخيل ذلك ، فيدرك

(١) طه : ٨٣ - ٨٧ .

(٢) طه : ١٠٥ - ١١١ .

قدرة الله تعالى على الإعادة ، ويتدبر الأرض وقد نسفت جبالها ليس بها علو بتضاريس ، ولا انخفاض بجوار علو ، وهكذا تتبع الآيات القصير والوقوف عند آخر كل آية ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تفق لتتدبر وتتفكر ، وتعرف مآلك ، وأنه لا غرابة في أن تعاد الأجساد يوم البعث والنشور .

وإن الآيات الطوال تكون في موضوع يحتاج إلى التدبر في أوله وآخره ، وأخذه جميعاً ، كما رأينا في آيات الأحكام ، وفي بعض القصص الذي يكون التدبر في مجموعه لا في أحاده ، وفيه يتلاحق آخره بأوله ، كما رأينا في النعم التي أفاض الله بها على بني إسرائيل ، وكيف لا قوها بالكفران والعتوتوا كبيراً .

وقد رأينا في الآيات القصار أن كل آية تصاح وحدها لأن تكون موضع تدبر ، بل يلزم فيها التدبر وإن كانت متصلة بما بعدها وثيقة الاتصال .

ولنتل عليك بعض الآيات القصار من ذلك قوله تعالى في سورة ص : كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم صالح ، وأصحاب الأيكة ، وأولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالشعوى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه

وإن كثيراً من الخطاء ليجب بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، (١) .

وهنا نجد الآيات كلها تتلافى معنى العبرة ، وتثبيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأخبار النبيين ، وما كان من أقوامهم معهم ، وذكرت بعض قصة داود عليه السلام ، وما يتعلق بحكمه ، ومتاعبه من الخصوم ، ثم حكمه وخطاه فيه .

هذا كله معنى متلاحق الأجزاء بعضها يتمم بعضه ، ويتكون من الجميع صورة بيانية تستولى على لب الناظر إليها ، والمتفهم لمعناها ولكن في الآيات القصار أجزاء كاملة في ذاتها ، وإن تكون من مجموعها كل كامل غير منقطع فاقرأ من قصة داود عليه السلام أول ما أورد تجد قوله تعالى : واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، فهذه صورة كاملة لنبي من أنبياء الله تعالى ، آتاه الله تعالى السلطان القوى المؤيد الثابت القائم على الحق ، وتلك وحدها صورة بيانية تستدعي التدبر فيها وجاء بها القرآن الكريم مفصلة في الفاصلة عما وراءها لأنها وحدها يجب تدبرها ، لاجتماع الدنيا والدين في رسول رب العالمين فلا يحسن أحد أن الزهد في الفقر والحاجة ، إنما الزهد في العفة حيث تكون القدرة ، ثم جاءت الآية التي تليها مبينة مقدار قوته فقال : **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، فهمى له خاضعة ، ثم الطير محشورة وهكذا كانت الفواصل معلنة أن ما قبلها يدعو إلى تدبره والتفكير فيه .**

وقد تكون في الآية القصار ، آية بين كل آية وأخرى تدعو إلى التفكير بصراحة ، كما دعت فواصل الآيات إلى التدبر ميزات الفاصلة ، اقرأ قوله تعالى في سورة الرحمن :

د الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خالق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، (١) .

هذه نصوص قرآنية من الآيات القصار تجدد كل آية منها تدعو إلى التدبر والتفكير فيما تدعو إليه وما تدل عليه ، وقد كانت الفاصلة منبهة إلى التروى فى معناه ، والتدبر فى مغزاه ، وهى متضامة مع سابقتهما ولا حقتما لتأتى بمعنى كلى جامع ، وصورة بيانية رائعة .

وهكذا تكون آيات القرآن ، وألفاظه وجمله ، وكله إعجاز فى إعجاز تدل على أنه من اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير .

الإعجاز بذكر الغيب

١٣٦ - هذا باب من أبواب الإعجاز ، فيه جزء من القصص ، والجزء الثاني من الأخبار التي يتحدث القرآن فيه عن المستقبل، فالغيب المذكور في القرآن نوعان أحدهما غيب مضي ، وهو جزء القصص ، والثاني عن أمور تقع في المستقبل وكلاهما إعجاز ، أو من دلائل الإعجاز مع البلاغة والبيان ، ومع العلوم القرآنية ، والأحكام التي اشتمل عليها القرآن الكريم .

ووجه الإعجاز في الماضي وقصصه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين عليهم ، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وإرهاق أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ ، وتذوق الكلمات ، والمعاني .

لم يكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها ، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب . والمعرفة في أى باب من أبوابها ، وكانت رحلتنا الصيف والشتاء إلى الشام واليمن تجاريتين ، لاتتصلان بالعلم في أى باب من أبوابه ، ولا منزع من منازعه .

وجاء القرآن الكريم في ذلك الوسط الأمي يذكر لهم أخبار الأنبياء السابقين ، وأحوال أمهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وهم يرون هذه الآثار في الأمم التي تصاقبهم .

جاء القرآن الكريم بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار هؤلاء النبيين ، وقد وافق كثير منهم الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وما اختلفوا فيه عما جاء في القرآن ، فإن الفحص الدقيق يثبت بطلان

تخريفهم ، وصدق القرآن الكريم ، فيما حكاه الله ، فإنه علام الغيوب الذى أحاط بكل شيء علما .

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الإعجاز فقد قل تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله تعالى ذكرها لها : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون (١) فإن هذا النص يشير إلى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وعلى أن ذلك النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية .

وإنه لم تذكر قصة مريم البتة في التوراة ، ولا الإنجيل ولا رسائل الرسل قط ، والقرآن الكريم وحده هو الذى بين اصطفاها ، وفضاها على نساء العالمين .

ويقول الله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ، (٢) .

وفى هذه الآية والتي قبلها إشارة واضحة إلى أن هذا النوع من العلم ما كان معروفا عندهم وما كانوا يتناكرون به .

وقد قال تعالى فى ذلك أيضا : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، (٣) ، فذكر القرآن أدق الأخبار ، وما لا يعلمه أحد إلا الله تعالى .

وكان ذلك القصص الحكيم إخباراً بالغيب ، الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب دليلاً على أنه من عند الله العزيز الحكيم . وموافقته للصحيح من أخبار النبيين دليل على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس حديثاً مفترى وليس أساطير الأولين اكتتبتها ولا يمكن أن تملى عليه . ولا يوجد من يملئها عليه وإذا كانوا قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس فى مكة ، فهو لم يثبت اتصاله به ،

(١) آل عمران : ٤٤ (٢) هود : ٤٩ (٣) يوسف : ١٠٢

ولسانه أعجمي ، وهذا كتاب عربي مبين ، وفوق ذلك ففي القرآن من صادق الأخبار ما لم يكن في كتب أهل الكتاب المسطورة ، ولا يأتيه الباطل فيما يقول .

١٣٧ - هذا الإخبار عن الماضي التي يشتمل عليه القرآن الكريم ، وهي فيما احتوت دليل قاطع على أن القرآن من عند الله ، إذ جاء بها أمي لا يقرأ ، ولا يكتب ، كما قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبتلون » (١) .

وأما الإخبار عن أمور وقعت في المستقبل كما أخبر القرآن الكريم ، وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير ، الذي لا يغيب عن علمه شيء في السماء ولا في الأرض فهو كثير .

ومن ذلك إخبار القرآن عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين » (٢) .

وقد حدث ما أخبر به القرآن ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب ، وعرف سبب الغلب ، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم كتاب ، وعلوا الفرس ، وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد مآلهة الخسران وشأنهم في ذلك هو شأن الذين يبنون عليهم على الأوهام ، وتخيل ما يحبون .

ومن ذلك أيضاً ما كان قبيل غزوة بدر الكبرى إذ يقول سبحانه : « وإذ يعدكم الله لإحدى العاتقتين أنها لكم ، وتؤدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » (٣) ، لقد خرجت قريش بعيرها الذي كانت فيه ثروة قريش كلها ،

(٢) الروم : ١ - ٤

(١) العنكبوت : ٤٨

(٣) الأنفال : ٧

وأراد المؤمنون أن يترصدوا مضايقة للكفار، وأن يأخذوها نظير ما أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم، ولكن أباسفيان التوى عن طريق يثرب، ونجا بالعين، وكان طلب إلى قريش أن ترسل جيشاً يحمي غيرها، ويغزو موطن الخطر، فكانت المعركة، فهم أرادوا ابتداء العير، وليست ذات الشوكة، وأراد الله تعالى الجيش، وكان ذات الشوكة.

وما كانوا يتوقعون النصر على المشركين، ولكنهم حارب الفداء للعقيدة، لا ينظر فيها إلى الاستيلاء، بل ينظر فيها إلى الاستشهاد، ولكن الله تعالى أخبرهم بالنتيجة قبل وقوعها، فقال تعاليت قدرته: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»^(١) فكان هذا إخباراً بمنغيب لم يكن إلا في علم الله تعالى.

ومن ذلك إخباره عن اليهود بقوله تعالى «يود أحدهم لويعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر»^(٢).

ويقول تعالى عن المشركين إنهم عاجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(٣)، وقوله تعالى: «فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة»^(٤).

وهكذا تجدد في القرآن إخباراً عن أمور قابلة، وتوقع كما أخبر، وصدق في ذلك كله، وذلك لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصي أو الحدسي، فإن ذلك يصدق أحياناً، ويكذب أحياناً، والامر هنا كله صدق لا تخالف فيه وكان دليلاً على أنه من عند الله العليم الخبير اللطيف البصير، وأودعه كتابه الكريم.

(١) القمر: ٤٥

(٢) البقرة: ٩٦

(٣) الإسراء: ٨٨

(٤) البقرة: ٢٤

٦ - جدل القرآن واستدلالة

١٣٨ - القرآن كل ما فيه معجز ، فأبجازه معجز ، وإظنا به معجز ، وألفاظه معجزة ، وأساليبه معجزة ، ونغماته ونظمه وفواصله ، كل هذا معجز ، واستدلالة وجدله وبيانه لا يصل إلى درجته نوع من الكلام ، وقد ساق الإمام الباقلاني طائفة من خطب العرب ، وأهل اللسن، وأهل الإيمان طائفة من أبلغها وأقواها ، ووازن بينها وبين إلزام القرآن وإقتناعه واستدلالة ، فوجد أن الموازنة غير لائقة بذات القرآن ، والفرق بين القرآن ، وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة ، والفرق بينها وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق ، وكلام المخلوق .

ولعله من الخير أن ننقل تلك الخطبة التي اعتبرها الباقلاني من أعلى ما عرف من بليغ القول ، وهي رثاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لخليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

د لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء علي با كياً متوجعاً ، وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة .

رحمك الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم إسلاماً وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الإسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ،

وأشبههم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سنناً وهدياً ورحمة وفضلاً ،
وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده .

فجراك الله عن الإسلام ورسوله خير أكنت عنده بمنزلة السمع والبصر
صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك في تنزيله صديقاً ، فقال والذي
جاء بالصدق ، واسيته حين بخلوا ، وقت معه عند المكاره حين قعدوا ، وصحبته
في الشدائد أكرم الصحبة ، ثاني اثنين ، وصاحبه في الغار ، والمنزل عليه السكينة
والوقار ، ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة
حين ارتد الناس ، فهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ،
وقويت حين ضعفوا ، وقت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تمتعوا (١)
مضيت بنور إذ وقفوا ، وانبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقاً ، وأطولهم
صمتاً ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملاً
كنت للدين يعسوباً (٢) . أرواحين نفر عنه الناس ، وأخيراً حين قفلوا (٣)
وكنت للؤمنين أباً رحيماً ، إذ صاروا عليك عيالاً ، فحملت أثقال ما ضعفوا
عنه ، ورعيت ما أهملوا . وحفظت ما أضاعوا ، شمرت إذ خنعوا ،
وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ،
وراجعوا ارشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحسبوا .

وكنت كما قال رسول الله أمن الناس عليه في صحبتك ، وذات يدك ،
وكنت كما قال ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك
عظماً عند الله ، جليلاً في أعين الناس كبيراً في أنفسهم .

لم يكن لأحد فيك منمن ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هواة

(١) التمتع : في الكلام التردد من حصر أوعى

(٢) اليسوب : الرئيس المقدم

(٣) رجعوا

الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء أقرب الناس إليك ، أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ، وأمرك حلم وحزم ، رأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الإيمان ، وظهر أمر الله ، ولو كره الكافرون ، وأنعتب من بعدك إلتعابا شديدا ، وفزت بالخير فوزاً عظيما ، لجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك فى السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإننا لله ، وإننا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره . فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثلك أبداً ، فألحقك الله تعالى بنبيه ، ولا حرمانا أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

وسكت الناس ، حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم .

١٣٤ - هذه خطبة من عيون البيان العربى ، بل لعلمها أبلغ خطبة بعد خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن إن وضعناها بجوار القرآن أفلت ، كما تحتفى النجوم إذا طلعت الشمس ، وأصبحت لا تساوى بجوار القرآن شيئاً ، وإن الذين يسيئون إلى كل كلام بليغ مهما تسكن درجته هم الذين يضعونه بجوار القرآن ، وأنى يكون كلام بجوار كلام خالق البشر وأنى يكون كلام ابن الأرض بجوار كلام الله فى اللوح المحفوظ .

وإننا مهما نحاول تعرف أمرار البلاغة فى القرآن ، فلن نصل إلى كلام محكم ، كمن يحاول معرفة الروح فهى من أمر الله تعالى تعرف مظاهر الحياة منها ، ولكن لا نعرف كنهها ، فنحن نعلم علو القرآن ، وإعجازه وامتيازه ، وأنه لا يحاكى ، ولكن لا نستطيع أن نعرف سر هذه الروعة التى يحسها كل قارى مدرك .

ولعل من التوفيق للباقلاني أن جاء بأبلغ كلام ووضع بحوار كلامه سبحانه، فبدأ بحواره هزئياً، مهما تكن درجته في البيان وذلك أمر ظاهر، لم يجيء الإعجاز بصرف، ولكن بإدراك المقام البلاغي للقرآن وإن لم يعرف السر كاملاً.

ونعود إلى ذات الخطبة نجد ما صادقة كل الصدق في وصف أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنها وصلت إلى أقصى الغاية في مناقبه، وفي مقامه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي موافقه في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وموافقته إذ انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، فقد أفتد الإسلام عند الصدمة الأولى، وهي حالة الردة.

والخطبة العلوية هذه في وصف للحاكم العادل، كيف يكون رحيماً برعيته مصدر أمن، لا مصدر إزعاج، متضامناً لهم قريباً من أنفسهم، لا يطمع القوى في حيفه، ولا يبش الضعيف من عدله.

وقد ذكرنا هذه الخطبة أيضاً المشير إلى التنايع البيانية التي استقى منها القول في إعجاز القرآن، وهي أساس لكل كلام محكم.

ومن معرفة بلاغة القول أن نعرف المواضع التي بنى عليها الاستدلال. ونحن هنا نريد ابتداءً أن نتعرف المنهاج القرآني للاستدلال، والأصول التي بنى عليها استدلاله في نظرنا القصير وإن كان في كل ما يتعلق بالبيان عز عن المثيل ولا يمكن أن يكون له مثيل.

١٣٥ - وإن رجال البيان في بيان مناهج الخطب واستدلالها يتكلمون في التنايع التي يستقى منها الخطيب أدلته أو براهينه، ونحن مع إقرارنا بأن منهاج القرآن أعلى من الخطابة، كما هو أعلى من الشعر ومن السجع، نرى أن نستعير من علماء البلاغة كلاماً في مصادر الاستدلال، ونريد أن نتعرف المصادر الذاتية التي بنى القرآن الكريم استدلاله عليها، وإن كان مقامه

أعلى وأعظم ، وهو معجز في ذاته ، وليس ككلام البشر ، وإن بنى على حروف البشر وألفاظهم ، ومن جنس كلامهم .

ويقولون إن الاستدلال الذى يستمد من مصادر ذاتية ، أى تؤخذ من ذات الموضوع ، وهى أشبه بالبرهان المنطقي ، وإن كانت أعلى ، هى ستة مواضع أو يناهض أو لها التعريف أى معرفة الماهية وثانيها ، التجزئة بذكر أجزاء الموضوع ، وثالثها التعميم ثم التخصيص ، ورابعها العلة والمعلول ، وخامسها ، المقابلة ، وسادسها التشبيه وضرب الأمثال .

١ - الاستدلال بالتعريف :

١٣٦ - الاستدلال بالتعريف بأن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى بأن يؤخذ مثلاً من حقيقة الأصنام دليلاً على أنها لا تصلح أن تكون معبوداً ، ومن بيان صفات الله تعالى دليلاً على أن يكون وحده المستحق للعبادة ، وإذا كان موضوع القول هو الذات العلية تقدست أسماء الله ، فإنه يكون الاستدلال على ألوهيته سبحانه ، ببيان صفاته ، وخلقها للسكون صغيره وكبيره ، ولا تعرف الذات العلية إلا بصفاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى** يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وحنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا الله شركاء

الجن، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون، (١).

ونجد في هذا الكلام إثباتاً لوحدايته سبحانه وتعالى، وأنه وحده المعبود بحق، وأنه لا إله إلا هو، وكان طريق الإثبات هو بيان خلقه وتنوعه، وأنه وحده الخالق لكل شيء، وإذا كان الله تعالى هو الخالق وحده فهو الإله وحده، وكان التعريف بالله تعالى هو السبيل لإثبات الربوبية له سبحانه، وقد عرف سبحانه وتعالى بصفاته وأثره سبحانه في الوجود، لأن الله تعالى لا يعرف إلا بصفاته وآثاره في الخلق والتسكوت، لأن معرفة حقيقة ذاته سبحانه وتعالى غير ممكنة في هذه الدنيا، وإن الذي نعرفه أنه سبحانه وتعالى منزّه عن مشابهة الحوادث، فليس كمثل شيء وهو السميع البصير.

وما يدل على عظمة الخالق، واستحقاقه للعبودية، وقدرته على البعث والنشور التعريف بالمخلوق، وخصوصاً الإنسان، ومن ذلك قوله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خالقنا النطفة علقه، فخلقنا العلقه مضغاً، فخلقنا المضغ عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق، وما كنا عن الخلق غافلين، (٢).

ومن هذا نرى أن التعريف بالإنسان في خلقه ابتداء دليل على بعثه انتهاء، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى: ذكر أنه خلقه علقه ومن العلقه مضغاً ومن المضغ عظاماً، ثم كساها لحماً، ثم أمانها، ومن الطبيعي أن يكون قادراً على الإحياء، لأن الإنشاء على غير الله أصعب من الإعادة، ولا صعوبة على الله تعالى، في إنشاء، ولا إعادة.

(١) الأنعام: ٩٥ - ١٠٠

(٢) المؤمنون: ١٢ - ١٧

ومن تعريف بعض المحرمات يستبين تحريمها ، والأمر القاطع بالتحريم ،
ومن ذلك قوله تعالى في تحريم الخمر : د يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر
والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجنبوه لعليكم تفلحون ،
إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ،
ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله ،
وأطيعوا الرسول ، واحذروا فإن توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ
المبين ، (١) .

ونرى من هذا أن التحريم الثابت بالنص ذكر أوصاف الخمر وبيان
ذاتها وما يترتب عليها ، لمعرفة حكمة تحريمها ، فذكر تعريفها بالحد والرسم
أما التعريف بالحد فبيان ذاتها بأنها مع أخواتها من الميسر ، والذبح على النصب ،
هو التعريف بالحد ، وهو ذكر الذات ، بذكر جنسها وفصلها ، وأما
فذكر هذا التعريف بالرسم ، فهو ذكر ما يترتب على الشرب من وقوع العداوة
والبغضاء والصد عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى . فهي طو لتزجية الفراغ
بما فيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والانغمار في اللهو والفساد .

٢ - الاستدلال بالتجزة :

١٣٧ - أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتبعية يكون إثبات الدعوى ،
ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبديهة الذي لا مجال للريب فيه الحكم بأن الأثر
يدل على المؤثر ، وأن الكون يدل على خالقه ، وأن القوى البشرية والعقول
المستقيمة تقرر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة ، وهي قوة
الله سبحانه وتعالى .

وقد كان القرآن يذكر ذلك في آياته الحكيمة أحيانا مجزءاً وأحيانا غير
مجزءاً ، ومن الاستدلال بالتجربة قوله تعالى : د قل الحمد لله ، وسلام على عباده

الذين اصطفى ، آله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً إلا مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعل لكم خلفاء الأرض إلا مع الله قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إلا مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض إلا مع الله ، قل ها أتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، (١) .

ونرى من هذا كيف كانت التجزئة في مادة الاستدلال ، وإن لم تكن الأجزاء كلها مستوفاة مستقراء ، وإنه من منهاج الاستدلال يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلاً على أن الله وحده هو المفضى للسكون ، والمدير له ، والقائم على كل شيء ، ولذلك قرن السياق في كل جزء نفى أن يكون إله غير الله معه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

ومن التجزئة أيضاً في الاستدلال قوله تعالى : ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ، ففلقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجراً سبلاً لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ،

واللينا ترجعون، (١).

ونجد هنا في هذه الآية الكريمة تجزئة في الاستدلال بحيث يعتبر كل جزء دليلاً قائماً بذاته ، ومن مجموعته دليل كلي على أن كل صغير أو كبير من خلق الله تعالى ، وأنها دليل على وجوده سبحانه وتعالى .

٣ - التعميم ثم التخصيص :

١٣٨ - التعميم أن تذكر قضية عامة ، وتؤدي إلى إثبات الدعوى بإجمالها ، ثم يتعرض المستدل إلى جزئيات القضية ، فيبرهن على أن كل جزئى منها يؤدي إلى إثبات الدعوى المطلوب إثباتها ، أو أنها في مجموعها تؤدي إلى إثبات الدعوى .

وبما سبق ذكره يتبين صدق الدعاوى العامة التي هي صلب الدين ، وهي التوحيد ، وأنه يجب إطاعة الرسول ، وأنه لا خضوع إلا لله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى في المجاورة بين موسى وفرعون : « قال فن رابك يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبيلاً ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، » . (٢)

ونرى من هذه القضية العامة الكاملة التي تذكر بجوار الله سبحانه وتعالى وهي التي بها يعرف الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شيء فأحسن خلقه وهو الهادى ، فقال سبحانه كلمة جامعة كاشفة لمعنى الربوبية ، ومع الربوبية العبادة ، وكال الألوهية ، فقال الله تعالى على لسان موسى « ربنا الذى أعطى كل شيء

(١) الأنبياء : ٢٩ - ٣٥ .

(٢) طه : ٤٩ - ٥٥ .

خلقه ثم هدى ، فهو سبحانه وتعالى مانح كل شئ في هذا الكون الوجود ، وهو مانح الهداية لمن اهتدى .

ثم أخذ القرآن الكريم بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلية في هذا وذكر من هذه الجزئيات ما ينبه فرعون وأهل مصر وهم أهل زرع وضرع وختم النص الكريم بما يناسبهم ، وهو نعمة للجميع : « كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى » .

٤- العلة والمعلول :

١٤٩ - أساس الاستدلال الربط بين القضايا التي تصور أجزاء الحقائق في هذا الوجود ، بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شئ آخر ، وبمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال ، وذلك بأن يكون أحدهما علة الآخر ، وإذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ، وهما متلازمان من الناحية العقلية ، أو على حسب مجرى الأمور ، وإذا ذكر المعلول ، كان كاشفاً لعلته لأن ذكر النتائج مع إحدى المقدمتين للدليل يدل على المقدمة الثانية ، ولأن المقدمات تطوى فيها ، فإذا ذكر تحريم الخمر ، وحاول العقل أن يتعرف سبب التحريم يستطيع تكشفه من أوصاف الخمر ، فإذا عرف الوصف المناسب للتحريم استيقن أنه السبب ، وهو يكون وصفاً لا يشاركها فيه غيره من المباحات وفي القرآن كثير ، يكون فيه التعليل جزءاً من الدليل الذي يسوقه القرآن الكريم بتنزيل من العزيز الحكيم ، ولنتل آية إباحة القتال ، فإن فيها السبب الذي يبرره ، والدليل الذي يوجبه ، اتل قوله تعالى :

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تمعدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وفاتلوهم حتى

لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (١) .

ولأننا نجد في سياق هذا النص القرآني الكريم أن السبب الذي برر أمر الله تعالى بالقتال أمران أحدهما الاعتداء ، وثانيهما فتنة المؤمنين في دينهم فإذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرر للقتال ، ثم هذا الاعتداء ، وتلك الفتنة دليل الوجوب وكذلك نجد الأمر في الإذن بالقتال إذ كان دليلاً والمبرر له هو الاعتداء ، ولذلك قال تعالى :

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور» (٢).

ونرى في هذه الآيات الكريمة أن العلة الموجبة هي الاعتداء وإخراج المؤمنين مفتونين في أنفسهم وأموالهم ، ثم قامت المعلولات الغائية المترتبة على السكوت ، وعدم دفع المعتدين أن يعم الفساد ويسود الشر ، فلو لا هذا الدفاع لفسدت الأرض ، وهدمت المعابد ، ولم تقم الشعائر ، فاتخذ من هذه النتائج المترتبة على ترك المشركين يعيشون مبررة لمقاومتهم ، وموجبة لحربهم ، فكان هذا من قبيل الاستدلال بالنتائج وهي الغايات الواقعية دليلاً على الوجوب وإن هذه الآيات الكريمة صور سامية لما سنه الإسلام من سنة تتفق مع الطبيعة الإنسانية ، وهو إزالة الشر بالعقاب الشديد ومقاومته ، لأن الفضيلة في الإسلامية ليست سلبية ، ولكنها إيجابية بين سبحانه على السبيل الإيجابي

(١) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣

(٢) الحج : ٣٩ - ٤١

رد الرذيلة ودفع شرها ومقاومته ، فكان الاعتداء على الفضيلة سبباً موجباً للقتال ، والقتال في سبيلها جهاد مثنوب .

٥ - المقابلة :

١٤٠ - إن المقابلة بين شيئين أو أمرين ، أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين ، وإذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ، وقد كان ذلك النوع من يناهض الاستدلال كثير آفي القرآن الكريم ، لأن المشركين كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات الله تعالى خلقها ، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيراً في الإيجاد ، أو في الشر يمنع ، أو الخير يجلب ، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان ما زعموا ، ومن ذلك قوله تعالى :

«أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم» (١)

هذا هو النص الكريم ، وفيه مقابلة بين المعبود بحق ، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات ، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ايقولن الله» (٢) ، وهم يعلمون أن الأحجار التي يعبدونها صنعت بأيديهم ولم تخلق شيئاً ، فالقرآن من هذه المقابلة يأتي بدليل يلزمهم ويفضحهم ، إن استقامت القلوب ، وإن الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعت الألوهية للخالق جللت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدي العباد ، وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج إليه كل ما في الوجود ، والمصنوع بأيدي العباد لا ينفع ولا يضر ، فالله وحده هو الإله الحق الذي لا يعبد سواه ، لأنه لا يحتاج لأحد ويحتاج إليه كل أحد «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد» (٣) .

(١) النحل : ١٧ - ١٨

(٢) لقمان : ٢٥

(٣) الإخلاص .

ومن المقابلة التي كانت ينبوعاً للاستدلال قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فدشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ، (١) » .

وإن هذا الاستدلال قائم على المقابلة ، فكانت المقابلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ومن هو القهار القادر على كل شيء وهو الواحد الأحد الذي لا يشبهه أحد ، وكان المقابلة بين الأعمى والبصير ، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق ، والبصير من يدركها ، وبين الظلمة التي تعتم النفس ، والنور الذي يشرق به القلب ، ومن يخلق ومن لا يخلق وهذه المقابلات يناهض الإدراك الموجه المسترشد ، والظلام المعتم المحير .

وإن هذه المقابلات تصلح دليلاً مثبتاً في عدة دعوى ، ويكون في المقابلات الحكم الفصل الهادي المرشد .

ففي الدعوى الأولى ادعاء المساواة بين من يملك كل شيء ومن لا يملك لنفسه النفع والضر ، والحكم الذي ينتج الدليل أنهما ليسا متساويين ، وإذا كانت دعوى المساواة في الألوهية باطلة ، فالحكم بالنفي ، والإله هو الله وحده الذي يملك كل شيء وفي الدعوى الثانية في التسوية بين من أدرك الحق ، واهتدى ومن ضل وغوى ، والآخر كالأعمى ، والأول كالبصير ، فأيهما يهتدى إلى الطريق السوي ، ولا شك أن الحكم أن الخير في المبصر المهتدى ، وليس في الضال المرتدى ، فالفضل لأهل التقوى ولو كانوا ضعفاء يستضعفهم الناس .

وفي الدعوى الثالثة ادعاء الاشتراك في الخلق والتكوين بالزعم لا بالحقيقة

وهذه باطلة بل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، وبذلك يتحقق الحكم فيما هو صادق واقع ، لا فيما هو مزعوم مختلق .

ومن المقابلات القرآنية التي دلت على البعث ، وكان فيها رد على أوهام الكافرين قوله تعالى :

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، ولم يعى بمخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ،^(١) .

ونرى هنا استدلالا على أن البعث ممكن في ذاته ، والتصديق به واجب ، لأن الله تعالى أخبر به على لسان نبيه الكريم وفي كتابه المسكنون ، إذ جاء به القرآن الكريم ، ودعا إليه محمد الأمين .

وكان الاستدلال بطريق المقابلة ، وكانت المقابلة بين إنشاء الإحياء ابتداء والخلق والتكوين من غير سابق ، وإن القدرة فيه كانت ، ولم يعى بمخلقهن ، وبين الإعادة للأجسام التي خلقت ثم صارت رميا ، وإنه إذا كانت قد وجدت ، فالثانية قد تجيء ، وهي تجيء إذ أخبر بها العزيز الحميد القادر على كل شيء .

وإنه بهذه المقابلة ، بين الإنشاء والإعادة ، وبين الخلق من غير أصل سابق ، والإعادة ينتهى به ذر العقل الرشيد إلى الحكم بأن البعث ممكن في ذاته ، وأنه واجب الاعتقاد لأن الله تعالى أخبر به ، وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لنى خلق جديد^(٢) .

ومن الآيات الدالة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، واعتمدت الدلالة

(١) الأحقاف : ٣٣ - ٣٤

(٢) الرعد : ٥

فيها على المقابلة قوله تعالى : ونحن خلقناكم ، فلولا تصدقون ، أفرايتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرايتم ما تحرثون ، أنتم تزرعون أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناهم حطاما فظلمتم أنفسكم ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرمون ، أفرايتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناهم أجاجا فلولا تشكرون ، أفرايتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسيح باسم ربك العظيم ، (١).

ونجد من هذه المقابلات بين إنشاء الخالق وعجز الإنسان ما يدل على أنه هو الذي خلق فهمي ، وأنه العليم بما خلق ، وأنه بهذا المستحق للعبادة وحده ، وأنه ليس كمثل شيء وأنه الواحد الأحد

٦ - الاستدلال بالتشبيه والأمثال :

١٤١ - من يتابع الاستدلال في القرآن التي تثبت قدرة الله تعالى ، وصدق ما يطلب الدين الحق ، وما أتى به القرآن التشبيه وضرب الأمثال ، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق عن طريقه ، وضرب الأمثال باب من أبواب التشبيه ، وهي تضرب كما ذكرنا في باب التشبيه لتقريب الحقائق العليا ، ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يقربه من القريب المحسوس ، ولتوضيح المعاني الكلية بالمشاهد الجزئية ، وللإستدلال بحال الحاضر على الغائب .

ومن ذلك قوله تعالى الذي ذكر فيه أن المثل يكون لبيان الحقائق ، سواء أكان بالصغير أم كان بالكبير ، فقد قال تعالى :

(١) الواقعة : ٥٧ - ٧٤

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ، » (١) .

وفي هذا النص يثبت الله تعالى أنه سبحانه يقرب الحقائق الثابتة بالأمثال ، ويأتي بالدليل من بيان الأشياء ، واستخراج خواصها ، والإثبات بالأدلة عن طريقها ، وإن الناس في تلقى هذه الأدلة فربما ، فريق آتاه الله قلباً نيراً يصفى إلى الحق ، ويأخذ به ، ومنهم من أصاب العناد قلبه ، فإذا قوى الدليل ، فإنه يزيد إصراراً ، وإمعاناً في الضلال ، فيوغل فيه ، وهذا معنى قوله تعالى « يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ، » .

فهذا النص يفيد أن الله تعالى في القرآن الكريم يتخذ من الأمثال تبييناً للحقائق ، وتثبيتاً ، وإقامة للدليل بها .

وافراً قوله تعالى مثلاً في بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق ، وقدرته تعالى على كل شيء ، فقد قال تعالى :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، » (٢) .

انظر إلى الدليل القاطع الذي يثبت بطلان الوثنية ، وقيم الدليل على الوحدانية ، فإن الأوثان ، ومن يتبعونها ، ولو تضافرت كل القوى معها .

(١) آية : ٢٦

(٢) الحج : ٢٣ - ٢٤

لا يمكن أن يخلقوا ذباباً ذلك الطير الضعيف أو تلك الحشرة الضئيلة التي يستحقرونها ، ولو أن الذباب سلب منهم شيئاً ، لو اجتمعوا مع أوثانهم على أن يستردوه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وهم والذباب سواء في الضعف وإن بدوا أقوياء ، وهذا أضعف خلق الله تعالى في زعمهم ، فكيف يكون للذين يدعونهم آلهة أمام قوة الله ، وكيف يعبدونهم معه ، وهم لا وجود لهم ولمن يعبدونهم بجواره سبحانه وتعالى علواً كبيراً ، فهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلاً قوياً ، إن كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وإن كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم الدليل إلا كفراً .

ومن الأمثلة الموضحة التي تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الإنسان إزاء قدرة الله تعالى قوله سبحانه :

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كنا الجنتين آتت أكلاما ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالها نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته ، وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، لكننا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربى أن يؤتينا خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا من السماء ، فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً ، فلن تستطيع له طلباً ، وأحيط بشمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً ، هنالك الولاية

لله الحق ، هو خير ثواباً ، وخير عقبا ،^(١).

وهذا المثل الواقعي التصوري فيه دليل على إثبات حقيقتين — أولاهما أن المغتر دائماً يدلى به غروره إلى أنه يحكم على المستقبل بما هو عليه في الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبيء عن المستقبل وغره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو ، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل ، وخيب الأمل وكشف الحقيقة .

الحقيقة الثانية لإثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المالك للأمور كلها في ماضيها ومستقبلها وشاهدتها ، وغائبها . فكان المثل دليلاً على وباء الغرور ، وأن الأمر لله وحده .

ومن الأمثال الموجهة إلى الحقائق الخلقية والدينية قوله تعالى في سورة ن إنا بلوناكم ، كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ، إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أولئك لهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ،^(٢).

سبقت قصة أصحاب الجنة النبوية ، وهي قصة واقعية تصورية ، وهي دليل مثبت — أولاً — لأن الزكاة تطهر المال وتحميه لقوله تعالى وخذ من

(١) الكهف : ٢٢ — ٤٤

(٢) ن : القلم ١٧ — ٣٣

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم، بها فهمي للمال نظافة ونماء - وهم قد أقسموا ليصر منها مصبحين ، وأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وثبت ثانياً - أن العاقبة الحسنة تؤثر في النفس إن كان فيها قابلية للمداية، وهو لاء إذا كانت قد ضاعت منهم الثمرات ، فقد عادت إليهم بأعظم العظات ، فما كسبوه من عظة أكثر مما فقدوه من ثمرة ، وثمرات القلوب أطيب من ثمرات تشتهى الأبدان طعمها ، وهي دليل على أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأن الأقدار تحت سلطانه ، ويجريها ، كما يحب وكما يشاء .

ومن الأمثلة التي تساق مساق الدليل قوله تعالى: «ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهرأ ، هل يستوون الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم» (١) .

والآيات قبل ضرب هذين المثلين كانت في الأمر بعبادة الله تعالى وحده والاختبار عن عبادة المشركين من لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرأ ، إذ يقول سبحانه ، ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون (٢) ، فجاء سبحانه وتعالى بهذين المثلين ، وهما يبطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمنلة تقع في الحياة ، والحكم فيها من البدهيات التي لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فمكر عن فمكر ، وكل مثل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، إذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوى .

أما أولهما فقد ضرب برجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شيء ، لأنه

(١) النحل : ٧٥ - ٧٦ .

(٢) النحل : ٧٣

ملوك لغيره ، فهو ليس له مال ، فهل يستوى هذا مع رجل مرزوق من الله تعالى رزقاً حسناً ، إن التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره ، أو ينفق منه في الخير صراً وجهراً ، وبين المملوك الذى لا مال له إذا كانت التسوية غير معقولة فتسوية أولئك المشركين بين الأحرار التى لا تضر ولا تنفع في عبادتها مع الله تعالى الرزاق ذى القوة المتين المالك لكل شئ الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ، وذلك برهان قوى على بطلان الشرك كله ، سواء أ كان لإشراك حيوان أو إنسان أم كان لإشراك حجر .

وثانى المثليين أن الله يضرب مثلاً برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ ، وهو كل على مال كـه أو ذى قرابة له يتولى أمره ولا يتجه إلى جهة ويأتى فيها بخير ، بل إن الطرقات مسدودة أمامه إما من جوارحه المثوفة الناقصة فهل يستوى مع رجل موهوب فى عقله وخلقه ، وكيانه الإنسانى والنفسى يسلك الصراط المستقيم بأمر العدل ، ولا يحيد عن سبيله ، فهما إذن بالبداهة لا يستويان .

وإذا كان هذان الرجلان لا يستويان بداهة ، فأولى ألا تتساوى فى العبادة الأحجار مع خالق الكون ، وهادى الخلق ، ومأنح النعم ومجريها رب العالمين .

ومن الأمثلة التى تدل على أن العبادة الخاصة لا تكون إلا لله تعالى وحده ، وأنها بغير ذلك لا تكون عبادة - قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سليماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »^(١) إن هذا المثل التصويرى فيه دلالة على صدق التوحيد ، وفساد الشرك ؛ فإنه سبحانه وتعالى جعل الفرق بين التوحيد والشرك كالفرق بين رجل مملوك لعدة أشخاص هم مختلفون فيه كل يريد أن يختص

بأ كبر حظمنه ، وأن يكلف أقل قدر فيه ؛ وهو في ذاته ضائع بينهما نفسياً ومادياً لا يدري أيهما يطالبه بحقه ؛ فهو ضائع لاحتالة ؛ وهو لا يحس بأمن في هذه الملكية المتنازعة ، وذلك مثل من يعبد آلهة مختلفة تكون نفسه جائرة باثرة غير مستقرة . ولا مطمئنة ، فليست كآلهها ، مع رجل مسلماً خالصاً لرجل لا يشاكسه أحد فيه ، وهو مستقر يعرف من يخدمه ومن يعتمد عليه ، ومن فوض أمره إليه ، وذلك مثل من يعبد الله تعالى وحده ، فإن من يعبد الله وحده تطمئن نفسه ، ويجد المأوى ، ويجد الملجأ والمعاذ ، وذلك مثل ، تهتدى به النفوس الشاردة .

ومن الأمثال التي ساقها القرآن الكريم للاستدلال بها على البعث والنشور ، والإماتة والإحياء قوله تعالى : « أو كالذي مر على قرية ، وهي خاوية على عروشها ، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمراك ؛ ولنجعلك آية للناس ؛ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير (١) » .

إن هذه قصة واقعية ؛ وليس في سياق القول بما يدل على أنها تصويرية ؛ والأصل أن تكون حقيقية فلا بد أن أجزاءها قصة واقعة ، وليست مجرد مثل تصويري وهذه القصة معها دليل واقعي على البعث والنشور ، وأنه في قدرة الله تعالى إعادة الموتى فن أنشأ الكون يحيي الموتى ، وأنما سنموت كما ننام ، ونبعث كما نستيقظ ، فهو مثل واقعي ، لبيان كيف يحيي الله ؛ فقد مات الرجل مائة عام ؛ ثم أحياه الله ؛ ورأى طعامه لم يتغير ؛ ورأى حمارة حتى حسب أنه نام يوماً أو بعض يوم ؛ والله على كل شيء قدير .

أسلوب جدل القرآن

١٤٢ - ذكرنا فيما أسلفنا من قول بعض ماسلكه القرآن ، وما يعتمد إليه من استدلال وما يتخذونه من يتابع ، وقد كانت لإثبات الحقائق في العقيدة والأحكام وما يقربها به إلى العقول حتى لا يكون موضع ارتياب لمرتاب ، يزيل الريب بالحقائق ، ويدد الأوهام بالأدلة التي تنبه إلى حقائق الوجود . وما كان ذلك للجدل مع المخالفين من مشركين وأهل كتاب فقط ، بل كان لإثبات الحقائق في ذاتها ، من غير حاجة مع منكر ، ولا مجادلة مع جاحد ، والآن نتكلم في جدله مع المجادلين ، رقطعه الطريق على الجاحدين . وقبل ذلك نتكلم في مقام الاستدلال القرآني ، سواء أكان في مقام تثبيت وبيان أم في مقام جدل مع قوم خصمين .

ولقد لاحظنا في أدلة القرآن أنها قريبة التناول في الإدراك لسلك الناس يفهمها الخاصة ويفهمها العامة ، وإن تفاوت الفهم بمقدار الإدراك ، وسعة الأفق ، وهي واضحة للجميع ، ولقد قرر ذلك ابن رشد الفيلسوف الفقيه في كتابه فصل المقال ، فقد قسم الطرق لإثبات صدق القضايا والتصديق بها إلى عامة لأكثر الناس بحيث يكون التصديق بها من كل الناس ما داموا قد سلمت عقولهم من الآفات ، ومنها ما هي خاصة بأقل الناس وهي البرهانية ، وجعل الأدلة التي تعم الناس الأدلة الخطابية وتقوم على إثبات الحق بأدلة قطعية ، أو أدلة ظنية ، ولكن بكثير منها ومقارنتها ، وإثارة الخيال يجعل السامعين يقتنعون ، ويجزمون ، وإذا كانت الأدلة في ذاتها مجردة عما أحيط بها من عرض ، وأسلوب بياني وإبقاء مؤثر ، وإثارة للأخيلة الموجهة ، تكون ظنية ، ولكن آثارها قطعية ، كما نرى في آثار البلاغ من الخطباء ، والخطابية أعم أنواع الاستدلال في البيان ، وأكثرها إنتاجاً ، ودونها

في العموم الجدلية ، وهي ما يكون الاستدلال مأخوذاً مما يسوقه الخصم من الحجج ، وهي تعتمد على قوة الاستدلال على الخصم ، ولأن الفاج على الخصوم لا يكون أمراً مستوراً ، بل يكون أمراً له صفة الشياخ بين الناس ، ولأنه مأخوذ بحجج المخالف كان مع عمومه وشيوعه أقل من الاستدلال الخطابى الذى يقوم على إثبات الحقائق من غير تقييد بحجة خصم .

والحجة الخاصة بأقل الناس عند ابن رشد ما يلزم فيه المتكلم بالأقيسة البرهانية ، ذلك لأن هذه الأقيسة مجردة خالية من كل تحسين ، وليست متجهة إلى الإقناع وطرائقه من مشاركة وجدانية ، ومن إثارة للمشاعر ، ومن اتجاه إلى ما يأمنون من أمور وإن التجرد كله لا يكون إلا للخاصة الذين يتجهون إلى الحقائق من أى تأثير .

ويقول ابن رشد بعد أن أشار إلى الأدلة الخطابية والجدلية والبرهان .
ولأن أكثر الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتبنيه الخاصة كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف : أن تكون مع أنها مشركة خاصة بالأميرين جميعاً أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة ومضمونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن قصدت أنفسها دون مثالها ، وهذا الصنف من الأقوال الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد لها أو المتأول لها كافر ، والصنف الثانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مضمونة يقينية . وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد إتناجها ، وهذا يتطرق إليه التأويل ، والثالث عكس هذا وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد إتناجها نفسها ، وتكون المقدمات مشهورة أو مضمونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية ، وهذه أيضاً لا يتطرق إليها تأويل أعنى نتائجها وقد يتطرق لمقدماته والرابع أن تكون مقدماته مشهورة أو مضمونة من غير أن تعرض لها أن

تكون يقينية حملها وتكون نتائجها مثالات لما قصد إنتاجه وهذه فرض الخواص فيما التأويل، وفرض الجمهور على ظاهرها، وبالجملة فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ففرض فيه، وهو ذلك التأويل، وفرض الجمهور هو جماعها على ظاهرها في الوجهين جميعاً، أعنى في التصوير والتصديق، إذا كان ليس في طباعهم أكثر من ذلك، وقد يعرض للنظار في الشريعة وأويلات من قبل الطرق المشتركة بعضها على بعض في التصديق.

وإن كلام ابن رشد هو في مقام الأدلة القرآنية من حيث التصور المنطقي والتصديق وما يترتب على قوة الاستدلال من حيث قبول الحكم الشرعي أو الاعتقادي للتأويل، وعدم التأويل ومن حيث قبول الاعتقاد للنظر أو عدم قبوله.

وخلاصة ما قاله بإيضاح أن المقدمات إذا قامت على المشهور أو المظنون، ولكن بتضافر أنواع الاستدلال، وتكاثر الطرق صارت يقينية من حيث النتيجة، والنتيجة تثبت حقيقة ثابتة ليس لها مثيل، فإن النتيجة لا يصح إنكارها، ومنكرها كافر ومحاولة تأويلها كفر، وإذا كانت المقدمات مضمونة أو مشهورة وليس لها مرادفات ترفعها إلى درجة اليقين، والنتيجة ليست يقينية، فالتأويل يجري في النتيجة والمقدمة إذا كان له مسوغ أو تعارضت طرائق الاستدلال.

وإذا كانت المقدمات مشهورة أو مضمونة، ولكنه بتضافر الأدلة تنتج يقينياً، والنتيجة تحتمل عدة صور متشابهة، فإن التأويل لا يدخل في المقدمات، ولكن يدخل في النتائج.

وقد تكون المقدمات مضمونة أو مشهورة ولا يقين فيها، ولكنها تنتج نتيجة واحدة لا منثوية فيها، فإنها لا تقبل التأويل في النتيجة، وتقبل التأويل في المقدمات.

١٤٣ - هذه كلمات ابن رشد، وذلك بيانها، وإن كانت في ذاتها غير بيّنة واضحة المقصد، ولكن يثار هنا قول، وهو أيسح أن نقول إن أدلة القرآن خطابية أو جدلية أو برهانية، إننا لا نستطيع أن نقول إنها خطابية، كما قد يشير إلى ذلك ابن رشد.

وقبل أن نقطع في ذلك برأى نذكر تعريف الأدلة الخطابية، كما في الشفاء لابن سينا، يقول ابن سينا، إن الحكام قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق، لأن المقصود من المنطق أن يتوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقينا فهو البرهان، وإن أوقع ظنا أو محمولا على الظن فهو الخطابة، أما الشعر فلا يوقع تصديقا لكنه لإفادة التخييل الجارى مجرى التصديق، ومن حيث إنه يؤثر في النفس قبضا أو بسطا لكنه لإفادة التخييل الجارى مجرى التصديق، ومن حيث إنه يؤثر في النفس قبضا أو بسطا، عد في الموصل إلى التصديق،

والتخييل عنده كما عرفه «إذعان للتعجب والالتذاذ بفعله صور الكلام.

ونراه من هذا يضع المنطق والخطابة والشعر في ثلاث مراتب، فالأول يتجه إلى التعمين، وهو أعلى مراتب التصديق، والخطابة تصل إلى مرتبة الظن الغالب، والاتجاه إليها لا يوصل إلا إلى ذلك، والشعر يتجه إلى إثارة الخيال، والإعجاب والالتذاذ بصورة الكلام، ولا يؤدي في ذاته إلى تصديق إلا إذا تضمن ما يشبه المنطق، أو يشبه الخطابة فإنه يؤدي إلى يقين أو إلى ظن.

ولا بد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين :

أولهما - أن الخطابة في أقيستها لا تعتمد إلا على الظن، ولا تنتج إلا الظن ولكن يجب أن يعلم أن من الحقائق التي تجيء على السنة المتكلمين والتي تجرى في الأسلوب الخطابى ما هو يقين ينتج قطعا، ولا ينقص القطعية فيها

أنها خلت من صور الأقيسة المنطقية والأشكال البرهانية . فليست العبرة في اليقين بالشكل ، إنما العبرة بالحقيقة أهي مقطوع بها أم غير مقطوع ، والشكل البرهاني لا يمنحها يقينا ، كما أن عدم التمسك به لا ينقص يقينها .

وإن كثيراً من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات إلزاما . وأشدها إلزاما ، وإن المنطق يميز لباطل القول وليس موجدا لليقين بذاته ، فإن الأشكال المنطقية أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل .

وقد يكون الكلام الخطابي مجملا بالأشكال المنطقية في مقام الرد على حجج الخصوم ، وكشف زيفها . وبيان وجه البطلان فيها ، وكثيراً ما تستخدم الخطاب التي تقوم على المحاجة ، والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان في كلام الخصم .

الأمر الثاني : أنه لا ينطبق ما يقال في الخطابة والجدل من أنهما يقومان على الأدلة الظنية على القرآن .

ونحن نميل إلى أن الاستدلال القرآني له طريق قائم بذاته ، وإذا نظرت إليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لامية فيه ، وما امتازت به الأدلة الخطابية من إثارة للإفئاع ، وما امتازت به كل خواص البيان العالي . مع أنه لا يسامى ، وهو معجز لسلك الناس عربهم وعجمهم .

أسلوب القرآن في الاستدلال والجدل :

١٤٣ - إن القرآن خاطب الناس جميعا في أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن في الاستدلال والجدل يجب أن نشير بكلهايات موجزات إلى أصناف الناس .

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنازعة ، ومالكهم في طلب الحق متعددة .

(أ) فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه إلا قياس تام أو مايجرى مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه في دراسات واسعة النطاق ، وعلموم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفي ، والمزج العلمي والمستقرى لأحوال الأمم المتتبع لشمثون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة في الناس ، وعددهم محدود بالنسبة لغيرهم ، إذ أن أكثر من في الأرض قد انصرف إلى الممن من زراعة وصناعة ، فما كان له وقت يزجيه في تلك التأملات ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه أن يدعو بالحكمة في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ،

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب ديني أو غير ديني قد استأثر بلبه ، وسد مسام الإدراك ، إذ استولت عليه نخلة مذهبية فتعصب لها . والتعصب يعمي ويصم ويجعل النفس لا تستسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة ، وإن باقناع ذلك لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجاً ، وأعز دواء من علاج الأجسام .

وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية تزيل ما ليس الحق عليهم ، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون ، إذ يلزمهم بما عندهم ، ويفهمهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لإلزامهم بما يرفضون .

وهذا الصنف من الناس وإن كان أكثر عدداً من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ، ولا السكثرة الغالبة بين الناس ولعله الذي أمرنا الله تعالى بالألأ نجادله إلا بالتي هي أحسن في قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ،

(ح) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ؛ بل هو في تفكيره أقرب إلى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سداجتها وفيه

إخلاصها وبراعتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاسفة ، ولا يخاطب بما يخاطب به المتفكرون تفكراً علمياً ، بل يليق به ما التقي فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ، وما اختلطت فيه الحقائق البقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة لمنهجها ، وما التقت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق ، وليس بما يختص به أهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، إنما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق ، وبما يغذى الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها إلى السبيل الأقوم .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة ، وبعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للناس جميعاً بشيراً ونذيراً ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيل ، بل هي لسلك الأجيال والقبائل والأقوام ، والألوان ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ، ومن عليها .

١٤٤ - لذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحججة الكبرى فيه من الأدلة ، والمناهج ما يقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكري والبياني ، بحيث لا يعلو على مدارك طائفة بعد بيان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الذين تلقوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم القرآن ، وبيانه ، ويجد العلماء فيه غذاء نفسياً واعتقادياً وخلقياً وصلاًحاً إنسانياً ، بل يصل الجميع إليه ، يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طامبته ، والعمامة من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادى لهم الذى يأخذ بأيديهم إلى العزة والرفعة .

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نهمة العالم اقرأ قوله تعالى: « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففقتنهما ،

وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون^(١)، اقرأ هذا وارجع البصر فيها كرتين ألا ترى أن فيها توجيه الأذهان إلى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبين سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ، وإن القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه . ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث في نشأة الكون . دقة العلم وإحكامه ، وموافقة ما وصل إليه العقل البشرى لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن .

واقراً قوله تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . خلقنا العلقة مضغة خلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميئون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . الخ الآيات الكريمة^(٢) .

ثم تدبر هذه الآيات البيّنات تجد أن الأسمى يستفيد منها علماً غزيراً فوق أنه يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث الناس يوم القيامة ؛ فيزداد إيمانا ، كما يعلم ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان والدارس للحيوان جرثومة فنجينا ، فحيوانا على ظهر الأرض حيا ، فيرى فيها دقة العلم والتكوين ، وصدق الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوروبا ، فاعتقد أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم طبيب رآته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء الفسّم .

(١) الأنبياء ٣٠ .

(٢) المؤمنون ١٢ - ١٦

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيه من أدلة أنه قريب من
الأمى يفهمه ويعرفه ، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منه ما يناسب
معرفة ، ويسمو إليه إدراكه ، وما يدركه منه صدق يقينى لا شبهة فيه .

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة . ما وصل إليها البحث العلمى
الحديث إلا بعد تجارب ، ومجموعات عقلية ، وكلها ازداد المتأمل المتبصر فى
الآيات التى تتعلق بالسكون ازداد استبصاراً ، ورأى علماء أسمى مما يدركه
الإنسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدى إليه الإنسان بعقله المجرد .

مسلك القرآن فى سوق الأدلة

١٤٥ - قد شرحنا من قبل الأدلة الخطابية والبرهانية والجدلية، وقد
أشرنا إلى أن أسلوب القرآن فوق هذا ، والآن نوضح ما أشرنا إليه من قبل
فنذكر بالعبارة الواضحة ، ما ذكرناه بالإشارة اللاحقة .

إن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من منطق أرسطو ، ومن
لف لفه ، تراه قد اعتمد فى مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور
البدئية التى لا يمتزى فيها عاقل ، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية من
غير أن يخل بدقة التصوير ، وقوة الاستدلال ، وصدق كل ما اشتمل عليه
من مقدمات ونتائج فى أحكام العقل .

وإنك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابى ، قد أتى فيها بالمثل
الكامل فيه ، وهو أعلى من أن بوصف بأجاء على منهاج من منهاج
الخطابة ، وفيه تصريح القول الذى يلقى بجدة فى نفس القارىء والسامع ،
فتصريف فتون القول من إيجاز غير مخل ، وحذف كلمات أعلن الأسلوب
وجودها وغزارة فى المعانى مع قلته فى الألفاظ وإطناب مبين ، بحيث لو حذفت
كلمة لاختل ببيان القول ، إذ أن الكلام القرآنى بعضها مع بعض كالبنيان
النورانى المرصوص ، ولكل كلمة لإشعاع مشرق فيه بحيث لو لم تكن ،

يكون جزءاً ناقصاً من الاطبايف للآيات القرآنية .

ثم من قصص حوى أقوى الأدلة في ذات القصة وما حوت ، وفي الأدلة التي سبقت في بيان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ، ومجادلة المخالفين والمناوين .

ومهما يكن من قول في استدلالات القرآن الكريم ، فإن له مناهج في الاستدلال تعلق على براهين المناطقة ، والأخيلة المثيرة للإقناع ، والأدلة الخطابية .

١٤٦ - ونستطيع أن نذكر بعض مناحي القرآن في الاستدلال من غير إحصاء ، بل نذكر بعضها ، وبعضها ينبغي عن غيره .

ومن ذلك الأقيسة الإضمارية ، وهي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات ، مع وجود ما ينبغي عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى في الكلام منوى فيه ، وهذا الحذف يكثر في الاستدلال الخطابى ، بل يقول ابن سيدنا فى الشفاء والخطابة معولة على الضمير والتثليل ، والضمير هو القياس الإضمارى ، والتثليل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ، ويسمى فى عرف الفقهاء ، قياساً فقهيّاً ، بينما هو فى عرف المناطقة تمثيلاً ، لأن فيه مشابهة بين أمرين .

وقد يقول قائل إنك قررت أن القرآن أعلى فى إقناعه واستدلاله من الخطابة والمنطق والشعر ، ومع ذلك تقرر أنه ينهج منهاج الخطابة فى الاستدلال ١١

ونقول فى الإجابة عن ذلك إننا نعلو بمناهج القرآن عن الخطابة ، وإن كان يسلك بعض مناهج الخطابة فى الاستدلال ، وعلو القرآن فى هذه الحال بأسلوبه أولاً ، فهو كيفما كان من نوع الكلام المعجز ، وثانياً - القرآن يعلو عن الخطابة فى أن كل مقدماته ونتائجه يقينية لا مجال للظن فيها ، فإن الظن لا يفتى من الحق شيئاً ، فكل ما فى القرآن حقائق يقينية ، ولا ينبع

منهاجه إلا من اليقين ، وقد لام على مخالفته أنهم يتبعون الظن ، وإن هم إلا يحرصون .

ونعود من بعد ذلك الاعتراض الذي يرد على المخاطر ، وإن كان لا يرد على الموضوع فنقول : إن الناظر المستقرى لأدلة القرآن يرى أكثرها قد حذفت فيه إحدى المقدمات ، ولقد قال الغزالي بحق .

وإن القرآن مبناه الحذف والإيجاز (أى فى شكل الأقيسة) وقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذى يزعمون أن عيسى ابن الله ، لأنه خلق من غير أب . وإن مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين^(١)

ولا شك أن المثل الذى ساقه الغزالي ، واضح فيه حذف إحدى المقدمات ، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وإنه إذا كان الخلق من غير أب مبرراً لاتخاذ عيسى إلهاً فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً لاتخاذ آدم إلهاً ، ولا أحد يقول ذلك .

وإننا نجد أنه قد حذفت مقدمة وبقية واحدة وكان سياق الدليل لو فى غير كلام الله تعالى يكون هكذا : إن آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم ، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً .

وإن الحذف قد صير فى الكلام طلاوة ، وكسبه رونقاً ، وجعل الجملة مثلاً مأثوراً ، يعطى الكلام حجة فى الرد على النصارى ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه ، وإنما خلق من تراب ، فلا عزة إلا لله تعالى .

١٤٧ - وقد يساق الدليل في قصة ، وقد ذكرنا من قبل مقام القصص القرآني في هذا المقام ونقول إن القرآن اتخذ القصص سبيلاً للإفهام والتأثير ، وضمن القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع القصة رسولا يعرفونه ويحجلونه إذ يدعى المجادلون أنهم يحاكونه ويتبعونه ، فيجىء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأفهامهم وأقوى تأثيراً ، وقد يكون مفهماً ملزماً إن كانوا يجادلون غير طالبين للحق .

وانظر إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقصته مع قومه (وقد ذكرناهما في موضوع القصص) ، فإنك ترى في القصتين أدلة التوحيد واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان ، وإبراهيم من بين الرسل مكاتبه عند العرب ، إذ هو شرفهم ، ومحمد الذي إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فإذا جاءهم الخبر بتوحيده ومحاربتة للأوثان ، وسبق لهم ما كان يحتج به على قومه ، كان ذلك مؤثراً أى تأثير في قلوبهم .

ومجىء الدليل على لسان رسول يقر بفضل المخالفون كإبراهيم عند العرب ، وموسى عند بنى إسرائيل ، يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، إذ تكون الحججة قد أقيمت عليهم من جهتين ، من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة إضافية ، وفوق ذلك فيه إلزام وإفهام ، إذ أنهم يدعون أنهم أتباعه .

وقد يجىء الدليل أحياناً في قصص القرآن على لسان حيوان في قصة ، فيكون لذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس إيماناً بالحقيقة ، كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل . إذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكياً عن سيدنا سليمان عليه السلام وهو تفقد الطير ، فقال ما لي لأرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحته ، أو ليأتيني

بسلطان مبين ، فكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملككم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم (١) .

وترى من هذا أن دليل التوحيد جاء على لسان الهدى ، في أوجز عبارة ، وأوضح إشارة الأتراء ينه إلى بطلان عبادة الشمس من دون الله ، لأنها لا تؤثر في الإبداع ، والإنسان بذاتها ، وبين أن ذلك هو الضلال للفطرة ، إنما من تزوين الشيطان الماسد الأفكار . وجعلهم يتعدون عن حكم الفطرة الإنسانية ، وهو أن يسجدوا لله تعالى الذي يخرج انخبوء من البذور ، والنوى وكل أسباب الوجود ، وهي مختفية عن شمس وضوئها ، فإذا كان تأثير ظاهري في الظاهر الذي خرج من الخبء ، فما يكون تأثيرها فيما هو خبء ، لا تأثير لها فيه لا ظاهراً ، ولا حقيقياً .

قياس الخلف :

١٤٨ - قياس الخلف هو إثبات الأمر ببطلان نقيضه ، وذلك لأن النقيضين ، لا يجتمعان ، ولا يخطوا محل من أحدهما ، كالمقابلة بين العدم والوجود ، والمقابلة بين نفي أمر معين في مكان معين وزمان معين ، لإثباته في هذه الحال ، فإن اتقى بالدليل كان ذلك حكماً بوجود نقيضه .

فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الكريم يتجه في استدلاله إلى إبطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد .

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»^(١)، وهنا نجد الاستدلال القرآني اتجه إلى إثبات الوجودان بدليل قياس الخلف، وتقرير الدليل من غير أن تتسامى إلى مقام البيان القرآني. كما يسوقه علماء الكلام: هكذا: لو كان في السموات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، وإن هذا التنازع يؤدي إلى فسادهما، لتخالف الإرادتين، وليكنهما صالحان غير فاسدين، فيبطل ما يؤدي إلى الفساد، فكانت الوجدانية، فسبحان الله رب العرش عما يصفون، ويسمى علماء الكلام هذا الدليل دليل التمايز، أي امتنعت الوثنية لامتناع الفساد، فكانت الوجدانية.

ومن القياس الذي يعتبر قياس الخلف قوله تعالى: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذا ذهب كل إله بما خلق، ولعلنا بعضهم على بعض»^(٢) أي وإن ذلك باطل، فما يؤدي إليه باطل، وبذلك ثبت التوحيد. ومن قياس الخلف قوله تعالى: «لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سيلا»^(٣) وهذا أيضاً من قبيل فرض التمايز الذي يؤدي إلى الفساد، ولا فساد، فيبطل ما يؤدي إليه.

ومن قياس الخلف في إثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٤)، وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف، ولا تضارب في مقرراته، ولا عباراته، فإنه يثبت النقيض، وهو أنه من عند الله تعالى.

ونرى أنه في كل هذه الآيات البينات كان إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وقد أشرنا إلى ذلك في كل آية مما تلونا.

(٢) المؤمنون: ٩١ .

(٤) النساء: ٨٢ .

(١) الأنبياء: ٢٢ .

(٣) الإسراء: ٤٢ .

ثم إنك ترى مع هذا القياس الذى واجه المخاطبين بإبطال ما يدعون ليثبت ما يدعوهم إليه الرسول ، معنى سامياً قوياً ، وهو مهاجمة المخالفين بإبطال ما عندهم ، وأنه ليس من القول الذى يقام له دليل ، وإن ذلك يوهنهم ، وينهته من قوتهم ، ولذلك كانوا يشكون من النبى يسفه أحلامهم ، ويصغر من أصنامهم .

ومع هذا القياس نجد الإضمار للمقدمات ، وإبراز أوضحها الذى يرمى إلى ما وراءها ، فما يضمه من المقدمات هو المحتجى المعلوم ، والظاهر المكتوم .

السير والتقسيم :

١٤٩ - السير والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة ، الهادى إليها ، وهو أيضاً من أبواب الجدل ، يتخذ المجادل سبيلاً لإبطال دعوى من يجادله ، بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه ، ويبين أنه ليس فى أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه ، فيبطل دعوى الخصم .

وقد ذكر السيوطى أنه من أمثله فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركم حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبتونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركم حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

وبين السيوطى وجه الاستدلال فقال : « إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، وإنانها أخرى رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السير والتقسيم ،

(١) الأنعام : ١٤٣ - ١٤٤ .

فذكر تعالى : « أن الله خلق الخلق مما ذكر زوجين ، ذكراً وأنثى ، ثم جاء به تحريم ما ذكرتم عندكم . ما علته ، لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتغال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدري له علة ، وهو التعبدي بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ، فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة ، وبعض في حالة . لأن العلة على ما ذكر تقتضى إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة (وحى) باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال ،^(١) .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة أو الوصيلة ، وبعض الماعز والبقر ، أن الله تعالى العلى الحكيم ينفهم إلى أن التحريم يكون لوصف ذاتي في هذه المحرمات أو لتحريم بوحى أو رسول ، ثم أخذ يبين سبحانه أنه لا يوجد وصف ذاتي في هذه الأشياء التي يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب في التحريم إما أن يكون في الذكورة وحدها ، أو الأنوثة . وحدها أو فيهما معاً ، لا جائز أن تكون في الأنوثة وحدها ، لأنكم حرمتم ذكوراً ، ولأن مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى ، وكذلك الأمر في الذكورة ، لأن ذلك يوجب تحريم كل الذكور ، وكذلك إذا كان وصف التحريم ذاتياً في كل ما تحمل الأنثى وتلد الأرحام ، فإن ذلك

كان يوجب تحريم كل الأنعام ، وأتم اختصاصهم بالتحريم بعضها دون كلها .
وإذا لم يكن ثمة وصف ذاتي اقتضى التحريم فهل كان نصر من رسول ،
أو وحى ، أو من أين جاءكم العلم ، لا شيء من هذا ، وهذا الجزء
الآخر كقوله تعالى في آخر سورة الأنعام : سيقول الذين كفروا لو شاء
الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من
قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون
إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون (١) .

التمثيل :

١٥٠ — التمثيل أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف
عند من يخاطبه أو على أمر بدعي لا تنكره العقول ، وتقربه الأفهام ،
ويبين الجهة الجامعة بينهما ، وإن القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على
أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية ، والبدائنه العقلية وكثير من
استدلالات البعث تقوم تقريب البعث وقدرة الله تعالى عليه بما يرون من
إنشاء لذلك الكون البديع ، وما خلق به الإنسان وبيان أطواره من أصلاب
الآباء إلى أرحام الأمهات .

اقرأ قوله تعالى : **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإننا
خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة ، وغير
مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم
طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل
العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا
عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو
الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها
وأن الله يبعث من في القبور ، (٢) .**

ونرى من هذا عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادةه التي لخصها الله سبحانه وتعالى في قوله « كما بدأكم تعودون ، وفي هذه الآيات الكريمة بين سبحانه كيف ابتداء خلق الإنسان من طين ، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل إلى القبر ثم كيف خلق الأحياء في الأرض من نبات وحيوان ، واهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإن كل ذلك دليل على قدرة المنشىء علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، وأنه على ما يشاء قدير .

وإن هذا النسق البياني قرب فيه البعيد . وسهل على الأفهام دخوله ، والله على كل شيء قدير .

واقراً في هذا النوع من الاستدلال قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسب خلقه ، قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أتم منه تودون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم (١) .

وتجد في هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادةه في أبلغ تعبير وأسلم تقرير وإن في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما في الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد ، فيه الدلالة السكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، وسيقع ، كما وعد ، ووعد لا يتخلف .

١٥١ — هذا ويلاحظ القارئ للقرآن التالى لآياته ، المتبصر في عبره وعظاته ، والدارس لأدلته — أن جدل القرآن لا يتجه إلى مجرد الإخام

والإلزام ، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد القارئ والمدرسين ،
والأخذ بأيديهم إلى الحق ، وتوجيه النظر إلى الحقائق ، وما في الكون من
دلائل على القدرة ، كما ترى في قوله تعالى :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من
فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها روائى وأنبتنا فيها من كل زوج
بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء مباركا
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا
للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١) » .

فترى في هذه الآيات البيان فيها ليس مجرد إخماد الوثنيين ومنكري
التوحيد ، بل فيه توجيه إلى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب
الصنع وما فيه من سماء زينات وبروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من
روائى كأنها تمسكها أن تميد ، وما فيها من نبات يخصص لإبانه ، وجنات توضع
وتثمر في وقتها .

واقرا قوله تعالى في سورة الرحمن : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق
الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ،
والسما رفعها ، ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن
بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة ،
والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما
تكذبان ، خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من
نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء
ربكما تكذبان . إلى آخر السورة الكريمة ، وفي هذا ترى الاستدلال القوي
متجها إلى الإرشاد إلى ما في الكون ، وما أنعم الله به على الإنسان من علم

بما لم يكن يعلم وما علمه من الشمس والقمر ، وما علمه من معاملات كريمة ،
وتعاون لإنساني مبنى على الفضيلة ، وعلمه كيف خلق الإنسان ، وهكذا من
استدلال حكيم ، وإرشاد وتوجيه وتعلم .

وإنه إذا اتجه القرآن الكريم إلى الإلزام والإخام ، لا يلبث أن يأخذ
بيد المعاند إلى الحقيقة بينها واضحة جلية لا ريب فيها ، كما ترى في قوله تعالى
رادا على المشركين طلبهم أن يكون الرسول ملكا :

، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم
لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون^(١) ،
فإنك ترى أن في ذلك إخاماً لهم من ناحيتين : الناحية الأولى أنهم
لو أجيبوا إلى ما يطلبون لقضى عليهم ما هددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون
والثانية أنه لا يزول اللبس الذي يلبسون به الحق بالباطل لأنه
لو جعله الله تعالى ملكا لجعله في صورة رجل ، وبذلك يجيء الالتباس
الذي لبس به عليهم .

ومن الاستدلال الفهم الهادي قوله تعالى في الرد على اليهود ووصفهم :
و الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكاه
النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ، وبالذي قلتم ، فلم قتلتموهم إن
كنتم صادقين^(٢) .

وكما ترى في قوله تعالى ردّا على الذين ينكرون الرسالات الإلهية ، فقد
قال تعالت كلمانه : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر
من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا ، وهدى للناس^(٣) ،
ويظهر أن الذين قالوا هذا القول من اليهود ، قالوا لينكروا رسالة النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم .

(١) الأنعام : ٨ — ٩

(٢) الأنعام : ٩١

(٣) آل عمران : ١٨٣

وفي هذه الآيات التي تلونها ترى الإلزام المنفهم ، والحجة البالغة ،
والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، قد أدرجته به حجة الخصوم
وأرشدوا إلى المحجة ، ووضعت الصوا والأعلام ، ليسيروا على الجادة بعد
أن بددت الظلمات ، وأذهب ضوء الحق ظلام ماموه به الخصوم ، فن أبي
واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين ، بعد أن أزيلت من أمامه
غياهب الباطل .

١٥٢ - وعند توجيهه الله تعالى نظر المجادل إلى الحقائق من غير
اتجاه إلى إلزام من أول الأمر ، أو بعد إلزامه وإفهامه يكون تصريف
البيان ، ومناحى التأثير ، وتكون العبارات التي تخاطب العقل والوجدان ،
وتمس مواطن الإحساس ، وتتنوع المناهج وتتضافر المعاني وللألفاظ
جدتها وطلاوتها ، ومع التكرار أحياناً تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ،
وتنوع الأساليب من استفهام إلى تعجب إلى تهديد إلى إخبار ، ويختلف
الاتجاه إلى مواضع الاستدلال وينابيعه .

(١) فمرة يكون الاستدلال برد المسائل إلى أمور بديهية معروفة ،
كما أشرنا ، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر المجادل أمامها صاغراً كما ترى من
إبطال قول من زعم أن الله تعالى ولد ، إذ يقول سبحانه « بديع السموات
والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل
شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على
كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف
الخبير ، (١) .

ألا ترى أن الاستدلال القرآني اتجه إلى بطلان مدعاهم إلى أمر معروف
مشهور مألوف لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ،

ولم يدع أحد أن الله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

(ب) وأحياناً يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب الحقائق ، ويدونها ، وقد بينا ذلك وأمثله عند كلامنا في يتابع الاستدلال القرآني .

(ج) وأحياناً يوجه نظر الناس إلى المخلوقات ، وإلى ما في الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، انظر إلى قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون (١) » .

وهكذا ، وارجع إلى ما قدمنا من مصادر الاستدلال في القرآن الكريم . ويلاحظ أن القرآن الكريم في الجدل الذي يلزم الخصوم ، ويفهمهم ، ينجي إلى الإخام من أقرب الطرق ، وأقواها إلزاماً ، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام في مجادلة مدعى الألوهية ، فقد قال تعالى : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت . قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم ، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين (٢) » .

وإن وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للإخام والإلزام كثيرة .
(١) منها التحدى كما تحدى الله تعالى كفار قريش بأن يأتيوا بعشر

(١) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤

(٢) البقرة : ٢٥٨

سور من مثله مفتريات ، وكما تحدى إبراهيم الملك الوثني .

(ب) ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه ، وإثبات أنه عليه وليس له ، ومن ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين ، إذ يقول سبحانه وتعالى عنهم :
« ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله العزة ورسوله
والمؤمنين^(١) ، فسلم لهم أن الأعز يخرج الأذل ، ولكن من هو الأعز لله
العزة ورسوله وللمؤمنين .

(ج) ومنها مجازاة الخصم فيما يقول ، ثم التعقيب عليه بما يقابله عليه نتائج
قوله ، ومن ذلك قوله تعالى حاكياً عن الرسل مع أقوامهم : « قالت رسلكم
أنى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ،
ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا
عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلكم إن نحن إلا
بشر مثلكم ، ولكن الله يمين على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم
بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون^(٢) .

فترى من هذا النص السامى أن الرسل سلخوا بالمقدمة التي بنى عليها
الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمين على من
يشاء ، فكأنهم قالوا لهم ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن
تبنوا عليه من إثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمين على من يشاء من
عباده ، وهو قد من علينا ، وقد منا لكم السلطان أى الدليل ، ولا سلطان
لنا إلا ما يأذن به الله تعالى .

١٥٣ - هذه قبسة من نورالذكر الحكيم الذى أضاء الله تعالى به الخليقة
لتمهتدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشوا إليه إذا أظلمت ، وعمتها
الجهالات ، وناء الناس في مثارات الشيطان .

(١) المنافقون : ٨

(٢) إبراهيم ١٠٠ - ١١

وما أردنا بذلك البيان لإحصاء لطرق الاستدلال في القرآن ، ولا استقصاء لمساكنه في جدله ، فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الظهر ، ويقصر الشأور ، ولكن أردنا أن يرى الدارس للقرآن الكريم أمثالا عن طرق جدل القرآن واستدلالاته وكيف كانت أعلى من المنطق فدقته ، وإن لم تنقيد بأساليب المناطق ، ولا بأشكال أدلتهم ، ففي أدلة القرآن التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب تبعاً لروعة البيان ونسقه وجماله ، وليس تبعاً لأشكال البرهان ، وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة ، وإن كان بيانه المثل الأعلى الذي لا يستطيع أن يجاريه الخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا بإثبات العقائد ، والجدل فيها سلكوا مسلك القرآن ، وساروا في سبيله لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى ، وأينع ثماراً ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة ، فإن العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم ، ولا يدركون شيئاً من أشكال الأقيسة .

وقد وزن الغزالي في كتابه لإجماع العوام عن علم الكلام بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين ، فقال رضى الله عنه : أدلة القرآن مثل الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل إن أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبي الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً .

وفي الحق إن الناس لو شغلوا بدراسة القرآن ، وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه ، ويسيروا في طريقه ، لكان لهم من ذلك علم كثير ، فإن القرآن قد اشتمل على مناهج في الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نوااميس النفس الإنسانية ، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات

النفسية والفكرية وفيها الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأعراضها ، والدواء الشافي لعائلها وأسقامها .

وفي مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ إلى القلوب والحجج الدامغة واعتبر ذلك بأثره في المشتركين وأثره في المسلمين الأولين .

وقد ذكرنا فيما مضى من قولنا أن كل من كان يسمعه من المشركين يناله منه قبس يهتدى به إن آمن ، وإن استمر على حجوده أظفأ الله النور في قلبه ، وطمس الله على بصيرته وكان على ريب في الأمر ، وتردد ، فكان كل من داناها منهم مس نوره قلبه ، ونال أثره وجدانه ، حتى لقد تناهى زعمائهم عن سماعه ، لما رأوه من أثره في قلب كل من سمعه .

وقد كان من أثر القرآن في المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلون ، ويتفهمونه ، ويتعرفوا معانيه ومرامييه وجملوه معلمهم الأول ، ومرجعهم إذا اختلفوا ، ومنهل عقائدهم ، يأخذون منه ما يقوى إيمانهم ، ويدفع الشبهات عنهم ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة مع السنة سواه ، ولا حجة غير طريقه وهديه . به يجادلون وعن هديه يسدرون ، فاستقام أمرهم ، وحكموا بمدله العالمين .

علم الكتاب

١٥٤ - قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب (١) ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى من عنده علم الكتاب وهو القرآن الكريم الذي نزل على رسوله الأمين شهادته بجوار شهادة الله سبحانه وتعالى ، وأى شرف أعظم من شرف علم الكتاب بعد هذا ، وأى مقام أعلى من مقام علم الكتاب الكريم ، إنه إذا مقام عظيم ، وهو مشتق من ذات العليم ، ولا بد أن يكون لهذا علم الكتاب خطيراً عظيماً وأن يكون كبيراً عزيزاً ، وأن يكون واسعاً بمقدار ما تنسج له طاقة البشر من علوم ، وإن العلماء الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله تعالى والملائكة هم العلماء بالكتاب المذكورون ، الفاهمون لمراميه ومغازيه العاملون به ، فقد قال الله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ، وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم (٢) ، فأولو العلم الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله والملائكة هم أولو العلم بالكتاب .

وأولو العلم بالكتاب هم العلماء الذين ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخشى الله غيرهم ، إذ قال سبحانه « إنما يخشى الله من عباده العلماء ، (٣) .

هذه مكانة العلم القرآني ، كما صرحت العبارات السامية عن الله سبحانه وتعالى ، فما هذا العلم الذي يعلو بصاحبه إلى هذا المقام الأسمى ، والمنزلة العليا ؟

نجيب عنه بجوابين أحدهما فيه إجمال ، والثاني فيه بعض التفصيل .

(١) الرعد : ٤٣ .

(٢) آل عمران : ١٨ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

أما أولهما — فنقول إنه علم النبوة ، أى علم الرسائل الإلهية ، فإن القرآن الكريم اشتمل فيما اشتمل عليه على لب الرسالة الإلهية وهو التوحيد، وقد قال تعالى فى ذلك « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب ،^(١) . وإن القرآن ذكر كل الرسائل التى سبقته ، وما لم يذكره بالبيان ذكره بالإشارة الواضحة ، فقال تعالى « ومنهم من قصصنا عليك . ومنهم من لم نقصص عليك ،^(٢) ، وما لم يذكر قصصه مطوى فى ذكر من قصص ، فالرسالة الإلهية واحدة ، والحق واحد . والدعوة إليه واحدة . ولقد صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من يحفظ القرآن يحفظ النبوة بين جنبيه ، فقال عليه السلام فيما يروى عنه الحسن البصرى : « من أخذ ثلث القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله ، فقد أخذ النبوة كلها ، ويروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « من حفظ القرآن ، فقد حفظ النبوة بين جنبيه ، فالقرآن فيه قبسة علم من الله تعالى :

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ ، فيستعجب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد ، فأنلوه ، فإن الله يأجركم على تلاوته ، بكل حرف عشر حسنات . » .

وإن هذه الآثار الواردة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن حوى علم النبوة كله ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة إلا أحصاها ،

وإن الله سبحانه وتعالى ما فرط في الكتاب من شيء من علم النبوة ، كما قال تعالى : وما فرطنا في الكتاب من شيء (١) ، مما يتعلق بالشرائع والأحكام وبيان ما يطلب من المكلف ، وما به صلاحه في الدنيا ، وثوابه في الآخرة ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

١٥٥ - هذا الجواب مبني على ما قرره الذين قرءوا القرآن من السلف الصالح ، وما نقلوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بيان إجمالي لعلم القرآن الكريم مبني على أنه تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ، وأنه التبليغ الخالد إلى يوم القيامة الذي تخاطب به الأجيال بالرسالة العامة التي تعم الإنسانية كلها ، ولا نخص عصرًا من عصورها .
ولسكن لا بد من أن نعرض بالذكر ببعض التفصيل لما اشتمل عليه علم القرآن ، وهذا هو الجواب الثاني الذي لا يغنى فيه الإجمال الكلي عن بعض التفصيل الجزئي .

وإن الذي قرره السلف ، وأجمعوا عليه أن القرآن الكريم فيه علم النبوة كله ، وأن من علمه فقد حوى علم النبوة بين جبينه .
وأول علوم النبوة علم الغيب ، ففي القرآن علم الغيب ، وبيان الغيب ، والغيب هو لب الإيمان ، وفيه علم الحاضر الذي يدل على الغيب المستكن .
فيه بيان الوحدانية ، وبراهينها المستمدة من الكون واستقامة حاله ، والتي يستدل عليها بالآثار القائمة وبما خلق الله سبحانه وتعالى .

وإن العلم بمشئ الكون هو الفطرة الإنسانية التي لا تضل إلا بما يسيطر على العقل من أهواء وبما يقف دون الإدراك السليم من أوهام ، وبما يحيط بالعقل من غيم يمنعه من الفهم السليم ، فالقرآن يزيل غيب الضلال ، ويأخذ بالشارد إلى حيث الأمن العقلي .

وإن الفلاسفة يحاولون أن يدركوا المغيب عنهم من حقيقة

المنشئ، ومنهم من ضل في سبيل ذلك ضللا بعيداً، ومنهم من قارب،
ومنهم من باعد، ولا تجد في كلام أولئك الفلاسفة ما يهدى للتي هي أقوم،
وما كان عجز الفلاسفة عن أن يدركوا الشيء الأول إلا من سيطرة أوهام
سبقت، عكرت على الفطرة وضللت العقل، ولنظريات ضالات قد سيطرت
عليهم، وهي نظرية الأسباب والمسببات، وتوهموا أنها تنطبق على منشيء
الوجود، كما هي ثابتة في العلة بين الموجودات، يتوالد بعضها من بعض،
ويكون لكل شيء سبب، وهو سبب لغيره، وهكذا تتابع الأسباب والمسببات،
كل سبب يتبع سبباً، وهو نتيجة لسبب، وتوهموا لهذا أن الأشياء نشأت
عن منشيء الوجود نشوء المعلول عن علته، والمسبب عن سببه، وتسلسلوا
في الأسباب والمسببات حتى ضلوا ضللا بعيداً، وجاءت الأديان
الساوية موجهة الأنظار إلى أن الله تعالى خالق السموات والأرض على
غير مثال سبق، وهو المبدع وهو الفاعل المختار، وهو القادر على كل شيء،
لا يخرج عن واسع علمه شيء، ولا عن محيط قدرته خارج يفعل ما يشاء
ويختار .

وقرر القرآن تلك الحقيقة التي هي هدف العقول، وأخرجها من تيه
الضلال إلى الحق القويم .

وسيقت الأدلة الدالة على ذلك من الكون وتنوعه، وإن المقرر عقلا
أن السبب يكون من جنس المسبب، ويكون كهيئته لا يختلف عنها، وإن
الاختلاف إنما يكون لأمراً آخر لا بمجرد السببية، فبين القرآن الكريم،
تنوع الأشياء وتنوع الأحوال، اقرأ قوله تعالى :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعلنا الشمس
عليه دليلاً، ثم قبضناه إلینا قبضاً يسيراً وهو الذي جعل لكم الليل لباساً،
والنوم سباتاً، وجعل النهار نشوراً، وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين
يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً، لنحيي به بلدة ميتاً، ونسقيه مما

خلقتنا أنعاما، وأناسي كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليعلموا، فأبى أكثر الناس إلا كفورا^(١)، وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا، وحجرا محجورا، وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا^(٢) .

وإنك ترى من هذه الآيات الكريمة، بيان تنوع المخلوقات، ولا شك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأشياء نشأت من المنشئ كما ينشأ المعلول من العلة، لأن المعلول يجب أن يكون مماثلا للعلة، غير مختلف عنها، وهنا نجد اختلاف الموجودات، من إنسان يتفكر ويتدبر، وحيوان ينق، وطائر يطير ومن شمس وقر يسيران بحسبان .

فكان التنوع الذي ذكره القرآن إبطالا لما يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلول، والسبب والمسبب .

ضاق بهم مسالكهم، فلم يتصوروا غير ذلك، ولو نظروا إلى الكون، وما يجري فيه من أحوال، لأدركوا بفطرتهم المستقيمة أن المنشئ واحد، ليس بوالد ولا ولد، ولآمنوا بقوله تعالى: «يدع السموات والأرض أنى يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة»^(٣) وأقرأ قوله تعالى في التعريف بالذات الإلهية: «إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى ذلكم الله، فأبى تؤفكون، فائق الإصباح وجعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بهانى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون، وهو الذى أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شئ، فأخرجنا منه خضرا، نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب، والزيتون، والرمان مشتبها وغير

(١) الفرقان ٤٥-٥٠ (٢) الفرقان ٥٣-٥٤ (٣) الأنعام ١٠١ .
(م ٢٧ - المعجزة الكبرى)

مثشابه، انظر وا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون
وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه
وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن
له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو
خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو
يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر
فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ، (١) .

انظر إلى تعريف الذات العلية بخلقها ، وما تنشئه في هذا الوجود ،
وإن هذا يدل على الفاعل المختار دلالة قاطعة بتنوعه ، واختلاف مظاهره
ونوع حياته ، ألا تراه يسقى بماء واحد ، وغذاؤه واحد ومع ذلك
تتنوع أنواعه ، وتختلف أجزاؤه مما يدل على أنه نشأ بغير العلية ، بل بإرادة
مختارة حكيمة تفعل ما تريد ، والله يخلق ما يشاء ويختار .

وإن القارىء الحكيم يرى فيه قدرة الذات العلية ، وإرادتها أن تخلق ،
والعقل لا يقبل غير ما جاء مافيه ، وما يسلكه الفلاسفة من أوهام
بالنسبة للسببية ، يؤدي إلى التسلسل إلى ما لا نهاية ، فإذا كان الوجود نشأ من
وجود ، فمِمَّ نشأ الوجود السابق ، والسابق على السابق ، ويتأدى إلى ما يستحيل
العقل تصوره ، وإذا كان هناك موجود تنتهي عنده السلسلة فلماذا يفرض
أنه الإله ، ويفرض أنه وجد ما بعده من إرادته ، لا بالعلية . وقرأ الآيات
القرآنية في إثبات الوحدةانية في الذات والصفات ، وفي الخلق والإيجاد ،
وما ينجم عنهما من وحدة المعبود بحق ، فإنك واجد علما كثيرا ، يسير
العقل ، ولا يعانده ، لأنه الفطرة المستقيمة التي لم تفسدها نظرية السببية في
المنشئ التي أخذوها من السببية في الأمور العادية ، وفرق بين واجب
الوجود الذي أنشأ الكون ودبره ، وهو القيوم القائم عليه الذي قدر

كل شيء تقديرا ، وبين توالد الأحداث ، والموجودات ، وهي لاتكون
بغير تقديره وتدبيره سبحانه وتعالى إنه فعال لما يريد .

١٥٦ - وفي القرآن علم الرسالة الإلهية ، والمعجزات التي اقترنت
بها ، فهو يبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخص العالم الإنساني
بالرسل يرسلهم إليه ، ليسير الناس في الصلاح بدل أن يسيروا في الفساد ،
وليكونوا في مودة وسلام بدل أن يكونوا في حرب وخصام ، وليصلوا
ما أمر الله به أن يوصل ، لأن الله تعالى الذي خلق الإنسان جعله إما
شاكرا وإما كفوراً ، فهياً للشاكر أسباب شكره وجعل الكفور
مسئولاً عن فعله بعد إنذار المنذر وتبشير المبشر ، كما قال تعالى : وما
كننا معذبين حتى نبعث رسولا^(١) ، وكما قال تعالى : وإن من أمة إلا
خلا فيها نذير^(٢) ، فما كانت هذه الرسالات الإلهية إلا لتهدى الناس
إلى خير الطرق ، ومن يكفر فإنما يكون عن بينة لئلا يكون للناس على
الله حجة .

والقرآن الكريم يبين أن الرسل يكونون من البشر ، ومن أقوامهم
ليكونوا أكثر إلفاً ، وعندهم علم بهم ، كما قال تعالى : وما أرسلنا من
رسول إلا بلسان قومه^(٣) ، وقومه هم دعامة الأولى ، فهم الذين يكونون
ثقوة الأولى لدعوته ويكون منهم الحواريون الذين يناصرونه ،
ويرعونه حق رعايته .

وعندما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكاً ، رد الله سبحانه
وتعالى عليهم بقوله تعالى : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا
ملكاً لفضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ،
وللبسنا عليهم ما يلبسون^(٤) ، .

وإن الله تعالى صرح بأن لإرساله للرسول لكي يقوم الناس بالحق ، والميزان ، فقد قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوي عزيز^(١) ، وفي هذا النص الكريم ، بين الله سبحانه وتعالى أن الرسل جاءوا بالكتاب من عنده سبحانه ليقوم الناس بالقسط ، ومن لم يقنعه الدليل ، ولم يهتد بهداية الرحمن ، وبمقتضى الفطرة المستقيمة ، والإدراك السليم ، فإن الحديد فيه بأس شديد يحميه من الشر ، ويبعد عن الناس فساد ، وإفساده .

والآيات تفيد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل ، ومعهم المعجزات الباهرات الخارقات للعادات التي ثبت أنهم جاءوا من عند الله تعالى ، وأنهم لم يفتروا على الله الكذب ، بل هم جاءوا برسالة ربهم ، ويتحدون الناس أن يأتوا بمثلها ، وهي خارقة لقانون الأسباب والمسببات ، وهي فوق إثباتها لقدرة الله تعالى الفعال لما يريد تثبت رسالة الرسول التي جرت على يديه .

١٥٧ — والقرآن الكريم فيه علم المعجزات بجوار العلم برسالة الله تعالى خلقه ، ففيه معجزة نوح عليه السلام ، وهي السفينة التي نجا فيها المؤمنون ، وأغرق الله تعالى بعدها الكافرين ، واقرأ قوله تعالى :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاق من قومه سخرها منه ، قال إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من

سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها
بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج
كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع
الكافرين ، قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم
من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل
يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر . واستوت
على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين (١) .

هذه بيئنة من بينات الله تعالى تدل على اصطفاؤه لنوح أبى الإنسانية
الثانى وتدل أيضا على أن الله تعالى فاعل مختار ، لا يتقيد بالأسباب والمسببات
التي نعرفها بل هو القادر المريد المختار « ولا يسأل عما يفعل ، وعم يسألون » .
وجاء هود عليه السلام إلى عاد ، فقارموا دعوته ، وفارموا رسالته ،
وقالوا مفترين عليه كما حكى القرآن الكريم عنهم « قالوا يا هود ما جئتنا
بيئنة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول
إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ، قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء
عما تشركون ، (٢) .

وقد كانت الآية عقابا دمر الله عليهم بريح صرصر عاتية ، وقال الله
تعالى فى هذه « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ،
بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ،
فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين . (٣) »

وقال الله تعالى فى سورة الحاقة ، « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر
عاتية (٤) » .

وقد أرسل الله تعالى صالحاً إلى ثمود ، وقال الله تعالى فيهم : « وإلى ثمود

(٢) هود : ٥٣ - ٥٤

(١) هود : ٣٦ - ٤٤

(٤) الحاقة : ٦

(٣) الأحقاف : ٢٤ - ٢٥

أخام صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً فيما هذا ، أتنبأنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ، فما تزيدونني غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فدروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فإخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جامحين ، كأن لم يكنوا فيها إلا إن ثمود كفروا بربهم ألا بعداً لنمود . (١)

ونجد من هذه النصوص الكريمة أن معجزة صالح التي تحدى بها ، وكانت بها البينة على رسالته هي ناقة كان لها شرب ، ولا يكل منهم شرب معلوم ، وكان التحدى ليس بأن يأنوا بمثلها ، ولكن كان التحدى بالهلاك إن مسوها ، فعقروها ، فأنذرهم الرسول المتكلم عن ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام ، وقد صدق الوعيد عليها .

١٥٨ - ولنتقل إلى المعجزة التي أجزاها الله تعالى على يدي سيدنا لوط عليه السلام ، لقد بعثه الله تعالى إلى قوم هبطوا في مفاصلهم إلى ما لم يهبط إليه الحيوان ، فأفسدوا الفطرة ، وجاءهم لوط بالطهر ، ليحملهم على العودة إلى الفطرة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها ، ولما لم تجد معهم دهوة الإصلاح ، بل استمروا في غيهم يعمهون ، أمر الله تعالى نبيه أن يسرى بأهله بقطع من الليل ، واستثنى امرأته من أهله فقد كانت على شركهم وإن موعد العذاب النازل بهم الصبح ، أليس الصبح بقريب فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود .

وكان يعاصر لوطا إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك جاءت الملائكة التي ذهبت إلى قوم لوط ، وجعلت أرضهم عاليها سافلها ، جاءوا لإبراهيم عليه السلام ، وظهر معهم أمر خارق للعادة ، وهو أن تحمل امرأته وهي عجوز ، ولتتل الآيات الكريمات التي أثبتت هذه الحقائق :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة ، فضحكك ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ، إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، ولهم آتاهم عذاب غير مردود ، (١) .

وترى أن خارقا للعادة كان في أول لقاء بين إبراهيم خليل الله ، وبين ملائكته ، وهو أن تحمل امرأة عجوز قد انقطع حيضها من زوج عجوز . وإن الله أجرى على يد خليله إبراهيم معجزات كثيرة ، منها مسألة الطير إذ يقول الله تعالى في ذلك :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سهوا ، واعلم أن الله عزيز حكيم (٢) . »

ومن أبرز ما أجرى الله على يديه من خوارق للعادات أنه ألقى في النار ليحرق ، فاطفأها وأقرأ قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ،

وكننا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ، وإنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لا كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جنذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلمهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بأهتنا ، إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا قتي يذكركم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا لئن كنتم إلا الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين ، (١)

وإنك لترى أن خوارق العادات التي تنقض التزام الأسباب والسببيات والمسببيات التي تلزم البشر ، وليكن قدرة الله وإرادته ، فوق ما عليه . وما يجرى من أسباب ومسببات بينهم .

وكذلك الأمر بالنسبة لشعيب الذي دعا إلى مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات الإنسانية ، إذ يقول كما حكى القرآن الكريم عنه : « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم مغيظ ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل في

أموالنا ما نشاء ، إنك لأنك الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنتمكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، إن ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم ، إني عامل سوف تعدون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جائمين ، كأن لم يغبوا فيها ، ألا بعداً لمدين ، كما بعدت ثمود (١) .

ونرى من هذا أن الأمر الخارق للعادة كان صيحة عليهم .

وإن الملاحظ أن الخوارق للعادة التى جاءت على يد الأنبياء الذين هاشوا فى البلاد العربية كانت حسية مناسبة للعرب ، وكانت من الناحية التى تناسب الصحراء والبادية ، فمعجزة هود كانت أحجاراً من سجيل منضود ، وقد ظنوه عارضاً مطراً ، ومعجزة صالح كانت ناقة غريبة بين أهل النوق فى البادية ، ومعجزة لوط كانت جعل الأرض عاليها سافلها ، ومعجزة شعيب كانت صيحة جعلتهم فى ديارهم جائمين .

معجزات سيدنا موسى :

١٥٩ — قصصنا بعض القصص عن سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكنا نذكر ذلك بهدديان أنه لا تكسر ارفى

قصة موسى لمن تدبر ، وتفكر في المغازي والمقاصد ، لافي ظواهر الألفاظ ،
والآن نذكر فقط الخوارق للعادات التي جرت على يد موسى عليه السلام ،
وهي تسع آيات كما جاء في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى د ولقد آتينا
موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى إسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون
إني لأظنك ياموسى مسحوراً (١) .

ولنذكر إن شاء الله تعالى تلك الآيات التي لم تجرد مع فرعون وقومه
الضالين .

أولها : العصا التي قال الله تعالى فيها د فالتى موسى عصاه ، فإذا هي
تلقف ما يافكون ، (٢) وقد نزل موسى ، ياهل بها السحرة من قوم فرعون
د قالوا ياموسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا ، فلما
ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا
إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يافكون فوق الحق وبطل
ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة
ساجدين (٣) .

الثانية : أنه يخرج يده من جيبه ، فإذا هي بيضاء من غير سوء ، كما قال
تعالى : د وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء (٤) ، وكما قال
تعالى : د ونزع يده ، فإذا هي بيضاء للناظرين ، (٥) .

الثالثة : أن الله تعالى أخذ آل فرعون بالجدب ، ونقص الأموال والأنفس

(١) الإسراء : ١٠١

(٢) الشعراء : ٤٥

(٣) الأعراف : ١١٥ - ١٢٠

(٤) تخطيط : ١٢

(٥) لأعراف : ١٠٨

والثورات ، كما قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثورات لعلمهم يذكرون » (١) .

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة : ما ذكره الله تعالى بقوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (٢) .

الآية التاسعة أنهم عندما نزل بهم الرجز الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز ، كما قال الله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » (٣) .

وإذ لم تجد هذه المعجزات ، مع أنها قارنت حياتهم ، ومست معيشتهم حتى لم يكن لطالب حق أن يرتاب ، ولا لطالب الهداية أن يمتري . عندئذ كانت الضربة القاصمة لفرعون وملئه ، ولذلك قال تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » (٤) .

هذه إشارات إلى معجزات سيدنا موسى ، وكل خارق للأسباب والمسببات مما يدل بذاته أولاً - على أن الله تعالى فعال لما يريد ، خلق الأشياء بإرادته وقدرته ، ولم تنشأ عنه كما ينشأ المعلول عن علته ، وتدل ثانياً على رسالة موسى عليه السلام وبمته إلى بنى إسرائيل ، وفرعون وقومه .

(١) الأعراف : ١٣٠

(٢) الأعراف : ١٣٣

(٣) الأعراف : ١٣٤ - ١٣٥

(٤) الأعراف : ١٣٦ - ١٣٧

خوارق التي جاءت على يد سليمان :

١٦٠ - كان سليمان حاكماً ، ونبياً ، ولم يكن حاكماً طاغوتياً ، بل كان حاكماً رباً نبياً ، أعطاه الله تعالى علم الحاكم العادل ذى السلطان غير المسيطر ، وأعطاه علماً آخر ، أعطاه العلم بلسان الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتي علم لغة النمل والطير ، ولنتل ما جاء في سورة النمل من خوارق كانت مع سليمان ، قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين « وورث سليمان داوود ، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة ، يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، وتفقد الطير ، فقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ، فكفك غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبياً يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدمهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون ، وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا ، فألقه إليهم ، ثم قول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يا أيها الملأ ، إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم : ألا تعلموا على أتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك

فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وإني مرسلت إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يأبها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوى أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر ، فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ، قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله لئنها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إنني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (١) .

تلونا هذا الجزء من هذه السورة الكريمة ، وكلمها أمور ليست مما يجري في عادات الناس ، ولنشر إليها إشارات توجه فيها الأنظار إلى ما اشتملت الآيات الكرميات في بيان فوق طاقة البشر .

أولها - الأمر الذي لا يعرف ولم يعرف لغير سليمان ، وهو أنه علم منطق الطير والحيوان ، وهذا يدل على أن غير الإنسان ، أمم أمثال الإنسان لها منطق ، ولغة ، وإن كنا لانعرفها ، وعرف نبي الله سليمان بعضها ، كما قال تعالى في كتابه الكريم : **دوما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير**

بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء (١) ، فإذا كان سليمان قد علم منطق بعض الحيوان ، فهو مصداق لقول الله تعالى الخالق الفعال لما يريد .

وثانيها - تسخير الطير له ، فهذا الهدهد كان له من الإدراك الرباني ، ما جعله يعرف الهدى من الضلال .

وثالثها - الإتيان بعرشها بين غمضة عين وانتباهتها ، أو كما عبر القرآن الكريم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك وهذا من تسخير الله تعالى لسليمان ، ومن العلم الذي أعطاه الله بعض عباده المخلصين ، ونقول إن الآية صريحة في أن الذي أتى هو عرشها حقيقة ، لا صورته ، كما يقول بعض المتشددين في المادية ، ومع ذلك إذا كانت هي الصورة فإن الخارق ثابت ، وهو أنه أتى به قبل أن يرتد إليه طرفه .

وفي قصة نبي الله سليمان عليه السلام خوارق أخرى غير ما جاء في سورة النمل ، فقد جاء في سورة سبأ ما نصه : د لسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وأسئلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجمان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكراً ، وقليل من عبادي الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين (١) .

العبرة في خوارق العادات لسليمان :

١٦١ - أطيننا بعض الإطناب في النقل من القرآن الكريم عن خوارق العادات في عهد نبي الله سليمان عليه السلام ، وذلك لأن هذا العصر

(١) الأنعام : ٣٨

(٢) سبأ : ١٢ - ١٤

كانت فيه الفلسفة الأيونية مسيطرة في آسيا الصغرى وتولدت عنها فلسفة اليونان . وكانت الفلسفة الأيونية قائمة على الأخذ بالأسباب والمسببات ، وتولد المعلول من العلة في انتظام قائم لا تخلف ، فجاء سليمان عليه السلام ، وقام سلطانه كله على خرق للأسباب والمسببات والقيام على إثبات أن الكون كله بإرادة مريد مختار ، لا يفعل إلا ما يريد ، ولا يصدر عنه شيء بغير إرادته الخالدة الثابتة - فقام سليمان بذلك ، وأجرى الله تعالى تلك الخوارق على يديه ، فأجرى الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر على يديه ، وعلم منطق الطير ، وسمع حديث النمل ، وجاءه عرش بلقيس بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه ، وسخر الله تعالى له الجن ، وكان كل شيء في حكمه بخوارق العادات ، أو بخرق نظام الأسباب والمسببات العادية التي بنيت عليها نظرية أن المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة عن معلولها فكانت حياة نبي الله تعالى سليمان في ملكه تجرى على هدم هذا النظر ، وسخر الله له الريح تجرى بأمره حيث أصاب وكذلك كانت الخوارق للأسباب هي المسيطرة في معجزات من جاء بعده من الرسل .

معجزات عيسى عليه السلام .

١٦٢ - في هذا العصر الأيوني كان مبعث عيسى عليه السلام ، ووجوده ، ولم يكن علم الطب رائجا عند بني إسرائيل كما توهم عبارات بعض الكتاب في العقائد من المسلمين ، بل كان بنو إسرائيل أجهل الناس بالطب كما يقرر علماء تاريخ الفلسفة ، ومنهم رينان الفيلسوف المسيحي .

إنما كانت معجزات عيسى لإبطال النظرية الأيونية التي تعتقد أن المخلوقات نشأت عن الموجد نشوء العلة عن معلوله .

وكانت ولادة عيسى إبطالا صارخا لهذه النظرية ، فإن المعتاد في الحياة الحيوانية ومنها الحياة الإنسانية أن الولد يولد من أبوين ، أب ملقح ببذرة

الوجود، وأم تتلقى في زحمتها تلك البذرة، أو الجرثومة كما يعبر العلماء،
أو المني الذي يمني كما عبر القرآن .

فجاء عيسى من غير أب، وكان ذلك خرقا للأسباب الطبيعية الجارية،
وكان غريبا على مريم البتول .

واقرا قوله تعالى : « واذكر في الكتاب مريم ، إذ انتبذت من أهلها
مكافا شرقيا ، فانخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها
بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا
رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسنى
بشر ، ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ،
ورحمته منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها
المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ،
فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك نحتك سريا . وهزى إليك بجذع
النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى وامرئى وقرى عينا فإما ترين من
البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ، فأنت
به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان
أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من
كان فى المهد صبيا ، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى
مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرأ بوالدتى ،
ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث
حيا ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ
من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ولان الله ربى وربكم
فاعبدوه هذا صراط مستقيم (١) ، .

هذه كلها خوارق تنهى عن أن الله خلق الكون بإرادة مرمدية ، وولادة عيسى نفسها أول خارق للعادة ، ولذا قال الشهرستاني إن وجود عيسى ذاته معجزة . وأكدت معجزة الإيجاد من غير أب بمعجزات أخرى ، أو بخوارق عادات أخرى ، وأولها الرطب الجنى من النخل بهزه ومناداته لها ، وهو في المهد ، وحديثه في المهد حديث الحكماء ، فبكل هذه خوارق ، للأسباب والمسببات تدل على أن الإيجاد والتصوير والتربية كلها بإرادة الله العليم الحكيم خالق كل شيء ، ومنها الأسباب والمسببات ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومعجزاته عليه السلام من هذا القبيل الذى هو متحد حسى للأسباب والمسببات ، فقد قال تعالى بعد أن بعثه رسولا لله رحمة للعالمين : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه فيكون طيرا ياذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحي الموتى ياذن الله ، وأنبتكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصداقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بأية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ،^(١)»

هذه دعوة عيسى عليه السلام ، وفيها البيئات الدالة على رسالته ، بما هو خرق حسى واضح يرى بالعين ، وليس خفيا يدرك بالمعنى ، هو يبرىء الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص الذى عجز الطب إلى الآن عن إبرائه وهو فوق ذلك يحيى الموتى ياذن الله بالفعل لا بمجرد الإيمان كما ادعى بعض المفسرين ، وهو روحانى ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

(١) آل عمران ٤٨ — ٥١

وهل يسير كل هذا على قانون الأسباب والمسببات ، لكي نقول ما يقوله الفلاسفة يجب أن نلغى حكم العقول ، وبدهيات المدارك .
وقد ذكر سبحانه وتعالى معجزات أخرى في آخر سورة المائدة ،
فقد قال تعالى :

«يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجيتم ، قالوا لا علم لنا ، إنك أنت علام الغيوب . إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك ، وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهدي وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير يا ذئ فتفتخ فيها فتكون طيراً يا ذئ وتبرئ الآكه والأبرص يا ذئ وإذ تخرج الموتى يا ذئ ، وإذ كففت بني إسرائيل عنك ؛ إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ، إن هذا إلا سحر مبين ، وإذا أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، إذ قال الخواريون يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم ، اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، (١)

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمت ذكرت بعض المعجزات السابقة ، وأضافت إليها معجزتين أخريين :

إحداهما : أنه ينادى الموتى من القبور فتخرج . وذلك في قوله تعالى
« وإذ نخرج الموتى ، .

والثانية : أن الله تعالى أنزل عليهم مائدة من السماء .

١٦٣ — ونرى من هذا أن الخوارق للعادات كثرت على يد عيسى عليه
السلام، وكان وجوده ذاته خارقا للعادة ، إذ ولد من غير أب كما بينا ، وكلها
تدل على أن كل شيء في الوجود هو بإرادة مختار ، فعال لما يريد .

وما كان ذلك إلا لإبطالا لنظريته وجود الأشياء بالفلسفة التي سادت في العصر
اليوناني ، ثم انتقلت إلى اليونان . وأخذت تنسج حتى كانت الأفلاطونية
الحديثة التي التقت مع النصرانية المحرفة غير المسيحية الأولى في نظرية العلية
فجعلت العقل الأول هو الأب ، والعقل الثاني هو الابن ، ثم كانت بعد ذلك
الروح القدس المنبثقة من الاثنين أو أحدهما .

ووجود المسيح ، وحياته ، وما أجراه الله تعالى من خوارق للعادات ،
كانت تحيط بكل تصرفاته ، وأعماله ، كل ذلك كان حججا قاطعة مثبتة
أن العالم كله مخلوق بإرادة حكيم قادر قهار سميع بصير مريد مختار .

١٦٤ — وإن قصة أهل الكهف التي أشرنا إليها في بعض ما قلنا .
وقد حدثت بعد المسيحية على ما يبدو من وقائعها كانت فيها إرادة الله
ظاهرة في بيان سر هذا الوجود ، وأن الفاعل له مريد مختار لا يتقيد في
إيجاده لخلقته بأن يكون وجود الأشياء مربوطا بالعلة والمعلول ، بل هو
مربوط بإرادة حكيم يفعل ما يشاء ويختار ولنتأها عليكم ، ولا مانع من
تكرار تلاوتها ، إن كنا قد تلوناها من قبل .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا ، إذ
أوى الفتية إلى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من

أمرنا رشدًا ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم
 أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك بأهم بالحق ، إنهم فتية
 آمنوا بربههم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب
 السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططاً . هؤلاء قومنا
 اتخذوا من دونه آلهة لولا يأنون عليهم بسطان بين ، فن أظلم من افتري على
 الله كذبا ، وإذا اعتزتموه ، وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر
 لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس إذا طلعت
 تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في
 فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن
 تجد له وليا مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات
 الشمال ، وكلهم بأسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ،
 ولملت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ،
 قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحسبكم
 بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه ،
 وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم
 أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذا أبدأ ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا
 أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ،
 فقالوا ابناؤنا عليهم بنينا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن
 عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم
 كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعتهم ،
 ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم
 أحدا ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك
 إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ، ولبثوا في
 كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات

والأرض ، أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه
أحدا (١) .

وإن المفسرين والمؤرخين للديانات يقررون أنهم مسيحيون مؤمنون
بالمسيحية الحق التى جاء بها عيسى عليه السلام . وأنهم فروا بدينهم من
الرومان الذين أرهقوا المسيحيين الصادقين من أمرهم عسراً ، حتى كان نيرون
اللعين ، كان يظلمهم بالقار ، ويشعل فيهم النيران ، ويسيرهم فى موكبه ،
وهو غفور مختال بتلك المشاعل البشرية .

وإذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ،
وازدادوا تسعاً ، فإنه يكون ظهورهم ، فى وقت ظهور الأفلاطونية ، التى
نسخت النصرانية ، التى دخل فيها قسطنطين بعد أن ابتداء بالسير بها فى
طريق التليث الأفلاطونى الذى بنى على أساس أن الكون ظهر من الأول
ظهور المعلوم عن علمته .

فكانت واقعة أهل الكهف ، وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، وهى
وقت الانحراف المسيحى فى الاعتقاد دليلاً قوياً على بطلانه ، وعلى بطلان
الأساس الذى قام عليه ، وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى يقوم على أن
الموجودات علة لمعلوم ، وليست من خالق مريد قادر .

١٦٥ — أظنبتنا بعض الإطناب فى ذكر الخوارق التى هى بعض ما جاء
فى القرآن الكريم ، وذلك لأمرين: أولهما أن التوحيد الذى هو لب العقيدة
الإسلامية ، بل هو اللب فى كل الأديان السماوية يقوم على أوصاف ثلاثة .
وحدة الخالق فى إنشائه الكون ، ووحدايته فى ذاته ، فهو منزه عن المماثلة
للحوادث ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، ووحدة المعبود ، وهو الله
سبحانه وتعالى .

الثانى أن الله تعالى مرید مختار فعال لما يريد ، وأنه أنشأ كل ما فى الوجود بإرادته وقدرته ولم ينشأ عنه نشوء المعلول عن علته .

الثالث ثبوت الرسالة الإلهية للمصطفين من خلقه . ولا تثبت الرسالة إلا بأمره .

الأمر الثانى الذى من أجله أفضنا فى ذكر بعض الخوارق ، ولم نغض على القرطاس فيه أن بعض الذين يجعلون أمور الدين خاضعة للتجارب ويحسبون أنهم يخدمون القرآن، يدعون أن رسالة محمد قامت على العقل، ولم تقم على الخوارق ، وأن القرآن الذى هو حجة محمد الكبرى خاطب العقول ، ولم يخاطب بالخوارق ، وجرت عباراتهم بما يفيد أن الإسلام لا يعرف الخوارق ، إلى درجة أن بعض علماء اللاهوت المسيحي سألنا هل القرآن يعارض الخوارق والمعجزات ، فأجبنا سؤلهم بأن القرآن سجل معجزات الأنبياء ، وهما نحن أولاء نبين بعض ما فى هذا السجل الخالد .

البعث واليوم الآخر

١٦٦ - إن العالم يتنازع فيه الخير والشر، والشر ربما يتغلب على الخير، وفي الناس الأخيار والأشرار، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير، وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، والله سبحانه جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليعتلي الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً، ولم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يجعله سدى بل إنه مسئول عن فعله إن خيراً نخبير، وإن شراً فشر.

وإن ذلك يقتضى ألا تكون هذه الحياة هي الحياة الدنيا وحدها، بل لابد من حياة أخرى تكون للأخيار الذين لم ينتصر خيرهم في هذه الحياة، ولا تكون للأشرار الذين غلبوا الأخيار ظلماً واعتمدوا وفتنوا الناس في أمورهم. ولذلك كانت الحياة الآخرة وبيانها من مقاصد الأديان السماوية، فلا يوجد دين مما يرى إلا كان الإيمان بالبعث والحساب، والثواب والعقاب من أركان الإيمان.

ولذلك جعل القرآن الكريم الإيمان بالغيب أول أجزاء الإيمان فقد قال الله تعالى في أوصاف المؤمنين: «الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل إليك من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون» (١).

وترى أن أول وصف للمؤمنين هو الإيمان بالغيب فلا تستولى عليهم مادة الحياة، ولا يسيطر عليهم سلطانها، فإن فرق ما بين الإيمان والزندقة

الإيمان بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود إلا للبادة المشاهدة المحسنة ، فهو ليس بمؤمن وليس عنده استعداد للإيمان إلا من رحم ربك .

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » فأوجب الإيمان بالآخرة وأكدته بتقديم الجار والمجرور ، أى أن الآخرة وحدها هى الجديرة بالإيمان ، وأنه لا إيمان إلا باليقين الذى لا مجال للريب فيه ، وإن رقى الإنسان فى أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا ، لأن التكليف شرف ، وهو يقتضى تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات إلا أن يكون ثمة يوم يجرى فيه الحساب والثواب والعقاب .

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بقاء الله تعالى بأنهم الخاسرون « قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون (١) » .

نعم خسروا الذين لا يؤمنون بالآخرة خسروا إنسانيتهم ، فقد حسبوها عبثا ليس لها غاية ، وخسروا العزاء إذا شقوا فيها ، فإن الإيمان بالآخرة عزاء روحى لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وإنهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح .

وقد قرأنا سبحانه وتعالى أن الإنسان يكون مخلوقا سدى كاهلهم إن لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال « يحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة نفلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (٢) » .

(١) الأنعام. ٣١ - ٣٢

(٢) القيامة : ٣٦ - ٤٠

١٦٧ - ولذلك عنى القرآن الكريم بإثبات حقيقة البعث ، وبيان الحال فى الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يدركون إلا الحياة الدنيا ، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين .

وإن عقيدة البعث لب الإيمان ، وغاية من غايات الرسائل الإلهية ، ولذلك تجد القرآن يحتفى ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول إليه ، وما من موضع فى القرآن الكريم ، إلا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه ، بقياس قدرة الله تعالى على الإعادة على قدرته على الابتداء ، وأن البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها كما قال تعالى : د أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم لإينا لاترجعون (١) ،

ولنقبس قبسة من الآيات السكريمة التى تدعو إلى الإيمان بالبعث ، وتبين أن المشركين فى ضلال اقرأ قوله تعالى : د وإن تعجب فعجب قولهم إذا كئنا تراباً إنا لنى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، (٢) .

لأنهم يعجبون من أنهم بعد أن يصيروا تراباً يخلقون خلقاً جديداً ، بل لأنهم يعجبون من أن تدخل أجسامهم بعد البلى فى أجسام أخرى ثم تبعث ، فيبين سبحانه وتعالى قدرته على ذلك ، فيقول تبارك وتعالى :

قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينفضون إلك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم ، فتستجيون بحمده وتظنون إن لبئتم إلا قليلاً (٣) .

(١) المؤمنون . ١١٥ .

(٢) الرعد : ٥

(٣) الإسراء . ٥٠ - ٥٢

ولقد يقولون مستغربين « من يحيى العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن ، فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون(١) » .

وترى من هذا أن الذين ينكرون البعث ينكرون مع ذلك قدرة الله تعالى ، بل ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى خلقه ، اقرأ قوله تعالى في سورة ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، وإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج(٢) ، ويقول سبحانه : « أفبعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(٣) » .

وهكذا نرى المتتبع لآيات القرآن يجد مجادلة في أمر البعث ، فإنكار البعث مقترن بالكفر ، ومقترن بإنكار الرسل ، والقرآن يرد على المنكرين إنكارهم بمنطق العقل والحق ، فإن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذي يملك الرزق في السماء والأرض ، وهو الذي أنشأ الحياة والأحياء ، وبقياس الغائب على الشاهد يثبت بلا ريب أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة ، وأن من أفن الإدراك ، وفساد التفكير أن يحسبوا أن ثمة عائقا يعوق المنشئ الأول عن الإعادة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(١) يس : ٧٨ - ٨٣ .

(٢) ق : ١ - ٥ .

(٣) ق : ١٥ .

يوم القيامة

١٦٨ — هو اليوم الذي يضطرب فيه الكون ، والشمس تكور ، والنجوم تنكدر ، والجبال تسير والعشار تتعطل ، ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى :
« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجيرت . وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت ، (١) »

وإن يوم القيامة يقترن بخروج من القبور والبعث ، كما قال تعالى :
« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأبى الإنسان ما عرك بربك الكريم الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، في أي صورة ماشاء ركبك كلاب تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ، (٢) . »

وإن الله سبحانه وتعالى يسمى يوم القيامة الساعة ، لأنه ساعة الهول الأكبر ، وقد قال تعالى في وصفه :

« يأبى الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ومن الناس من

(١) التكوير : ١ - ١٤

(٢) الانفطار : ١ - ١٢

بجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مرید ، (١) .

وكما سماه الله تعالى الساعة سماها أيضا الحاقة ، والقارعة ، فقال تعالى :
« الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود ، وعاد بالقارعة ، (٢)
ويقول سبحانه في وصف الكون ، وقت هذه القارعة : « فإذا نفخ في
الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال ، فدكتا دكة واحدة ،
فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهي يومئذ واهية ، والمملك على
أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، (٣) .

وقال تعالى في وصفها بالقارعة : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك
ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفرش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن
المنفوش (٤) .

وعلم الساعة خفي عن الناس ، وعن الأنبياء والمرسلين ، فهي من علم
الغيب الذي استأثر به علم الله تعالى ، حتى يسير الناس في أعمالهم ،
ويأرادتهم ، ويتحملون تبعه الأعمال ، وقد قال تعالى « يسألونك عن الساعة
أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في
السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما
علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسي نفعا
ولا ضرا ، إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما
مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (٥) .

(١) الحج : ١ - ٣

(٢) الحاقة : ١ - ٤

(٣) الحاقة : ١٣ - ١٧

(٤) القارعة : ١ - ٥

(٥) الأعراف ١٨٧ - ١٨٨

ولقد قال الله تعالى : يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزى
والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ،
فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الله عنده علم
الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا
تكتسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير^(١) .

الميزان والحساب

١٦٩ - إذا كان يوم القيامة هو اليوم الذي يعثر فيه ما في القبور ، وقد حدثنا القرآن الكريم في علمه عن ذلك بتفصيل واضح تطمئن إليه العقول والقلوب ، فإنه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخير ، ويحاسب الأشرار على ما قدموا من شر ، ولذلك نجد النصوص القرآنية تقرر الحساب والميزان ، وإن الناس منتهون من بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى السعير ، اقرأ من سورة الواقعة قوله تعالى :

« إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة ، إذا رجعت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمين ما أصحاب الميمين ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ثلثة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين .. الخ ، »^(١) .
وإنه يحىء كل إنسان ومعه كتابه فيه حسناته وفيه سيئاته قال تعالى :
« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، »^(٢) ويقول سبحانه وتعالى :

« ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ، يوم ندعو كل إنسان بإمامهم ، فمّن أوتي كتابه يمينه ، فأولئك يقروون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلاً ، ومن كان

(١) الواقعة : ١ - ١٦

(٢) الإسراء : ١٣ - ١٥

في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً^(١) ، .

ويقول سبحانه بعد وصف يوم القيامة في سورة الحاقة ديومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى ماليه ، هلك عني سلطانيه^(٢) ، .

ويقول سبحانه في سورة القارعة بعد ذكر يوم القيامة وهوله ، فأما من نقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي نار حامية^(٣) ، .

(١) الإسراء : ٧٠ — ٧٢

(٢) الحاقة : ١٨ — ٢٩

(٣) القارعة : ٦ — ١١

الجنة والنار

١٧٠ - فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم ، وأحوال النار ، وما فيها من عذاب أليم ، وبين ما يجزى الله تعالى به عباده المتقين ، وما يعاقب به الذين استحوذ عليهم الشيطان .

ولنضرب لذلك أمثلة بما ذكره من أحوال الجنة ونعيمها ، فقد قال تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم » (١) .

ويقول سبحانه في وصف أهل الجنة . وهم فيها « والسابقون السابقون أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على مرمر موضوئته ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وحوار عين كأمثال اللؤلؤ المسكون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تائيباً ، إلا قبيلاً سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهم إنشاءً ، فجعلناهم أبقاراً ، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » (٢) .

وقال تعالى في وصف الجنة ووصف النار : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس

(١) عمدة : ١٥

(٢) الواقعة : ١٠ - ٤٠

لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة
 لسمعها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها
 سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ،
 أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى
 الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر
 لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن
 إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم^(١) .

ويقول سبحانه في وصف الجنة : ودان خاف مقام ربه جنتان ،
 فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما
 عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ،
 فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين فيها على فرش بطائنها من استبرق ، وجنى
 الجنة دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن
 إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ،
 فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء
 ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ،
 فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان
 فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ،
 فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأى آلاء
 ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،
 متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ،
 تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام^(٢) .

١٧١ - وقد ذكر القرآن أوصاف النار التي هي جزاء الكافرين ،

الذين استكبروا عن أن يؤمنوا بربهم ، واتبعوا إغواء إبليس الرجيم ،
ولنذكر بعض أمثلة من أوصاف الجحيم ، يقول الله تعالى :

« إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً ، لا بين فيها أحقاباً ، لا يدعون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً (١) » .

ويقول سبحانه في جهنم أيضاً : « ويل للطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجر لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للكذابين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون (٢) » .

ويقول سبحانه في بعض ما يذوقه الكفار الضالون « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لا تكون من شجر من زقوم ، فالثون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون (٣) » .

ويقول سبحانه وتعالى في جزاء اتباع إبليس وذكر ذلك في أصل

(٢) المطففين : ١ - ١٧

(١) النبا : ٢١ - ٣٠

(٣) الواقعة : ٤١ - ٥٧

عصيان إبليس عندما طلب سبحانه وتعالى منه السجود ، فلم يسجد ، يقول سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال رب فأظرني إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ،^(١) .

وهكذا نرى وصف الجحيم مبثوثا في القرآن ، لأنه جزاء وفاق على الشر ، ولأن جزاء الإحسان على الإحسان ، كما قال تعالى «لذنين أحسنوا الحسنى وزيادة»^(٢) .

١٧٢ - وإن القرآن الكريم قد جمع بين ضفتيه بيان العقيدة الإسلامية التي لا يسع مسلماً أن ينكرها ، ومن أنكرها يقال له : «تب كما قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، .

وإن العقيدة كلها قائمة على الإيمان بوحداية الله تعالى ، وعدله سبحانه وأنه الفاعل المختار ، وأنه المجازى بالإحسان إحساناً ، ويعاقب من يخرج عن الجادة ، ويكون من المفسدين .

وبالبناء على عقيدة الوحدانية ، وأن الله تعالى فاعل مختار ، وأنه العادل كان بعث الرسل ، وكانت المعجزات الخارقات لما يعرفه الناس من الأسباب والمسببات ، وكان العدل الإلهى موجباً أن يكون ثمة بعث ، وحساب ، وعقاب ، وثواب ، وكل امرئ بما كسب رهين .

البعث والجنة والنار أمور حسية

١٧٣ - يحلو لبعض المتفلسفين من الكتاب في الماضي أن يقولوا إن البعث والجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب أمور روحية معنوية ، وليست أموراً حسية ، وذلك قد جاء من نقص إيمانهم بالغيب ، وباطل ما يقولون وما يعتقدون فإذا كان البعث معنوياً للأرواح ؛ فلماذا يعجب المشركون من أنهم بعد أن يكونوا تراباً يعودون، فإن عودة الأرواح لا يقتضى أن يكون ذلك الاستنكار ، إذ أن الأجساد التي صارت لاتعود. ولكن الرد عليهم سهلاً ، بأن يقال لهم إن أجسامكم لاتعود ، بل أرواحكم هي التي تعود .

وإذا كان البعث مادياً بصريح القرآن الكريم ، فإن الجزاء يكون لأحياء بأرواحهم وأجسادهم ، والنتيجة المنطقية لهذا أن يكون نعيم أولئك الذين بعثوا من قبورهم ، نعيماً لأجسادهم وأرواحهم ، ونعيم الأجساد مادي لا محالة ، ولذلك يجب الإيمان بأن نعيم الجنة وعذاب النار ماديان ، وليسا معنويين فقط ، لأن البعث حق ، ويجب التنبيه إلى أن حقائق اليوم الآخر سواء أكانت معنوية أم كانت مادية لاتتسع لها لغتنا ، وأي لغة من اللغات ، لأنها أعلى من مستوى حياتنا ، ونحن نعبر على ما هو من معاشتنا ، وفيما هو في طاقتنا .

ولكن تعبير القرآن عن الآخرة وما فيها هو باللغة العربية ، وإن كانت أعلى مما يستطيعه البشر .

ولذلك كانت تعابير العربية لتقريبها من مألوفنا ، ولكي نتسأى إلى معرفة ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم ، وما ينتظر العصاة من عذاب مهين . ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فيها ما لا عين رأت ، ولا

أذن سمعت . . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبارات القرآن ،
فيما يتعلق بالجنة والنار ، مجازية في ألفاظها .

ولكن مع إيماننا بهذه الحقائق ، يجب أن نقرر أن ما ذكر من رمان ،
وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين ، هي بما يجوز إطلاق هذه الأسماء
عليه ، وليكنه نوع آخر . ليس من جنس الأنواع في حياتنا هذه ، وإن كان
لها اسمها ، ولذا وصفت خمر الآخرة بأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون ،
ولكن فيها لذة للشاربين .

هذه كلمات نقولها في ختام بحثنا عن يوم القيامة ، وما يجرى من بعده
من حساب وعقاب وثواب .

والقرآن الكريم روضة يانعة مستمرة فيها الحقائق عن الغيب كله
بمقدار ما تدرك عقولنا ويقرب إلى أفهامنا ، والحقائق كاملة في غيب الله ،
اللهم اكتبنا من الشاهدين .

علم الحلال والحرام

١٧٤ - علم الحلال والحرام في الإسلام مصدره القرآن ، وهو الشريعة العملية ، والأحكام التكليفية وما من أمر شرع بالسنة إلا كان مرجعه إلى القرآن ، فهو كلى هذه الشريعة ، حتى لقد قال العلماء إنه لا يوجد حكم شرعى إلا كان له أصل في القرآن ، والسنة النبوية الكريمة بينته ، أو شرحته ، ولقد طار بعض الملاحدين بهذه الحقيقة . وزعموا أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة وذلك هو الافتيات على الحقائق ، لأن السنة مبينة القرآن ، كما قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم (١) » ، وكما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (٢) » .

فإهمال السنة والاختصار على الكتاب ضلال مبين ، أو تضليل أليم ، إنما هما يتعاونان في بيان أحكام الشريعة ، والسنة تفصيل لما أجمل الكتاب ، وتوضيح لما عساه لاتدركه الأفهام .

أمر الله تعالى بانصلاة ، ولم يذكر أركانها ، ولا شكها ، وترك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها ، فبينها بالعمل ، وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، وتضافرت بذلك الأخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار العلم بالأركان والكيف من أصول الدين ، والعلم بها ضرورى ، من أنكره فقد أنكر شيئاً علم من الدين بالضرورة ، فهو كافر ، وكذلك الأمر في الزكاة ، ذكرت بجملة وبينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وطبقهما وجمعها ، حتى إن من ينكرها ، يخرج عن الإسلام .

(١) النحل : ٤٤

(٢) النساء : ٦٥

١٧٥ — وقد ذكر القرطبي أن من أوجه إعجاز القرآن علم الحلال والحرام فيه ، وقد وافقناه على ذلك تمام الموافقة ، وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية ، وإذا وزنا ما جاء في القرآن بما جاء به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن ، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمر، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت إنشاء مدينته روما إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعده علماء قيل إنهم يمتازون منهم دسولون، الذي وضع قانون أئينا، ومنهم ليكورغ، الذي وضع نظام اسبرطة.

فإن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومع القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى ، من غير درس درسه ، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد، ولا جامعة ، ولا مكان للتدريس وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق .

وقد كتبنا في هذا بما فيه بيان للناس (١) . والآن نكتفي بالإشارة إلى موضوعات الأحكام من غير إطّباب تكميماً لأجزاء الموضوع ، والتفصيل في موضعه مما كتبنا .

(١) كتبنا في ذلك رسالتين إحداهما بعنوان شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، ورسالة الملكية بالخلافة في الشريعة والقانون الروماني وقد طبعهما مجلس الشئون الإسلامية وترجمهما .

العدالة

١٧٦ - كل النظم الإسلامية قامت على العدالة ، إذ كانت الشعارات تدعو إلى التسامح ولو مع الظالم ويقول قائلها : استغفروا لأعدائكم ، فالإسلام يقول اعدلوا مع كل إنسان ولو كان عدواً مينا . ومكان التسامح في الأمور الشخصية ، لا في الأمور التي تتعلق بتنظيم العلاقات الإنسانية ، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

ولقد قال العلماء إن هذه الآية أجمع آية لمعاني الإسلام ، ويرى في ذلك أنه عندما شاعت دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الأرض العربية ، وتنافلتها الركبان أرسل حكيم العرب أكثم بن صيفي ولده ليسألوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم عما يدعو فتلا عليهم هذه الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، الآية فرجعوا إلى أبيهم وذكروا له ما سمعوا ، فقال الحكيم العربي : « إن هذا إن لم يكن ديناً فهو في أخلاق الناس أمر حسن ، كونوا يا بغي في هذا الأمر أولاً ، ولا تكونوا آخراً .

والعدل ليس موالاة الأولياء ، وظلم الأعداء إنما العدالة للجميع على سواء ، والله تعالى يقول مخاطباً أهل الإيمان « ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٢) فالعدالة مع الأعداء المبعوضين كحالهم مع الأولياء المحبوبين أقرب للتقوى .

ويقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربى إن يكن غنياً أو فقيراً ،

فإنه أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، (١) .

وإن هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أولها أن العدالة في ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات إلى الله تعالى ، والعدالة في كل شيء وفي كل عمل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : كونوا قوامين بالقسط ، في كل أعمالكم سواء أكنتم حكاماً أم كنتم محكومين ، وأن تكونوا شهداء لله لا لأنفسكم ، ولا لأوليائكم والأقربين منكم .

الأمر الثاني الذي تدل عليه الآية ، أن الإعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان .

الأمر الثالث الذي تدل عليه دلالة صريحة أنه لا طبقية في الإسلام بالغنى والفقير ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة على سواء ، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء .

١٧٧ — ولا تفرقة بين العناصر في تحقيق العدالة ، فإنه سبحانه وتعالى خلق الخلق على ألوان مختلفة ، ولكنهم جميعاً خلق الله تعالى ، وإن اختلفت الألوان والألسنة من آيات الله تعالى الكبرى ، فهو يقول سبحانه في كتابه العزيز الخالد بلفظه وحقيقته ، ومعانيه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢) ، » وجميع عباد الله تعالى ، فلا يصح أن يظلم زنجي لونه ، ولا يجابى أبيض لشقرته ولقد صرح بذلك القرآن ، فقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من

(١) النساء : ١٣٥

(٢) النحل : ٧١

ذكر وأنتى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم^(١) .

وإن هذا النص الكريم ينبىء عن ثلاثة معان سامية توجب المساواة بين الأجناس ، لأن الأصل واحد ، وهو الأم ، والأب ، كما قال النبي عليه السلام وكلكم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

المعنى الثانى الذى دلت عليه الآية الكريمة أن الاختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس يوجب التعارف ، ولا يسوغ التخالف ، والتعارف يقتضى تعاون أبناء الأرض على استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، بحيث يفيض أهل كل إقليم على الآخر يفاضل ماعنده ، من غير بخص ولا شطط ، ومن غير من ، ولا أذى ، ويقتضى المساواة فى أصل الحقوق الإنسانية الثابتة من اتحاد الأصل ، ويقتضى العدالة ، ولا يرهق جنس آخر بظلم ، أو أذى أو مضايقة أو استعباد .

والمعنى الثالث الذى يدل عليه النص الكريم ، أن الفضل لا يكون بالجنس والعشيرة ، بل يكون التفاضل بالعمل الصالح ، الذى يتقى به صاحبه وجه الله تعالى ، والذى لا يريد به إلا النفع العام ، ودفع الفساد فى الأرض فالإكرام ليس باللون ، ولا بالسامية أو الآرية ، إنما الإكرام بالعمل لخدمة الإنسانية ، وإن النصوص القرآنية كلها تدعو إلى التراحم بين الناس ، فآله تعالى يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً^(٢) .

ونص القرآن على الوحدة الإنسانية ، فقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين^(٣) .

(٢) الحجرات : ١٣

(٤) البقرة : ٢١٣

(١) الروم : ١٣٥

(٣) النساء : ١ .

العدالة الدولية

١٧٨ - والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة . فلا يظلمون شيئاً ، ولا يمتنعون من خير ، والناس جميعاً نسبتهم إلى الله واحدة لقد كانت الدول حتى التي بلغت شوطاً من الحضارة في عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يعدون برابرة ، وليسوا منهم في شيء حتى إن الإسرائيليين الذين يعيشون في حكم الرومان لا يعتبرون رومانين ، ولا يمتنعون هذه الرعاية ، وتلك الجنسية ، باعتبار أن الجنسية الرومانية شرف لا يحوزه إلا الرومان ، وكذلك كان الفرس .

وإن من يعيش في بلد آخر يسترقونه ، حتى إن أفلاطون جرى عليه الرزق ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل الإسلام قد ذهب إلى أرض الروم فاسترقه قسيس روماني ، وأظهر عمر الاستسلام ، حتى اطمان إليه القسيس وخرج معه إلى الصحراء في أرض الشام ، فلوى عمر رقبتة . وكان قوياً في بدنه ، كما صار من بعد قوياً في دينه - وقتله ، وهرب بحريته .

جاء القرآن الكريم فخارب التعصب القبلي ، والتعصب الجنسي، والتعصب الإقليمي ، وجعل الناس كما رأيت أمة واحدة ، لا فرق بين عربي وغير عربي ، كما أشرنا .

وقامت بذلك العلاقة الدولية على أسس العدل ، قال تعالى : **دقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**^(١) ، وقال **جل وعلا** **دفن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**^(٢) .

وقال تعالى : « وإن عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ^(١) . »

وقد نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن العصية الجاهلية ، وبالأول كان النهى عن العصية الإقليمية ، واقد سئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أمن العصية أن يحب الرجل قومه ، قال : لا ، وإن من العصية أن يعين فومه على الظلم .

وسيمكون لذلك شىء من البيان عندما تتكلم عن العلاقات الدولية التى نظمها القرآن .

ومهما يكن من إيجاز فى هذا المقام ، فإنه يجب أن نشير إلى أن شرائع القرآن قسمان عبادات ومعاملات مالية واجتماعية ، وأساس العلاقات المالية والاجتماعية العدالة .

الأحكام الفقهية في القرآن

١ - العبادات :

١٧٩ - قد ذكر القرآن الأوامر التكليفية في العبادات بالإجمال ولم يتعرض لها بالتفصيل كما أشرنا من قبل ، فالصلاة ، تعرض النص القرآني لها بالأوامر بالتكليف بها ، والغاية منها ، وهو إصلاح النفوس ، وتزكية القلوب ، وتربية الوجدان ، كما قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ^(١) » ، وكما قال تعالى في وجوبها ووجوب الوضوء والغتسال « إذا قمتم إلى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى السكمين . وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ^(٢) » .

وجاء الأمر المؤكد بالصلاة في قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ^(٣) » .

وكذلك كان الأمر بالزكاة بجملا ، ولم يبين القرآن شيئا من أحكامها ، ونصابها ومقاديرها ، ولم تذكر إلا مصارفها في قوله تعالى « إنمنا الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ^(٤) » .

والحج من العبادات التي لم تبين أحكامها كلها تفصيلا ، بل ذكر القرآن بعضها ، وإن لم يكن قليلا ، وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سائرهما ،

(١) المنكوبت : ٤٥

(٢) المائدة : ٦

(٣) البقرة . ٢٣٨

(٤) التوبة : ٦٠

وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم «خذوا عني مناسككم» ، لقد بين القرآن أركان الحج وأشهره وموقفه ، وهديه ، والنبي عليه الصلاة والسلام فصل واجباته ، وكان بيانه أكثره عملي .

ومن العبادات الصوم ، وقد طالب القرآن به إجمالاً ، وذكر وقته ، والأعذار التي تبيح الفطر في الجملة ، وأشار سبحانه إلى حكمة اختيار شهر رمضان لقرضية الصوم ، كما قال تعالى : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام آخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ولتكلوا العسرة ، ولتذكروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» (١) .

وهنا يرد على الخاطر سؤال لماذا بينت العبادات بالقرآن إجمالاً مع تأكيدها ، والتفصيل فيها إن استثنيت الحج ، كان قليلاً ، ولا يمكن أن تقام العبادة على وجهها مع ذلك الإجمال .

والجواب عن ذلك أن العبادات هي لب الدين ، وهي قوام اليقين ، وهي ذكر الله الذي به تطمئن القلوب ، وهي التي تربي الضمير وتنيره ، وتقيمه ، وهي التي تربي الضمير الجماعي ، والوجدان الإنساني ، وروح التعاون بين الناس بعضهم مع بعض .

والعبادات هي قوام الجماعات ، لأن تكوين الجماعات لا يكون إلا بأمر معنوي يؤلف بينهم ، ويزيل النفرة ، وذلك بأن يكون المؤمن ربانياً يتجه إلى رب الخلق ، ويسير على ميزان الحق .

ولهذه المعاني في العبادات ، وعموم تطبيقها على كل المؤمنين ، كان لابد من تربية عملية عليها ، وقدوة حسنة في تنفيذها ، وأسوة من الرسول

في القيام بها ، وأن تتوارث تلك الأسوة الأجيال ، وتكون مع القرآن اتصال الرسالة المحمدية ، ولذلك تثبت أحكام العبادات التفصيلية بسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتواترة التي عرفها المسلمون جمعاً عن جمع باقية إلى يوم القيامة .

ولا شيء من العبادات يثبت بالقياس ، بل يثبت بإيجاب القرآن، وعمل الرسول عليه السلام .

٢ - الكفارات .

١٨٠ - الكفارات ، وهي تأخذ جانبيين : جانب العقوبة المادية على ذنب ارتكبه ، أو خطأ ترتب عليه أذى غيره ، وكان يجب الاحتراس من ذلك ، والجانب الثاني فيها معنى التقرب إلى الله تعالى بالتوبة مقرونة بذلك الجزاء ، ولقربها من العبادات ذكرناها بجوارها ، وفوق ذلك هي درة لتقصيرات في العبادات نفسها ، فهمى في هذه جزء منها .

وعلى ذلك نقسمها من هذه الجهة إلى قسمين أحدهما تعويض عن التقصير في بعض العبادات ، أو استعمال الرخص ، أو العجز الكامل عن أداء الفرض ، ومن هذا القبيل رخصة الإفطار للمريض بمرض مزمن ، والشيخ الفاني والشيخة إذا عجزا عن الصيام أو كانا لا يصومان إلا بمسقة فوق الطاقة ، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الكريم ، قال تعالى فيه ود على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين،^(١) أى الذين يبلغون في صومهم أقصى الطاقة التي لا يمكن الداومة على تحملها ، ولذا قال ابن عباس إنها نزلت في الشيخ والشيخة إذا شق عليهما الصوم ، ومن الفدية التي تعد كفارة لبعض التقصيرات في العبادات الهدى في حال عدم القيام ببعض الواجبات التي لا تعد ركناً من أركان الحج ، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم ، وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن ذلك كفارة الصيد في

(١) البقرة : ١٨٤

الحرم ، وقد ثبتت بالقرآن أيضاً ، إذ قال تعالى : د يا أيها الذين آمنوا ليلوننكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً ، جزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً ليندوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ، أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرّم عليكم صيد البر ، مادمتم حرماً ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، (١) .

وهكذا ترى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم ، وهي في موضوع وهي سد لنقص ، أو لاعتداء في عمل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه .

وبجوار هذا النوع من الكفارات التي كانت درءاً للنقص أو لرخصة أو لعدم الاستجابة لأمر ، وموضوعها العبادة هناك كفارات أخرى هي في معنى العبادات في ذاتها ، ولكنها شرعت لمعنى خلقي أو اجتماعي أو لحقوق العبادات وهذا هو القسم الثاني .

ومن ذلك كفارة اليمين ، وهي عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، وقد ثبت ذلك بقوله تعالى د لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم (٢) ، .

(١) المائة : ٩٤ - ٩٦

(٢) المائة : ٨٩

وترى أن هذه الكفارة شرغت لمعنى خلقى ، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان وإخلافها ، والتعرض للمهانة ، كما قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين »^(١) ، وأيضاً ، لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزاً بينهم وبين فعل الخير ، إن حلفوا ، وبدا الخير في غير ما حلفوا عليه ، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم ، كما قال عليه السلام : « من حلف على شيء فرأى خيراً منه ، فليحنت وليكفر » .

وإن الكفارة ذاتها عبادة بدليل أنها كانت صوماً في بعض أحوالها .

ومن الكفارات التي ذكرت في القرآن علاجاً لإحياء الأسرة ، ولمنع الظلم عن المرأة كفارة الظمار ، وهي كفارة من يحرم امرأته على نفسه ، ويجعلها كأحد محارمه من غير إرادة طلاق ، وما كان لشريعة القرآن أن تترك المرأة المظلومة فريسة لسكيات ينطق بها اللسان إيذاءً وظلماً ، ولا يترك المتكلم بها من غير عقاب لغواً عابثاً ، بل لابد من رد الحق ، وعقاب العايب ، فكانت الكفارة ، وتثبت بقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع ، فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، ولللكافرين عذاب إليم »^(٢) .

ونرى أن هذه الكفارة فيها إقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس النفسى من غير إيجاش وإلغائات ، لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهاها ، يلقى بالجفوة في قلب الزوجة فلا تطعن إلى زوجها ، ولا إلى

(١) القلم : ١٠

(٢) المجادلة : ٣ — ٤

الحياة الزوجية الكريمة المتوادة ، ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعاني .

ومن الكفارات التي نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ ، فإن الله أوجب الدية تعويضاً لأسرة المقتول وأوجب الكفارة إذا كان القاتل المخطئ من أهل التكليف ، وذلك لتعويض جماعة المؤمنين ، ولتربية النفس على الاحتراز من الخطأ ، والاحتياط له ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك :
« ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً ، (١) » .

وواضح أن الدية لتعويض الأسرة ، وهي تجب على أسرة الجاني لأسرة المجنى عليه ، وفي وجوبها على أسرة الجاني معنى التعاون الاجتماعي بين الأسرة في دفع الأذى ، والحمل على المعاونة في التأديب النفسى .

والكفارة فيها تعويض جماعة المؤمنين ، لأنه بقوله مؤمن قد نقص عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعقوبة مؤمنة ، لأن العتق ، إعطاء الحرية ، والحرية كالحياة .

وفي الجملة إن الكفارات كلها التي جاء بها القرآن ، وبينتها السنة النبوية فيها معنى العبادة ، وفيها صلاح ، وفيها تعاون اجتماعى لإنسانى .

٣- في الأسرة

١٨١ - قبل أن نتلو الآيات الكريمة التي نصدت لأحكام الأسرة وتنظيم العلاقات بين آحادها ، أو نشير إلى بعض تلك الآية الكريمة لا بد أن ننبه إلى أمرين :

أولهما ما ذكرناه آنفاً من أن العبادات قد ذكرت في القرآن إجمالاً وترك أمر بيانها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشرنا إلى ما أدركنا حكمته لعمل الله تعالى في شرعه وبيان أحكامه .

الأمر الثاني - أن الأسرة ذكرت أحكامها تفصيلاً من وقت تكويناها بعقد الزواج إلى أن يقرر الله تعالى التفريق بالموت ، أو الطلاق ، وذكر أحكام الأسرة الممتدة غير المقصورة على الزوجين ، وما بينته السنة لا يعد كثيراً بالنسبة لما بينه القرآن الكريم .

ثم ذكر القرآن الكريم توزيع المال في آحاد الأسرة ، وفي الميراث ، ويكاد القرآن الكريم يستغرق كل أحكامه في تفصيل لا إجمال فيه .

وهنا يسأل سائل ، لماذا كان التفصيل في أحكام الأسرة ، ولم يترك أمرها لبيان النبي عليه السلام فقط ، ونقول في الجواب عن ذلك إن هذه حكمة علام الغيوب ، وإننا فتلبس معرفة بعض هذه الحكمة ، راجين ألا تكون داخلين في النهي في قوله تعالى : **دولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ، (١) .

وإن هذا بلا ريب من عناية القرآن الكريم بالأمرة ؛ إذ جاء النص على أحكامها بآيات محكمة ، وإذا كانت عناية الإسلام بالعبادات ، جعلت أحكامها عملية يتولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتربي النفوس عليها بالدرية

والتهذيب ، لا بمجرد التلقين ، فعناية الإسلام بالأمرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا ينحرف الناس بأهوائهم عنها ، ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبيلا للتحكم في أموالها ، ونظامها ، ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب ، فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ، ويضع الأمور في مواضعها .

وإن أحكام الأسرة مؤثرة في المجتمع وموجهة له لأن الأسرة هي دعامة البناء الاجتماعي يضطرب باضطرابها ، ويقوى بقوتها ، ولأن الإسلام جاء لإقامة مجتمع فاضل تربطه المحبة ، وتوثق روابطه المودة ، كانت عنايته بأحكام الأسرة ، وأن تكون مستقرة يتصل فيها ماضى الأمة بحاضرها .

ومن الناس من ظنوا أنهم يستطيعون إقامة بناء صالح للأسرة من غير أن يتقيدوا بأحكام القرآن الكريم باسم ما يسمونه « تطور الزمان » ، يقبلون فيه الأوضاع ، فتضطرب الموازين ، ومن الناس من يبالغون في إعطاء المرأة حقوقاً لا تقتضيها فطرتها ، ولا النظام الاجتماعي ، ويحسبون أنهم يسرون بالجماعة إلى الإمام ، وهم يرجعون بها إلى الوراء ، حيث تفسد الطباع وتخالف الفطرة .

ولقد يقول بعض علماء الاجتماع إن النشأة الأولى في جاهلية الإنسان كان فيها السلطان على الأولاد للمرأة كإنثى الحيوان ، أو أكثره ، حتى إذا عرف البيت ، وانتظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان لكل واحد منهما ، ما هيأته الفطرة له ، فالمرأة ترأم الأولاد ، وتقوم على رعايتهم ، والاب يكده ويعمل ليوفر لهم الرزق .

والآن يحاولون أن يقلبوا الأمور ، ويضعوها في غير مواضعها حتى لقد قال بعض المفكرين إننا لو مررنا خطوات بعد ما ابتدأنا السير فيه ،

وأوغلنا ، فستعود الأمور إلى سيطرة المرأة على البيت ، ويكون الرجل غير مستقر في بيت ، ويكون نظام المسافدة

من أجل هذا فيما ندرك وعلى قدر إدراكنا نص القرآن الكريم على أحكام الأسرة بالتفصيل ، حتى لا يتهم المنحرفون لبشرعوا لأنفسهم ما لم يشرع الله ، ويفسدوا الفطرة .

ولقد كان سبحانه وتعالى بعد ذكر بعض أحكامها يقول جل شأنه :
« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار »^(١) ، ومن ذلك قوله تعالى بعد بيان المواريث : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم »^(٢) .

١٨٢ - وأحكام الأسرة التي تعرض لها القرآن تبتدىء من وقت إنشاء الزواج أو التفكيك فيه ، فأوجب الإعلان في الزواج ، فقال تعالى :
« ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم في أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حلِيم »^(٣) .

وبين سبحانه وتعالى في كتابه أن المهر واجب على الرجل ، لأن كل الواجبات المالية على الرجل ، حتى لا تبطل المرأة في كسب المال فتتبدل إلى الهاربة ، وقد قال تعالى في ذلك : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئاً »^(٤) وقرر أن المرأة مستحقة للمهر كاملاً بالدخول بها . وقد قال تعالى في ذلك :

(١) النساء . ١٣

(٢) النساء . ١٧٦

(٣) البقرة . ٢٣٥

(٤) النساء . ٤

وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ، (١) .

وإذا لم يتم بينهما عشرة زوجية ، وكان تفرق قبل الدخول ، فإن المرأة لا تحرم من المهر حرماناً كاملاً ، بل يبقى لها نصفه ، ولأن الرجل لم تقيم بينهما حياة زوجية يشتران عسلاً ، فإنه يسقط عنه النصف وذلك ما قاله سبحانه في القرآن الكريم ، إذ يقول : ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير ، (٢) .

والقرآن الكريم بين من يحل الزواج منهن ، ومن لا يحل بالنص وبعض البيان كان مستغلقاً على بعض الأفهام ، فبينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اقرأ قوله تعالى :

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ، إنه كان فاحشة ومقراً وساء سبيلاً . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، إن الله كان غفوراً رحيماً ، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ،

ولا جناح عليكم فيما تراضيتُم به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليماً حكيماً ،
ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم
من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فإنكحوهن بإذن
أهلهن وآنوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات
أخذان ، فإذا أحصن ، فإن أنين بفاحشة . فعلمهن نصف ما على المحصنات من
العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور
رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ،
والله عليم حكيم^(١) .

ولأن الإسلام يريد مجتمعاً فاضلاً طاهراً ، لا تشيع فيه الفاحشة
أباح تعدد الزوجات إلى أربع فقط ، وقد كان من قبله إلى غير عدد محدود ،
كما ذكرت التوراة فقال تعالى :

« وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء
مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ،
ذلك أدنى ألا تعولوا^(٢) ، أى لا تظلموا .

وشرط لإباحة الزواج في الأحوال كلها العدالة سواء أكان الزواج الأول
أم الزواج الثاني ، ولقد أجمع الفقهاء على أن من تأكد أنه سيظلم امرأته
إن تزوج يكون آثماً لأن الزواج حينئذ يكون موصلاً للظلم فيأخذ حكمه ،
ولكن الزواج لا يبطل ، وليس للحاكم أن يقرر طلاقه ، أو يمنعه ، لكن إذا
وقع الظلم بالفعل كان للقاضي أن يفرق بينهما إن طلبت الزوجة ذلك . وذلك
لمقام النهي في قوله تعالى : « ولا تمسكوهن ضرارا لتمعنتوا ، ومن يفعل ذلك
فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا^(٣) .

(١) النساء : ٢٢ - ٢٦

(٢) النساء : ٣

(٣) البقرة : ٢٣١

١٨٣ - والإسلام إذ جعل دعامة العلاقات الاجتماعية الأسرة فقد دعمها القرآن بوصاياها الحكيمة التي يأثم كل الإثم من خالفها، وتجانف لإثم في العلاقة الزوجية .

أولاً: أمر الأزواج بالعدل وحسن المودة ، والعشرة الطيبة التي تقرب القلوب وتدنئها ، ولا تنفرها وتجنّبها . فقال تعالى : **دعاشروهن بالمروف ، فإن كرهتموهن ، فعضى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً^(١) ،** وقال تعالى : **د فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ،^(٢) وقد تلونا ذلك آنفاً .**

وأمر سبحانه وتعالى ثانياً: كلا الزوجين أن يعمل على إصلاح الآخر ، إن بدا منه اعوجاج ، فيقول سبحانه في القرآن العظيم **ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء التي لا تؤتوهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ، وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين الناس ، ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعاً حكيماً .**

وأمر ثالثاً : **بعلاج نشوز الزوجة ، وعلاج نشوزها إن لم يتمكن من الإصلاح بينهما من غير إطلاع غيرهما عليهما إلا أن يكون من أهل الخير أو الجيران الصالحين ، فقال تعالى :**

(١) النساء : ١٩

(٢) البقرة : ٢٣١

والرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تحافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع وأضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً (١) .

وأمر سبحانه في القرآن رابعاً : لإخراج حكيم إن كان الشقاق متوقفاً ، وبخشي استمراره ، فقال تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً (٢) .

والإسلام وزع واجبات الحياة الزوجية بين الزوج والزوجة توزيعاً عادلاً يتفق مع الفطرة من غير ظلم للمرأة ، ولا إرهاب ولا إذلال لها ، لجعلها قواماً على البيت تديره وتدبره ، وترتي ثمره الزواج ، وعلى الرجل الإنفاق ، واقتد قال تعالى في ذلك : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم ، فآنوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعامرتن ، فترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً (٣) ،

١٨٤ - ولقد تعرض القرآن لثمرات الزوجية ، وهي الأولاد ، وقد تعرض لبيان حالها ومدة الحمل ، والرضاع ، وحال الأم في حال الحمل ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين

(١) النساء : ٣٤

(٢) النساء : ٣٥

(٣) الطلاق : ٦ - ٧

سنة قال رب أرزني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي لاني تبت إليك ، وإني من المسلمين^(١) .
وإن القرآن الكريم بين وقت إرضاعه وعلى من تجب ، وعلى نفقة الولد ،
وعلى من تجب ، فيقول سبحانه .

والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ،
وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ،
لاتضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن
أراد فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن
تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف ، واتقوا
الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير^(٢) .

ولقد عني الإسلام بالمحافظة على الأولاد ، إذا فقدوا آباءهم ، وهم اليتامى ،
وعنى منهما بأمرين .

أولهما : المحافظة على أموالهم ، فيقول تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم
إلا بالتي هي أحسن »^(٣) ويقول سبحانه « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تقبلوا
الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً »^(٤)
ولحرص الإسلام على أموال اليتامى من أن يتبعثر أو أن تذهب ، نهى
الأوصياء عن أن يعطوهم أموالهم قبل أن يذبوهم على إدارة أموالهم ،
فقال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التي جعل الله لكم قياماً ،
وارزقوهم فيها ، واكسوهم » وقولوا لهم قولاً معروفاً ، وابتلوا اليتامى حتى
إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها

(١) الأحقاف . ١٨

(٢) البقرة . ٢٣٣

(٣) الأنعام . ١٥٢

(٤) البقرة . ٢

إمرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ، فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً ، للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه ، أو أكثر نصيباً مفروضاً ، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فازدوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إماماً يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً (١) .

وهكذا نجد القرآن حث على المحافظة على أموال اليتامى ، ونظم طريق المحافظة عليها ، بعد أن تسلم إليهم .

الأمر الثاني الذي حث عليه القرآن الكريم بالنسبة لليتامى أنه منع قهرهم ، وإذلال نفوسهم ، لكيلا تكون لهم عقد نفسية تحول بينهم وبين الاندماج في الأمة ، ولذلك أمر الله نبيه بالآية قمر يتيماً ، فقال تعالى :
وفأما اليتيم فلا تقهر ، (٢) .

وقد أمر المؤمنين الصادقين أن يضموا اليتامى إلى أمرهم ، ويكونوا كأولادهم ، حتى لا يشعروا بذل اليتيم ، فقد قال تعالى ويسألونك عن اليتامى ، قل لإصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، (٣) .

وعنى الإسلامى باليتامى لكيلا ينشؤوا نافرين من الجماعة فيكون منهم المشردون ، وقطاع الطرق ، ويكونون حرباً على أمنها ، فيكونون ذئاب الجماعة ، وهم إن أحسنت تنشئهم يكونون قوة عاملة ، نافعة .

(١) النساء : ٥ - ١٠

(٢) البقرة : ٢٢٠

(٣) الضحى : ٩

وكذلك الأمر في كل مسكين أذنته الحاجة وقهره الفقر ، فإنه يكون قوة إن أكرم وعاملا هداما إن قهر ومنع ، وهؤلاء هم العقبة إن لم يكرموا ولذلك قال تعالى : فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا مقربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، (١) .

وكما أوجب الإسلام رعاية اليتامى ، والقيام على شئون الأولاد ، وتربيتهم على المودة والرحمة والنزوع الاجتماعى أمر الأولاد بإكرام الوالدين ، والإحسان إليهما ، ولو كانا كافرين ، ولذلك ترى ، أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، .

ويذكر الله تعالى من وصايا لقمان لابنه : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لى ولو الديق إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفًا ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون ، (٢) .

ولقد حرص القرآن على الوصية بالوالدين عندما يصيبهما الضعف ، ويكونان فى حاجة إلى النظرة الرفيعة الطيبة ، فيقول سبحانه فى كتابه الكريم : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، (٣) .

(١) البلد : ١١ — ١٧

(٢) لقمان : ١٣ — ١٥

(٣) الإسراء : ٢٣

وهكذا يربي القرآن الكريم الأسرة ، ويقومها على دعائم من المودة ،
والرحمة ، ورعاية القوى للضعيف ورحمة الكبير بالصغير ، وإكرام
الصغير للكبير ..

انتهاء الحياة الزوجية غير الصالحة .

١٨٥ - تقوم الحياة الزوجية في الإسلام على أساس المودة الواصلة
والرحمة بين الزوجين ، وتنشئة الأولاد على نزوع الرحمة والتآلف ،
والإتلاف بالمجتمع ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى : « ومن
آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة
ورحمة ، (١) » .

ووصف سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله تعالى : « من لباس
لكم ، وأتم لباس لهن ، » وأثبت أن الزواج للإنسال والرحمة بين الناس ،
فقال تعالى فيما تلونا من قبل : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من
نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا
الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ، (٢) » .

وإذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على المودة والتفاهم ، لا على المباغضة
والتنافر ، فإنه إذا تنافرت القلوب ، وأصبحت غير قابلة للالتئام ، فإن
بقاء هذه الحياة ليست في صالح الأسرة . ولا في مصلحة المجتمع المتواد
المتراحم ، ولقد عالج القرآن كما رأينا هذه الحال عندما تشعب القلوب ، فإذا
لم يجد علاج بينهما ولا علاج من ذويهما ، فإن الإنهاء أولى من الإبقاء ،
ولذلك قال تعالى فيما تلونا ، « وإن يترفا يفن الله كلا من سمعته (٣) » ، فعندئذ
يكون الطلاق أمراً غير محظور .

(١) الروم : ٢١

(٢) النساء : ١

(٣) النساء : ١٣٠

ويلاحظ أنه عند الطلاق الذي يكون بيد الرجل عندما تحل البغضاء محل
المودة أنه لا بد من تحقيق أمور ثلاثة :

أولها - التسريح يكون بإحسان من غير مشاحة ، ولا معاندة ، فقد
تلونا قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فامسكوهن بمعروف
أو مسرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » (١) .

والإحسان يوجب أن يعمل على أن تكون نفسها طيبة بإنفاق مال
عليها ويكون متعة طلاقها ، وقد أوجبها القرآن في قوله تعالى : « وللمطلقات
متاع بالمعروف حقاً على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
تعقلون » (٢) .

ولقد أوجب الشافعي وأحمد بمقتضى هذه الآية المتعة لكل مطلقة
مدخول بها . وذلك نص كتاب الله تعالى .

الأمر الثاني الذي أوجبه القرآن الكريم أن يكون الطلاق رجعياً ،
بحيث يكون للمطلق الحق في أن يرجع زوجه إليه قبل انتهاء عدتها ، وهي
في الغالب تقدر بنحو ثلاثة أشهر تقريباً ، هي مقدار ثلاث حيضات ، وقد
ثبتت الرجعة بقوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ،
ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم
الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ، إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل
الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهم درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق
مرتان فأمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٣) .

وإن هذه الآيات الكريمة صريحة في أن الطلاق يكون رجعياً ، وأن
الأجل للرجعة هو ثلاثة قروء أي ثلاث حيضات ولكن تحتسب الطلقة

(١) البقرة : ٢٣١

(٢) البقرة : ٢٤١ - ٢٤٢

(٣) البقرة : ٢٢٨ - ٢٢٩

من ضمن ثلاث الطلقات التي يملكها . وإن الرجعة تثبت في الطلاق الأول والثاني ، أما الثالث فلا رجعة فيه .

ولقد قال تعالى في ثبوت الرجعة أيضاً : وبأيها النبي إذا طلقتن النساء ، فطلقوهن لعدنهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجنوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، ونلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً ، (١) .

وهذه الآيات تدل على ثلاثة أمور : أوها - أن الطلاق لا يكون إلا رجعيًا ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله تعال كلماته : ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، وأن الطلاق حيث يمكن الرجوع من حدود الله التي لا يجوز أن يتعداها المالكف .

وثانيها - أن الإسهاد على الرجعة واجب حتى تكون المرأة على علم بالرجعة ، وحين تشتتم بين الناس إعادته الحياة الزوجية ، ولأن شرط صحة الزواج الشهادة . فيكون شرط إعادته الشهادة أيضاً .

وثالثها - أنها لا تخرج من بيت الزوجية ، ولا يخرجهما منه .

وذلك هو الأمر الثالث الذي قررنا أن القرآن أوجبه .

المطلع :

١٨٦ - واضح من هذا أن الرجل إذا نفر من زوجته ولم يكن سبيل

لإزالة نفرتة كان له أن يطلق في الحدود التي بينها . ومع الواجبات التي أوجبها القرآن ، فإذا نفرت المرأة من عشرة الزوج ، فهل تبقى مع هذه النفرة ، التي حاول الزوجان ، وذووهما إزالتها ، فلم يستطيعوا ، هنا تجلت العدالة التي قررها الله تعالى في قوله تعالى : **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف** ، (١) فكما أن الرجل له أن يوقع الطلاق إذا نفر من زوجته وتأكدت النفرة ، وشدد في أن يكون الطلاق رجعياً . لأنه عسى أن تكون النفرة لأمر عارض وقد زال ، فهو أحق بامرأته .

إذا كان الأمر كذلك في الطلاق عند نفرة الرجل ، فإنه يفرض أن هذه النفرة قد تكون منها وتكون العشرة مباحضة ، ومع المباحضة العنت ، لذلك شرع الخلع ، وكان الخلع بالاتفاق بينهما ، وقد يكون بحكم القاضي إن ترافعا إليه .

ولماذا كان الخلع في حال نفرة المرأة ؟ الجواب عن ذلك أن الرجل ينفق في سبيل الزواج مالا ، وقد يكون كثيراً ، وذلك بحكم القرآن ، وقد يكون كل ما يملك ، ويستقبله زواج آخر يقيم به حياة زوجية ، بدل هذه الزوجية التي أبغضت فيها المرأة ، ولا يمكن العشرة مع بعضها ، فكان لا بد من أن يأخذ ما أنفق أو بعضه .

وهذا هو الخلع ، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى بقوله : **ولا يحل لکم أن تأخذوا مما آتیتموهن شیئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله** ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون ، (٢) .

الطلاق ثلاث مرات :

١٨٧ — شرع الله الطلاق ثلاث مرات . سواء أكان بإيقاع الزوج

(١) الآية : ٢٢٨ .

(٢) الآية : ٢٢٩ .

منفرداً ، أم كان بانفاهما في الخلع ، أو بحكم القاضى فإذا وقعت الطلقات الثلاث بثلاث مرات ، فإنها لا تحل له إلا بعد أن تزوج زوجاً غيره بزواج شرعى صحيح على نية البقاء ، لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد لأمر عارض أو توفى عنها زوجها ، فإن لهما أن يتزوجا من بعد ، ذلك ما بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته ، وتسامت أحكامه ، فإن طلقها ، فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها ، فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يعلمون (١) .

وكان تحرهما بعد الطلقة في المرة الثالثة ، لأنها تدل بعد التجربة على أن الحياة لا تستقيم بينهما على ما هما عليه ، من أخلاق ، أو تنافر ، فكان لا بد من تجربة تكون شديدة عليهما إن كان ثمة محل للصالح ، أو احتمال له . وكانت تلك التجربة أن تزوج آخر . فإن كانت الإساءة من جانبها كانت عشرة الآخر مهذبة لها أو مقرر لما كان منها ، وإن كانت الإساءة من جانبه ، فإنه يراها في أحضان رجل آخر ، فيشير ذلك أسفه على ما كان منه .

فإن انتهت التجربة ، وتلاقيا من بعد ، كان ذلك بعد تهذيب في تجربة شديدة .

العدة :

١٨٨ — إذا تم الافتراق بين الزوجين سواء كان المفرق هو الموت أم كان المفرق هو الطلاق ، فإنه لا بد من عدة تنتظر المرأة فيها ، فلا تزوج زوجاً آخر ، استبراء لرحمها من مظنة الحمل ، وإحدادا على الزواج السابق وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه إذا كان الطلاق رجعياً .

وإذا كانت المرأة حاملاً ، فالعدة تكون بوضع الحمل ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٢) ، سواء أكان الفراق

(٢) الطلاق : ٤

(١) البقرة : ٢٣٠

(م ٣١ - المعجزة الكبرى)

بالطلاق أو الخلع ، أم كان بالموت ، ورأى ابن عباس وعلى رضي الله عنهما أن تكون العدة بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام ، إعمالاً لآية العدة «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشر ، والآية السابقة .

وعدة المطلقات ثلاث حيضات لما تلونا من قوله تعالى : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» (١) والقروء هي الحيضات .

وإذا كانت المطلقة قد بلغت سن اليأس ، وقد ينست من الحيض ، أو لم تر الحيض أصلاً فعدتها تكون بثلاثة أشهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : «واللاتئى ينسن من الحيض من نساءكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتئى لم يحضن» (٢) .

ولا بد قبل ترك الكلام في العدة كما ورد منها في نصوص القرآن الكريم لا بد من التنبيه إلى ثلاثة أمور : أولها : أن العدة بالنسبة للمطلقات إنما تكون لمن دخل بها ، وذلك لقوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها» (٣) . أما المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد عدة الوفاة ، ولو لم يدخل بها ، لأن النص الكريم «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ، لم يفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها .

الثاني : أن المطلقة تبقى في بيت الزوجية في مدة العدة ، ولا تخرج منه ولا يجوز إخراجها ، وقد تلونا في ذلك قوله تعالى : «لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأنين بفاحشة مبينة» (٤) .

(١) البقرة : ٢٢٨

(٢) الطلاق : ٤

(٣) الأحزاب : ٤٩

(٤) النساء : ١٩

والمتوفى عنها زوجها صرح القرآن بأنها تبقى في بيت الزوجية حولا لا يجوز للورثة وأولياء الميت أن يخرجوها منه ، وذلك بصريح القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن ، فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم ، (١) .

فهذا النص الكريم يدل على أن المتوفى عنها زوجها لها أن تبقى في بيت الزوجية الذي مات به الزوج حولا على أن يكون ذلك متاعاً وحقاً ، فلا يجوز إخراجها ، لأنه يكون انتزاعاً لحقها ، ولكن يجوز لها أن تخرج ، وإن ذلك بلا ريب حفظ للمرأة من الضياع ، وصيانة لحرمة الزوج المتوفى .

الأمر الثالث : أن نفقة الزوجية تبقى في العدة ، لقوله تعالى : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ، والحمل لا يعرف إلا بعد الولادة ، فيفرض وجوده في كل معتدة من طلاق ، وخصوصاً أن قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله ، (٢) هو عام للحامل والحائل على سواء .

تليها :

١٨٩ — يلاحظ أن المرأة في الزواج لها حقوق ، وعليها واجبات ، وأن الزواج لا يفرض عليها من وليها ، بل لابد من اختيارها ورضاها في أصل العقد وفي المهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في المهر ، فقال تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة ، (٣) .

ومنع القرآن الكريم بصريح اللفظ عضل المرأة بمنعها من الزواج ، أو تزويجها بمن لا تريد ، وقال تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك أذكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) .

والتنبيه الثاني : أن المرأة تأخذ نصيبها كما يأخذ الرجل نصيبه من المال مع التفاوت : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (٢) .
وإن هذا النص فوق دلالته على وجوب توقيف ميراث النساء يدل على أن ذمة المرأة منفصلة عن ذمة الرجل ، سواء أكان زوجاً أم كان أباً أو أخاً أو قريباً بأى درجة من درجة القرابة .

الأسرة في الإسلام ممتدة

١٩٠ — هذا اللفظ استعرناه ممن يكتبون في علم الاجتماع في هذه الأيام ، فهم يقسمون الأسرة إلى قسمين ، قاصرة وممتدة ، ويقصدون بالقاصرة الزوجين ، وأولادهما ، ويقصدون بالممتدة ما يشمل ذوى القربى جميعاً من أصول وفروع ، وحواش قريبة وبعيدة بحيث يشمل الأقربين وغيرهم .

وقد جاء الإسلام منظماً العلاقة بين النوعين ، والقرآن في محكم آياته تعرض لأحكام الزوجين والأولاد ولم يترك أحكام بقية ذوى القربى ، وقد حث بالنسبة لذوى القربى الذين يشملون الأسرة القاصرة أو الممتدة على مراعاة الرحم ، وذكر الواجبات إجمالاً بالنسبة لصللة الأرحام ، فأوجب مراعاة

هذه الصلة التي أوجدتها الفطرة ، مهما تشعبت الفروع ، وتكاثرت ، فقال تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) وجعل سبحانه من أقرب القربات إلى الله تعالى إعطاء ذوى القرابة بسبب القرابة فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢) .

ونرى أنه سبحانه جعل من أول أبواب البر إعطاء ذوى القربى بسبب القرابة ، لا لفقيرهم ، ولا لحاجتهم ولكن صلة لهم ، وإبقاء لحبل المودة فى القربى أن يبقى .

والوصية بأولى القربى كثيرة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً وذى القربى » (٣) ، وقوله تعالى فى قصة الميراث : « وإذا حضر القسمة أولو القربى ، واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولاً معروفاً » (٤) ، وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » (٥) ، فالمودة فى القربى أجر يعطيه العبد لربه . وهكذا نجد نصوص القرآن .

١٩١ — وقد ذكر القرآن الكريم حقوقاً وواجبات متبادلة فى القرابة ، نذكر منها ثلاثة :

أولها — أن الدية فى القتل الخطأ تجب على الأسرة ، وتعطى الأسرة ،

(٣) البقرة : ٨٣

(٢) البقرة : ١٧٧

(١) الأتقال : ٧٥

(٥) الشورى : ٢٣

(٤) النساء : ٨

فهي تجب على الأسرة بمعناها الممتد ، وقد قال تعالى : « وما كان يؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، » (١) .

وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد ، فهي تتعاون في غرم الجرائم تدفعه ، وفي تعويضها تأخذها ، ولذلك لا يجب إلا إذا كانت الأسرة مؤمنة ، أو كان بينها وبين المسلمين ميثاق تجب بمقتضاه الديات ، ولا تسقط إلا إذا كان من قوم عدو للمؤمنين ، فإن الدية تكون إعانة لهم على الاعتداء .

ثانيها — أن الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى وقد ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوت بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديفكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ، » (٢) .

ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الحكيم أنه لا إثم على من يأكل في بيوت هؤلاء عند الاحتياج ونفي الإثم يشير إلى أنه حق ، إذ أن تناول الحقوق لا إثم فيها .

(١) نساء : ٩٣

(٢) نور : ٦١

وقد يقال إن ذلك لم يكن مقتضراً على القرابة ، بل ذكر الصديق ، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة . ونقول إن ذلك الحق سببه العجز ابتداء ، ولذلك ذكر في أول الآية ذوى العجز عن الكسب ، فكان الكلام كله في أهل العجز ، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء ، فإن لم تكن له قرابة يلزمها الشرع ، كانت المودة التي توجبها الصداقة مبرراً للأكل ، وإن كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء ، فإنه يجب عليه ديناً ويأثم فيما بينه وبين الله ، إن كان قادراً ، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعاً ولذلك كانت المؤاخاة وفي ذلك إرشاد خلقي اجتماعي حكيم لواجبات الأصداقاء نحو أصدقائهم .

الحق الثالث حق الميراث :

ولذلك بعض التفصيل ، فقد ذكره القرآن مفصلاً .

الميراث

١٩٢ — تولى القرآن الكريم بيان الميراث بالتفصيل ، ولم يكن في السنة النبوية تفصيل لمجمل في القرآن ، ولكن فيها تطبيق لأحكامه ، وتوضيح لما عساه يستتبع على بعض الأفهام ، أو لما يحاول به بعض الناس من انحراف عن أحكام القرآن ، وتأثير ببعض أحكام الجاهلية ، كحرمان النساء من الميراث .

والآن نتلو أكبر آية في بيان الميراث . وهي قوله تعالى :

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلمن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة ، فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأنه السدس من بعد وصية يوصي

بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد ، فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ، إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلمن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله ، والله عليم حلِيم ، تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله يتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . وله عذاب مهين ، (١) .

في هذه الآيات الكريمات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين ، والزوجين ، وميراث أولاد الأم ، ولكلالة هنا أولاد الأم ، كما ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيقه لأحكام القرآن في الميراث .

وهناك كلالة أخرى ، وهي كلالة الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب ، وقد بينها الله سبحانه وتعالى بقوله : « يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ، إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلمها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كاتتا اثنتين فلمهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ، (٢) .

ولا ننسى قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، (٣) ، فإنها كما تدل على المودة بين أولى القربى تدل على أولوية الميراث

(١) النساء : ١١ — ١٤ .

(٢) النساء : ١٧٦ .

(٣) الأنفال : ٧٥ .

أيضاً . ولذا اقترن بها قوله تعالى د في كتاب الله تعالى ، .
وهذا نرى أن القرآن الكريم تولى الأحكام في الملكية بالخلافة
الإجبارية بعضه بالتفصيل وبعضه بالإجمال الذي يعنى عن التفصيل .
وقد كان عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيق أحكام الكتاب ،
ولنضرب لذلك مثلاً ، أن عبيد الله بن مسعود سئل عن بنت وأم وأخت
شقيقة فجعل الأخت الشقيقة قائمة مقام الأخ الشقيق تأخذ الباقي ، وقال
ذلك قضاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وطبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : د وأولو الأرحام
بعضهم أولى ببعض في كتاب الله (١) ، فقرر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه
بعد أن يستوفى أصحاب الفروض فروضهم ، ولم يكن أب وأبن أن الميراث
يكون لأقرب رجل ذكر ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : فإن بقي بعض
أصحاب الفروض ، فلأقرب رجل ذكر ، ، ولاشك أن ذلك الحديث
النبوى تطبيق دقيق ، لقوله تعالى د وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في
كتاب الله ، فالأولوية تقتضى أن يكون الأقرب أحق بالميراث ، أو بما
يبقى منه .

وقد ثبت بالسنة أن المتوفى إذا ترك بنتاً وبنت ابن مات أبوها . فإن
البنت يكون لها النصف ، ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين اللذين يكونان
للبنات ، فإذا أخذت البنت الواحدة النصف ، فإنه لا يذهب باقي الثلثين ،
بل يكون لبنت الابن ، لأنها بنت للمتوفى مجازاً ، وذلك تطبيق
للنص القرآنى .

وقد ثبت أيضاً أنه إذا كان المتوفى أم ، وأخت شقيقة استحققت النصف
فقط ، وهناك أخت لأب ، فإنها تأخذ السدس تكملة للثلثين ، حتى لا يذهب

ما فوق النصف، وذلك بتطبيق رسول الله لقول الله تعالى، فان كانتا اثنتين فلمما الثلثان مما ترك .

وبهذا يتبين أن القرآن تولى أحكام الميراث بالتفصيل في أصحاب الفروض، والعصبة في الأولاد والآباء وبالإجمال في باقي الأحكام، والسنة النبوية طبقت القرآن، وكانت بياناً للناس .

ما يلاحظ على توزيع القرآن العادل :

١٩٣ - يلاحظ على ذلك التوزيع العادل الذي تولاها القرآن ما يأتي :

أولاً : أنه جعل للنساء ميراثاً . ولم يكن العرب في الجاهلية يعطون للنساء ميراثاً ، وإنه في سبيل تكريم الامومة ، وقرابتها جعل لأولاد الام ميراثاً لا يقل عن السادس، ولا يزيد على الثلث، وجعلهم يستحقونه بوصف أنهم كلاله . أى لا يوجد ميراث بأصول وفروع، ومع ذلك جعلهم يرثون مع وجود الام .

ثانياً : أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب ، لأن العبرة في استحقاق الميراث أن يكون لمن بعد وجودهم امتداد الحياة المتوفى في الوجود، ولذلك كان أكبر الأسرة حظاً في الميراث الأولاد، وأولادهم الذين ينتسبون إليه . ومع أنهم أكثر الأسرة حظاً في الميراث لا ينفردون به ، بل يشاركونهم فيه الأبوان والزوجان . وإنهم ليشاركونهم بمقدار قد يصل إلى النصف أو إلى قريب منه .

وإن مشاركة غيرهم هو لمنع تركيز المال في ورثة بأعيانهم ؛ فالأبوان إذ يأخذان مع الأولاد الثلث يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم غالباً إخوة المتوفى ، فيكون الاشتراك في المال بدل الانفراد ، وإذا لم يكن أب فقد

بأخذ إخوة مع الأولاد إن كانوا إناثاً . وبذلك يتبين أن كون الميراث للأقرب لا يمكنه من الاستئثار بالتركة وحده .

والثالث : بما يلاحظ في الميراث مقدار الحاجة ، فكلما كانت الحاجة أشد كان قدر الميراث أكبر ، ولعل ذلك هو السر في أن نصيب الأولاد كان أكبر من نصيب الأبوين مع أنه من المقرر شرعاً أن الأبوين في مال أولادهما نوع ملك ، كما ورد في الحديث ، أنت ومالك لأبيك ، ، ولكن حاجة الأولاد إلى المال أشد لأنهم في غالب الأحوال ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ، ولها تكليفاتها المالية ، والأبوان يستدبران الحياة ولهم فضل من المال فحاجتهما إلى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف ، وفوق ذلك ما يرثانه يكون لأولادهما . ولا يكون منه لهذه الذرية الضعاف .

وإن ملاحظة الأثر أكثر احتياجاً هي التي جعلت نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، وذلك لأن التكاليفات المالية على الذكور ، وتكاليفات الرجل المالية أكثر من تكاليفات المرأة ، فهو المطالب بنفقة المرأة نفسها ، وهو المطالب بنفقة الأولاد ، وإصلاح حالهم وهو الذي يمد الأسرة بكل حاجاتهم ، وإن الفطرة الإنسانية هي التي جعلت المرأة قواماً على البيت ، والرجل كادحاً عاملاً لتوفير القوت ، فكانت قاعدة أن العطاء في الميراث على قدر الحاجة موجبة لجعل حق الرجل أكبر من حظ المرأة ، فالأخ يحتاج إلى المال أكثر من أخته ، وإن ملاحظة الحاجة هي العدل ، والمساواة عند تفاوت الحاجة هي الظلم ، فأولئك الذين يطالبون بمساواة المرأة في الميراث مع الرجل لا يطالبون بالمساواة العادلة .

والرابع : أن الشارع الإسلامي كما لاحظنا في ميراث الأولاد اتجه إلى التوزيع بين الأقارب بدل التجميع ، فهو لم يجعل وارثاً يستبد بالتركة كلها ، لم يجعل الميراث للولد البكر ، دون غيره ، ولم يجعل التركة كلها للأولاد

ذون الآباء ، ولم يجعل يد المورث مطلقة يختص بتركته من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل جعل نظام الميراث إجبارياً في ثلثي التركة ، ووزع الثلثين من التركة ، بين عدد من الورثة ، والصورة التي يختص بالتركة فيها واحد فقط نادرة ، وهي تكون حيث يقل الأقارب ، وفي هذه الحال تكون ثمة وصية للأقارب غير الوارثين ، على ما سنبين في الوصية إن شاء الله تعالى .

وإذا انتقل الميراث إلى الحواشي كالأخوة والأخوات ، والأعمام - يوزع بينهم من غير أن يستبد بعضهم بالميراث كله ، بل من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فإذا كان هناك أشقاء وإخوة لأم كان الميراث للجميع ويكون للأخوة الثلث .

وهكذا نجد الميراث في القرآن ، وفي بيان السنة للقرآن وتطبيعه نجد الميراث يتوزع ولا يتجمع ، وإن التجمع في وارث واحد يكون فيه بلا ريب ظلم للباقيين ، ولا يكون المال دولة بين ناس من الأسرة ، والآخرين محرومون محدودون ، بل لا يكون المال في الأمة كلها دولة بين الأغنياء ، والحرمان للباقيين .

١٩٤ - إن من المقررات الشرعية أن الميراث يدخل ملكية الوارث في الثلثين جبراً عنه ، وبغير إرادة المورث ، بل بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى التوريث بالخلافة الإجبارية ، وهي تكون في ثلثي التركة ، ويقولون أيضاً إن الثلث يكون للوصية ، وقد فرض القرآن الوصية ، بل إن صيغته في التحريض كانت صيغة إيجاب ، فقد قال تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ، فمن بعده بعد ما سمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ، فمن خاف من موص جناً أو لاثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم ، (١) .

وإن هذا النص يستفاد منه جواز الوصية ، بل وجوبها عندما تكون في موضع بر بأن تكون في الأقربين ، فهي سد لما عساه يكون في توزيع الميراث من حرمان بعض ضعفاء الأقارب من الميراث ، إذالم يكونوا في نظام التوزيع ، فهي في وضعها بجواز الميراث تكميل لأحكامه . فقد تكون الأخت الفقيرة لا يصل إليها الميراث لوجود الأبناء ، فكانت الوصية التي كتبها الله تعالى في الثلث سداً لحليتها .

وإنه بمقتضى هذا النص تكون الوصية واجبة لفقراء الأقارب غير الوارثين ، وذكر الوالدين لأنهما قد يكونان غير وارثين ، لاختلاف الدين ، كما كان الأمر في صدر الإسلام ، إذ كان الرجل يكون مشركاً والمرأة كذلك ، وولدهما قد هداه الله تعالى إلى الإسلام ، فيكون عليه أن يوصي لهما ، لأن ذلك من الإحسان ، والمصاحبة لهما بمعروف ، كما قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً » (١) .

ومن العلماء من قال : إن نصيب الأبوين من الميراث إن كان قليلاً تصح الزيادة عليه بالوصية ، وكذلك الأقربون من الورثة إن كان نصيب أحدهم ضئيلاً ، لا يضمن ، ولا يغنى من جوع ، جاز زيادته بالوصية من الثلث . وذلك ما تنفيده الآية ، وقوله تعالى بالمعروف معناه بالأمر المعقول فلا يزيد القادر ذا المال على ماله ، ولكن يعطى الضعيف ذا الحاجة الذي لم يأخذ شيئاً من الميراث .

ودلت الآية الكريمة على جواز التدخل في الوصية إذا كان فيها ظلم للورثة بالميل الظالم أو كان فيها إثم كالوصية لحليله ، أو الوصية لحانة ، فإنه يجوز في

هذه الحال الدخول للإصلاح وتحويل الوصية إلى خير ، ولذلك قرر بعض الفقهاء أخذاً من هذه أن إبطال الوصية الظالمة ، أو إصلاحها بحكم القضاء جائز .

ومن التابعين من قرر أن الميت إذا ترك الوصية لأقاربه الضعفاء غير الوارثين ، كانت لهم وصية ، وأوجبها ابن حزم ، والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد من المصلح .

١٩٥ - هذا هو نظام الملكية بالخلافة جعله القرآن إجبارياً في الثلثين كما بينت السنة ، وجعله اختيارياً للوارث في الثلث ، وأوجب أن يكون في غير إثم ، وأنه يجب إبطاله إن كان إثمًا .
واختص القرآن الكريم الأقارب الضعفاء الفقراء بإيجاب الوصية لهم بالمعروف ، وقد وضعنا ذلك آنفاً .

وإذا وازنا نظام الملكية بالخلافة بأى قانون من قوانين العالم في الماضي والحاضر ، ما وصل إلى العدالة فيه نظام مهما يكن لإحكامه .

ولقد تصافرت كلية القانونيين من علماء الغرب الذين اطلعوا على الشريعة أن أعدل نظام للملكية بالخلافة هو نظام الإسلام ، فكل نظام للتوريث غير نظام الإسلام ظالم أو ناقص ، وبذلك يعترف كل دارس منصف .
وإن هذا النظام جاء به القرآن الكريم ، ونادى به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي لم يدرس على معلم . ولم يكن إلا في بلد أمي ، ليس فيه معهد ولا جامعة ، أفليس هذا دليلاً قاطعاً على أنه من عند الله تعالى .

١٩٦ - وقد يقول قائل أطلت في ذكر نظام الأسرة في القرآن ، وربما يكون ذلك خروجاً عن الكلام في القرآن إلى الكلام في الأسرة .
وقول في الجواب عن ذلك ، إننا نتكلم في علم الكتاب ، فهما نتكلم

في الأسرة ، فإننا نتكلم في موضوع علم القرآن الذي علمنا الله تعالى إياه ، وإننا لم نأت بكل ما جاء في القرآن عن الأسرة ، ولكن اكتفينا ببعض ما جاء ليكون دليلاً على ما وراه وإشارة لما بعده .

وقد ذكرنا الأسرة في القرآن ، وتكاد كل أحكامها تكون ثابتة بالقرآن الكريم ، والسنة مبينة لبعض ما يحتاج إلى بيان كلفظ القروء في قوله تعالى : د والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، (١) . فالسنة هي التي يثبت أن القروء هي الحيضات على أصح الروايات في السنة .

ولقد قررنا من قبل ما نتلسه حكمة لتصدي القرآن لكل أحكام الأسرة .

ونقول الآن إن أحكام الأسرة في الإسلام كانت موضع تهجم من بعض الذين ليس للدين حريجة في صدورهم من الرجال والنساء ، فأرادوا أن يجعلوا الأسرة الإسلامية خاضعة لما سموه تطوراً ، وما تطورهم إلا تجانف لناحية المسيحية ، فالمسيحية في زعمهم تحرم تعدد الزوجات ، والمسيحية في زعمهم تمنع الطلاق ، فيجب أن تكون الأسرة في الإسلام تمنع التعدد ، وتمنع الطلاق (٢) وهكذا دفعهم التقليد ، والإسلام يجعل للرجل قوامة على المرأة ، وهم لا يريدون ذلك ، ويريدون أن يكون البيت فوضى ، وهكذا .

ولقد وصل بهم الإنكار لحقائق الإسلام أن تهجموا على نظام الميراث ومنهم من يتمرد عليه ، اتباعاً لأهوائهم ، ونحن نقول لهم : دعوا التقليد الأعمى ، ودعوا التفكير الأعوج واعلموا أن الأمر في ذلك أمر القرآن

(١) البقرة . ٢٢٨

(٢) وقد كتبنا بحثاً في بيان أن التعدد كما جاء في القرآن ، والطلاق أمثل نظام لتكوين

أسرة فاضلة نشر في السنة الخامسة عشرة من مجلة القانون والاقتصاد .

ومن علم غير القرآن فقد كفر ، فإن تمردتم باسم التطوير ، وهو عى التقليد فاعلموا أنكم على شفا جرف من الكفر ، لأن من أنكر أحكام القرآن ، أو من خالفها جاحداً ، فهو كافر ، فكونوا كما تشاءون ، فإن كنتم مؤمنين فخذوا بالقرآن ، وإن كنتم غير ذلك ، فلكم دينكم ولى دين ، .

٤ - الزواجر الاجتماعية

١٩٧ - هذا هو القسم الرابع من الأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقد شرع القرآن من العقوبات الرادعة ما تطهر به المجتمعات من الرذيلة ، وتنتجها بأحبة الفضيلة ، ويتحقق الخير فى كل مظاهر الحياة خالياً من أدران الشر .

والعقوبات فى الإسلام قسمان عقوبات مقدرة ، وعقوبات غير مقدرة والعقوبات المقدرة تعد أعلى العقوبات فى نوعها ، وغير المقدرة تعد دون الأعلى ، وقد تولى القرآن الكريم بيان أكثر العقوبات المقدرة ، والعقوبات غير المقدرة ترك تقديرها للقاضى أو ولى الأمر إن رأى أن تقييد القضاة ، فالإسلام يذكر الحد الأعلى للعقوبة وترك للقاضى تقدير مادونها على ماقررنا . والعقوبات المقدرة قسمان: قسم فيه حقوق العباد واضحة ، كالقصاص ، وقسم كان لحماية المجتمع من شروره ، وحق العباد فيه ليس فى وضوح الأول .

وفى الأول كان للجنى عليه أوليائه حق العفو ، كما سندين . أما الثانى فلا عفو فيه ، لأنه حق الله .

وأول نص فى العقوبات التى كانت لحق العبد أو حق العبد فيها أوضح من غيره من عقوبة القصاص وهى عقوبة توىء إليها الفطرة ؛ لأن العقوبة مساوية للجريمة ، ومن جنسها ، وقد نص عليها فى القرآن فى عدة آيات ، منها

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحرب بالحر ، والعبد بالعبد ، والآثى بالآثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) .
وفي هذه الآية نجد القصاص في الأنفس ، وآية أخرى تعمم القصاص في الأنفس والأطراف ، بل الجروح ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك مبيناً ما كان في التوراة ، وهو في الشرائع السماوية كلها : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون » (٢) .

وهذه الآيات الكريمات تدل — أولاً — على أن القصاص شريعة النبيين أجمعين ، طبقه النبيون على الذين هادوا ، وطبقه من بعدهم الربانيون والأحبار ، ويطبقه أهل الإيمان من أمة محمد كما قال سبحانه وتعالى : « وأنزلنا الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ، وإكن ليبولكنم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٣) .

(١) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩

(٢) المائدة : ٤٤ — ٤٥

(٣) المائدة : ٤٨

وإن هذا النص الكريم يدل - أولاً - على وحدة الشرائع السماوية فيما يتعلق بالقصاص ، فهو شريعة عامة ، مشتقة من الفطرة الإنسانية ، فهي عقوبة طبيعية لامراء فيها .

وتدل ثانياً على أن القصاص كما يقع في الأنفس ، لأن فيه حياة الجماعة حياة آمنة مطمئنة ، يقع أيضاً على الأضراف ، لأن فيه حفظ سلامة الإنسان ، ومنع التشويه ، إذ أن التشويه الإنساني يكثر إذا لم يكن عقاب رادع يجعل الجاني عندما يقدم على جريمته يتوقع أن يقع عليه مثلها ، وذلك أمتع للجريمة ، كما قرر بعض علماء القانون الذين درسوا النفس الإنسانية في الأحاد والجماعات .

وتدل ثالثاً - على أن الجروح يجرى فيها القصاص ما أمكن ، وقد استنبط من هذا بعض الفقهاء أن القصاص يجرى في اللطم والضرب بالسوط وغيره .

وتدل رابعاً - على أن الترغيب في العفو لإبعاداً لأحن القلوب ، وتقريباً للنفوس ، ولذلك اعتبر العفو في موضعه من غير تشجيع للجريمة صدقة ، وقال سبحانه ، « فمن تصدق به فهو كفارة له ،

وإن القصاص في موضعه لإحياء للنفس المحننى عليهم ، وإحياء للجماعة ، وهو القضاء على الأحقاد والضغائن المستكنة في القلوب ، إن لم يكن سبيل لردعها ، فقد قال تعالى بعد أن اعتدى قابيل على أخيه هاويل شفاه لغيظه وحسداً وحقداً : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسالهم بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ، (١) .

وإن هذا يدل على أن القصاص لإحياء للنفوس ، وتهذيب للجماعة .

١٩٨ - وإن القصاص فيه حفظ للنفس ، فإن حفظ النفس يقتضى حفظ الأطراف وحفظ كل الأجزاء ، وهو حق للعباد لأنه عقوبة إعتداء مباشر عليهم ، ولذلك كان قابلاً للعفو ، كما ذكرنا وكما تلونا .

وأما حقوق الله أو حقوق المجتمع ، كما يجرى التعبير في هذا الزمان ، فإن العقوبة المقررة فيها تختص بخاصيتين إحداهما : أنها حماية للفضيلة ، وحماية للمجتمع من أن تتفشاه الرذائل ، والخاصية الثانية أنها غير قابلة للعفو ، لأنها لإصلاح ليس فيه أى معنى من معانى الانتقام أو شفاء الغيظ . كما هو الحال فى الدماء ، ولأن إقامة الحدود عبادة ، وهى العقوبات المقررة حقاً للمجتمع فيعد عبادة ، فإذا كان العفو فى القصاص يعد أحياناً صدقة كما عبر القرآن الكريم ، بإقامة الحدود من ولى الأمر القائم على رعاية مصالح المجتمع ، وإقامة الفضائل ومحاربة الرذائل تعد عبادة ، بل هى أعلى العبادات بالنسبة له ، وأى عبادة أعلى من تطهير المجتمع من الشر .

وإن الحدود شرعت محافظة على المصالح المقررة الثابتة ، وهى المحافظة على النفس وأمنها ، والمحافظة على النسل والمحافظة على العقل والمحافظة على المال .

وأشد الحدود تكون لأقصى أنواع الاعتداء ، وهو الاتفاق على الجرائم التى يكون فيها اعتداء على النفس وعلى المال ، بل وعلى الأعراض والعقول ، وهو ما يسمى حد الحرابة .

والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة بارتكاب مفسد من أنواع الاعتداء المختلفة من قتل أو اغتصاب أموال ، وارتكاب جرائم أخرى كما قرر الإمام مالك فى تفسير معنى الحرابة ، وقد سماهم القرآن الكريم محاربين ، لأنهم يحاربون الأمن والنظام بقوة يدعون بها وقال الله تعالى فيهم : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون

في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم (١) .

ونلاحظ في النص الكريم أموراً ثلاثة :

أولها — أن الآية الكريمة سمتهم محاربين لله ورسوله . وذلك لأنهم يحاربون أحكام الشرع ، وينتقضون على الحكم المنفذ لأحكام الله تعالى ورسوله الحكيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسماهم ساعين في الأرض بالفساد ، لأن معاندة الشرع ، والإخلال بأحكامه ومحاربة الفضائل ، وإزعاج الناس ، وقطع الطريق عليهم هو عين الفساد .

وثانيها — أن العقوبة هي التقتيل أو القتل والصلب ليكونوا عبرة لغيرهم ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو تفريق جمعهم ، ونفيهم من الأرض بإبعادهم حيث لا يستطيعون أن يجتمعوا .

وقد قرر مالك من بين الفقهاء أن ولي الأمر مخير في هذه العقوبات يختار منها ما يناسب حالهم .

ثالثها — أن الجريمة الأساسية في اجتماعهم واتفاقهم مع قوة تمكنهم من جرائمهم ، فإن تابوا من تلقاء أنفسهم ، فقد ذهب أصل الجريمة وهو الاتفاق الجنائي ، والخروج بقوة لتنفيذه ، وما داموا قد تابوا فقد عدلوا عن الارتكاب ، وهو جريمة مستمرة ، فإذا أنهوا ، لا تستمر عقوبة الحد .

ولكن يحاسبون على ما ارتكبوا قبل التوبة ، وللفقهاء كلام طويل في هذا وفي توزيع العقوبات على الجرائم فليرجع إليه في كتب الفقه ، ففيها ما يشفي غله الصادي المتطلع :

ومن الناس من يلهمجون باستغلال هذه العقوبة ، ويحسبون آثمين أنها ليست إنسانية وأولئك ينظرون إلى العقوبة ، ولا ينظرون إلى الجنائية ، ويرحمون الجاني ، ولا يرحمون المجنى عليه ، والمجنى عليه هنا الجماعة ، أولئك يخرجون بقوة واتفاق ، لا ليعقيموا حقاً أو يخفضوا باطلاً بل لمجرد أذى الجماعة وينتهكون كل حرمة ، يقطون الطريق على السابلة ، ويزعجون الجماعة ، فلا بد أن تكون العقوبة كفءاً لما يرتكبون وراعدة ، والعدالة الإنسانية توجب المساواة بين مقدار الجريمة ومقدار العقاب ، وكلها عظمت الجريمة كان لابد من عقوبة تناسبها ، وكما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم ، وذلك هو منطق العدل ، ومنطق العقل .

ولو أن تلك العقوبة عوقبت بها العصابات الأمريكية التي لا تبقى على شيء إلا انتهكت حرمانها ، ولها ميزانية من السرقات تبلغ أحياناً ميزانية الولاية التي تكون فيها دفاعاً برورياً أولى الأبصار .

١٩٩ - وإن الجريمة التي تقرب من جريمة الحرابية - جريمة السرقة بيد أنهما يفترقان ، فالسرقة أخذ المال في خفية من حرز مثله ، بينما الحرابية أخذ المال بقوة لا يلاحظ فيها الاختفاء ، ولكن يلاحظ الأمن من الاستغاثة وإجابة المستغيث ، فهي في خفاء عن المجتمع ، لا في خفاء عن صاحب المال ، ويفترقان في أن هذه جماعية تخرج بقوة تقاوم قوة الدولة ويفترقان في أن الحرابية تتعدد فيها أنواع الجرائم ، والسرقة لا تتعدد فيها أنواع الجرائم ، ولذلك تتعدد فيها العقوبة .

ويتفقان في أمرين أحدهما أن في الجريمةتين لإفزاز الناس وإزعاج الأمنين ، فلا يأمن أحد على نفسه أو ماله ويتفقان أيضاً في أن التوبة تقبل من قطاع الطريق ، قبل القدرة عليهم ، وتقبل في السرقة على قول كثيرين من الفقهاء وهذا يتفق مع نص القرآن .

وعقوبة السرقة نص عليها في قوله تعالى : **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا** من الله والله عزير حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ،^(١) .
وقد اشترط في التوبة في هذه الحال أن يصلح ، لا أن يتوب بلسانه ، ولا شك أنه إذا سرق من بعد التوبة فإنه تقطع يده .

ولهذا التشابه بين السرقة والحراية قالوا إن الحراية هي السرقة الكبرى وتلك التسمية صحيحة ، وإن كان معها جرائم القتل .

وقد يقول الذين يرحمون المجرم ، ولا يرحمون الآمن معترضين على ذلك متعللين بأمرين :

— أحدهما - أن العقوبة ليست متكافئة مع الجريمة مهما يكن نصاب السرقة ، فهل تقطع يد في سرقة عشرة دراهم أو ربع دينار كما قال الإمام مالك ، ويرددون قول أبي العلاء .

يد بخمس مئين عسجد وديت ما باها قطعت في ربع دينار
والثاني أن العقوبة في ذاتها غايظة تكثر من المشوهين الذين تقضى
الاعين برؤيتهم .

ونجيب عن الأمرين ، فنقول في الإجابة عن الأمر الأول ، إنه ليس التساوى بين العقوبة في الحدود بين الفعل والعقاب ، إنما التساوى بين العقاب ، وآثار الجريمة ، فبالنسبة للسرقة لا يكون التساوى بين المال الذي سرق ، وبين قطع اليد ، إنما ينظر إلى الإفزاز وإزعاج الأمنين في سرقة تقع في حى أو قرية ، فكم من حراس يقومون ، وكم من مغالقي يحترس بها من السارقين ، فجريمة السرقة ليست آثارها واقعة فقط على المسروق منه ، بل تتعداه إلى كل من يكونون معه في الحياة .

والجواب عن الأمر الثاني أن هذه العقوبة لا تقع إلا إذا كان التكرار

إذا أنه إذا سرق ابتداء وتاب وأصلح ، فإنه لا يسرق ، فلا تقطع يده .

وإن قطع يد واحدة تمنع السرقة ، فلا يكون ثمة من بعد ما يوجب القطع ، وهنا دولة عربية تقيم حد السرقة ، لا تقطع في العام بدأ أو اثنتين فالقطع يمنع سبب القطع .

وفوق ذلك ، فإن القطع لا يكون إلا حيث تنتفي الشبهات ، فالشبهات تسقط الحدود وإن عدد السرقات التي تنتفي فيها الشبهات ، ويجب فيها الحد يقدر بنحو خمسة في الألف من السرقات التي تقع ، ومن الشبهات التي اعتبرها السلف أن يكون السارق في حال جوع أو مظنة جوع ، كأن يكون ثمة مجاعة فإنه لا يقام الحد للشبهة ، كما فعل الإمام عمر عام المجاعة .

وعلى ذلك يستغلظون عقوبة السرقة في الحدود التي بيننا أن يبينوا لنا كم من السرقات قطعت فيها أيدي نساء ورجال لأجل الوصول إلى غاية السارق ، وكم من النفوس أزهقت في السرقات بالإكراه أو في إخفاء الجريمة وعدم معرفتها .

إنكم إن وازنتم بين هذه الجرائم التي ترتكب في سبيل السرقة وجدتم أن قطع اليد لا يساوي في عدده عشر معشار هذه الجريمة ، واعتبر ذلك بالبلاد التي طبقت حد السرقة ، فإن الأيدي التي تقطع في البلاد كلها لا يتجاوز إن تواضعنا عدد أصابع اليد .

لقد عجزت القوانين عن علاج جريمة السرقة ، فهلا تستعين بحكم الله تعالى ؛ ولكن آفة الجماعات في هذه الأيام أولئك الذين تذهب أنفسهم حشرات على المجرمين ، ولا ننظر نظرة عطف على الذين كانوا فريسة للعاشين والمجرمين ، وذلك فساد منطقي غريب ، ومع ذلك يعدون أنفسهم اجتماعيين .

الاعتداء على النسل

٢٠٠ - أوضح جريمة في الاعتداء على النسل جريمة الزنى ، فإنها إذا شاعت في قوم ضعف نسلهم ، وانحدروا إلى الفناء كما رأينا في أمم حاضرة ، وجماعات ماضية .

وقد تعرض القرآن الكريم لبيان هذه الجريمة وعقوبتها ، أو بالأحرى لبيان هذه العقوبة مع التعرض الإجمالي للجريمة ، مفصلا العقوبة ، فقد قال تعالى : **«وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ، وَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَآمُزُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا»** (١)

وإن هذا النص الكريم دل على أمور ثلاثة :

أولها - أن الشهادة على الزنى لا تكون إلا بأربعة ، فلا تصح الشهادة بما دون ذلك ، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى في حد القذف **«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً»** (٢) .

ثانيها - أن الرجل والمرأة إذا ارتكبا الفاحشة ، وهى الزنى فى الآية الأولى والثانية ، كان لابد من عقوبة مناسبة ، إذا لم تكن توبة يكون معها إصلاح أمورهم ، وأنهم إن كرروا لا تقبل التوبة ، وكذلك قرر كثيرون من الفقهاء كما قيل فى السرقة .

الثالث : أن النساء يختصن بعقوبة لا تمنعها التوبة ، وهى أن يمكن فى البيوت حتى الوفاة أو يجعل الله لهن سبيلا بالزواج ، وهذه فى الحقيقة

(١) النساء : ١٥ - ١٦

(٢) النور : ٤

ليست عقوبة ، ولكنها مسيئة وحمل على التوبة ، فإن كان ممن من بعد
فاحشة كان الإيذاء .

وقد ذكر هنا الأمر بالإيذاء بجملا ، وفصل في سورة النور ، فقال
تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم
بها رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما
طائفة من المؤمنين ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية
لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين ، (١)

وإن هذا النص يدل على ثلاثة أمور . أولها - أن عقاب الزاني
والزانية مائة جلدة قوية شديدة رادعة لا رافة فيها . وثانيها - أن هذا
العقاب الشديد الرادع يكون علنا يشهده طائفة من المؤمنين . ثالثها - أن
الزاني الذي يعلم زناه لا يرضى به إلا زانية أو مشركة ، وأن الزانية
لا يرضى بالزواج منها إلا زان أو مشرك ، وأنه من المحرم على المؤمنين
أن يتزوجوا من الزناة ، ومفهوم النص أن ذلك التحريم إن لم تكن
توبة .

عقوبة العبد على النصف من الحر

٢٠١ - هذا التقدير للعقوبة في الزنى إنما هو على الأحرار من الرجال
والنساء ، أما العبيد والإماء فعقوبتهم نصف هذه العقوبة ، فلا يجلدان
إلا خمسين جلدة ، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم بالنسبة للإماء
وثبت بقانون المساواة بين الرجل والمرأة أن العبد تنصف عنه العقوبة ،
وهذا نص القرآن الكريم الحكيم ، إذ يقول سبحانه وتعالى : « ومن لم
يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيما نكح من
فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فأنكحوهن بإذن

أهلين ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافات ، ولا متخذات
أخذان ، فإذا احصن ، فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من
العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور
رحيم ، يريد الله ليهن ليكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ،
والله عليم حكيم ، (١)

وإن هذا النص يدل على أن الأولى بالمومن الا يتزوج إلا حرة ،
ولا يتزوج أمة إلا إذا عجز عن الزواج بالحرّة ، حتى لا يعرض أولاده
للرق ، وأن الإمام أولى بهن مالكهن يدخل بهن ، فيكون أولاده منها
أحرارا ، وتعتق هي بولدها من مالكها ، فيكثر الأحرار .

وتدل الآية ثالثا على أن الأمة المنزوجة عقوبتها خمسون جلدة .

وبمقتضى المساواة في الأحكام كما أشرنا تكون عقوبة العبد أيضا
منصفة كعقوبتها .

ونظرة صغيرة في الموازنة بين شريعة القرآن ، وشريعة الرومان ،
لقد كان الرومان يضاعفون عقوبة العبد إن ارتكب جريمة ويخففون
العقوبة على الحر ، فهم يقولون إن العبد إذا زنى بجمرة يقتل ، وأما الشريف
الروماني فإنه إذا زنى يغرم غرامة بسيطة ، فنظمتهم الظالم يسير سير عكسيا
تصغر العقوبة عندهم بكبر المجرم وتكبر بصغره ، أما الإسلام فإنه ينظر في
الأمر بمنطق مستقيم ، فالجريمة تكبر بكبر المجرم ويكون العقاب على قدرها
وتصغر بصغر المجرم ، ويكون العقاب على قدرها ، وذلك لأن الجريمة
هوان وإن الهوان يسهل على الضعيف ، إذ لا قوة نفس تعصمه وتناه ،
وإن العبد والأمة في ذل وهوان ، فالجريمة منهما قريبة ، فيعذران ، ويخفف
عليهما العقاب ، وذلك هو منطق العدل المستقيم ، وهو شرع الله العظيم .

حد القذف :

٢٠٢ - القذف هو رمي المحصنات والمحصنين بالزنى ، من غير دليل مثبت ، بل بمجرد الظن الواهم ، أو الإيذاء الآثم ، وفي ذلك تهوين للجريمة وإشاعة للفاحشة في الذين آمنوا ، ولذلك كان العقاب الصارم على من يقذف ، ويرمي المحصنين والمحصنات من غير تثبيت ولا تخرج ، ولقد قال الله تعالى في ذلك مبينا له بعد حد الزنى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء في فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » (١) .

وهذا النص السامى دل على أمور ثلاثة :- أولها أن الرمي بالزنى لا بد أن يكون ثابتا بشهادة أربعة من الشهداء ، وإلا عد قذفا باطلا ، وكان له عقوبة قاسية ، وهو الجلد ثمانين جلدة ، وهى عقوبة مادية لا هوادة فيها .

ويدل ثانيا على أن هناك عقوبة أدبية أو تبعية كما يقول علماء القانون ، وهو ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم دنسوا ألسنتهم بقول الخش الباطل ، فيعاقبون على ذلك بالأى يقبل منهم قول فى قضاء ، والتأيد يقتضى أن التوبة لا تسوغ سماع شهادتهم .

ويدل ثالثا على أن التوبة تقبل عند الله إذا تابوا وأصلحوا ، وذلك لا يمنع نزول العقاب الأصيل والتبعى ، لأن التبعى ابدى .

وإن هذه العقوبة لمنع إشاعة الفاحشة ، لأن الاتهام بالزنى وخصوصا للأبرياء يستهل ارتكابه ولقد قال تعالى فى ذلك : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » (٢) .

(١) النور . ٤ - ٥

(٢) النور . ١٩

ولقد ضرب الله مثلا للذين آمنوا بحال أم المؤمنين عائشة ، وهي الطاهرة بنت الطاهر ، وزوج أظهر من في هذا الوجود ، تناول المفترون عليها بالإفك ، وقال الله تعالى فيهم ، إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ، إن كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات ، وافته عليم حكيم ، (١)

هذا توجيه عظيم لمن يسمع إفكا على طاهر من الطاهرين ، أو طاهرة بيئة الطهارة ، فأول واجب على المؤمن إذا سمع إفكا أن يظن خيرا بالمؤمن ويجعل حال الصلاح هي الظاهرة ، وهي الحاكمة ، فإن كان ممن يظن الظنون فعليه أن يثبت حتى يحجى الدليل ، وهو أربعة شهداء ، ليسكون الدليل مقابلا لظن الخير بأهل الإيمان ، فإن لم يكن الدليل كان على المؤمن أن يقول هذا بهتان عظيم ، وإنه لا يسوغ لمؤمن أن يتلقى قولاً يرمى من غير دليل ، ولا تثبت ، ثم يزيد الظن به ، فيقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ويحسبونه تسليية ، وأمرنا هينا وهو عند الله عظيم .

وفي هذا النص السامي بيان للمستهينين الذين يشيعون القول الفاسد ، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن ، وإن الإسلام يريد جماعة طاهرة عفيفة لا يسودها إلا الكلام الطيب التزيه العف .

اللعان :

٢٠٣ - جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبثه شكواه ، ويقول : « إن الرجل يحد الرجل مع أهله ، فإن قتله قتلتموه ، وإن تكلم ضربتموه ، وإن سكت سكت على غيظ اللهم بين ، فكان اللعان .

وهو يكون في حال رمى الرجل زوجته بالزنى ، فقد جعل الله تعالى حكماً خاصاً ، مخصصاً لمن يرمى أى محصنة غير زوجته ، لأنه لا يمكن أن يرمى زوجته إلا وهو في عذر غالباً ، فكان اللعان للثبوت من الواقعة التي تتضمن الوقوع في الفاحشة من الزوجة ، وقد بين الله تعالى اللعان بقوله تعالت كلماته :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ، إن كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم ، (١) .

والشهادة هنا هي الحلف بالله تعالى ، لأن الحلف فيه إسهاد لله سبحانه وتعالى ، فالرجل يحلف أربع مرات أنه صادق فيما رماها به من الزنى ، أو نفى الولد ، إن كان الرمي بعدم نسبة الولد إليه ، ويتضمن ذلك الرمي بأنها حملت به من زنى ، فإذا حلف هذه المرات الأربع ، حلف الخامسة بأن يحلف بالله أن لعنة الله تعالى تنزل به إن كان من الكاذبين .

والمرأة ينزل عليها العقاب ، وما حده القرآن الكريم ، فتحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين ، وتحلف الخامسة بأن عليها غضب الله إن كان من الصادقين .

وإن التحالف إن تم على هذا الوجه رفع عن الرجل عقوبة القذف ، وهو ثمانون جلدة ، وعن المرأة عقوبة الزنى ، ولقد حكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بينهما فرقة أبدية ماداما على هذه الحال ، لأن الحياة الزوجية تقوم على المودة ، والمودة تقتضى الثقة بين الزوجين ، وبعد هذا الترامى ، وتكذيب كل واحد لصاحبه ، ذهبت الثقة ولا مودة مع فقد الثقة ، فلا يتحقق معنى الزوجية الذى نص عليه فى كتابه الكريم «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة^(١)» ولا تراحم بين زوجين يشك أحدهما فى صاحبه ، ولا يطمئن إليه .

٢٠٤ - وإن ما ذكرناه من نصوص القرآن فى الزنى والقذف واللعان ، يتجه بالموثوقين إلى أن يكون طاهرا نزها عفيفا ، ويتجه بالجماعة الإسلامية إلى أن تسودها الفضيلة ، فلا تترامى برفث القول وفسوقه لأن فسوق القول يؤدي إلى فعله ، والترامى بالفاحشة يؤدي إلى ارتكابها .

وإن الرذائل لاتنمو إلا فى أجواء فاسدة ، والفضائل لاتنمو إلا فى أوباء الرذائل .

ولعل فساد مجتمعاتنا الحاضرة سببه الترامى بالفحشاء صراحة أو بلحن القول إذ يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الخمر

٢٠٥- ذكرنا حد ودا أقيمت لحفظ النفس والمال ، وحدودا أقيمت لحفظ النسل وحفظ البيئة الاجتماعية ، والآن نذكر ما يفسد العقل وقد ترك الله لنيه تقدير العقوبة لها . وإن كانت الجريمة قريبة من جريمة القذف ، ومن جنسها ، ولذلك فهم فقيه الصحابة على كرم الله وجهه عقوبتها من عقوبة القذف وقد جاءت النصوص القرآنية مشيرة إلى مضار الخمر ، وأنها شراب مذموم ، وجاءت بالنهاى عنها ، وأول آية نزلت مشيرة إلى أنها أمر غير حسن قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسنا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، (١) .

وقد كان ذلك النص متضمناً استمهجاناً لها ، وهو استمهجان ببيان أنها شىء غير مستحسن فى ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن ، والمقابل للمستحسن لا يكون إلا مستهجناً .

وكان ذلك أول تنبيه للعرب باستمهجانها ، لأنهم كانوا يألفونها فى جاهليتهم ، ويتفاخرون بشربها كما يفعل أهل الجاهلية فى هذا الزمان الذى نعيش فيه .

وهذه الآية نزلت فى مكة ، فلما كانت الهجرة ، وأشرب المسلمون حب الإسلام أشار القرآن إلى ما يوجب تحريمها ، فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فىهما إثم كبير وندافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ، (٢) .

وقلنا إن هذا النص السامى يوجب تحريمها ، لأن كل أمر غلبت مضاره

(١) النحل : ٦٧ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

على منافعه يوجب العقل أن يحرمه الإنسان على نفسه ، لأنه ما من شيء إلا فيه نفع نسبي ، وضرر نسبي ، والعبرة بما يغلب ، ولكنه ليس تحريماً صريحاً ، ولذلك بعد هذا النص كان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافياً .

وإن النفس العربية كانت قد ألفت شربها ، وتعودته ، فلا بد من تربية تخلع هذه العادة غير الحسنة فجاء النص الآخر الكريه ليربي النفس على البعد عنها ، فقال تعالى . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ، (١) .

وإنه لا يتصور إيمان من غير صلاة ، فالصلاة أمر محتوم ، وقد نهى عن أن يقربها ، وهو سكران ، حتى يعلم ما يقول ، والعلم بما يقول هو العلم بما ينبغي قوله وما لا ينبغي ، وتنتج القول ، وتحرى الصدق ، وكل هذا لا يكون إلا من ذوى وعى كامل مدرك لحقائق الأمور ، وغاياتها ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان على بعد من الشرب بوقت طويل ، وقال سبحانه لا تقربوا الصلاة ، ولم يقل لا تدخلوا في الصلاة ، لأن النهى عن المقاربة أبلغ من النهى عن الدخول .

وإذا كانت الصلوات خمساً موزعة في النهار وزلفاً من الليل ، فإنه لا بد أن يكون على صحو كامل من قبل الفجر حتى لا يقرب صلاة الفجر ، وهو لا يعلم ما يقول ، ولا بد أن يكون في صحو قبل الظهر ، ولا بد أن يكون الصحو مستمراً إلى العصر ، لقرب ما بينهما ، ومثل ذلك المغرب والعشاء ، وبذلك يذوق المسلم حلاوة البعد عنها ، كما تعودها من قبل ، وهى شراب غير مرى .

فكان ذلك النص الكريه تربية للنفس المؤمنة ، وعلاجاً لترك أمر مذموم ألفوه بأمر حسن عرفوه وذافوا حلاوته .

(١) النساء : ٤٣ .

ولم يجد عمر المدرك بنور الله في ذلك بياناً شافياً ، لأنه يرغب في نهى قاطع ، لا تردد فيه .

ولقد نزل بعد ذلك الأمر الحامم القاطع الناهي نهياً لازماً فقال تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ، رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ، إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (١) .

وقد قال علماء البلاغة إن قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » هي أبلغ صيغة النهي ، ويجدر بنا هنا أن نذبه إلى أمرين .

— أولهما - أن أهل الجاهلية في هذا العصر يقولون إنه لم يكن ثمة نص على النهي مثل قوله : « لا تشربوا » ، وإن ذلك القول التافه كان غير جدير بالالتفات إليه ، ولكنه كثير ترداده ، فحق علينا البيان فنقول :

إن النص الكريم شدد في النهي من وجوه كثيرة - أولها - أنه قرن الخمر والميسر بالعبادة بالذبح على النصب ، وتلك قرينة التحريم في ذاتها .

— وثانيها - أنه وصفها بأنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، أي أمر قذر في ذاته ، فهي ضارة ، ولا تقبلها النفس الفطرية ، ومضارها الجسمية معلومة لكل مدرك أريب .

- وثالثها - أنه طالب باجتنابها ، والاجتناب يقتضى البعد عنها ، وعن مجالسها ، وعن شاربها ، وذلك أبلغ من قولك : لا تشربها .

ورابعها - أنها تدفع إلى العداوة والبغضاء ، وهما أمران مفسدان ، مقوضان لبناء المجتمع .

وخامسها - أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والصلاة فرض لازم

هو شعار الإسلام ، والصد عنه أشد الأمور في الإسلام فهو حرام ، فكل ما يؤدي إليه يكون حراماً مثله ، لأن ما يفضى إلى الحرام يكون حراماً .

وسادسها - قوله تعالى ، « فمأ أتم منتهون » ، وقد قلنا إنها أبلغ صيغة في النهي عن الفعل .

- الأمر الثاني - الذي يجب التنبيه إليه هو أن الخمر كل ما يخامر العقل ، ويستره ، ويمنعه من الإدراك المستقيم ، سواء أكان النىء من ماء العنب ، أم كان المطبوخ منه ، وسواء أكان من العنب أو البلح ، أو غيرهما .

وعندما نزل ذلك النص القاطع في التحريم أراق الصحابة كل ما عندهم من أذنان الخمر ، ولم يكن فيها النىء من ماء العنب ، بل كانت كلها أنبذة .

فكل شراب من شأنه أن يسكر أو يؤدي إلى السكر يكون حراماً سواء أكان نبيذ العنب أو التفاح أو البلح أو البصل أو نىء القصب ، وسائر ما يخترعه ابن الإنسان ليفسد عقله ، وسواء أكان سائلاً أم كان جامداً .

ولقد عرضنا لهذا الأمر لأن بعض الفقهاء الكبار ظن أن الخمر هي النىء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فتعلق به الجاهلون ، وحسبوا أنه يبيح الأنبذة ، وهو يعلم أنها مسكرة ، وطاروا بذلك القول ، ليستبيحوا الخمر ويبيحوها ، ونقول إن ذلك الإمام الجليل قد أخطأ ، وما كان عليهم أن يقلدوه في الرأي ليمكنوا من شربها ، بل كان عليهم أن يقلدوه في فعله ، فقد قال رضى الله عنه وعفا عنه : « لو غرقت في الفرات على أن أتناول قطرة من هذه الأنبذة ما تناولتها » .

٢٠٦ - وإن القرآن إذ شدد في تحريم الخمر ، فإنه يعتبر ارتكابها جريمة تستحق العقاب ، ولكن ليس في القرآن نص على عقوبة لها ، وفيه

نص على جريمة هي في كثير من الأحيان نتيجة لها ، فإن السكران لا يدري ما يقول فينطق برفق القول وبالفسوق وهي جريمة القذف ، ولقد قال علي ابن أبي طالب في الارتباط بين الجريمتين قال في عقوبة الشرب : «إذا شرب افتري ، فيحد حد الافتراء ، وهو حد القذف» .

وقد ترك تقدير العقاب بالنص الصريح ، أو بالعمل المبين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال في الشارب «إذا شرب فاضربوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاقتلوه» .

وقد قيل له عليه السلام إننا بأرض بردنستدفيء بالخمر ، فقال عليه السلام لا تشربوها ، فقال القائلون إنهم لا يستطيعون ، فقال عليه السلام . فقاتلهم .

البغي

٢٠٧ - جريمة البغي تعرض القرآن الكريم لبيانها ، والبغي معناه الخروج عن طاعة الإمام العادل بقوة لتأويل تأويله ، فيشترط لتحقيق جريمة البغي ثلاثة شروط :

أولاً - أن يكون الإمام عادلاً .

وثانيها - أن يكون البغاة لهم قوة تعسكر مناوئة لحكومة الإمام .
وثالثها - أن يكون خروجهم لإقامة العدل لا مجرد الخروج ، والمحاربة والسعي في الأرض بالفساد ، وبذلك يفترقون عن قطاع الطريق ، لأن قطاع الطريق يخرجون على الحاكم من غير تأويل للإفساد ، وانتهاك حرمة العباد .
وقد كانت عقوبة أهل البغي قتالهم من غير أن يكفروا ومن غير أن يعتبروا محاربين ، بل يقاتلون حتى تفل شوكتهم ، وأن على المؤمنين أن ينصروا الإمام العادل .

وهذا نص ما جاء في كتاب الله تعالى خاصاً بذلك: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت، فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، وانقروا الله لعلكم ترحمون^(١).
ويستفاد من هذا النص الكريم أنه قبل القتال يجب العمل على رأب الصدع بجمع القلوب المتفرقة ، وتحري أسباب التقاتل بين الطائفتين ، فإن أمكن إزالة أسباب الخصام ، فإنه بهذا يستقر السلام ، وإن تبين الظلم من إحدى الطائفتين كانت الباغية ، وحل قتالها ، وكان القتال فرضاً كفاً على المؤمنين ، يعاونون العادل ، ويدفعون الأثم .

وتدل ثانياً على أن القتال له غاية ، وهو أن تعود إلى أمر الله تعالى ،

ويستقيم أمرها على جادة العدل فلا يؤمر منهم أسير ، وبالتالي لا يسترق منهم ، ولا تنهب أموالهم ، ولا يجهن على جريحتهم .

وتدل ثالثاً على أنها إن عادت إلى صفوف المؤمنين تعامل بالعدل ، ولا تعامل بالانتقام ، فليست بينها وبين الحاكم خصومة ، إنما بينهما الأخوة الجامعة ، ولذلك عقب ذكر العقوبة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون (١) » .

وقد ذكر حكم البغاة بجملاً ، ولم يكن بغى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الخروج على حكمه كفر ، وليس ببغى يكون أساسه التأويل ، فلا تأويل ، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم صريح .

وكذلك لم يحدث بغى في عهد أبي بكر ، بل حصلت ردة ، وكفر ، وكذلك لم يحصل بغى في عهد الفاروق ، وفي عهد عثمان كان بغى ، ولم تكن مقاومة للبغاة ، حتى قتل الشهيد ذو النورين رضى الله عنه قتلة فاجرة وفي عهد علي فارس الإسلام ، والمجاهد الأول بعد النبي صلى الله عليه وسلم كان البغى ، بشروطه .

فقد خرج الخارجون على الإمام العادل على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وزعموا أن لهم تأويلاً . بدعواهم أن الذين أيدهم هم قتلة عثمان . وتصدى على رضى الله عنه لمقارمتهم ، بعد أن حاول رتق الفتق ، وإصلاحه بالموعة ، حتى أرادوه على القتال ، وخرجوا إليه في صفين .

ثم خرج الخوارج من بعد ، وهم أشد البغاة تطرفاً في بغيتهم ، وكان القتال بين أهل العدل ، وأهل البغى ، ويلاحظ أن علياً رضى الله عنه لم يجرد سيفه للقتال مهاجماً إلا بعد أن قتل معاوية عمار بن ياسر ، عندئذ تجرد على ، وهجم بجنده لأنه علم أنهم بغاة حقاً ، إذ قال عليه السلام لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولا تريد أن نخوض فيما قاله الفقهاء فإننا نذكر الحكم من غير تفصيل

٥- المعاملات المالية

٢٠٨- اشتمل القرآن الكريم على بيان الحلال والحرام في الأموال وطرق كسبها، لكن بيانها كان إجمالياً ولم يكن تفصيلاً كالأسرة لأن المعاملات مختلفة في تفصيلها وطرقها ويجمع أحكامها قواعد عامة تعرض القرآن لبيانها . وذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها فيها .
وأول ما أمر به القرآن بالنسبة للمعاملات عدم أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الإنتاج مما أخرجت الأرض . ومن التحويل في الصناعات المختلفة . فقد قال تعالى :

يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم . ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيماً^(١) .
وإن هذا النص يدل على أمور ثلاثة: أولاً- النهى عن أكل مال الناس بالباطل أى بغير حق موجب . وثانياً- أن أساس التعامل بين الناس هو التراضى فيما أباح الله تعالى به . وثالثها - أن أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا ، وغيرهما من المعاملات الفاسدة التى تتضمن فى ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدى إلى ضياع قوة الأمة، وقتل روح التعاون فى الجماعات ، ولذا كان قوله تعالى : «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً» .
ولقد صرح القرآن الكريم بالنهى عن الرشوة ، وخصوصاً رشوة الحكام التى تذهب بالثقة ، وتفسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتجعل أمور الناس فوضى ، فقد قال تعالى : «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوها بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»^(٢) .

وإن هذا النص الكريم يدل على حرمة الرشوة ، وقد سماها فى موضع

آخر السحت ، ويدل على أن الرشوة أكل لأموال الناس ، وإفساد للحكم ،
وضياع للعزل ، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام في أن الأصل للعلاقة بين
الناس ، وهو مراعاة العدالة .

وقد ذكر القرآن أن من أسباب ضياع اليهود . وفساد الحكم فيهم
السحت وقد قال تعالى فيهم : وساعون للكذب أكولون للسحت . فإن
جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك
شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين^(١) .

ومن الأكل المال بالباطل تطفيف الكيل أو الميزان أو تقدير الأشياء
بأى نوع من التقدير فقد قال تعالى : د ولا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ أشده
وأوفوا الكيل ، والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم
فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذابكم وصاكم به لعلكم
تذكرون^(٢) .

وقال تعالى : د ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ،
وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم
يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك
ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين
وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون^(٣) .

وترى من هذا الوعيد الشديد للذين يظفون ، الذين يظلمون الناس
في الكيل .

وقد يقول قائل لماذا اختص القرآن من بين المعاملات المادية إيفاء
الكيل والميزان بالذكر .

ونقول إن إوفاء في الكيل والميزان صورة حسية لعدالة المؤمن في

المعاملات ، ويتحقق فيها بالحس معنى قوله عليه السلام « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

فالامر بوفاء الكيل والميزان أمر بالعدالة النفسية والأدبية في كل العلاقات الإنسانية . وقد اهتم القرآن بذلك .

٢٠٩ - وإن الإسلام لحرصه على أن يكون التعامل على أساس سليم من العدالة ، والرضا الصحيح . أمر بكتابة الديون والعقود ، والإشهاد عليها لكيلا تكون مشاحة ، والمشاحة تؤدي إلى المنازعة ، بله أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال سبحانه :

يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبغض منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما ، فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم . وإن كنتم على سفر ، ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذي أوتى من أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتبوا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم ، (١)

هذا نص شامل من نصوص القرآن الكريم معجزة هذا الوجود وهو يدل على أمور :

أولها - لزوم كتابة الدين ، وأن تكون هذه الكتابة يتولاها كاتب عدل مأمون تحريف القول ، أو تغييره ، وأن على هذا الكاتب أن يجيب إذا دعى إلى الكتابة . والكتابة مطلوبة في كل الأحوال سواء أكان الدين صغيراً أم كبيراً بشرط أنه مقدار يدخل في معنى عرفاً .

ثانيها : أن الذى يملى الدين هو من عليه الدين . فإن كان ضعيفاً لا يدرك العقود . أو سفيهاً لا يحكم التصرف . أو كان لا يستطيع أن يملى لضعف في بيانه . أو في تعبير : يملى ولى يختاره . أو يكون مختاراً له من قبل القضاء المهمين أو الشرع .

ثالثها : أنه لا يستثنى من الكتابة إلا التجارة الحاضرة التي تدار بين التجار . كالألا تكون سلعة عند تاجر . فيأخذها من جاره . أو متعامل معه على أن يرسل إليه الثمن لهذه التجارة الحاضرة إن باعها فلتسهيل التعامل استثنته من الكتابة .

رابعها : أنه إذا كان الدائن والمدان على سفر . ولم يجدوا كاتباً . فإن الرهان التي تقبض تقوم مقام الكتابة في الاستيثاق من وفاء الدين .
خامسها : أنه لا بد من الشهادة بأن يكون ثمة شاهدان يحضران الإملاء ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان على أن يكونوا جميعاً من العدول ، والشهادة لأجل الأداء عند الارتياح أو المشاحة ، ولذلك قال تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، أى عند الأداء .

هذا تفصيل محكم جاء في محكم التنزيل ، وإذا علمنا أن مشاحات الناس أكثرها في المداينات والمبايعات ، سواء أكانت في داخل الإقليم ، أم في أقاليم علمنا لماذا عنى القرآن الكريم المنزل من عند الحكيم العليم بالمداينات والعقود تلك العناية .

وإن تعجب فاعجب من قول كثيرين من الفقهاء أن الأمر هنا الإرشاد لا للإلزام ، وعجبنا من أن يتصوروا أن ذلك التفصيل إرشاد ، وليس حكماً تكليفاً . والله أعلم بكتابه .

الربا في القرآن :

٢١٠ - من وقت البعث المحمدي والإسلام لا يرى التعامل بالربا علاقة مالية صالحة ، بل لأنه في الآية التي نزلت بمكة كان فيها استنكار ، وعده عملاً غير صالح اقرأ قوله تعالى في سورة الروم المكية :

« وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس . فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله . فأولئك هم المضعفون (١) .

وهذا النص يفيد أن الربا لا يرضى عنه الله . وإن كان فيه زيادة ، فهي زيادة آثمة . وإذا كان المتعاملون يريدون أن يتضاعف مالهم فسيبيل ذلك هو إعطاء شطر من المال للسائل والمحروم . فإن المال ينمو بذلك وتكون الزيادة خيراً لأن ذلك السبيل هو التعاون وجاءت من بعد ذلك في المدينة الآيات المحرمة للربا تحريماً قاطعاً حاسماً . منها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحموا ، (٢) .

والربا المذكور هنا ، وفي الآية التي تلونها من قبل ، وفي الآية التي سنتلونها من بعد هو الزيادة في الدين نظير الأجل ، فليس هو الدين ذاته ، إنما هو الزيادة ، ونذكر هذا تصحيحاً لفهم بعض الذين يبيحون الربا أو بعضه ، فقد قال فائل منهم عفا الله عنه إن المحرم هو ما زاد على ضعف الدين . وسارع إلى تصديقهم بعض القانونيين الذين يؤمنون بما في هذا الزمان أكثر من إيمانهم بالقرآن .

والوصف بالمضاعفة للزيادة في هذا الزمان هو لبيان قبح ما يؤدي إليه الربا . إذ تتضاعف الزيادة مضاعفة كثيرة : وفي ذلك ما فيه من إرهاب المدين . وقبح حال الدائن . وأكله المسال بالباطل من غير عمل ولا كد . ولا تعرض للخسارة .

(٢) آل عمران : ١٣٠ - ١٣٢ .

(١) الروم : ٣٩ .

ولقد نزلت آية في تحريم الربا تحريماً لا يقبل أى تأويل . ولو كان فاسداً . كالذى قيل في معنى الربا في الآية السابقة ، فقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فبن جناه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف . وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يأبها الذين آمنوا اتقوا الله . وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلنكم رس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير ليكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، (١) .

هذا نص صريح قاطع في التحريم .

٢١١ - ولكن قوماً ممن تعلموا علم الإسلام لم يأخذوا بظاهر معناه . بل لأنهم عودوا المناقشة اللفظية في الألفاظ . وإلقاء ظلال من الإيهام على معانيها الواضحة البينة . وقد لانت نفوسهم . وأخضعوها لحكم الزمان . لالحكم القرآن . وكأنهم تعلموا ليخرجوا المكتاب على غير مخارجه ، ويتأولوه بغير متأوله . ومرنوا على ذلك ، وأضلوا كثيراً بعد ضلالهم .

إنذا جاءك رجل وقال لك أشك في أن هذه الشمس التى هى السراج المنير هى الشمس المذكورة فى القرآن أتصدق له قولاً . أم تحسب لكلامه وزناً . أم تجعله فى ظل العلماء المشتغلين بالدراسات الإسلامية أياً كان لونهم ، وأياً كان زيهم .

إن رأيت ذلك ففي المتفهمين من الذين يتكلمون في القرآن وعلوم الإسلام من قال إن عمر قال « إن للربا تسعة وتسعين وجهاً ، ثم يردفون ذلك بأن يقولوا إن لفظ الربا في القرآن كان غير معروف لعمر . فكيف يكون واضحاً لدينا . كبرت كلمة تنطق بها أفواههم التي أئمت بالقول في كتاب الله تعالى بغير علم .

من هؤلاء تجدنا مضطربين لأن نشرح معنى كلمة الربا . وإن كنا نقول إن الشمس التي نراها هي التي في القرآن .

يقول أبو بكر الرازي الشهير بالخصاص في كتابه أحكام القرآن إن الربا قسمان ربا لغوى يعرف من اللغة . وهو ربا القرآن . وهو ربا الجاهلية وهو أن يزيد في الدين في نظير الزيادة في الأجل . والقسم الثاني هو الربا الاصطلاحي . وهو الذي جاء في الحديث « الذهب بالذهب مثلاً بمثل يداً بيد والفضة بالفضة مثلاً بمثل يداً بيد والبر بالبر مثلاً بمثل يداً بيد . والشعير بالشعير مثلاً بمثل يداً بيد . والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد . فمن زاد أو استزاد فقد أربى . فهذا النوع من التعامل سماه النبي ربا فكان ربا بمعنى الاصطلاح . وهو الذي فيه الوجوه الكثيرة .

أما ربا القرآن فهو ربا الجاهلية . وهو الذي قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب . فإن تبتم فلنكنم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

والربا الجاهلي معروف وهو الزيادة في الدين في نظير الأجل . فإن سدد في عام كانت الزيادة واحدة وإن لم يسدد ضاعف الزيادة وهكذا مما نراه في المصارف في هذه الأيام .

ولكن الذين يشيرون الشك حول الشمس والقمر المذكورين في القرآن

يثرون الشك في ربا الجاهلية . فيقولون ، ليس ربا الجاهلية هو الربا الذي يكون في القروض الاستغلالية ، لأن المقترض يستغل الدين فيكتسب فيكون من عدلهم المزعوم أن يجعلوا للدائن سهماً محدوداً في الدين سواء أخسر المقترض أم أكتسب ، ويقصرون ربا الجاهلية على الربا الذي يكون فيه قرض استهلاكى يقترض المدين ليدفع حاجات ضرورية ، ويكون الربا في هذه الحال منافياً للبروءة والخلق الكريم ، ذلك تأويلهم الذى لا سند له من نص ، أو قياس معقول ، ولكنه تفكيرهم الذى يخرجون به عن حدود النص .

٢١٢ - إن التأويل بتخصيص لفظ عام فى القرآن يكون بتخصيص من القرآن نفسه ، أو بتخصيص من المفسر الأول للقرآن وهو النبي ، فكل تخصيص لعام القرآن الكريم من غير ذلك يكون حكماً الهوى فى القرآن ، ويكون رداً على صاحبه ولفظ القرآن عام يعم الربا فى القرض الاستهلاكى والاستغلالى على سواء ، وهذا فوق أن ذلك التأويل الشاذ عند علماء الشريعة فيه مصادمة للنص القرآنى ، من غير دليل ، فإن النص القرآنى فيه ما يدل على بطلان ذلك التأويل الذى دفع إليه الهوى ، والحال التى كانت عليه البلاد الحجازية تناقضه . والحوادث التى كانت فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم تقاومه لما يأتى : أولاً - أن المشركين قالوا مقالة أولئك الذين يحكون هوام فى القرآن ذلك أنهم برروا أكلامهم الربا بأن شبهوه بالبيع . وقال الله فيهم ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وهوى كلامهم أنهم يعقدون مشابهة بين ما يكسبه المقترض بالبيع والشراء ، والاتجار فى الشام وفارس ، بما يأخذه المرابى من ربا ، أى لإنهم يقولون إنه بعض مما يكسبه المقترض بالبيع والشراء . وهو جزء منه . فرد عليهم بأن البيع حلال ؛ لأن الكاسب بالبيع يتحمل كسباً وخسارة . وحرم الربا لأنه الكسب من غير تعرض للخسارة . وبذلك يكون الكسب من البيع طبيعياً ، والكسب بالربا يكون غير طبعى لأن النقد لا يلد النقد .

وثانياً — قوله تعالى : « فإن تبتم فلکم رهوس أموالکم ، فإن التبتم عن الدين برأس المال إنما يكون في المال المتخذ للاستغلال . ولا يقال رأس المال للمال المتخذ لاستخدامه في الضرورة . فكان هذا دليلاً من النص يفيد أن التحريم وارد في القرض الاستغلالي ابتداءً . والاستهلاك تبعاً . ذلك أن النص بعمومه يحرم كل زيادة . لأن أي زيادة تنقض التوبة وتكون ظلماً .

وثالثاً — أن أحوال أهل مكة والطائف تجعل القرض للاستغلال هو الغالب بينهم وأن القرض للاستهلاك لم يكن شائعاً بينهم . فقد كان أهل مكة وما حولها تجاراً . ينقلون بضائع الروم إلى الفرس عن طريق الشام واليمن . وينقلون بضائع الفرس إلى الروم عن هذه الطريق أيضاً . ولذلك كانت لهم رحلتان تجاريتين إحداهما رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام . كما قال تعالى « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع . وآمنهم من خوف ، (١) .

وإذا كانت مكة والطائف بلدين تجاريين ، فلا بد أن تتصور أن منهم من كان يتجر بنفسه بائعاً مشترياً ، ومنهم من كان يتجر بطريق غيره . فيعطى بان يتجر بنفسه على أن يكون الربح بينهما بنسبة معلومة ، والخسارة تكون على صاحب رأس المال ، كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مال خديجة بأمانة الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومنهم من كان يدفع المال إلى غيره على أن يكون له كسب محدود بما يتول إلى التاجر ، كسب التاجر أو خسر ، وقد روى ذلك من معاملات قريش ،

فقد كان ذو المال يدفع المال إلى التاجر على قدر من المال هو الربا . فإن سدد أخذ رأس المال مع الزيادة ، وإن لم يأخذه أبقى المال وضاعف الزيادة ولذلك أثر عن الربويين أنهم كانوا يقولون للمدين ادفع أوضاعف والمراد مضاعفة الزيادة .

وقد قال أصحاب السيرة في مقدمات غزوة بدر أن قريشاً كلها خرجت بكل مالها للتجارة حتى حلى النساء . فأرادها أهل الحق كما صادروا من أموال المؤمنين . فاستنفر أبو سفيان قريشاً ، وخرج الجند لحماية العير ، فكانت الغزوة ، ولا بد أن يكون في هذا المال . ما كان من مال المتاجرين ، وما كان من مال غيرهم أخذ للتجارة وما كان ديوناً مأخوذة ليستغلها المديونون .

ورابعا — أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال في تحريم ربا الجاهلية وأول ربا أبدأ به ربا ، عمى العباس بن عبد المطلب ، ولا يتصور من العباس رضى الله عنه أن يكون عربى محتاجا لقدرة من المال فى أموره الضرورية . فإبى إلا أن يقرضه ربا . وهو الذى كان يسمى الحجيج فى موسم الحج نقيع الزبيب والتمر .

وخامسا - أنه لوحظ فى بعض أخبار العرب أن الأثرياء كانوا يقترضون . فكان أبو جهل عليه دين لرجل ليس من قريش وماطله . فاستعان بقريش لتحمله على الوفاء . فسخروا منه ، وأشاروا عليه بأن يستعين بمحمد بن عبد الله ورسول الله . فأعنه . فقد قال الرسول القوى الأمين . بعد أن صك الباب صكاً أرعدت مفاصله : أد للرجل دينه فأداه صاغراً غير كابر .

ويروى أن بنى المغيرة قد استدانوا من ثقيفة قبل أن يسلم الفريقان فلما جاء القرآن بالنهى عن الربا ، وأنه موضوع ، اختلف الدائن الثقفى مع المدين من بنى المغيرة ، أيحتمسب من رأس المال ما أخذ من ربا من قبل التحريم

أم لا يحتسب . أراد المدين أن يحتسب ، وأراد الدائن ألا يحتسب ، فاحتكموا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فحكم بينهم بمقتضى النص القرآنى .

وإن بنى المغيرة لم يكونوا فقراء . بل كانوا قوما من الأثرياء ، وفيهم من قال الله تعالى فيه « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا مدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، (١) .

ومنهم من يدعى أن النبوة لا تكون إلا فى رجل ثرى عظيم فى منظره ، وقال سبحانه عنه « وقالوا لولا لا يزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، الآيات (٢) .

وإذا كان ما بين الاغنياء من تفارض بزيادة . فدعوى إخراج القرض الاستغلالى من نطاق الربا دعوى باطلة ، وهى تدل على أن القائلين أخضعوا حكم القرآن لحكم الزمان . فضلت مداركهم ؛ وزاغت قلوبهم « ربنا لاتزع قلوبنا بمد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب ، (٣) .

وسادس الأمور التى تثبت أن ربا القرآن بعم القرض الاستغلالى ، والقرض الاستهلاكى أن العرب فى حياتهم البدائية كانوا يقومون على أدنى معيشة من المادة . فما كانت لهم مطالب متعددة . وما كانوا يحتاجون إلى جهاز لابتنة يجمزونها ، ولا لأنواع من الأطايب يطلبونها . بل يكتفون بالقليل ، وهؤلاء لا يكون فيهم قرض للاستهلاك أبداً . إن تعدد ألوان المطالب التى قد تضطر للاقتراض لقضاءها ، وليد حياة متحضرة ، ولم يكن هنا حضارة عند أهل البادية .

(١) المدثر : ١١ - ١٤

(٢) الزخرف : ٣١

(٣) آل عمران : ٨

ولذا نقول إن ربا الجاهلية ، وهو الربا المحرم في القرآن يكاد ينصب على فرض الاستغلال ابتداء . والشأن يحمى من عموم النص ، وفي التعاون بالزكاة غنى عن الاقتراض للاستهلاك .

ثبوت الربا .

٢١٣ - لقد شاع التعامل بالربا ، حتى صار يسيطر على النظام الاقتصادي ، ويقول اقتصاديو هذا الزمان كيف يسوغ ترك التعامل بالربا وهو قوام الاقتصاد الحاضر .

ونقول : إن هذا الزمن هو الذي تحققت فيه نبوءة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ يقول : «يأتي زمان على الناس يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله . قال من لم يأكله ناله غباره ، .

وإن الذين أدخلوا هذا النظام في كل قارات العالم هم اليهود ، وأذكر منهم آل روتشيلد ، الذين وزعوه في القارات ، ونشروه ، وسيطروا به على العالم الاقتصادي ، وكان الربا سبيلاً للاستعمار في البلاد الإسلامية ، وخصوصاً العربية .

ومهما يكن مصدر الربا ، ومهما يكن الذين أشاعوه ، فإننا نقرر حقيقتين :

أولهما - أن تحريم الربا ليس بسبب خلق ، حتى يقصر التحريم ، على القروض الاستهلاكية ، كما يتوهم بعض المتفهمة ، إنما الأساس في تحريمه اقتصادي ، فالإسلام يدعو إلى نظام اقتصادي يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجاً من غير عمل هائل ، بل من غير تحمل لتبعة العمل ، وإذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطل سبيلاً ويأكلون ثمرات غيرهم من التجار والزراع والصناع ، ولقد قرر المحققون من الذين درسوا الاقتصاد الحقيقي أن الكسب بالانتظار (م ٣٤ - المعجزة الكبرى)

لا ينمى الأمة اقتصادياً ويفسدها اجتماعياً ، إذ أن الكسب بالانتظار لا ينتج ، إنما الذى ينتج هو الذى يعمل زارعا ، أو تاجراً ، أو صانعاً . وإنك إذا درست ما أحله الله تعالى وما حرمه من المكاسب ، تجد أن المكاسب التى أحلها الإسلام ، هى التى تزيد ثروة الأمة ، وتنمى إنتاجها أو تنفع الناس ، والمحرم من المكاسب ما لا ينمى ثروة الأمة ولا ينفع الناس ولا شك أن الكسب بالربا . ليس فيه تنمية للثروة . ولا عمل لنفع إنما الذى يكون منه هذا هو المقترض ، فبأى حق يأخذ المتعطل منه ثمرة عمله من غير تحمل الخسارة إن كانت .

الحقيقة الثانية - أن التعامل فى الإسلام يقوم على أساس التعاون . وأن يفرض ذو المال على من لا مال عنده ويتعاونوا على الاستغلال . بأن يكون ثمة مشاركة فى الكسب والخسارة . ولذلك كانت المضاربة الشرعية . أو ما يسمى شركة مساهمة ومعناها أن يدفع المال لمن يستغله على قسمة الربح بينهما . بأسهم شائعة ؛ كالثلث والرابع على أن تكون الخسارة على صاحب رأس المال . وهو المبدأ الذى تقوم عليه الشركات المساهمة . وان هذا النوع هو الذى يتفق مع مبدأ التعاون الذى دعا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) .

وهذا غير الربا لأنه استغلال من جانب المرابي ، والعمل على غيره من غير أن يتعرض للخسارة ، وهو يؤدى الى التناز .

وقد قرر المجددون من علماء الاقتصاد أن سبب الآفات ، التى تقع هو من نظام الفائدة ، وان ذلك النظام سبب بقائه مع فساد ، وإدراك الناس لهذا الفساد أنه لا يوجد نظام يحل محله .

٢١٤ - وأخيراً نقرر أن النظام الاقتصادى فى الإسلام لا يقوم

على الربا ، بل لأنه يناقضه ، لأنه يجعل صاحب رأس المال يكسب من غير عمل ، ومن غير تعرض للخسارة .

وإن الذى يلاحظ أن العالم الآن يحكمه نظامان :

— أحدهما يجعل رأس المال كاسباً دائماً ، من غير أن يقوم صاحبه بعمل يتحمل تبعاته ، ويؤدى به خدمة عامة تنفع الناس ، وتمتد الجماعة بالخير فعملهم فى الحياة أن يملكوا رأس المال وغيرهم يعمل ويستغله كاسباً ، وخامراً ، ثم يحجى . لايهم المال رزقاً رخيصاً ، ليس مكسواً بجهد عامل .

وثانيهما — نظام يلغى رأس المال ، ويجعل العمل وحده هو طريق فى مصنع بصنع . أو فى حقل يزرع . أو أى عمل ينفع الجماعة .

والنظامان يتناحران . وقد يؤدى التناحر إلى أن يأخذ بعضهما من الآخر قليلاً أو كثيراً . أفلا يتسع الوجود الإنسانى فى ذلك المضطرب لنظام يحترم رأس المال على أن يعمل فيه صاحبه يكسب من حلال وينتج ما ينفع الناس . فيكون نعم المال الصالح فى يد العبد الصالح ، ويمنع أن يكون كسب لآى مال من غير أى عمل وتحمل الخسارة . أى أنه يمنع الكسب بالزمن . إنما يكون الكسب بالعمل ، وبأرأس المال الذى يعمل فيه صاحبه .

ذلك هو نظام الإسلام الذى سينتهى إليه العالم إن عاجلاً أو آجلاً . ولو أن الذين يعملون فى الاقتصاد من المسلمين يؤمنون بالقرآن كما يمانهم بنظم هذا الزمان لكانوا الدعاة إلى اقتصاد القرآن . وعساهم يفعلون .

٦ - العلاقات الدولية في القرآن

٢١٥ - القرآن يذكر أن الإنسانية كلها أمة واحدة . ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :

وكان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فمدي الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ،^(١) .
وإن النصوص القرآنية تدل على وحدة الإنسانية في خلقها وأصلها ،
فأله تعالى يقول :

وأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وانقوا الله الذي تسمون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ،^(٢) .

فالرحم بين بنى الإنسان موصولة ، وإذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة ، والأجناس متباينة ، فإن الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد ، لا على التخالف الظاهر . يجب أن تبنى الأمور على الجذع لا على الفروع المتفرعة .

ولقد حد الله تعالى في كتابه الكريم حدود العلاقة الإنسانية ، فقال تعالى : وأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير ،^(٣) .

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التي يجب أن تكون السائدة

التعارف ، والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون وإقرار السلام ، وإحياء التراحم .

٣١٦ - وإذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس، فالسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف . فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر ، والتحارب .

ولذلك كان الأصل في علاقات الدول بعضها مع بعض أو بعبارة أدق العلاقة بين المسلمين وغيرهم السلم لا الحرب؛ فالمسلم ينظر إلى من يخالفه نظرة الود الراحم ، لا العداوة القاطعة . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : دأيهمالذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، فإن زلتم من بعد ما جاءكم البيئات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم ، (١)

وإذا قامت الحرب بين المسلمين المؤمنين بالقرآن ، فإن الإسلام يتشوف للسلم ببتغيه ، ولا يريد الاستمرار في مذبحه بشرية، فإن مالوا للسلم أجابهم المسلمون ، ولو كانوا يتوقعون الخديعة ، ما دامت لم تظهر أماراتها . ولذلك يقول سبحانه : د وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ، (٢) .

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تسكره القتل والقتال إلا أن يكون ذلك جهاداً ، ولذلك قال تعالى : د كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تسكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً ،

وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، (١) وكان القتال بالجهاد لدفع الشر وتعميم الخير ، لأن الإسلام يدعو إلى الخير ، وإلى الفضيلة ، وفضيلة الإسلام إيجابية وليست سلبية ، فهي تدافع الرذيلة ولا تستسلم .

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فإنه لا بد من دفاع الخير ، لقد أراد الإسلام للناس المحبة ، ولكن أراد لابليس لهم البغضاء ، فكان لا بد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء . ولا يدفع الشر ساد الفساد ، وعمت الرذائل ، لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد ، ولقد قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، (٢) .

لذلك شرع الجهاد في الإسلام . وأول الجهاد كان عقب الاعتماد وفتنة المسلمين وإيذائهم ليرجعوا عن دينهم . عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، (٣) .

ولقد قال تعالى آمراً المؤمنين بالقتال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلواهم حيث تقفتموهم . وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . ويكون الدين لله : فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٤) .

(٢) البقرة : ٢٥١

(٤) البقرة : ١٩٠-١٩٣

(١) البقرة : ٢١٦

(٣) الحج : ٤٠

ويقول سبحانه مبينا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهى بنهايته :
« قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد ساف ، وإن يعودوا فقد
مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ،
فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم
نعم المولى ونعم النصير ، (١) .

فما كان السب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة ، بل يستبيحها ؛
لأنهم استباحوا دم أهله ، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ،
وفتنوهم في ذلك ، والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل .

٢١٧ - ولأن الإسلام في مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ،
والفتنة في الدين ، فإن الإسلام أباح الهدنة إذا أرادها المخالفون ، وحسنها ،
ودعا إليها ، وقال تعالى في ذلك وقد أذن بالقتال العام :

وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من
المشركين ورسوله ، فإن تبتم ، فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم
غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من
المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتوا إليهم
عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين ، (٢) .

وفرض الإسلام هدنة إجبارية على المسلمين إن التزم بها المخالفون ،
وهي ألا يكون قتال في الأشهر الحرم ، وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ،
والحرم ، ورجب النى بين جمادى وشعبان .

وواجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالا ؛ إلا أن يكون امتدادا لقتال
والسكوت يضر . ولقد قال تعالى في ذلك : « إن عدة الشهور عند الله
اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة
حرم . ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيه من أنفسكم . وقاتلوا المشركين كافة كما
يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، (٣) .

ولا قتال في الأشهر الحرم؛ مادام المخالفون يحترمونها فإن اتهمكوها .
فلا يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهن أنفسهم . ويقول سبحانه وتعالى في
ذلك «الشهر الحرام بالشهر الحرام . والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله
مع المتقين، (١) .

ويقول سبحانه «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه
كبير . وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام . وإخراج أهله منه
أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم . حتى يردوكم
عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر .
فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون، (٢) .

والإسلام إذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق كما تلونا من كتاب الله، يحترم
هذه المواثيق ما أحترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها .

٢١٨ - ولا يبيح الإسلام القتل والقتال بالنسبة لمن يريد السلام .
والله تعالى يقول في ذلك «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا
ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا
فعد الله مغائماً كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا . إن الله
كان بما تعملون خبيراً» (٣) .

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله . ولمن لهم به صلة .
ولذا قال تعالى «ودوا الوثكفرون كما كفروا فتكفونون سواء . فلا تتخذوا
منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث

(١) البقرة : ١٩٤

(٢) البقرة : ٢١٧

(٣) النساء : ٩٤

وجدتموهم . ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فليقاتلوكم . فإن اعتزلوكم . فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم . ويأمنوا قومهم كلها ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث نقتمموهم . وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ، (١)

إن هذا النص يدل - أولاً - على ضرورة احترام المواثيق . وكف القتال عن أهل الميثاق . والذين له بهم صلة قومية . ويكون سلمهم سلماً لهم . وحرهم حرباً .

وبدل ثانياً - على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة ، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أى أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ومع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون .

ويدل ثالثاً - على أن الذين يترددون في موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فإن لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم ، وإلا كان قتالهم حقاً بذلك الموقف البادى .

وإن هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد . ويحترم المحايدين . فلا يرفع عليهم سيفاً . فالناس على ذلك في نظر القرآن الكريم ثلاثة أقسام :

محاربون للمسلمين ، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم . والآخر بالنواصي والأقدام من غير هواة . وهؤلاء هم المعتدون بالقتال أو بفتنة

المؤمنين كما قال تعالى : د قائلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، (١) .

والقسم الثاني أهل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء . وهؤلاء يحترم ميثاقهم . بل يمتد احترام الميثاق إلى الذين لهم به صلة . بحيث يكون سلمهم واحدة وحرهم واحدة .

والقسم الثالث المحايدون الذين لا يكونون مع المؤمنين . ولا مع أعدائهم واقعاً . لأنه ما دام الأصل في العلاقات هو السلم إلا إذا حدث ما يوجب القتال . فمن لم يكن منهم ما يوجهه فإنه لا سبيل لأحد عليهم .

وقد فهم بعض الذين لا يدرسون المسائل دراسة فاحصة مستقرية أنه لا موضع للحياة في الفقه الإسلامي وذلك كلام من لم يمحص الحقائق لأن القرآن الكريم كما ترى جعل للحياة موضعاً . وهم الذين يعزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم . فقال لا سبيل عليهم . فكان الحياة ثابتاً بنص القرآن الكريم .

٢١٩ - وإذا تلونا بعض آيات القرآن الكريم التي فتحت باب القتال جهاداً في سبيل الله نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من غيرنا بطريقتين: قتل المؤمنين . والاعتداء عليهم ، وإخراجهم من ديارهم . والثاني بفتنتهم في دينهم ، كما قال تعالى د قائلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٢) ، أى كل إنسان يعتنق ما يعتنق لا رقيب على قلبه إلا الله تعالى ، فلا إكراه في الدين . ولا فتنة فيه .

وهنا يسأل سائل ألم ييح القرآن القتال إلا دفاعاً ، أو رداً للاعتداء ، ولم ييح الهجوم ، ونقول في الجواب عن ذلك إن القرآن صريح في أنه لا يباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الإسلام

لا يبيح الهجوم على الأمنيين الذين يلقون السلام وإن ذلك حق لا ريب فيه . لأنه لا يباح الهجوم على من لا يعان العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقاً؟ وللجواب عن ذلك نقول :

إن الذي استنبط من صريح الآيات التي تلونها أننا لا نحارب إلا من اعتدى علينا أو فتننا عن ديننا . ومن الفتنة في الدين أن يمنع المتدين من إقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة إليه .

لأنه في هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزداد عليها إذا قامت العداوة التي ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم في ديارهم ، أو فتنهم في دينهم ، فإنه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد الذي لا يألو المؤمنين إلا خبالاً ويودعنتهم ، وإرهاقهم ، فلا يكون الاقتصار في الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة لا إيهام فيها، لأنه كما قال بطل الجهاد على بن أبي طالب (ماغزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) .

وبذلك نفسر قولنا إن المؤمنين ما قاتلوا إلا رداً للاعتداء بمثله أو توقفه . ولقد تلونا الآيات التي تنهى عن قتل من لا يعتدى علينا . ومن يعتزل فقاتلنا ، ومن يلقي علينا السلام .

وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه إلا الاستعداد لمثله . كان القتال مشروعاً بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم . وبالقصص إلى مكائهم . ولذلك يقول الله تعالى : « فإذا انسلك الأشهر الحرم . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . وخذوهم واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » (١) ؛ « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله

(١) النبوة : ٥ .

ثم أبلغه مأمته ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ؛ كيف يكون للشركيين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ؛ إن الله يحب المقسطين كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا آيات الله ثمناً قليلاً . فصدوا عن سبيله . إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة . وأولئك هم المعتدون^(١) ، ؛ ويقول تبارك وتعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم . وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه . إن كنتم مؤمنين ، فاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . ويخذلهم . وينصرهم عليهم . ويشرف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ،^(٢) .

ونرى من هذا النص أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء فإذا ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعاً وهجوماً بل إن خير الدفاع ما كان هجوماً . ولا سبيل لإنهاء القتال مع المعتدين إلا بإحدى خصال ثلاث : إما الإسلام ، وأن يتوبوا ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويكونوا إخواناً ، ولما بالعهد يعاهدونه ، ويوفون به فما استقاموا فالعهد قائم ، وإلا فإنه ينطبق عليهم قول الله تعالى « ولما تخافن من قوم خيانة . فانبذ إليهم على سواء ،^(٣) . ولما الاستسلام . وأن يخضعوا لأهل الإيمان .

وقد قال تعالى في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم . ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ،^(٤) .

(١) التوبة : ٦ - ١٠

(٢) التوبة : ١٣ - ١٥

(٣) الأنفال : ٨

(٤) محمد : ٧

ويقول سبحانه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا
أمتعتموهم . فشدوا الوثاق فإمامنا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب
أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ،
والذين قتلوا في سبيل الله فلن يغفر لهم » (١) .

٢٢٠ - وننتهي من هذا التتبع إلى حقيقتين ثابتتين : إحداهما -
أن محاربة المؤمنين لأى قوم لا يكون إلا عند اعتدائهم بإخراج المسلمين
من ديارهم ، أو إبدائهم في دينهم . ومن الإيذاء أن يمنع الدعاة إلى الإيمان
من أن يلاقوا الشعوب ، ويعرفوهم بالحق ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء
فليكفر ، لأنه لا إكراه في الدين ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل ،
والغنى من الرشد ، وذلك لقوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغنى » (٢) .

الحقيقة الثانية أنه إذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه ، فإن باب
الجهاد يفتح دفاعا وهجوما وغزوا والتقاء ، لا يمنع مانع إلا ما توجبه الفضيلة .
وقد فهم بعض الناس أن القتال في الإسلام لا يكون إلا دفاعا ، ولا يكون
هجوماً ، وذلك خطأ . والحق أن القتال لا يكون لقوم إلا إذا اعتدوا ،
فإن كان الاعتداء حل قتالهم دفاعا وهجوما ، وهم في الحالين المعتدون
إلا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا .

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة إلى الإسلام مفتوحا بعد اعتداء
من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون
إلا بعد أن يرسل المؤمنون دعاء للإيمان ، فإن أجاب بعضهم ، ولم يضطهد
في اعتقاده فإنه لا قتال ، ومن امتدى فإنما يمتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما

(١) محمد : ٤

(٢) البقرة : ٢٥٦

يضل عليها ، وإن اضطهد كان الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال ردأ للاعتداء بمثله .

وقد جاء الإسلام في عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعايهم ، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ، وما أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الجيوش إلى الشام إلا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا في الشام وقتلواهم ، وما حارب الذين جاءوا من بعده الفرس إلا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويلاحظ من يتلو آيات الأمر بالقتال أن فيها النهى عن الاعتداء . فالله تعالى يقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) .

والاعتداء المنهى عنه قسمان — أحدهما — الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا .

ثانيهما — الاعتداء في القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلا الشيوخ ، والنساء والذرية ، فإن هذا اعتداء في القتال منهي عنه ، ولذلك يقول تعالى : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، وانقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) .

وإن من مقتضى هذه التقوى ألا يقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها . ويلاحظ أن القتال في الماضي كان لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس القاتل قائمة ، كأنه لا حرب والسلام قائم .

إنما الحرب لمن يحادون الله ورسوله ، إذ يقول الله تعالى : ولا تجدوا مؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، (١) .

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

وما عدا هؤلاء فإن السلم هي العلاقة الدائمة والمودة إن وجدت مقتضياتها ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك ، فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم ، فأولئك هم الظالمون (٢) .

« فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء ، إذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء ، كما يقول تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم ، وبين الذين عاديتم منهم مودة . والله قدير والله غفور رحيم ، (٣) .

(١) المجادلة : ٢٢

(٢) المتحنة : ٨-٩

(٣) المتحنة : ٧

العلاقة في السلم والحرب

٢٢١ - الإسلام هو دين الوحدانية . ودين الوحدة الإنسانية . وقد تلونا من قبل الآيات القرآنية التي تقرر الوحدة الإنسانية بين الناس أجمعين ورأينا أنه بمقتضى هذه العلاقة يكون الأصل هو السلم ، ولكن الناس مختلفون أجناساً وقبائل وألسنة وأقاليم : وتلك آيات الله تعالى في الأرض . فقد قال تعالى : د ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين ، (١) .

وقد نظم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم هذه العلاقة على أساس المساواة . كما صرحت الآية الكريمة : د يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، (٢) والمساواة أساس التعارف . كما أن التعارف يقتضى المودة والتعاون في كل أمور الحياة وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية . كما قال تعالى : د يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، (٣) .

ويقول سبحانه في العلاقة الإنسانية العامة : د يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون (٤) ، والأمر بالعدالة عام في قوله تعالى : د إن الله يأمر بالعدل والإحسان (٥) ، .

(١) الروم : ٢٢

(٢) الحجرات : ١٣

(٣) النساء : ١٣٥

(٤) المائدة : ٨١

(٥) النحل : ٩٠

وإن العدالة توجب المعاملة بالمثل ، فإن اعتدوا قارومنا الاعتداء . وقد قال تعالى في ذلك : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خيرا للصابرين (١) » .

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، أمرنا بالتقوى فقال « واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين (٢) » ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل أن نستمسك بالفضيلة . فإن الفضيلة هي القانون العام في كل معاملة إنسانية فإذا كان العدو يقتل الذرية لا تقتلها ، وإن كان ينتهك الأعراض لا تنتهكها ، وإن كان يخرب ديار الأمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك . وهكذا .

وإن الإسلام قرر مبدأ الوفاء بالعهد وشدد فيه القرآن ، فقال تعالى « وأوفوا بالعهد ؛ إن العهد كان مسئولاً (٣) » .

ولقد قرر القرآن الكريم أن الوفاء بالعهد في ذاته قوة ، فقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلناكم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ؛ ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاهن ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ولو شاء الله لجمع لكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله . ولكم عذاب عظيم (٤) » .

وإن هذا النص الكريم يدل على أربعة أمور :

(١) النحل : ١٢٦ (٢) البقرة : ١٩٤

(٣) الإسراء : ٣٤ (٤) النحل : ٩١ - ٩٤

أولها — أن نقض العهد يؤدي إلى الزلل ، ومع الزلل الضياع ، فهو ليس حكمة ، ولا تدبيراً ، ولكنه خطأ

وثانيها — أن العهد الذي يوثق بيمين الله أو بإشهاد الله تعالى عليه هو عهد الله إذ اتخذ الله كفيلاً ، فمن ينقضه فإنما ينقض عهد الله تعالى الذي وثقه بكفيلته .

وثالثها — أن العهد في ذاته قوة ، والزامه قوة ، ولذا شبه من ينقضه بحال الحقام التي تغزل غزلاً وتفتلها ، ثم تنقضه أنكاثاً أى أجزاء صغيرة . فالعهد يثبت السلم ، وفي السلم قوة وقرار ، والنقض إزالة له .

ورابعها — أنه لا يصح أن تكون سعة الأرض ، وزيادة السلطان سبباً في الغدر ، ولذلك قال سبحانه في بواعث الغدر أن تكون أمة هي أربي من أمة أى أوسع أرضاً ، وأكثر عدداً ، وأقوى سلاحاً ، فلا يصح أن يكون التوسع باعثاً للغدر ، لأنه يؤدي لا محالة إلى الضعف .

وهذا التشدد في الوفاء بالعهد لأنه في ذاته عدالة ؛ ولأن العهد فيه حد للمقوق ، وخصوصاً إذا كان بين متكافئين ، ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ الأهبة سبباً في ذاته للنقض ، ولكن إذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد وأهيبته نذير خيانه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (١) . وفي هذه الحال يطبق قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة ؛ فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (٢) .

وإذا كان هناك ما يجب الاحتياط له فإنه يكون عند عقد العهد ، فلا يصح الاطمئنان إلى عهد من عرفوا بالخيانة . فإن العهد معهم نوع من الاغترار ؛ ولذلك كان يجب تعرف حال الطرف الذي يعاهده قبل العهد .

ولذلك حذر الله تعالى من العهد بعض المشركين الذين يقول سبحانه فيهم :
« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم
وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، فصدوا عن
سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ،
وأولئك هم المعتدون ، (١) .

٢٢٢ - هذا ما أردنا أن نفتبسه من آى الذكر الحكيم فى أحكام
الحلال والحرام ، وما نقلنا كل ما اشتمل عليه القرآن العظيم . ولكن
نقلنا ما يرى التالى للقرآن المقتبس من نور ، وما فصلنا الأحكام التى
تعرضنا لنقلها من كتاب الله ، فإن تفصيلها يحتاج إلى نقل ما جاء فى السنة ،
وما اختلف الفقهاء فى ظل النور القرآنى فى دلالة بعض الألفاظ ، فإن
الكلام فى ذلك يخرجنا عن مقصدنا . وهو الإشارة إلى علم الكتاب
الكريم الذى يدل على إعجازه . والله سبحانه الهادى لى سواء سبيل .

٧ - علم الكون والإنسان في القرآن

٢٢٣ - القرآن الكريم الكون قد فيه تكرر ذكره ، لأنه كما بينا
أخذ من خلق كل من في الوجود دليلاً على من أنشأه ، فكان بمقتضى النهج
النوراني لا بد أن الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده
سبحانه وتعالى ، ولا تكاد تجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت
من ذكر الكون ، وما يتصل به .

وإن ذلك فيما نحسب يوجه نظراً للإنسان إلى أنه جزء صغير من هذا
الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أمراره ، وأحواله ، وليعرف أنه وهو
الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير ، ولقد قال تعالى : **الخلق**
السموات والأرض أكبر من خلق الناس .

وإن ثمة حقائق مذكورة في القرآن يستبصر بها كل متعرف لهذا
الكون دارس له فأنه تعالى يقول : **ومن آياته خلق السموات والأرض ،**
وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ، (١) .

وفي القرآن الكريم ما يوعى إلى محاولة الإنسان الارتفاع في الفضاء ،
فأنه تعالى يقول : **د يامعشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار**
السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان
يرسل عليكم شواظ من نار ، ونحاس فلا تنتصران ، فبأي آلاء ربكما
تكذبان (٢) .

واقرا آيات القرآن في السحاب ، وإرساله ، وأحواله ، فإنك تجد
توجيهاً إلى ما لم يكن الناس من قبل يتجهون إليه ، ودلت المشاهدات على
أنه واقع ، اقرا قوله تعالى في وصف السحاب : **ألم تر أن الله يزجي سحاباً ،**
ثم يؤلف بينها ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من

السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن يشاء يكاد سنا بوقه يذهب بالأبصار ، (١) .

وترى من هذا تشبيهه السحاب الذى أزجاه الله تعالى بالجبال ، وهذا لا يبدو للسائر على سطح الأرض ، ولا للواقف على آكامها ومرتفعاتها وما كان ذلك معلوما عند العرب ، ولكن الذى يرتفع فوق السحاب فى الطائرات التى تقطع أجواز الفضاء يرى السحاب جبالا .

وإن هذا بلا شك نوع من العلم بالكون فوق ما فيه من دلالة على إعجاز القرآن ، إذ أن ذلك الوصف لا يمكن أن يكون من محمد ، لأنه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلا بد أن يكون الوصف بعلم الله تعالى ، والكلام كله من عنده سبحانه ، لامن عند محمد .

وأنت ترى أوصافا كثيرة للأرض والسماء لا تكون إلا من الأسمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، أو لا يعلم علوم الكون وما يجرى فيه ، وما كانت معرفة عند العلماء فى عصر نزول القرآن ، كالعالم بطبقات الأرض والسماء ، ذكرها القرآن والباحثون لا يزالون دائبين فى البحث عنها ، وعلمهم يصدق بالقرآن ، اقرأ قوله تعالى : **الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، ينزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** ، (٢) .

واقرأ قوله تعالى : **وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم** (٣) وقوله تعالى **وتبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من**

(٢) الطلاق : ١٢

(١) النور : ٣٤ .

(٣) البقرة : ٢٩

فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير،^(١)
واقرا قوله تعالى د ألم تر وا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل
القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجاً^(٢) .

وترى النص الكريم يفرق بين الشمس والقمر ، فيجعل الشمس هي
السراج الذي يضيء ، والقمر نوراً مقتبساً من غيره ، وهو الشمس .

واقرا قوله تعالى : د تبارك الذي جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها
سراجاً وقرراً منيراً ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر
أو أراد شكوراً^(٣) .

ويقول سبحانه في خلق السموات والأرض ، وأدار خلقهن د إن
ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش
يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات
بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين^(٤) .

واقعد بين القرآن أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ، وأن
الأرض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الأرضية ، وكان عليه
الماء ، ومنه كانت الأحياء التي خلقها الله تعالى ، واقرا في ذلك :

د أولم يز الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ،
وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن
تُميد بهم ، وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً
محفوظاً ، وهم عن آياتنا معرضون^(٥) .

(١) الملك : ١ - ٤

(٢) نوح : ١٥ - ١٦

(٣) الفرقان : ٦١ - ٦٢

(٤) الأعراف : ٥٤

(٥) الأنبياء : ٣٠ - ٣٢

وترى أن النص الكريم صريح في أن السموات والأرض كانتا كونا واحدا ، وفصل الله تعالى جزءا منه وهو الأرض ، وكانت فيها هذه الحياة التي يحياها الحيوان والطير في السماء ، والسماك في الماء ، والزرع في الفيحاء . وإذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتداء خلقه بالسديم ، وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ، فقال تعالى في خلق السموات والأرض : **وَقُلْ أَنتُمْ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ** بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء ، وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سما أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم^(١) . ونقف وقفة قصيرة عن هذه الآيات البيّنات ، فنرى الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الأرض خلقها في يومين ، واليوم هنا كما أشرنا من قبل ليس هو اليوم الذي نعرفه ، إنما هو الدور في التكوين ، وهو كونها مع السموات رتقا ، وهذا دور ثم انفصالها وهذا دور ثان ، ودوران آخران للأرض جعل فيها رواسي عالية ، وهي الجبال ، وخلق فيها الماء وما تبعه من خلق للأحياء من حيوان ونبات ، فكانا أربعة أدوار .

ويبين سبحانه أن السماء والأرض كانتا دخاناً ، وهو ما نحسب أنه السديم الذي يقوله العلماء .

٢٢٤ - وإن القرآن الكريم فيه إشارات بيّنات إلى علم الكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون في السموات والأرض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن الكريم التي تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل إليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالإشارة الواضحة

التي تجمل ولا تفصل ، وهي في كلتا الحالين صادقة كل الصدق بيينة لمن يطلب الحقائق الصادقة . وإن بضاعتنا في علوم الكون محدودة لا تسمح لنا بالخوض في كلام تفصيلي في هذا ، وقد رأينا كثيرين من العلماء المخلصين المحققين قد تعرضوا لهذا ، فمنهم من بين طبقات الأرض ، كما أشار القرآن ، ومنهم من بين غير ذلك .

ونحن نرحب ببيانهم ، وليكن لا بد من ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم ، وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه ، وكما توميء إشاراته ، وذلك لأنهم أحياناً يحملون القرآن ما لا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحياناً يأتون بنظريات لم تكن قد حررت من بعد من الشك ، والنظر ، وقد تتغير ، ولا يصح أن يبقى القرآن تفرّد معانيه باختلاف النظريات ، بل إن الواجب أن ندرس ما في القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه .

الملاحظة الثانية : أن يدرس الكون في القرآن على أنه حقائق ثابتة هي مواضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه موضع نظر ، بل إن الإيمان بالقرآن يوجب الإيمان بكل ما اشتمل عليه ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ، ونتجه إلى تأويله إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل ، وتكون حقائق العالم الثابتة تقتضى الأخذ بالتأويل الذي يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج بالألفاظ إلى غير معانيها .

وإننا بهذه الدراسات العميقة المسلمة بحقائق القرآن نفتح مغاليتي في العلم ، وتكشف الحقائق الكونية بهداية من القرآن ، على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع ، وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق والعلم لأنه من عند الله الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو كتاب الوجود ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

الإنسان في القرآن

٢٢٥ - ذكر الله تعالى خلق الإنسان من طين ، وخلق الجن من نار، وقد بين ذلك في أصل الخليقة ، وقد ذكر الله تعالى في آيات وسور مختلفة وكلام سبقت بالبيان المتناسق في موضعها وموضوعها ، ولنذكر من غير اختيار آيات كريمات في موضع منها ، قال تعالى في سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ^(١) .

وإن هذا النص الكريم يبين ثلاث حقائق كانت مع الإنسان :

(أولها) أنه أوتي استعدادا لعلم الأشياء أى علم الـكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير إلا إذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها ، ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها .

(الثانية) أن في طبيعة الإنسان الاستعداد للإغراء ، ومن هذه الناحية جاء إبليس ، فأغرى أبوى الإنسان بالأكل من الشجرة ، وقد نهاهما الله

تعالى ، ولكنهما تحت تأثير ذلك الإغراء نسيما نهى الله كما قال تعالى في وصف آدم أبي الخليفة ، ففسى ، ولم نجد له عزماً (١) .

الحقيقة الثالثة : أن آدم نزل هذه الأرض ، وقد تلقى كلمات الله تعالى ليكون للفضيلة ، ويستمسك بها ، ولكن كان معه في الأرض إبليس يفرى ذرية آدم ، ويفورها ، كما قال تعالى عنه ولاغوينهم أجمعين لإعبادك منهم المخلصين ، (٢) . هذا بيان الله تعالى في ابتداء خلق الإنسان .

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك خلق الإنسان بالتناسل ، فقال تعالى : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة مخلقة العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، (٣) .

ويقول سبحانه وتعالى : ولما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبئناه بحملناه سميماً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً ، وإما كفوراً ، (٤) . ويقول تعالى في خلق النفس الإنسانية في الإنسان : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، (٥) .

ويقول سبحانه في القوة المدركة في الإنسان التي بها يكون التكليف ، والحساب والثواب والعقاب : أبحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمني ، ثم كان علقة مخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، (٦) .

ويذكر سبحانه خلق القوى الإنسانية في القرآن ، فيقول تعاليت قدرته

(٢) س : ٨٢ — ٨٣

(٤) الإنسان : ٢ — ٣

(٦) القيامة : ٣٦ — ٤٠

(١) طه : ١١٥

(٣) المؤمنون : ١٢ — ١٤

(٥) العنكبوت : ٧ — ٨

« والله أخرجكم من بطون أمماتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، (١) .

ويذكر سبحانه في كتابه الكريم أدوار الإنسان فيقول تبارك وتعالى :
« والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد عام شيئاً ، إن الله عليم قدير ، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبئعنة الله يمجدون ، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ، (٢) .

وذكر الله خلق الإنسان ، وما عهد إليه من تكليفات في ثنايا القرآن الكريم ، وقد ذكر الكون على أنه مسخر للإنسان يكشف منه أسرار الوجود التي يكون في طاقته أن يعلم بها ، ويذكر خلق الإنسان ، وما أودعه الله تعالى من قوى ليعبد الله تعالى وحده .

ويذكر سبحانه أنه بمقتضى ذلك التكوين النفسى والعقلى وكل القوى التي خلقها سبحانه قد أخذ عليه عهداً أن يكون رانياً لله سبحانه وتعالى :
« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم ، أفتملكننا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون (٣) ،

وبذلك يبين سبحانه أن الواهب الإنسانية التي خلقها الله في الإنسان عهد بينه وبين ربه ، فإن استجاب لفطرته ، ارتفع وإن خالف واتبع الشيطان هوى ، ويبين سبحانه كيف هوى فيقول سبحانه بعد الآية السابقة :

(٢) النحل : ٧٠ - ٧٢

(١) النحل : ٧٨

(٣) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤

وواتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكننا أخذنا إلى الأرض واتبع هواه ، فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخامسون ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١) .

النفس الانسانية في القرآن

٢٢٦ - إذا اتجه التالى للقرآن إلى دراسة النفس الإنسانية من خلال آياته ، فإنه بلاريب فى مكان فسيح للدراسة ، يعطى مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس فى إيمانها . وفى جوارها . ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية تكشف عن نوايس النفوس وما تتأثر به ، وما تتجه إليه فى إيمانها . وفى انحرافها . ولنتجه إلى بعض هذه المعانى فى كتاب الله تعالى ، ولا ندعى أننا نستطيع الإحاطة بها علماً ، ولا إحصاءها ، ولو بالتقريب . فإن ذلك يحتاج إلى تفرغ لا قبل للأخذ به إلا أن يكون ممن يعدون بدراسته ، أو من المتخصصين فى علم النفس . ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها فى قصص القرآن وبعضها فى شرح أحوال المؤمنين . وأحوال الكافرين .

(١) من هذه الأمثلة أن النفس التى تسارع إلى الاعتقاد من غير دليل سابق ، ولأخص لقول لاحق من شأنها أن تقع فى الخطأ . وإذا أصرت بعد البيان كانت فى ضلال . وأصابها الصمم عن الحقائق . والعما عنها : اقرأ قوله

تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد . وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، (١) .
إن الذى وهبه الله الهداية لفهم القرآن الكريم بعباراته وإشاراتِهِ تبدو بين يديه الحقيقتان الآتيتان :

أولاهما - أنه سبحانه يقر بأنه ليس من شأن الذين سارعوا إلى التكذيب من غير أن يفحصوا ويدرسوا - وأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يقتضى قلباً مذعناً لما يأتى به الدليل ، لأن يكون سابقاً بالحكم قبل الدليل ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله تعالى كلماته : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، وواضح أن العلة فى سدد باب الإيمان هو مسارعتهم بالتكذيب من غير برهان ، ومن يكذب بالبرهان لا يؤمن بما جاء به البرهان .

الحقيقة الثانية - أن المسارعة بالتكذيب تؤدى إلى تغليق القلب عن أن يصل إليه النور . وبتوالى التكذيب من غير دراسة للأدلة يكون منع الهداية ، وإن ذلك يقول الله تعالى : كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (٢) ، أى بهذه الحال ومثلها يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين ، ويتمحقق فيهم قول الله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٣) .

(ب) ولننتقل إلى مثل آخر من كتاب الله ، وإنه المعين الذى لا ينفد فى دراسة النفس الإنسانية ذلك المثل هو قوله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » (٤) .

فهذا النص الكريم يبين لنا قاعدة فى النفس ، يسترشد بها المرئى والمهذب ، والذى يحاول معالجة النفوس المريضة ، إذ يعرف سبب المرض فيطب له .

(١) الأعراف : ١٠١ - ١٠٢ (٢) الأعراف : ١٠١

(٣) البقرة : ١٧١

(٤) آل عمران . ١٥٥

إذ يبين الله سبحانه وتعالى ؛ أن الذين أعرضوا عن الوقوف يوم التقي الجمعان ، سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وإن الذنب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وإنه لأجل الطب لهم لا بد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الإقلاع عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجاً له ، ولذلك قال الله تعالى : « ولقد عفا الله عنهم ، ؛ لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم .

(ح) ومن هذه الأمثلة ما قرره الله تعالى من أن النفس غير المؤمنة لا تنضب ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبهرها وتطغىها ، والنعمة توئسها وتشقيها ، ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك إلا بالصبر : اقرأ قوله تعالى : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، إنه لفرح نفور ، إلا الذين صبروا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (١) .

وإن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن ذلك الفرح الطاغى في حاله ، واليأس المميت في وقته مرض إنساني ، وإن علاجه الصبر ، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تزعج للألم ، ولا تطغى بالنعمة .

(د) ولقد بين الله تعالى أن سلوك غير الحق هو اتباع للظن غير الناشئ عن دليل ، بل عن الهوى ، وقد قال تعالى في ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً (٢) .

فهذا النص الكريم يبين مرض النفس التي تضل . ويذهب بها الضلال إلى متاهات من الباطل . وذلك المرض هو الوهم . فهم يتوهمون . ثم يهوتون . ثم يظنون . وليس عندهم دليل يكون علماً . بل عندهم أوهام وظنون . وإن دارس علم النفس التربوي يجد فيه باباً من أبواب التربية العقلية بأن يباعد بين الناشئة والأوهام .

(٥) زمن الأمثلة لبيان أحوال النفوس بيان أحوال النفوس التي لا تفكر إلا في دائرة نفعها أو ضررها . ومن شأن هذه النفوس أن تكون أثرية متقلبة ؛ لا تدعن للحق وليكن تدعن لنفعها وضررها .
اقرأ قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضره مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ، (١) .

وهذا تصوير للنفس التي فقدت الإيمان ، وحرمت الخير ، ولا تفكر إلا في محيطها ، وهي بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » ، (٢) .

(و) ولنسكرر مثلاً ذكرناه فيما تلونا من قبل ، ونذكره هنا من ناحية البيان النفسى فيه ، وهو مثل ولدى آدم فآله تعالى يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ؛ إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأفعلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين . من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، (٣) .

هذه الآيات البينات فيها كشف عن النفس المؤمنة المطمئنة الراضية ،

(١) يونس : ١٢

(٢) الحجر : ٩

(٣) المائدة : ٢٧ - ٣٧

وكشف عن النفس الحاسدة الحاقدة .

(أ) وهي تدل على أمور نفسية تصور مصدر الشر والخير ، فالنفس المؤمنة تعرف الأمور على وجهها وتدرك الحق ، وما أوجبه ، فهي ترد سبب قبول القربان إلى التقوى والخوف من الله .

(ب) والنفس التقيّة هي التي تمتلئ بذكر الله وتستشعر خوفه دائماً ، وأن الاعتداء إنما يكون حيث يخفى الخوف ويظهر الطغيان ، ولذلك علل عدم رد الاعتداء الذي بادره به أخوه بأنه يخاف الله رب العالمين وأن القتل إنما هو جريمة في حق من خلقهم الله تعالى ، وهو ربهم .

(ج) وتشير الآية إلى النفس منطوية على الخير ، وإن الشر عارض لها ، ولذا رد المؤمن التقي قول أخيه وتهديده بالقتل بقوله « ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك » ، وفي هذا إشارة إلى النفس التي لم تدنس بشر ليس من شأنها أن تبسط يدها بالقتل .

(د) والآيات تدل على أن الحسد هو أساس الاعتداء ، فلو انخلع من القلوب ما كان شر ولا اعتداء في الأرض .

(هـ) وتدل الآيات أيضاً على أن الاعتداء بالأذى ليس هو الأصل بالنفس الإنسانية ، فهو عندما اتجه إلى قتل أخيه عاج نفسه ليحملها على مطاردته في قتله ، ولذا عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ، لأنه خسر أخاه وخسر نفسه ، فأفسدها .

(و) وتدل ثالثاً على أن رؤية المعتدى عليه ، والاعتداء قائم يبعث على الندم ، والآيات من بعد ذلك تبين أن أساس الكثير من الجرائم هو الحسد فلو اجتث من النفوس ما كان اعتداء ، ولكن الله تعالى يبلو به الناس ليعلم الخير والشر .

ولاشك أن المدارس للنفس الإنسانية يجد في القرآن معيناً لا ينضب ، ولو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية .

قصة يوسف في سورته :

٢٢٧ — إن المتتبع لقصص الأنبياء في القرآن يجد أنه يتجه إلى بيان دعوة النبي الذي يذكر خبره بالتوحيد ، ومنع الإشراف بالله ، والإصلاح ودفع الفساد ، وكيف لاقى قومه دعوته ، وما احتج به من أدلة ، وماساق لهم من براهين ، وأنواع المعجزات المختلفة التي أمد الله تعالى النبي الذي يقص خبره ، وما آل إليه أمر الأقسام الذين دعاهم إلى الهدى وإلى طريق مستقيم فأبوا واستكبروا ، هذا شأن القصص القرآني الذي يسوقه الله تعالى في كتابه ولكننا نجد ذلك يتخلف في قصة نبي الله يوسف عليه السلام . حتى يتوهم القارئ لها أن نبي الله يوسف ما كانت له دعوة يدعو إليها ، ولا قوم يحاطبهم حتى تهجم المنحرفون يقولون زوراً من القول .

ولكن المدارس للسورة الكريمة يجد أنها طراز آخر من القصص ، وفيها كشف عن النفس في ناحية من نواحيها ، ودراسة لها في علاقتها بالمجتمع الذي تعيش فيه ، إذ هو توجهها . وإن المدارس لها يجد فيها بياناً للأمر في علاقاتها بعضهم ببعض مع علاقة الآباء بالآباء ، وعلاقة الأبناء بعضهم مع بعض وعلاقات أبناء العلات ، كيف يختصمون وكيف يجتمعون ، وما يؤدي الحسد بين أبناء العلات . بسبب ما تنور به النفوس المثورة ، وكيف تتصور ما ليس واقعاً على أنه واقع . ثم ما يؤدي إليه الاندفاع بدائع الحسد المقيت .

ولنبتدىء بإيجاز القول في القصة من أولها . كان يوسف وأخوه الشقيق من أم غير أم سائر الأخوة ، والآب الحاني نبي الله يعقوب . يرى كل أولاده في منزلة واحدة ، ولكنه بنظره العميق الشقيق يرى في الأخوة الكبار نظرات إلى الصغيرين ما لا يطمئن به فيعمل على ألا يكون منهما ما يثير ، (٢٦٢ — المعجزة الكبرى)

ويؤجج النظرات الماقتة ، يرى يوسف رؤيا صادقة ، إني رأيت أحد عشر
كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، فيخشى الأب الحاني أن
يؤثر ذلك عداوة لإخوته، فينهاه: «لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا
لك كيداً ، .

ولكن الحسد يوهم الكبار أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه بمحبته لما
يكون من فضل عطف على الصغير من الإيثار . قالوا ليوسف وأخوه أحب
إلى أبينا منا ونحن عصبة . . وهنا يصل الحسد الشيطاني إلى غايته : « اقتلوا
يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين ، . ولكن الشر لا يكون موضع إجماع ، فلم يكن إجماع على قتله .
بل قال قائل منهم لا تقتلوه ، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة
إن كنتم فاعلين، ارتضى الإخوة ذلك الحل الذي ينزل من القتل إلى إبقائه في
الجب وهو صغير لا يعلم مآله، ولكنهم يحتالون ليأخذوه من أبيه برضا ، « قالوا
يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع
 ويلعب وإنا له لحافظون ، . ولكن الأب الكريم بإلهام الأبوة يتوجس خيفة
على ولده ، ويخشى عليه السوء ، ولكنه يخفي في نفسه سوء الظن بهم . أولاً
يكون سوء ظن ، ويذكر أنه يحزن إذا غاب عنه مستوحشاً بغيبته ، فيقول:
« إني ليحزن نى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ، .
أخذوه ونفذوا ما دبروا وألقوه في غيابة الجب ، ولكن نفس يوسف ألهمها
الله بأنه سيكون الأعلى ، وسينبتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. عادوا إلى
أبيهم ليكون . قالوا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ،
وأحسوا في أنفسهم بالظننة تعر وأباهم ، فقالوا ، « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا
صادقين ، وجاءوا على قيصه بدم كذب ، ، ولكن الأب بفراسته وإلهام
الأبوة ماصدقهم . بل قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل
 والله المستعان على ما تصفون ، .

٢٢٨ - هذه قصة ساقها القرآن الكريم لا لمجرد الاتعاظ والعبرة فقط ، بل فيها كشف عن النفوس يجد فيها الدارس النفسى مكاناً للفحص يهديه إليه كتاب الله تعالى .

(١) فهى أولاً : تبين أن علاقة أبناء الأعيان ، وهم الأشقاء لا تمانلها علاقة أبناء العلات وهم الإخوة والأخوات من الأب من غير الأم ، وتصور الغيرة الشديدة التى تكون بين الأبناء ولو كانوا كباراً ماداموا فى ميعه الصبا ، وأن هذه الغيرة تدفع إلى الحسد ، والحسد يدفع إلى البغضاء ووراء البغضاء .. الجريمة .

(ب) وهى أيضاً تصور لنا أن الأبوة الشفيقة توحى بالتظنن ، وبالاحتراس ، فقد تظنن نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام فى أن قصص يوسف على إخوته خبر الرؤيا قد يدفع إلى أن يكيدوا له كيدا ، ولذا أوصاه بالآيخبرهم بها وتظنن عندما أرادوا أن يخرجوا به ، ولكنه لم يتمكن من منعه عنهم .

وأنه إذ لم يتمكن من منعه عنهم أبدى مخافته من أن يأكله الذئب ، وقد كانت منه هذه الكلمة ، وكأنها كانت توجيهاً لهم ليبدو العذر الذى يعتذرون به ، فجاءوا واعتذروا بأن الذئب أكله ، فن كلامه ابتدعوا قو لهم ابتداعاً .

(ج) ولكنهم جاءوا أباهم عشاء يسكون ، فما سر هذا البكاء ؟ ذلك أنهم إذ فعلوا فعلتهم كان فيهم بقية من شفقة فكان هذا البكاء ، كما ندم أحد ابني آدم عندما قتل أخاه .

(د) وإن يعقوب عليه السلام لم يصدق كل التصديق قولهم ، بل لم يصدق مطلقاً ، واستعان بالصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ، وجدير أن يكون من النبيين .

ولاشك أن فى هذا كله توجيهات نفسية لمن يتدبر ويعتبر ، ويستبصر ،

وكان حقاً على الذين يدرسون مجتمع الأسرة أن يجعلوا من هذا مثابة للدرس يدرسونه ، ويبنون عليه ، ويسترشدون به .
وإن قصة أسرة يوسف لم تنته عند هذه النهاية ، بل إن الإخوة من بعد سيلتقون ، وسيبتاعون أو يتلاومون ، لقد وصل يوسف في علوه عليه السلام إلى أن مكن من عرش مصر ، فقد مكن الله تعالى له في الأرض يقبوا منها حيث يشاء .

جاء إليه إخوته فعرفهم ، ونسى بما أنعم الله به عليه مساءتهم ، ولعله استأنس بلقائهم ولم يستوحش ، ولكنه طلب أخاه شقيقه ، وقال لهم ؛ « اتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سزاود عنه أباه ، وإنا لفاعلون ، ولكن شفقة الأخوة ، وشفقته بأبيه وقومه تغلب عليه ، فيجعل بضاعتهم في رحالهم وهم لا يعلمون ، فكانت ثمة محبة الأخوة ، ومحبة الشقيق .

رجعوا إلى أبيهم ، وفي هذه الحال كانوا صادقين ، قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ، ولكن ذكراء الألية تتحرك ، يقول : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم اكتشفوا من بعد ما جهله عليهم يوسف الصديق ، فتحو متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا . ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ، وفي هذه المرة كان يعقوب عليه السلام أحرص من المرة الأولى ، فأخذ موثقاً ليأتمه به إلا أن يحاط بهم ، فأتوه موثقهم .

وتحركات الشفقة الأبوية عليهم جميعاً ، وخشي عليهم العين ، فقال عليه

السلام لهم : يا بني لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ،
وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت ، وعليه
فليتوكل المتوكلون .

دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوه ، وألنقوا بأخيه . وآوى يوسف
إليه أخاه ، وفاضت نفسه إليه قائلاً له : إني أنا أخوك ، فلا تبتس بما
كانوا يعملون .

وأراد أن يبق أخاه معه ، فلما هموا بالرحيل ، وضع المكيال المصرى فى
رحل أخيه . ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم
ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولن جاء به حمل بمير ، وأنا به
زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين ، قالوا
فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه
كذلك نجزي الظالمين فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم وجدوه فى وعاء
أخيه ، وبحكمهم أخذ أخاه وأبقاه عنده وتحركت فيهم الحال التى كانوا فيها
عندما رموا بيوسف فى الحب ، وقالوا : « إن يسرق فقد سرق أخ له من
قبل » وبذلك ثارت فى نفوسهم الغيرة القديمة ، وإذا كانت فى أول أمرها
قد دفعتهم إلى القتل ، أو السير فى سبيله ، فقد دفعتهم هذه المرة إلى الكذب
ورمى البرىء بالسرقة ، فأسرهما يوسف فى نفسه ، ولم يبيدهما لهم ، فقال أبتهم
شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون ، فأحسوا بالتبعة عند لقاء أبيهم ، وأرادوا
أن يتشفعوا بحال أبيهم الشيخ . فقالوا : « إن له أباً شيخاً كبيراً ، نخذ أحداً
مكانه ، إننا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا
عنده ، إنا إذا لظالمون » . يشوا من أن يعودوا بأخيه لا يبيهم الشيخ ،
وتعرضوا للظنون التى لها فى ماضيهم ما يؤيدها ، وهموا بالعودة ، ولكن
كبيرهم كان إحساسه بالتبعة أشد من سائرهم فقال لهم « ألم تعلموا أن أباكم

قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسئلكم القرية التي كننا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون .
عادوا إلى أبيهم ، وقالوا ما لقنهم إياه أخوهم الكبير الذي تخلف عنهم استحياء من لقاء أبيه ، ولكن الأب الشيخ لم يطمئن إلى ما قالوا ، وقال لهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل .

وإن الأمر إذا تأزم كان من لطف الله بعباده أن يفتح نافذة من الأمل في وسط التأزم فكانت تلك النافذة ، وقال نبي الله الشيخ : دعسى الله أن يأتيهم جميعاً ، لأنه هو العليم الحكيم ، وفي وسط هذه الحال استيقظ الماضي فتذكر ابنه المفقود يوسف الذي لا يعلم حاله ، أهو حتى يرزق أم ميت قبر ، وقد برح به الحزن ، ويقول الله تعالت كلماته في وصف حاله :
د وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وايضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم ، رأوا أن أباهم لا يزال يذكر يوسف ، ولا ينى عن ذلك حتى يتلف جسمه أريموت ، وصار حوه بذلك ، فقال الشيخ الجريح القلب :
د إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .

وفي وسط هذه الغمة عادت إليه بارقة الأمل كما عادت أولاً ، فقال بجمان الأب الشفيق : د يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تئسوا من روح الله إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون .

استجابوا لطلب أبيهم وذهبوا يبحثون ، وإن مكان الأخ معروف عندهم ، وأما الأخ الذى غيبوه ، فهم لا يعلمون حاله ولا مآله .

ذهبوا إلى المكان الذى تركوا فيه الأخ الأخير ، فدخلوا على عزيز مصر د يوسف ، وقالوا د ياها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين .

هم جاءوا للبحث عن أخينهم ، ولكنهم جعلوا المدخل إليه أن يقولوا
لأنهم جاءوا ببضاعة من جاة، وهنا نجد يوسف الصديق يحن إلى جمع الشمل بعد
إذ تفرق ، فيقول لهم عاتباً ، معذراً عنهم إذ فعلوا ما فعلوا جاهلين . يقول
الأخ المحب لإخوته : دهل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ،
وهنا تلمهم عاطفة الأخوة الحبيبة إلى أنه يوسف ، وإن تغيرت الأحوال ،
واختفت سيمى الطفولة وبدت سممة الرجولة : د قالوا أنك لأنت يوسف .
قال أنا يوسف ، وهذا أخى قدم من الله علينا . إنه من يتق الله ويصبر .
فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا
لخاطئين .

وهنا تظهر الأخوة المحبة المتفاضية عن الإثم من الجاهلين ، فيقول
الكريم ابن الكريم ، د قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو
أرحم الراحمين .

وقد علم حال أبيه وطب لعلاجه ، قال : د اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه
على وجه أبي يرتد بصيراً وأتوني بأهليكم أجمعين .

كان الأب العطوف يحس ، وهم في الطريق إليه بأن ربح يوسف تهب
نحوه د فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم
إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين
قال سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم .

ولا نقف طويلاً عند ارتداد البصر إلى نبى الله يعقوب عليه السلام
بعد أن ابيضت عيناه من الحزن أهو بسبب الفرحة الشديدة ، أم هو أمر
خارق للعادة ، وما ذلك بغريب على الأنبياء ، ونحن نميل إلى الثانى ، فإن
يوسف عليه السلام كان متأكداً ، ولم يكن متظناً له .

جاءت الأسرة إلى مصر حيث سلطان يوسف عليه السلام ، والتقت

على المحبة ، بعد أن فرقتها غيره الجهل ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش ، وخر والاه سجداً ، وقال يا أبت هذا تاويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

٢٢٩ - لم نتبع قصة الصديق نبي الله يوسف من وقت أن رموه في الجب ، وأردنا أن نربط بين أجزاء الأسرة لنعرف مقدار ما يتبين من القرآن من حال النفوس في ميعة الشباب وجهالته ، وما يكون منها بعد أن تسكن عواصف الغيرة ، وتتوافر بواعث الرحم .

ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون ، ورجحنا أن يكون بكاء حقيقياً ، وليس كدموع التماسيح ، كما يقولون وقلنا إنها انفعالة الرحم ، وإن لم يكن لها أثر عملي ، إذ كانوا يستطيعون أن يعودوا ، ويستنقذوه من الجب الذي ألقوه فيه . ويظهر أنهم كانوا بين عاطفتين متضاربتين : عاطفة الرحم الجامعة ، والغيرة الملمحة ، الباعثة على البغضاء ، فذرفت عيونهم بالعاطفة الأولى ، وأقعدتهم الثانية عن أن يزلبوا ما فعلوا ، وما ارتكبوا في حق أخيهم .

ونترك أولئك الإخوة في حيرتهم ، واضطراب عواطفهم ، ولنتوجه إلى الأب المكلوم الذي فقد ولده فإننا نلاحظ فيه ثلاث عواطف ، كل واحدة تجرى على لسانه .

أولها - ألم الفراق الذي أصاب نفسه ، لقد كان ولده الحبيب المقرب الصغير ، والصغر ذاته يجلب المحبة ويجعله أكثر قرباً ، وآثر بالمحبة من غير أن يفقد أحد من أولاده محبته ، فالحب الأبوي يقبل الاشتراك ، ولكن في تفاوت بالسن ، وبالقرب ، وبالخلق ، وبالخيال التي تدل على الانفراد بمنزلة دون غيره .

والثانية - أن الذين كثر ثوبهم بهذه الكارثة التي هدت كيانه ، وجعلت عينيه تبيضان من الحزن ، هم أولاده ، وأفلاذ كبده ، فلا يمكن أن يكونوا أعداءه ، ولا يمكن أن يبغضهم ، لأن بغضهم يكون ضد الفطرة وألك حال لا يصبر عليها إلا أولو النفس القوية التي هي نفوس الأنبياء والصديقين وفي الموقف الذي وقفه الشيخ من إحساسه بالألم من أولاده ، مع إحساسه بعاطفته مجال للدرس والتحليل ، وجه القرآن الكريم إليه أنظار الدارسين والفاحصين .

الثالثة - أن يعقوب عليه السلام كان في قلبه إحساس عميق بأنه سيأتي ابنه في المستقبل إن لم يكن في القريب العاجل ، ففي البعيد الآجل ، فهو إذ يتهم أبناءه ، ويقول لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، يقول أيضاً صابراً « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، ويقول وقد غاب عنه ابنه الثاني بعد أن تباعد الزمان ، وأن يكون قد غمى على الموضوع النسيان : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم ،

وإن ذلك الإحساس الكريم الذي يتغلغل في النفس المؤمنة موضع تحسن دراسته ، وتعرفه ، ولا شك أن هذا ليس من خواص الأنبياء ، بل طبيعة في النفوس المؤمنة الطاهرة الملهمة من غير وحى ، إنما هو الصفاء النفسى .

وإن قصة إخوة يوسف مع أخيمهم وأبيهم وموقف أبيهم ، وهو الحامل للآسى من غير أن يقف من أبنائه موقف تنبيهه للواجب الذى يتخذ عند ما تصاب الأسرة ، فيكون على كبيرها أن يجمعها ولا يفرقها ولا يذهب به فرط محبته وأساه ، إلى تبديل المحبة بالعداوة .

٢٣٠ - نعود إلى الأولاد الذين آذوا أخاهم ، ولجت بهم الغيرة ، لقد اعتراهم الندم ابتداء وإن لم يظهر له أمر عملي .

ولكنهم علموا مقدار خطئهم عندما بلغوا أشدهم ، أدركوا مقدار ما فقدوا من أخ ، وإن لم يكن كإحساس أبيهم بل لإحساسهم تشوبه بقايا الغيرة وقد تبينت عند ما أحسوا بأن أخاهم الثاني تسبب في تأخير بضاعتهم . وإن الغيرة كما نرى في كلامهم تثير النفس ، فلا تندفع إلى البغضاء فقط بل إلى الكذب ، ولكنهم على كل حال كانوا في كبرهم يغلب عليهم حنان الأخوة ، ولشد ما كانت فرحتهم عندما علموا أن عزيز مصر هو أخوهم ، وقد قالوا وهم في طريقهم نعيم أهلنا ونحفظ أخاننا .

إن قصة يوسف في أسرته هي قصة أسرة ، فرقت الغيرة بعض عناصرها ، فكانت حكمة الأب الحاني هي التي منعت المأساة من أن تسير إلى غاية من الضلال . بل وقف بها في أقصر حدودها ، وهي تبين كيف تعود المحبة بسيادة العقل ، وفعل السن ، وإثارة المودة .

وفي ذلك درس حكيم للأسر التي تصاب بمثل هذه ، وفيه أيضاً دروس نفسية عميقة لمن يطلبها .

المجتمع المصري في عصر يوسف :

٢٣١ - ألقى يوسف في الجب ، وصارت حياته عرضة لكل مفترس . وقد ذكرنا آخذين مما تلونا أنه لم تصبه رعدة الخوف ، وألقى في قلبه الاطمئنان . وألهمه الله تعالى أنه ناج ، وأنه سينجي إخوته بأمرهم ، وفي وقت يكونون فيه في البأساء ، وهو في السراء ، ويكون هو العزيز بعناية الله تعالى ، وهم الأذلاء .

ولم يمكث في الجب طويلاً ، بل جاء جماعة من يسرون في الصحراء ، وألقوا في الجب دلوهم ليستنبطوا ماء ، فرأوا غلاماً استبشروا به ، وكان

في ذلك الزمن وما قبله وما بعده يفرض الرق على كل غريب ، حتى جاء الإسلام فألغى هذا وغيره ، وقد أخذوه بضاعة ، وباعوه بثمان بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين في بقائه .

وقد توسم الذي اشتراه من مصر فيه الخير ، وقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وبذلك ربي في كلاة ربه كما صنع من قبله موسى ، إذ ألقاه لإخوته في الجب حسداً وإيذاءً ، كما ألفت أموسى ولدها وقد وضعته في التابوت حرصاً أو فراراً به من الموت .

وبهذه المحبة التي أضفاها الله على من اشتراه مكن الله ليوسف في الأرض ، وألممه الحكمة . وعلمه تأويل الأحاديث والرؤى . ولما بلغ أشده آناه الله تعالى حكمة وقدرة على الحكم على الأشياء والأشخاص ، وصبراً وإدراكاً .

آل أمره إلى أن يكون في بيت حاكم مصر . وأن يكون خازن أسراره ، ومتصلاً بامرأته ، على أن يكون خادماً خاصاً .

وهنا نجد القرآن في تلك القصة الواقعة يصور لنا نفس المرأة المترفة الفاكهة في العيش والنعيم .

رأت على القرب منها فتى جميلاً ذا فتوة وقوة ، فراودته عن نفسه ، وغلقت الباب ونادت طبيعته البشرية ، فالت له أقبل ، ولكنه في خلق النبوة يقول لها معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، فالخلق يمنعه والوفاء يصدده .

ولكنها أخذت في الإغراء ، وأرادت أن توظف فيه الغريزة ، ولعلمها أيقظتها ولكن غلبه نور الهداية على الغريزة الدافعة ، إذ رأى نور الحق ، وهو نور ربه .

وفي هذه الصورة الواقعة صورة الحياة المترفة كيف تفسد النفوس ، وكيف يغري بالذيلة وجود الخدم الأقبياء في خدمة ذوات الخدر ، وكيف

تكون الإرادة العاصرة كابحة للغريزة الجائعة وحائلة بينهما وبين الشر .
تلك حال جديرة بالدرس على ضوء القرآن .

وتجنىء من بعد تلك المعركة بين الهوى الجائع ، والحكمة والإرادة القوية
هو يذهب إلى الباب فإراً من الرذيلة ، وهي تذهب وراءه تجره إليها ،
وتكون المفاجأة لها ، وسرعان ما تكشف عن خلق المرأة وهو مسارعتها إلى
اتهام البرىء إذا لم يحقق رغبتها ، بل شهوتها ، فتستعدي عليه زوجها وتثير
فيه الحمية ، لقد وجد سيدها لدى الباب الذى يتسا بقان إليه ، هو ليفر ،
وهى لتشهده إليها .

قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ،
شككت ظلماً ، وحكمت ظلماً ، وإكفنه حكم ليس فيه الموت ، لأنها ترجوه
لها بعد ذلك .

ولكن يوسف يدفع التهمة الكاذبة بالقول الصادق ، قال هى راودتنى
عن نفسى ، .

صارت القضية موضع نظر ، وقد وجد الشاهد الحسى الذى يشهد
له ، فقد قد قيضه ، وقت الاستباق إلى الباب .

فاستشهدا ذلك الشاهد ، فقال الحكم الذى حكم وإن كان قيضه قد من قبل
فصدقت وهو من الكاذبين ، ، لأنه يقدر وهو مقبل عليها ، وهى تدفع عن
نفسها ، وإن كان قيضه قد من دبر فبكذبت وهو من الصادقين ، ، فرأوا
القميص قد من دبر ، فهو كان يفر وهى تجذبه بشد قيضه ، فلما رأى قيضه
قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم .

عرفت البراءة . وأن يوسف كان فريسة كيد النساء ، وتلك حال يوجه
القرآن الكريم إليها لدراستها .

وهنا نجد السيد يبدو متساعجاً . وأعله وجد معذرة لها فى جمال يوسف

وكاله . فاكتفى بأن قال يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك .
إنك كنت من الخاطئين .

ونجد في هذا الموقف توجيهها للدراسات النفسية في المرأة وفي الرجل
العفيف ، وفيما ينبغي ملاحظته في داخل البيوت وأكتانها .

إذا خرج الخبر عن اثنين شاع ، ولو توأصوا بالإمرار فإن الخبر قد
شاع في المدينة . وتناولته جماعات النساء . وإنهن ليهيمن أمر الحب والمحبين
د وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا
لنراها في ضلال مبين .

شاعت الأقوال في المدينة ، وتناولته الجماعات . وعلمت امرأة العزيز
بما يقطن . وما يدبرن وينشرن من أقوال ، وهى تعلم قلوبهن . وما يستهوين .

أعدت لهن متكئاً ولعله كانت وليمة اذ أعطت كل واحدة منهن سكيناً .
وقالت اخرج عليهن د فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن حاشا لله :
ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلك الذى لمتنى فيه ، وأعلنت هواها ،
ورغبتها الشديدة ، وإصرارها ، وقد رأتهن يعذرنا : د وقالت لئن لم يفعل
ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ، وهنا نجد النفس المؤمنة تقاوم
طغيان المرأة وتحكمها . فيقول رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا
تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .

تشايح القول وكثير ، وصارت امرأة العزيز قالة الجماعات ، فكان لا بد
أن يستر الموقف ، وستره في الجماعات الظالمة ، أو الجماعات المتسترة تكون
على المظلوم دائماً ، ولا تكون على الظالم أبداً . وذلك أن يسجنوه تخفيفاً
للشائعة ، أو توجيهاً لها لغير أهلها وبدلهم من بعد ما رأوا من الآيات ليسجنوه
حتى حين .

٣٣٢ - هذه قصة فيها تكشف النفوس عن خبيثاتها ، وهى توجيهات

لتألي القرآن إلى حقائق النفوس ، رجالا ونساء أتقياء وخطارا .

دخل يوسف ، في حياة جديدة ، بعيدة عن كل مظاهر الزينة وبهجتها ، وإذا كان الشاب الغلام ردف النعمة بعد أن ذاق البلاء ، ابتداء ، فقد جاءه البلاء مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة ينزل إلى الضعفاء ويعاشرهم ، ويتصل بنفوسهم ، وعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا .

يدخل معه السجن فتيان ، وقال أحدهما لى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر لى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ، وهنا تبدو خوارق العادات والدعوة أبى الله على يد نبى الله يوسف عليه السلام يقول : لا يأتىكما طعام تزرعانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتىكما ، ذلكما بما علمنى ربى لى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة أبائى إبراهيم وإسحق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكيم إلا الله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحد كما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ،

لاشك أن علم يوسف من غير معالم ، وتأويله للأحلام من غير ملقن بل بالإلهام المجرد من خوارق العادات التى تجرى على أيدي الأنبياء .

خرج السجن الناجى من السجن ، وصار ملازماً للملك ، وليكن فرحة الخروج والاتصال أنسته زميله فى السجن فزادت المدة ليزداد تعلماً من أحوال الناس ، حتى وجد حاجة الملك إلى من يؤول رؤياه ، فتذكر صاحبه

عند الحاجة إليه ، وهذه كلها أحوال نفسية ينبه القرآن إليها وكان تأويل الرؤيا ، والتنظيم الاقتصادي الذي استلمه يوسف الصديق من الرؤية ، ولنذكر الأمر كما جاء في القرآن ، وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ، أفئتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلمهم يعلدون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .

كان ذلك التأويل الصادق مصحوباً ببيان الترتيب الاقتصادي سيباً في أن الملك رغب في الاستعانة به قال اتوني به ، فامتنع السجين الأبى عن الذهاب حتى تثبت براءته ، فقلنا جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بيدهن عليم ، فعرف الملك حالهن ، فساءلهن ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم ، وقال الملك اتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلبه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ،

٢٣٣ - هذه وقائع وقعت من وقت أن دخل يوسف السجن إلى أن خرج منه مستولياً على خزائنها بحكمتها ، ويسير نظامه بإرادته ، وتعلمه من ربه ، وهو نبي يوحى إليه وكل واقعة من هذه فيها تنبيه إلى ناحية من نفس الإنسان ، وارتباطه بالمجتمع الذي يعيش فيه ، فدخوله السجن لكمال خلقه ، وكمال جسمه ، وما كان حوله ، وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ،

ما يناهها من تنوء أساسه صادق ، ويكشف فيه عن نفس المرأة وسيطرة العاطفة عليها ، وكيف دفعتهما عاطفتها في موقفها الأول من مرادته ، ثم موقفها من إصرارها بعد أن أخذت المَعذرة المَسوغة من النسوة ، ثم ما كان من عاطفة المحبة التي انتقلت من مرادة إلى اعتراف ، وإلى استغفار .

وفي الحقيقة إن الدارس الذي يريد معرفة أطوار النفوس ، وما يعرفها ، سواء أكانت نفوس رجال أم نفوس نساء يجد في القرآن معيناً لا ينضب من الحقائق النفسية التي تكون محور دراسته .

ولكننا لا نريد أن يطبقوا ما يعلمون من علم النفس على القرآن ويحملوا ألفاظه ما لا يحتمل ، ولكن أن يجعلوه مرشداً يحكم على عملهم ، لأن يكون عملهم الحكم عليه ، والله سبحانه هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

تفسير الكتاب

www.alkottob.com

٢٣٣ — كان بعض أساتذتنا رحمه الله يرى أن القرآن الكريم لا يحتاج إلى تفسير إلا في بعض الألفاظ الغريبة على القارىء ، فإنه يستعين عليها بالمعاجم تبيينها ، أو بالأحرى تقربها للقارىء ، وإلا بعض آيات الأحكام والمجملات الميئنة بالسنة ، فإنها تفصلها وتوضح بالعمل والقول مرامها وغايتها ، وما عدا ذلك ، فإنه بين لا يحتاج إلى بيان . إلا أن يكون متشابها لم يعرف بيانه بسنة ثابتة السند فإن هذا لا تفسير له ، ومن الحق أن يقول فيه التالى لكتاب الله سبحانه وتعالى : آمنا به كل من عند ربنا ، كما قال تعالى فى الراسخين فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، (١) . هذا نظر أساتذنا الكبير بلل الله تعالى ثراه .

ولاشك أن قول هذا له سند من القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه مبين أى بين ، والبين لا يحتاج إلى تبيين ، ووصفت آياته بأنها بينات ، فقد قال تعالى : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، (٢) .

وقال تعالى : د الر تلك آيات الكتاب المبين ، (٣) .

وقال تعالى : د الر تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين ، (٤) .

وقال تعالى : د وإنه لتنزىل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتسكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ، (٥) .

(١) آل عمران : ٧ — ٨

(٢) المائدة : ١٥ — ١٦

(٣) يوسف : ١

(٤) الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥

(٥) الحجر : ١

وقال تعالى : « طس تلك آيات القرآن ، وكتاب مبين » (١) .
ويقول تعالى . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن
قالوا اتوا بآياتنا » (٢) .

وقال تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات » (٣) .
وإن هذا كله يدل على أن القرآن بين ، وكيف يحتاج الكلام البين إلى
من يبينه ، إنه يبين نفسه ، وهذا بخلاف المجمل من آيات الأحكام ، فإنه قد
جاء النص ببيان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد قال تعالى : « وأنزلنا
إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٤) .

٢٣٤ - هذه نظرة خاطرة لأحد شيوخنا ، ولعل الذى دفعه إلى
ذلك القول ما تورط فيه بعض المفسرين من نقل إسرئيليات قد تفسد المعنى
الذى يبدو بآدى الرأى من الآيات الكريمة ، وإن بعض كتب التفسير
الذى تأخذ ذلك المآخذ ، وتمتجه إلى الإكثار من القصص ، والأساطير
الإسرائيلية تضع ستاراً كثيفاً بين الآية الكريمة ونورايتها المشرقة ،
فهو رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيراً يريد أن يجد التالى للقرآن الإشراف
والنور من غير حجب يحجبها من روايات ما أنزل الله بها من سلطان .

وإن لذلك القول وجاهته ، وإنك بلاشك لو تتبعت أكثر آيات القرآن
الكريم التى لم تتعرض للأحكام العملية ، تجدها واضحة بينة ، وإن استبهمت
علينا بعض السكيات لبقايا العجمة فينا ، فإن المعاجم تحمل لنا إشكالنا ، وهو
لغيب فينا وليس لإبهام فى القرآن ينافى وصفه بأنه مبين ، وآياته بينات .

(١) النمل : ١

(٢) الجاثية : ٢٥

(٣) النور : ٣٤

(٤) النحل : ٤٤

وإذا كان ثمة موضع للتفسير ، فإنه يكون بتوجيه الأناظر لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية التي لاتناهد ، ولا تسمى وليس في قوة أحد من البشر أن يأتوا بمثلها .

وإن الزمخشري حاول ذلك في تفسيره ، ووصل في كثير من الآيات إلى توجيه القارىء إلى الأسرار البلاغية ونهج من بعده من سلك ذلك المسلك ، وحاول محاولته .

ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة في جملتها . وفي كثير من آيات الكتاب ، ولكننا لا نحسب أنها وصلت إلى الغاية أو أدركوا نهايته ، فإنه كتاب الله العزيز الحكيم ، ولا تنهاهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغايزه ، وإن تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور .

٢٣٥ - بعد هذه المقدمة التي لا بد أن نذكرها لتعرف مدى الجهود التي تبذل ، والغاية التي تغيا عند محاولة التفسير ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن كتاب مبين ، لا يحتاج إلى بيان ، ولكننا نحتاج إن كان في قدرتنا إلى أن نتعرف أسرار بلاغته . وموضع فصاحته ، وتقارب ، ولا نجد ، ونسدد وإن كنا لا ندرك ، ولا نصيب سهامنا ، ولا نصل إلى حال يكون معياريين بأن ما وصلنا إليه هو سر الإعجاز ، وغاية البيان .

وبجوار الذين قالوا إن القرآن مبين بذاته لا يحتاج إلى من يبينه ، ويفسره كان من يرى أن القرآن يتعبد به ، ويتلى تلاوة ، ولا تتعرف معانيه إلا بتعريف من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولاشك أن ذلك القول غريب ولكن وجدناه في كتب المهتزة ، وجدنا القاضي عبد الجبار يذكره في كتابه المعنى ، ويستدل على بطلانه فيقول : « الذى قدمناه الآن يدل على فساد قولهم ، أى أننا لا نطلب دلالة القرآن ، لانا قد بينا أنه يقع منه تعالى على وجه يدل على المراد كوقوعه من أحدنا إذا تكامل على شرط

دلالاته ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به وهو موضوع لفائدة إلا وهو يريد بها ، وإلا كان في حكم العايب ، وقد ذكر شيخنا أبو هاشم رحمه الله أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربياً أو أعجمياً ، لأنه إذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة ، أى أنه إذا لم يكن له دلالة ، فلا فرق بين أن يكون عربياً أو أعجمياً من يقرؤه .

ثم يقول : « ولا خلاف بين المسلمين أن القرآن يدل على الحلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن^(١) ، وقال تعالى :

« ما فرطنا في الكتاب من شيء^(٢) ، وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء^(٣) ، وقال تعالى : « هدى للناس إلى غير ذلك مما بين به أنه يفيد ، فكيف يصح مع ذلك ما قالوه^(٤) .

وفهم من هذا الكلام أن ثمة من الناس من يرى أن القرآن للتلاوة والتعبد بتلاوته ، وقراءته في الصلاة ، كما يفعل الأعاجم الذين لا يعرفون العربية ، وإنه يسوق الأدلة لبطلان هذا القول فيقول : « وبين شيخنا أنه لو لم يكن له معنى لا يكون معجزاً ، لأن إعجازه هو بما يحصل من المزية والرتبة في قدر الفصاحة ، ولا يكون الكلام فصيحاً إلا بحسن معناه وموقعه واستقاضه كما لا يكون فصيحاً إلا بجزالة لفظه ، ولو أن واحداً من المتكلمين ألّف الكلام المهمل جملة ، وتكلم بها من غير مواصفة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان

(٢) الأنعام : ٣٨

(١) النساء : ٨٢ .

(٣) النحل : ٨٩

(٤) الجزء السادس عشر من كتاب المغني ص ٣٥٦

في معناه ركاكاً لم يكن منه ، وكالورك لفظه لم يعد في ذلك ، فكيف لمن أقر أنه معجز أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه^(١) ،

هذا كلام القاضي عبد الجبار ، ولولا نقله لهذا الكلام ما تصورنا أن يوجد من يقول إن القرآن لا يطلب معناه ، وأن القصد منه التعب بال تلاوة في الصلاة ، وخارج الصلاة .

ولعل الذي دفع هؤلاء إلى ذلك القول إن صح نقله أنهم يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفسك ، فيصرفوا معاني القرآن إلى غيرها لانحراف في التفسير ، أو تزيد عليه ، فرأوا أن يكتبوا بالتلاوة والتعب بها واقفين عند ذلك ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم .

ومهما يكن مقصدهم فإن ذلك الرأي إذا قاله قائل لا يؤخذ به ، ولا نعلم أحداً قاله إلا ما تعلينا من المعنى .

٢٣٦ - إن القرآن مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الأسماع به ، وبالتعب به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لذاته ، لا بالتبعية لغيره ، فهو مادة الله تعالى .

وقد يقول قائل إذا كان القرآن بينا ، وإنه كذلك فما مكان التفسير في ذلك ؛ لأن التفسير لا يكون إلا عند حاجة للتبيين ، والقرآن الكريم ، كما تلونا من قبل كتاب مبين ، وقرآن مبين ، وبلسان عربي مبين ، وهل يستغنى عنه .

ويبدو لي أن العربي الذي لم تلو لقطته برطانه غير عربية ، ويفهم العربية لا يحتاج إلى تفسير إلا فيما يتعلق بآيات التكليف العملي والأحكام العملية وما يستنبط من القرآن ، وأنها لتتفاوت في ذلك تفاوتاً كبيراً .

ومهما يكن فإن التفسير علم يدرس ، وهو مفيد ، وهو قائم منذ عهد التابعين إلى اليوم .

وله بلا ريب فوائده ، وله غاية إن سلك المفسر الطريقة المثلى ، وأن جعل المفسر مرامى القرآن هي المقصودة ، ولا يتجه بكتاب الله إلى تحريف المعاني ، والانحراف عن المقاصد ، وإنه لا بد من التفسير لأمر كثيرة .

(أ) العمل على ربط معاني القرآن بما ورد في السنة الصحيحة من بيانه ، وفي ذلك استعانة بالمبين للقرآن وهو الحديث ، ووضعه في مواضعه ، حتى لاتصل الأفهام في فهم معاني الأحكام ، ولأن بعض ألفاظ يشترك بين عدة مدلولات والسنة النبوية هي التي تحدد المدلول المراد .

(ب) وإن الذين يقرءون القرآن ليسوا جميعاً في مستوى العربي الذي يدرك معاني الألفاظ بمجرد استماعها، ومن الألفاظ ما فيه بعض الغرابة حتى على بعض العرب ، بل بعض كبارهم ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين لم يتعين عنده معنى لفظ «أبأ» في قوله تعالى : «وفاكهة وأبأ»^(١) فقد سأل عن معنى الأب ، واستكثر رضى الله تعالى عنه على نفسه ألا يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ القرآن .

هذا عمر رضى الله عنه يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ كتاب الله تعالى ، فكيف تكون حال من دونه من الصحابة علماء ، وكيف تكون حالنا نحن الذين دخلنا العربية وفيها العجمة التي غلبت الفصحى في كل مكان .

(ح) ولا بد من بعد ذلك من تفسير يترجم إلى اللغات غير العربية ، أو يفسر القرآن ابتداءً بغير العربية على أنه تفسير فسر واحد ، أو اشترك فيه جماعة ، ويكون المترجم هو التفسير الذي يذكر معنى القرآن على وجهة نظر المفسر ، لأن القرآن أعلى كلام بليغ في الوجود ، والكلام البليغ لا يمكن ترجمته من لغة إلى لغة محتفظاً ببلاغته ؛ لأن البلاغة تتضمن إشارات بيانية ، ونبغات فيها موسيقى ، وحلاوة ألفاظ ، وتأخيها ، وجمال

أسلوبه ، وتساقق معانيه ، ولا يتوافر لأحد من الناس أن ينقل كل الصفات البيانية والبلاغية للألفاظ القرآنية ، وقد حاول في اللغة الفرنسية بعض العلماء الأوربيين المتخصصين في العربية ترجمة القرآن برتبته البلاغية ففقد في محاولة ترجمة آية مدة طويلة وانبت دون ذلك .

(د) وإن القرآن الكريم له عدة قراءات متواترة ، وكل قراءة قرآن ، وهي متلافية في معانيها ، وليست يقيناً متضاربة ، بل إن بعض القراءات تزيد معاني عن القراءة الأخرى ، أو توجه معناها في اتساق محكم دقيق لا خلل فيه ، بل لا يتصور قط أن يكون فيه خلل . وإن التفسير المحكم هو الذي يذكر ذلك التلاقي . فمثلاً قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ،^(١) فقد قرئت بضم الفاء ، وهي تدل على أن الرسول عليه السلام من العرب أنفسهم ، وليس غريباً عنهم ، وقرئت بفتح الفاء ، وهي تدل على أنه من أعلام نسباً وخلقاً ومكانة وشرفاً ، وبضم القراءتين يكون المعنى أن الرسول عليه السلام من أعلى العرب .

هذه بعض الأسباب التي توجب أن يكون للقرآن تفسير ، وإن كان بيناً مفهوماً ، وهناك وجه للتفسير لا بد من الإشارة إليه ، وهو بيان الأمرار التي تضمنتها ألفاظ القرآن ، وتضمنها علم الكتاب من خير إرهاب الألفاظ ، ولا إعانات لمعانيه .

وإن من كتب التفسير ما حاول الكتابون لها بيان الأمرار البلاغية في بعض ألفاظ القرآن كالزخشرى كما أشرنا ، ومن جاء بعده من المفسرين الذين نهجوا منهاجه وزادوا عليه ، وقالوا في آيات مثل قوله ، وثمة آيات لم يتعرض لبيان أوجه البلاغة فيها .

مناهج التفسير :

٢٣٧ - إن المناهج في التفسير تختلف باختلاف ما يستعين به المفسر من مصادر التفسير ، وإن الذي يمكننا أن نحصيه من مصادر التفسير للقرآن أربعة : (أولها) المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، (ثانيها) المأثور من أقوال الصحابة الكرام ، وتلاميذهم الذين اتبعوهم بإحسان ، ونقلوا تفسيرهم كما جاهد الذي نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، (ثالثها) اللغة ، إذ هي في ذاتها أداة التعبير ، ولا يمكن الاستغناء عنها في أى منهاج من مناهجه ، فهمى لا تعد مصدراً مستقلاً ، إذ هي تدخل في كل المصادر .

(رابعها) الرأى وهو يعتمد ابتداء على اللغة ، وعلى مصادر الشريعة ومواردها ومرامياها ، وغاياتها وأسرار القرآن ، وتعرف وجوهه .

ولاشك أن اللغة هي الأساس الأول لكل هذه المصادر ، ولا تقصد باللغة ماتوىء إليه المعاجم فقط ، فإن تفسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يكون مخالفاً للعربية ومعانيها ؛ لأنه العربى الذى ينطق بجوامع الكلم ، وليس فى الكلام العربى ما يكون أصدق مصدر للاستعمال العربى الصحيح من أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

٢٣٨ - ولننتقل من بعد إلى الكلام فى المصادر الثلاثة الأخرى . فأولها - وهو أعظمها السنة لأنها الشارح الأول للكتاب الكريم ، وإن أحكام الحلال والحرام لا تفصيل لها إلا فى السنة ، وهى المصدر الوحيد لها ، ومن خالف تفسير السنة للحلال والحرام فى القرآن ، فهو من المفتريين على القرآن الكريم . ويكون داخل فى نهى قوله تعالى ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب (١) . وذلك لأن هذا القسم من القرآن الكريم تكفلت به السنة النبوية ، لأن هذا من تبليغ الرسالة المحمدية وهو معناها ، ومن يعارضها إنما يعارض

تبليغ الرسالة النبوية ، ويفترى على الله الكذب فكل ما فى القرآن من أحكام فقهية سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بتنظيم المجتمع الإنسانى الذى يبتدىء بالأمرة ، ويتدرج إلى الجماعات ثم الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم فى السلم والحرب — كل هذا بيان النبى صلى الله عليه وسلم وهو حجة علينا يجب اتباعه .

والصحيح الذى بين أيدينا فيها بيان الأحكام الشرعية بياناً كاملاً كما وردت فى السنة .

هذا ويجب التنبيه إلى أن الاتجاه إلى تفسير القرآن من غير اعتماد على السنة والاستعانة بها فى هذا الباب خروج على الشريعة ، فقد قال الله تعالى : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم» (١) والذين يتركون السنة زاعمين أنهم يأخذون بالقرآن يمجرون القرآن والسنة معاً ، ويحاربون تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه .

ويلاحظ أن السنة قسمان سنة متواترة رواها جمع عن جمع حتى تصل الرواية إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا النوع من السنة يجب الأخذ به فى بيان الأحكام ، وبيان معانى العقائد التى اشتمل عليها القرآن الكريم لأنها ثابتة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى لا شبهة فيه ، والعقائد لا تثبت إلا بدليل قطعى الدلالة وقطعى السند ، ولذلك يقول للشافعى إن يخالف الأحاديث المتواترة ، ويسمى أحاديث العامة يقال له «متب» .

والقسم الثانى أحاديث الخاصة كما يسميها الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وهى التى لم يبلغ سندها حد التواتر ، ويسمى علماء السنة أحاديث الآحاد ،

(١) الأحزاب : ٣٦ .

ولو رواها اثنان أو ثلاثة ما دام رواها لم يبلغوا حد التواتر التي يؤمن تواطؤهم على الكذب .

وهذا النوع من الأحاديث يعمل به في تفسير الآيات التي تتعلق بالأحكام؛ لأنها تفيد غلبة الظن بالنسبة للصدق، وقد ثبت ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل رسله إلى الأقاليم آحاداً ، ولا يرسلهم جماعات .

ولا يلزم الأخذ بأحاديث الآحاد في تفسير الآيات التي تتعلق بالعقائد من ضرب الأمثال ، وذكر أسرار الكون من خلق السموات والأرض ، ومن سير الشمس والقمر ، وخلق السموات والأرض ، وتسخير الرياح والأنهار والبحار وغير ذلك ، فإن ما يتعلق بذلك وكل ما ورد فيه من السنة أخبار آحاد أو رواها غير ثقات لا يعتبر حجة في تفسير القرآن وفهمه . بحيث يجب الأخذ به ، ومخالفته تكون مخالفة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه من الثابت أن ما يجيء في السنة مخالفاً للقرارات العلمية القاطعة ، ويكون من أحاديث الآحاد يرد وتبطل نسبته إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فليس معنى رده تكذيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإنما معنى رده أنه لم تصح نسبته إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الصادق، ونقول مقالة الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التي ردها الشافعي ، وهي قوله (أى أرض تقلني ، وأى سماء تظلني ، إذا قلت في القرآن ما لم أعلم) .

وإن دراسة الآيات الكونية للعقل والاستقراء والتتبع ، مقامه في إدراكها ، ما لم تخالف نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً متواتراً ، وليس في الأحاديث المتواترة ما يعارض هذه الدراسة قط ، والله أعلم .
وهنا أمر آخر يتعلق بالقصص القرآني ، ونقول فيه إن القرآن يفسر

بعضه بعضاً في هذا القصص ، وما يجيء من السنة من زيادة على القرآن في هذا يقبل منه ما لا يناهض القرآن ، وما يزيد يقبل ما دام السند صحيحاً وليس ثمة ما يردده سنداً أو متناً ، ولا يجب الإيمان بالزيادة بحيث يكفر من ينكرها ، ما دامت أحاديثها لم تصل إلى مرتبة التواتر . ولكن ما لم يكن مطعن فيها يؤخذ بها على أساس الاطمئنان إليها .

هذه هي السنة ، وهي تعد المرتبة الأولى في تفسير القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٢٣٩ - أما المرتبة التي تلي مرتبة السنة فهي أقوال الصحابة في فهم معاني القرآن الكريم ، فكلما هم في هذا له اعتبار في فهم الكتاب العزيز لما يأتي :

(أ) أن الصحابة هم الذين سمعوا القرآن الكريم ابتداء ، وهم الذين شاهدوا وعانوا ، وتلقوا التفسير عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان ما يهيم عليهم يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنه ، ويروى عن ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان كلما تلا عليهم طائفة من الآيات تولى تفسيرها لهم ، فكان تفسيرهم أقرب إلى السنة ، بل يعده الكثيرون من السنة ، ما دام لا يمكن أن يكون للرأى فيه مجال .

(ب) أنهم الذين شاهدوا أسباب النزول ، وعلموا في أى موضع نزلت أى الكتاب الكريم ، وأسباب نزولها ، ولا شك أن أسباب النزول طريق معبد لفهم الكثير من الآيات الكريمات ؛ لأن أول ما ينطبق عليه المعنى للآية القرآنية هو ما كان سبباً لنزولها ، ثم يعمم الحكم بعموم اللفظ ، جرياً على قول الفقهاء في محكم قواعدهم (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) .

(ج) وإن الصحابة أعلم الناس بمعاني الألفاظ القرآنية ، لأنهم من العرب . ومن أعلم الناس بلغة العرب ، وما يكون غريباً بالنسبة لنا ، لا يكون غريباً بالنسبة لهم ، والألفاظ معروفة معانيها لهم .
وإن المتتبع للمأثور عن الصحابة في تفسير القرآن الكريم يرى الرأى بأدى النظر أنه قسمان :

أحدهما — ما اعتمد فيه على المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا يكون سنة نبوية وتفسيراً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا مجال للريب في نسبته إذا كان السند إلى الصحابي صحيحاً ، وذلك في تفسير الآيات التي ليس للرأى فيه مجال ، فتفسيرهم يكون حديثاً إذا نسبوه مرفوعاً للنبي عليه الصلاة والسلام ، ويكون موقوفاً إذا لم يستندوه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يمكن أن يكون للعقل فيه مجال ، ولا يمكن أن يقولوا في موضع لا مجال فيه للعقل فيه إلا بقول المبلغ صلى الله تعالى عليه وسلم ، آخذين بقوله تعالى : **دولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً** ، (١) .

والقسم الثاني ما يكون للرأى فيه مجال ولا يستندونه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل هو مجرد الرأى منهم وإنهم في هذا قد يختلفون ، وذلك في بعض الأحكام الفقهية التي لم يرد فيه نص من الكتاب بيان الحكم ، ومن ذلك قولهم في عدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً ، فقد اختلف في تفسير آيات العدة الصحابة ، ففريق منهم ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب أعمل الآيتين الواردتين وهما قوله تعالى ، **والذين يتوفون منكم ، ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** (٢) ، والآية الثانية هي قوله تعالى في

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) البقرة : ٢٣٤ .

مسورة الطلاق ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، (١) فقال هذا الفريق من فقهاء الصحابة إنها تعتد بأبعد الأجلين أى تعتد بوضع الحمل إذا كان بعد مضي أربعة أشهر وعشر وتعتد بالأشهر إذا كان وضع الحمل قبل انتهاء المدة .

وقالت طائفة أخرى ، وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود إنها تعتد بوضع الحمل ، أخذاً بعموم اللفظ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، لأنه يشمل المتوفى عنها زوجها الحامل ، كما يشمل المطلقة .

واجتماع فقهاء الصحابة على رأى فقهي يكون حجة ، وكذلك إذا لم يرد عنهم فى تفسير الآية التى تتعلق بالحلال والحرام إلا رأى واحد ، وإذا اختلفوا جاز الفقهاء المحبذين أن يختارون من آرائهم ، ولا يخرجون عنها .

٢٤٠ - وإن الموضوعات التى أثمرت عن الصحابة آراء فيها مختلفة من حيث قوة الأخذ برأى الصحابي فيها .

وأولها ما يتعلق بالحلال والحرام ، وقد علت القول فيه ، إذا كان مبناه الرأى ، والقبول المطلق إذا لم يكن للرأى فيه مجال .

ومهما يكن الأمر بالنسبة لآيات الأحكام ، فإن أقوال الصحابة وأعمالهم تتبع فى فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح ، والمعاهدات والأمان ، وأحكام الذميين والمستأمنين ، وجمع الغنائم وتوزيعها ، وفرض الخراج والجزية .

وكان عهد الفاروق عمر رضى الله عنه عهداً خصباً لبيان الأحكام الشرعية فقررت فيه المبادئ الإسلامية المستفادة من القرآن ، وتعد معيناً للفقهاء استقروا منه آراءهم فى نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب ، وقد استقواها هو من فهمه لكتاب الله تعالى ، وإدراكه لمراميها .

ولذلك نجد كتب السير أخذت من ذلك المعين ، فكتاب الخراج للإمام
أبي يوسف - الأصل الأول الذى اعتمد عليه هو عمل عمر رضى الله عنه
الذى نفذ ويفهمه من القرآن الكريم .

وكذلك الإمام محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه والسير الكبير ، قد أخذ
أكثره من عمل الصحابة ، وخصوصاً عمل عمر الذى استنبطه من القرآن
الكريم . ويعد كتاب السير الكبير أول كتاب ألف فى القانون الدولى
الذى يقوم على قواعد العدل والرحمة ، والكرامة الإنسانية ، وكذلك
كتاب السير للأوزاعى ، وغيره من الكتبة كان اعتمادها على ما عمل به
الصحابة آخذين ذلك من فهمهم لمراعى القرآن الكريم .

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة أقوال فيها فى تفسير القرآن
وفهم معانيه آيات القصص فى القرآن الكريم ، وليس المروى عنهم فى
ذلك كثيراً والصحيح النسبة إليهم رضى الله عنهم قدر ضئيل .

وذلك لأنهم ما كانوا يعنون إلا بما له أثر عملى يتعلق بالحلال والحرام
وما له أثر فى أعمالهم ، وتنظيم جماعتهم وإقامة الحق ، والعدل فى الأرض .

وكانوا يعتمدون فى فهم القصص القرآنى على السنة الصحيحة ، وعلى
تفسير القرآن نفسه لبعضه ، وكانوا يكتبون بما جاء فى القرآن والسنة ، ولا
يزيدون عليه ، لأنه هو الصحيح ، ولا يحاولون أن يعرفوا ما عداه .

ولكن لما دخل فى الإسلام اليهود والنصارى ، وبشوا فى المسلمين
ما عندهم من قصص وأساطير ، وجد بين المسلمين من يعنى بالقصص غير
مقتصر على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وظهر ذلك فى آخر عصر
الخلفاء الراشدين ، ولم ينظر الصحابة إلى ذلك نظرة راضية أو متغاضية ،
بل نظروا إليه نظرة غير متساهلة ، لما قد يجر إليه من نشر أساطير ما أنزلها
الله ، وربما أوجدت غيماً على معانيه .

لقد ظهرت في آخر عصر الصحابة طائفة من التابعين سموها القصاص ، وقد جاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وأخرج أولئك القصاص من مسجد الكوفة ، وكانوا قد انتشروا في العراق ، فكان رضى الله عنه يمنعهم إلا إذا التزموا في قصصهم ما اشتمل عليه القرآن ، وما صح في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ويروى أنه دخل المسجد ، فأخرج كل من فيه من القصاص ، ووقف عند الحسن البصرى ، فرآه لم يخرج في قصصه عن القرآن ، والدعوة إلى هدايته .

ومن الموضوعات التي أثر عن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم كلام في الكونيات التي اشتمل عليها القرآن الكريم ، وعده الرواة التي نسبوه إليهم تفسيراً للآيات الكونية ، ونقول فيه إنه لا يؤخذ به على أنه حجة إلا إذا كان صريح كلام الله تعالى ، أو قد ثبت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعي ، أما ما يقال فيما عدا ذلك ، ما يتصل بالكون ، وخلق الله تعالى ، فإن خالف علماً قطعياً لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالكون ، فإنه يرد إلى صاحبه .

التابعون والاسرائيليات :

٢٤١ - التابعون هم تلاميذ الصحابة الذين نقلوا إلى الأختلاف أقوالهم في التفسير ، وإن ما ذكر على أنه أقوال للتابعين عن الصحابة فيما يتعلق بالأحكام الفقهية مقبول النقل ، ويعتبر نقلهم عن الصحابة حجة عند أكثر الفقهاء على ما قررنا في اعتبار أقوال الصحابة حجة .

ولكن التابعين إذا قالوا في الحلال والحرام مفسرين للقرآن برأيهم ، فإننا إذا استثنينا أحمد بن حنبل وبعض المالكية ، فإن باقي الأئمة لا يعتبرون قوالم حجة في ذاته ، إنما يكون ما أيده من دليل هو الحجة . ويقول فيهم أبو حنيفة ، إذا آل الأمر إلى الحسن وإبراهيم ، فهم رجال ونحن رجال . (٣٨٠ المعجزة الكبرى)

ولكن الكلام في القصص والكوفيات ، وبعض ما يتعلق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دخله الإسرائيليات ، وكثرت في كتب التفسير وتجاوزت الحد ، وردد بعض التابعين كثيراً من الإسرائيليين .

بل إن بعض الصحابة نقل عن الإسرائيليين ، فإنه يروى أن عبد الله ابن عمرو بن العاص أصاب في واقعة اليرموك حمل زاملتين من كتب أهل الكتاب (١) .

ولا يمكن أن يكون كل ما في هذه الجملة صحيحاً عن أهل الكتاب الذين تمسكوا بالتوراة أو الإنجيل من بعدها ، ولا نعلم على وجه اليقين أكان ابن عمرو بن العاص لا يختار منها إلا ما يوافق الكتاب والسنة الصحيحة ، أم كان يتجاوزها إلى ما لا يوافقهما ، أم يسير وراء ذلك .

ولكن من المؤكد أن ما في الزاملتين لا يدان تناقله التابعون ، وليسوا جميعاً بمن يلتزمون ، ولا يسرفون فلا يمكن أن نقرر سلامة ما يأخذون .

ولقد توقف العلماء في قبول الإسرائيليات التي راجت حول التفسير في قبولها ، وقد قسموها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ما علم صدقه ، لأن القرآن يوافقه ، ولا تجافيه ألفاظه المحكمة ، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه بسند صحيح ما يوافقه ، وهذا بلاشك لا يكذب ، ولكن لا نجد فيه غناء عن السنة ، ولا نجده يسد حاجة وخللا لو لم يوجد لا تسد ، ولذلك نرى الأولى ألا يلتفت إليه ، لأن السنة والقرآن يغنيان ، وسداً للذريعة لا يعتمد عليه ، لأن قبول بعض المروى عن اليهود الذي لازيف فيه ، يسهل قبول الزيف ، وهو الأكثر ، وهو الذي تعمدوا به أن يفسدوا علينا أمر ديننا ، وإذا كانوا لا يستطيعون تحريف القول فيه عن مواضعه ، فإنهم يحذون في التفسير طريقاً لإفساد العقول حول معاني القرآن الكريم .

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٢٦ طب دمشق سنة ١٩٢٦ .

القسم الثاني ما ثبت كذبه بيقين ، وهو يناقض معاني القرآن الكريم ، ويخالف الصحيح المتواتر من السنة ، أو يخالف منطق الإسلام ، وإن هذا يرد بالاتفاق .

وإن المستقرىء لكتيب التفسير المشتملة على الإسرائيليات يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل .

القسم الثالث الذى لا يأتى بما يخالف النصوص القرآنية، ولا الأحاديث النبوية، ولكنه فى جملة أخبار تحتمل الصدق والكذب؛ ويقول ابن تيمية فى هذا القسم لا تؤمن به ، ولا يمكن أن يكون فيه فائدة إسلامية ، ومن ذلك ما يذكرون حول أسماء أهل الكهف ، ولون كلهم ، ومن ذلك أيضاً وصف عصا موسى (١) .

(١) رسالة مقدمة التفسير المذكورة .

تفسير القرآن بالرأى

٢٤٢ - ذكرنا من مصادر التفسير اللغة ، والسنة ، والصحابة مع تلاميذهم التابعين ، وما دخل عصر التابعين من إسرئيليات دخلت التفسير وتناقضتها كتبه مع تمحيص أحياناً ، وسكوت في كثير من الأحيان .

والمرتبة الرابعة في التفسير تفسير القرآن الكريم بالرأى ، أى بالنظر المجرد الذى لا يخالف اللغة ، بل يستعين بمنهجها ، ولا يخالف السنة بل يعتمد على الصحيح من أسانيدنا إن صحت عنده ، ولا يناقض تفسير الصحابة المأثور ، ولا أسباب النزول التى صحت بسند صحيح .

والتفسير بالرأى على هذا النحو تضاربت فيه أقوال العلماء ، فبعضهم توقف ، ومنع أن يفسر القرآن بالرأى ، بل لابد لبيانه من علم السنة ، ومنه علم الصحابة ، وما يجتمع عليه التابعون .

وقد ناصر ذلك الرأى وشدد فى التمسك به شيخ الإسلام ابن تيمية . فهو يقول : « تفسير القرآن بالرأى حرام » .

ويستدل على ذلك بأخبار منسوبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبأخبار عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم .

(١) ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من قال فى القرآن يغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

ويعد ابن تيمية أن من يفسر القرآن برأيه يقول بغير علم ، ونحن نقول إن الحديث خاص بمن لم يؤت أدوات التفسير من علم باللغة ، ومصادر الشريعة ومواردها ومرامى الإسلام وغاياته . والعلم بأساليب البيان ، والعلم بجملة المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الذى يقول بغير علم

أما من أوتى علم اللغة والبيان وعلم الآثار وعلم الإسلام فإنه إذا قال في التفسير معتمداً على رأيه إن لم يكن نص يعارضه ، فإن الخبر لا ينطبق عليه .

(ب) ومن ذلك أيضاً ما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من أخذ في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ، .

ولقد قال الترمذى فيه إنه غريب ، وقد تكلموا في بعض روايته ، فليس سنده سليماً ، ومنتنه غريب .

(ج) ومن ذلك ما يروى عن كبار الصحابة من نهيمهم عن القول في القرآن إلا إذا كانت سنة صحيحة يستأنسون بها ، ورميهم بالتكلف من يحاول علم كل ما في القرآن ، ومن ذلك ما روينا عن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : (أى أرض تقبلى ، وأى سماء تظلى إذا قلت في القرآن ما لم أعلم) . وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قبصه أربع رقاع ، فقرأ وفاكته وأباً ، فسأل بعض الحاضرين « ما الأب ، ثم عدل عن السؤال وقال إن هذا هو التكلف فما عليك ألا تدره) .

وإن الناظر إلى ما روى مسنداً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبعضه ضعيف لا يصلح أن يكون حجة ، وبعضه لا يدل على منع الاجتهاد بالرأى في فهم القرآن إن لم تكن سنة مسفة ، وما روى عن أبي بكر إنما يدل على أن الممنوع أن يقول في القرآن بغير علم ، وعمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أراد أن يضرب الأمثال للناس بأن يبين لهم أن القرآن بحر عظيم عميق يملؤه بالمعاني ، فلا يصح لأحد أن يدعى أنه تقصاه وعرف أطرافه ، وخشى أن يظن أحد أنه يحاول ذلك عند ما سأل عن معنى كلمة (الأب) فعدل عن السؤال .

ونحن لا نرى فيما ساقه ابن تيمية جزاء الله تعالى عن الإسلام خيراً ما يدل على المنع ، ولكن يدل على وجوب الاحتياط في فهم القرآن ، وأن يكون بين يديه من دلائل العلم وبياناته ما يجعله يقول عن بيئته ، ولا ينطبق عليه النهى في قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » (١) .

وإذا كان ابن تيمية قد عد التفسير بالرأى منهجاً مهجوراً أو يجب أن يهجر فعلى أي شيء اعتمد فإنه اعتمد على أربعة مصادر :

أولها - القرآن ؛ إذ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهو يبين أحياناً في موضع ما أجمله في موضع آخر ويوضح أحياناً في موضع ما يبدو بادي الرأي أنه مبهم في موضع آخر ، ويجمع آيات القرآن بعضها على بعض إذا تصدت لموضوع واحد يستطيع القارئ المتفهم أن يفهم بعض القرآن ببعضه .

وإن ذلك بلا شك نوع من الرأي والاجتهاد ، ولكن ابن تيمية لا يمنعه بل يوجبه كخطوة أولى .

وثانيها - السنة ؛ إذا لم يستطع القارئ أن يفهم القرآن من القرآن ، فإنه يتجه إلى السنة كما أسلفنا تحقيقاً لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٢) . وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت علم الكتاب ، وأوتيت مثله معه » .

وثالثها - ما قاله الصحابة في تفسير القرآن ، كما ذكرنا من الأسباب في موضعه . وقد روى أن عبد الله بن مسعود قال : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت » .

ورابعها - أقوال التابعين في التفسير يتعرف ما قالوه نقلا عن الصحابة .
وتتعرف في هذا - السنة بكل طرائقها ، وإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وهو المبلغ للرسالة والمفسر للقرآن لا يمكن أن يترك شيئا من القرآن قابلا
للبيان ، ولم يبينه .

٢٤٢ - هذا منهاج المتوقفين الذين يرون أن تفسير القرآن بالرأى
غير جائز ، وإنما يعتمد في بيان القرآن على السمع وحده ، إما عن الرسول
أو عن صحابته أو عن تلاميذهم ، وإن الخروج عن هذه الدائرة خلع
للبرقة ، وتهجم على القرآن الكريم بغير علم ، وإن النبي عليه السلام لم
يترك للقرآن من غير بيان .

وإن هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الذين لا يعرفون السنة
بيانا للقرآن ولا يأخذون به بل يتركونه . وإن مثلهم في هذا كمثل الذين
يعرفون الحكم الشرعي الثابت بالنسبة ، ويتركونه نسياً منسياً .

وإنه في آيات الأحكام يجب الاتجاه إلى السنة ابتداء ولا يتجه إلى غيرها
إلا على ضوء منها وتعرف لأمره الأحكام ، وغاياتها منها ، وإذا كان ثمة
رأى فعلي ضوءها وبقبس من نورها .

وإن الذين أخذوا في تفسير القرآن بالرأى في مقابل الذين توقفوا
سلكوا مسلك الفقهاء الذين أخذوا بالقياس إن لم يجدوا في الموضوع نصا ،
فهم لا يتركون السنة ، ولكن يأخذون بالرأى إذا لم يجدوا سنة مفسرة ،
وهم لا يقتصرون على الأخذ في غير موضع السنة ، بل إنهم عند وجود
السنة لا يناقضونها ، ولا يغيرونها ، بل يأخذون بها ويسيرونها فيما وراء
ما ثبت بالسنة إلى ما تدل عليه الالفاظ من إشارات بيانية ، ويحاولون أن
يتعرفوا من وراء ذلك الأمرار البلاغية في القرآن الكريم .

وإن ذلك كان هذا المسلك مسلك الذين حاولوا تعرف إعجاز القرآن ،

وعلى رأسهم الإمام جاره الزمخشري ومن قبله كان الإمام الطبري عند ما كان يبدي رأيه بعد أن يسرد من الروايات الصحيح والسقيم .

والإمام حجة الإسلام الغزالي كان ممن سلكوا ذلك المنهج ، وأثبت بالأدلة العملية أن التفسير بالرأى من غير مناقضة للسنة ، جائز ، ويستدل على ذلك :

أولاً — بأن القرآن فيه كل علوم الدين ، بعضها بطريق الإشارة ، وبعضها بالإجمال ، وبعضها بالتفصيل الذي يفتح الباب للفكر المستقيم ، والاستبصار في حقائقه ، وذلك لا يكفي فيه الوقوف عند ظواهر الآيات ، ولا ظواهر أقوال السلف ، بل لابد من التعمق من غير تكلف ، واستخراج المعاني ما دامت لا تخالف المأثور ، وهناك أمور وراء المأثور ، يسير المفسر على ضوء المأثور ، ولقد قال عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين ، فليتدبر القرآن ، وإن ذلك لا يكون بغير التعمق في الفهم ، من غير تكلف ، وتعرف الغايات بالإشارة والمرامى .

وثانياً — أن القرآن الكريم فيه بيان صفاته تعالى وأفعاله ، وذكر ذاته القدسية ، وأسمائه الحسنى ، وإن فهم ذلك مع التنزيه عن المشابهة للحوادث يحتاج إلى تدبر وفهم من غير الوقوف عند الظواهر ، وجمع بين المؤتلف ونفي للقول المختلف .

ثالثاً — أنه قد وردت الآثار تدعو إلى الفهم والتدبر في معاني القرآن ، فقد قال علي كرم الله وجهه « من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وذلك لا يكون إلا بالتعمق في الفهم » .

ورابعاً — إن عبارات القرآن الكريم تدعو إلى التعمق في الفهم ، فقد قال تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً »^(١) ، ويقول مفسر والسلف إن

الحكمة هي فهم القرآن ، وإذا كان الله تعالى قد وصف فهم القرآن بأنه خير كثير ، فإنه سبحانه وتعالى يدعو القادر على إدراك هذه الحكمة لينال من علمها خيراً كثيراً .

وخامساً - أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا لابن عباس رضي الله عنهما بالفقه في القرآن ، فقال عليه السلام ، اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل ، وليس التأويل إلا التفسير العميق الذي يتعرف به القارى ما وراء العبادات من معان دقيقة عميقة ، ولو كان كل علم التفسير مأثوراً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقال عليه السلام ، اللهم علمه التأويل .

وإن الغزالي لا يكتفي بسوق ما تؤدي إليه الأدلة من جواز التفسير بالرأى ، بل يتجاوز فيقول إن المأثور من التفسير بالسنة قليل لا يشمل القرآن كله ، ويذكر أن : ما يؤثر عن الصحابة في التفسير ، إنما هو رأيهم ، وعلينا أن نتبعهم بإحسان ، فنجتهد في تفسير القرآن مثل اجتهادهم من غير معارضة ، ولا مناقضة .

ثم إن الصحابة فيما بينهم قد اختلفوا ، وكذلك التابعون من بعدهم ، واختلافهم دليل على أن بعض هذه الأقوال بالرأى لا محالة ، ويجوز أن يكون بعضها بالسمع ، ولكنه غير معروف ، ولو كان واجبنا أن نختار من أقوالهم عند اختلافهم ، فالاختيار أساسه الترجيح بالرأى بقبول بعضهم ورفض بعضهم وذلك في ذاته أشد من الأخذ بالرأى ابتداء ما دام غير معارض للمأثور .

٢٤٣ - هذا ما ساقه الغزالي من أدلة في جواز الفهم بالرأى الذي لا يعارض السنة ، ولا يتزيد عليها بما يخالفها . وإن أدلته مستقيمة منتجة لما يقول ، بيد أن قوله إن المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في التفسير محدود وقليل ، إنما هو في غير الحلال والحرام ، أما ما يتعلق بتفسير القرآن في الحلال والحرام ، فإن ما ورد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك

كثير وليس قليلا ، لأنه بيان الشريعة ، وتبليغ رسالة الله ، إذ أن التكليفات لا بد أن يبينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يتركنا إلا وقد بين ما يجب على المكلفين فعله ، وما يجب عليهم تركه ، إما بالنص عليه ، وإما بذكر ما يدل على أصل الشرع الذي يقاس عليه ، وتناط به الأحكام ، وتقام عليه مصالح الأنام ، وأحاديث الأحكام أكثرها في تفسير الآيات المتعلقة بالأحكام ، وأكثر الأحاديث المرورية في هذا المقام نابتة بسند صحيح تنبئ عليه الأحكام بالتحليل والتحريم .

٢٤٤ - والغزالي وغيره من العلماء الذين سوغوا تفسير القرآن بالرأى ، بل إن عبارتهم تومئ بوجوده في غير موضع الأثر المروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسند صحيح ، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأى في موضعين يكون الرأى فيهما مذموماً :

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه ، أو أن يحاول حمل الآيات على مذهبه أو رأيه بأن يكون له في موضوع الآية رأى معين ، وله ميل له بطبعه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه ليجتج به ، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر له ذلك التفسير ، وإنه ليجتج ذلك الاتجاه ، ويؤول ظاهر الآية لتساير مذهبه ، وينزلها من علياء بيانها إلى حيث رأيه .

وأحياناً يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه ، ولكن امتلاء عقله وقلبه بهذا الرأى يجعله يتجه إليه غير قاصد مجرد ترجيح تخيلته ، ويلبس عليه الأمر فيظن ما قاله ظاهراً ، وما هو بظاهر .

فهذا بلا ريب تفسير بالرأى مذموم ، ويكون من المنهى عنه ، لأن القرآن الكريم فوق الآراء والمذاهب وليس خاصها لها .

وإنه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأى المبني على النظر الخالص لوجه الحقيقة .

الموضع الثاني — الذى يكون فيه التفسير بالرأى مذموماً — يكون فى المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الآيات ، والاعتصار على هذه الظواهر من غير تعرف للنقول فى موضوعها ، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض ومن غير تعرف لتعرف الإسلامى الذى خصص بعض الألفاظ العربية ، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، ومن غير إدراك مواضع الإضمار والحذف والتقديم والتأخير ، وغير ذلك من الأساليب البيانية القرآنية المعجزة . فإن ذلك يكون مذموماً ، لأنه تفسير بالرأى من غير إدراك لمعاني الألفاظ فى عرف الإسلام ، وبغير مؤهلات ، واجتهاد فى الفهم من غير التسلح بأدواته وحينئذ يكون الخطأ . ويكون السقط .

فهذان هما الموضعان اللذان يذم الرأى فيهما .

وفى الحق إن هذا ليس تفسيراً بالرأى المجرد ، إنما هو من الهوى أو التهجم ، والتهجم على ما لا يحسن ، والعمل فيما لا يتقن ، وذلك قبيح فى كل شئ .

الظاهر والباطن

٢٤٥ - يدعى بعض فرق الشيعة أن لقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الباطن له باطن حتى يصل العدد إلى سبعة بواطن وأن معرفة القرآن معرفة صحيحة كاملة لا تكون إلا بمعرفة هذه البواطن ، وليس علمها عند كل إنسان ، بل أوتي العلم بالبواطن كلها الإمام المعصوم ، والأصل أن علم هذه البواطن كلها كان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أودعها من بعده علي بن أبي طالب ، وعلى أودعها عند موته الإمام من بعده ، وهكذا توالت النفوس في أخذ هذه الوديعة إماما عن إمام حتى وصات إلى الإمام المستور المغيب .

وقد تولى القاضي عبد الجبار إدحاض ذلك الرأي ، وبين أنه لا أساس له من العقل ولا النقل ، فقال عن هذا الرأي ، حكى ذلك عن قوم من الأوائل ، لأنهم زعموا أنه ينطبع في النفس مثل المدركات ، فيعرفه المدرك على أن هذه الطبقة خارجة عن حد من يناظر ويتكلم ، لأنها تبنى أمرها على الحيل ، وإنما تقع المناظرة من أهل الديانات ، دون من يجعل من يبتدئه ويعيده مبنيا على الخديعة والاستشكال ، والتوصل إلى استباحة المحذور ، ويرى أن المذاهب كلها واحدة وإن الواجب أن يظهر لكل فرقة ما يقرب به إليها ، ولا ينفر بالمخالفة إلى سائر ما يحكي عنهم ولو بنوا الأمر على طريقة النظر ما أقدموا على هذا القول مع وضوح فساده ، ولكنهم توصلوا بذلك إلى الاحتمال على الناس ، فقالوا إن القرآن له ظاهر وباطن ، وتزيل وتأويل ، وإن الأثر قد ورد بأن تنزيله مفوض إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتأويله إلى علي رضي الله عنه ثم إلى سائر الحجج (أى الأئمة) وأنه لا بد من معرفتهم ليصح أن يعرف مراد الله

تعالى ، فجعلوا ذلك طريقاً إلى القدر في الإسلام والدين ، لأنه مبنى على القرآن والسنة ، فإذا أخرجوا من القرآن يعرف به شيء وكذلك السنة وجعلوا ظاهرين ، وجعلوا المرجع إلى الباطن الذي لا يعلم إلا من جهة الحجة (الإمام) ولا حجة في هذا الزمان فقد سدوا باب معرفة الإسلام ، وطعنوا فيه ، فعظمت مضرتهم^(١) .

ويسوق بعد ذلك عبد الجبار الأدلة على بطلان ذلك المذهب ، وإن كان لا يحتاج بطلانه إلى دليل ، ويناقش القول الذي قالوا ؛ لأنه يلغى اعتبار الألفاظ ، وعلى فرض بقائها يجب أن يكون علم الإمام مبنياً لها وإن قولهم هذا يؤدي إلى أن يلتبس أمر القرآن على الأمة ، لأن الإمام مستور ، وأن القول بأن له باطناً ، لا يعرف للناس منافع لقول الله تعالى في وصفه الله تعالى للقرآن بأنه هدى للناس وبأن فيه تبيان كل شيء ، وأن الناس مأمورون بالفكر في آياته ، وتدبره وهكذا .

وفي الحق إن ذلك الكلام لا موضع له من النظر ، وقد حكيناها ليقبين أوهام أولئك الناس التي لا سلطان لها من حجة أو برهان ، ولكنها مخاوف الشيطان .

٢٤٦ - ويجب هنا أن ننبه بأن بعض العلماء يقولون إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، لا بهذا المعنى ، بل بمعنى أن القرآن يحوى من العلم ما يخفى على بعض الناس . فأولئك لهم ظواهر الألفاظ ، أماماً عدا هذه الظواهر مما تشير إليه من علم ، فإنه لا يعرفه إلا خواص العلماء ، والراسخون في العلم ، ولا تناقض بين الظاهر والباطن .

(١) المغنى ج ١٦ ص ٣٦٤ والذين يقولون لافرق بين المذاهب والديانات بعض الصوفية الذين يدعون الوصول إلى الحقيقة ، ولعلمهم من أصل باطنى .

فالعزالي يسلم بأن للقرآن ظاهراً يفهمه كل قارئ. للقرآن يعلم بأساليب البيان العربي ، مطلع على المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله باطن عميق يفهم من الإشارات البيانية ، وما وراء الألفاظ من معان علمية لا يدركها إلا الراسخون في العلوم المختلفة .

والعزالي على هذا ينتهي إلى أنه لا يصح الاعتماد على العقل وحده في فهم القرآن بل لا بد من الاستفادة بالنقل ، ويصح الأخذ بالنقل في الأحكام الشرعية ، بل يجب الأخذ به ، وفي غيرها من النصوص تكون الطريقة المثلى أن يعتمد على النقل والعقل معاً فإن ظاهر القرآن لا بد في معرفته من نقل اللغة والسنة إن كانت سنة صحيحة .

وفي ظل النقل الصحيح إن كان ، وفي كل الدلالات اللغوية للألفاظ والأساليب البيانية ، والعرف الإسلامي لألفاظ القرآن يعمل العقل في استخراج معاني القرآن الكريم ، المتسمة الأفق البعيدة المدى ، وفي القرآن آيات كثيرة توجه العقل إلى عمق في الحقائق الكونية والنفسية ، وكلما تفتح العقل ، وأدرك ظواهر كونية إدراكاً صحيحاً وجد في القرآن ما يشير إليها وإنه كلما اتسع أفق العقل البشري في فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم .

ولعل ذلك هو الذي أشار إليه بعض الصحابة في أقوالهم مثل قول أبي الدرداء فيما نسب إليه : لا يفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً ، ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلماً ، وليس الباطن المذكور في ذلك النص الباطن الذي لا يعلمه إلا الأئمة كما يدعى الشيعة ، إنما الباطن هو الإشارات البيانية إلى الحقائق الكونية والنفسية ، وغير ذلك من المعاني التي تدركها العقول ، ويصل إليها العالم ذو البصيرة المنيرة الذي آتاه الله تعالى نفاذ عقل واستقامة فكر .

٢٤٧ - والغزالي يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، ويثبت بعضه من السماع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر السكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولاً ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة إلا بالمعاني الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالي فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لا بد منه فى ظاهر التفسير أولاً ، لىتنقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يقتبع للتفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إمكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأنراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة الترك ، فإن ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لا بد منها للفهم . »

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالي هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لا يدركها إلا العلماء الراسخون فى الإسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإخبار ، وعموم ، وخصوص ، وإطلاق وتقييد ، وإن ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« إنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة إلى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً ، فأسرار كلمة الله عز وجل لانهية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم ، بعد الاشتراك

في معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يعني ، (١) .

٢٤٨ - هذه إشارات إلى مناهج التفسير تكلم فيها العلماء ، وعندى أنه لا يمكن الاستغناء عن الآثار في فهم آيات الأحكام ، أما ما عداها فإن العقل له فيه مجال كبير بشرط ألا يهيم على غير نور من الشرع . ولا بد لكي يكون التفسير بالعقل مقبولاً من ثلاثة شروط :

أولها - العلم باللغة علماً سليماً لكي يدرك معاني التصريف البياني في القرآن .

وثانيها - ألا يخالف المأثور عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ يكون مخالفاً للمبين الأول للقرآن وهو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

والشرط الثالث - ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لما يتعصب له ، فيكون تفسيره خالياً من تأثير الهوى ، والله أعلم .

تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ

www.alkottob.com

٢٤٩ - أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ ، والمعنى ، وإن من خالف ذلك يعد قد خالف في أمر عرف من الدين بالضرورة ، وليس المعنى وحده يعد قرآناً ، لأن التحدى كان باللفظ والمعنى ، ولما تحداهم الله تعالى طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وواضح أن التحدى هنا باللفظ .

وإن جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسام بلسان عربي مبين ، ولقد ووصف القرآن الكريم بأنه عربي ، فقال تعالى : إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، وقال تعالى : وكتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، فالقرآن بلفظه ومعناه عربي ، ولا يصح أن يقال عن كتابه بعض معانيه بغير العربية لأنها قرآن .

ومع وضوح هذه الحقيقة البديهية التي لا تختلف فيها العقول عند أهل الإيمان ، ولا تبتلين فيها الأنظار ، وجد من الناس من ادعى أن معاني القرآن قرآن ، وأنه على هذا الاعتبار تجوز ترجمة القرآن الكريم على أن يكون المترجم قرآناً له كل خواص القرآن ، ويتعبد به كما يتعبد بالقرآن الذي نزل به جبريل بلسان عربي .

بل وصل التهافت في القول إلى أن يدعى بعض الذين لا حرج على ألسنتهم ولا على قلوبهم أن يقول إن الذي نزل به جبريل على النبي عليه الصلاة والسلام هو المعنى فقط .

وذلك كله هراء من القول ، وانحراف عن الدين ، أو خروج عنه .
وفي وسط ذلك المهنطرب كان من بين الذين يتجنون على القرآن من ادعى أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقط ، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ،

وأكرم منواه ، والأصل الذى بنوا عليه دعواهم أنه رأى فى صدر حياته طوائف من الفرس قد دخلوا فى الإسلام ، وقد علموا العربية ، ولكن أسنتهم لم تطوع للنطق بها من غير رطانة أجمية ، بل كانت تتلوى فى مخارج الحروف العربية ، كما نجد اليوم الأعاجم الذين يعلمون اللغة العربية ، ولا تطاوعهم أسنتهم فى النطق السليم بها ، فسوخ أبو حنيفة هؤلاء أن يقرءوا معانى الفاتحة بلغتهم الفارسية ، وقد روى فى هذا أن أهل فارس فى عهد الصحابة قد صعب عليهم مخارج الحروف العربية ، فطلبوا إلى سلمان الفارسي أن يعبر لهم بالفارسية عن معانى الفاتحة ففعل ، حتى لانت أسنتهم وقرءوا القرآن باللغة العربية ، وقد اشترط أبو حنيفة لجواز ذلك ألا يكون الشخص مبتدعاً بهذا العمل ، أى أنه يترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق الصحيح بها ، وإخراج الحروف من مخارجها ، ليقرأ معانيه بلغة أخرى فارسية أو أوربية .

وقد روى عن أبي حنيفة أنه رجح عن هذا رأى ، روى هذا نوح ابن أبي مریم الجامع ، وهو الذى رجحه الأكثرون ، وإن النظرة التاريخية الفاحصة تجد ترجيح هذه الرواية له سبب واضح ، وهى تسائر الحقيقة التاريخية ، وهو أن أبا حنيفة الفقيه المدرك ، قرر جواز قراءة المعانى بالفارسية على أنها دعاء مقارب للفاتحة فى معانيه ، فلما لانت الألسنة ، ودخل الناس من أهل فارس وغيرها فى دين الله أفواجا أفواجا ، ورأى أن المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجوراً وهم الذين يستبيحون تلك الرخصة التى رخصها ، حرم ما كان قد استحسن .

٢٥٠ - ومهما تكن الفتوى من الناحية التاريخية فإن الفقهاء اختلفوا فى أصل هذه الفتوى أموداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآناً ، أم أنه اعتبرها قرآناً ، وهل مؤدى ذلك أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى دون اللفظ .

ونقول في الإجابة عن هذا السؤال إن من المقطوع به أن أبا حنيفة لم يعتبر القرآن الذي نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المعنى فقط ، فذلك ما لم يقله أحد من أهل الإيمان ، لأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه جبريل اللفظ ، ولم يوح إليه بالمعاني وحدها ، أقرأ قوله تعالى مع ما تقدم ولا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرأناه ، فإذا قرأناه فاتبع قرأناه ، ثم إن علينا بيانه ، (١) .

فهل بعد هذا النص القاطع يستطيع أحد أن يدعى على أبي حنيفة الورع التقي أنه يقول إن الذي نزل على محمد ، وتلقاه عن جبريل الأمين ، وهو روح القدس هو المعنى فقط ، إن ذلك غير معقول .

وبقي السؤال الأول هل يمكننا أن نفهم من هذا أن أبا حنيفة أقر قراءة القرآن بغير العربية ممن يعرف العربية ، ولا يجيد إخراج الحروف من مخارجها ، أنه يعتبر المعنى ذاته قرآناً مع إقراره بأن الذي نزل على محمد اللفظ والمعنى .

نقول إن الأكثرين من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يقولون إن أبا حنيفة اعتبر المترجم مجزئاً للصلاة في الحدود التي رسمناها . في دور من أدوار اجتهاده الفقهي ، ولكنه لا يعده قرآناً قط ، ولذا لم يقل إنه يجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم إذا كان في معنى آية لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضئ الجزء المترجم ، ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض النفساء المعنى المترجم ، ولا إثم في ذلك ، لأنه ليس قرآناً .

ولذلك يقول الأكثرون من فقهاء المذهب الحنفي إن ما قرره أبو حنيفة إن هو إلا ترخص للذين لم تقوم أسنتهم تقويماً عربياً سليماً ، فسوغ لهم

أن يقرأوا المعاني حتى تقوم ألسنتهم ، وعلى أنها دعاء . لاعلى أنها قرآن ولم يعرف عنه قط أنه سوغ ذلك في غير الفاتحة .

وعلى هذا لا يجوز لأحد أن يبنى على ما روى عن أبي حنيفة جواز ترجمة القرآن إلى لغة من اللغات على أن يكون المترجم قرآناً ، ومهما يكن ، فإن الرأي الذى ينسب إلى أبي حنيفة قد رجع عنه ، وهو خارج عن رأى الفقهاء أجمعين ، فلم يسوغ أحد قراءة معاني الفاتحة بالفارسية أو غيرها ، بل أجازوا الدعاء لمن لا يعرف العربية ، ولم يجد من يأتم به ليغنيه عن القراءة .

وتكرر القول بأنه رجع عنه ، وقلنا إنه الذى يتفق مع السياق التاريخي ، إذ أن أباحنيفة عاش سبعين سنة ابتدأت سنة ٨٠ و انتهت سنة ١٥٠ والمقول أنه رأى الألسنة الفارسية لم تقوم ، فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية فقط أن يقرأوا المعاني لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم ، فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت ، وخشى البدعة ، إذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم ، فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه .

٢٥١ - ولو تركنا فتوى أبي حنيفة ، وقد علمنا من الفتوى أنه لم يعتبر ترجمة القرآن قرآناً لها قدسية القرآن يجب أن تتجه إلى موضوع الترجمة في ذاته ، ولكي نقرر الحق فيه يجب أن نجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة .

السؤال الأول : أيمكن ترجمة القرآن .

السؤال الثاني : أتسوغ الترجمة على أن الترجمة قرآن أو ليست بقرآن .

السؤال الثالث : ما السبيل لتعريف غير المسلمين بالقرآن ، وإطلاعهم

على معانيه .

وإنما نجيب عن هذه الأسئلة جملة : إن ترجمة القرآن غير ممكنة ، وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة إلى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان مجتمعان أحدهما أصلي ، وهو المقصد الذي انبنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم أو عظة .

والثاني بلاغي ، وهو إشارات الكلام ومجازاته ، وما يثوره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف ، كالتى تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ، ويسمو البيان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم . وهو في درجة من البلاغة لا ينهد إليها أى كلام إنسانى قط ، فإن ترجمته مستحيلة على أن يكون قرآناً فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالإجماع ، إنه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعاني البيانية اللاصقة لها ، فإف فيه من أوامرو نواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيتترجم أصل النهى والأمر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سبق بها القول وما فيه من صور بيانية ، وإشارات تعلو بالكلام إلى أسمى المنازل حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فإن ذلك لا يمكن ترجمته .

ولقد قال الشاطبى فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ إلى معان أصلية ومعان خادمة هى ما تشير إليه المجازات والتشبيهات والإشارات البيانية ، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة . قال بعد هذا التقسيم : ولذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبار هذا الوجه أن يترجم كلاماً من الكلام العربى بكلام الأعاجم فضلاً عن أن يترجم القرآن ، وينقله إلى لسان غير عربى إلا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عيناً ، فإذا ثبت

ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جداً .

ونزيد على الشاطبي أنه إذا توافق اللسانان فإنه مع بعد ذلك لا يوجد في اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر أجمعين الذي إن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وقد نفى ابن قتيبة إمكان ترجمة القرآن على الوجه الثاني ، أما الوجه الأول فقد قال فيه : « فإما عن الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تفسير القرآن ، وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأصلي ،^(١) .

وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة .

ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآناً ، فإن ذلك يؤدي إلى ألا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل ، فالأناجيل ضاع أصلها العبري ، ولم يبق إلا ترجمتها اليونانية ، أو بالأحرى ترجمة بعضها ، والسبب في ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، وإسكن الطريق مسدود ابتداءً لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظاً .
« إننا نحن نزلنا الذكر : وإننا له لحافظون »^(٢) .

٢٥٢ - وهنا يرد أمران منبعثان من السؤال الثالث الذي ذكرناه ، وهو كيف نوصل علم القرآن إلى أهل الألسنة الأخرى ، ذانكم الأمران

(١) المعارف لابن قتيبة . (٢) الحجر : ٩

أولهما أن كثيرين من الأوربيين والأمريكان وغيرهم ، والمغرضون فيهم أكثر من طالبي الحقائق - كتبوا معاني القرآن بغير العربية وسموها قرآناً وحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، والأجانب يعتبرونها قرآناً ، ومن الواجب أن تصحح هذه التراجم بترجمة صحيحة سليمة للقرآن ترد الحق إلى نصابه .

والأمر الثاني : أن عند بعض الأوربيين والأمريكان نزعات تتجه بهم إلى تعرف القرآن وما يشتمل عليه ، وإن كثيرين من الشرقيين المسلمين لا يعرفون معاني القرآن وإن كانوا غير فاهمين لما يتلون .

ومن الواجب أن نعرف المسلمين بمعاني القرآن معجزة الإسلام ، ومنهم من يحفظه كله ، وكلهم يحفظون بعضه ليصححوا صلاتهم ، وإن هؤلاء من حقهم على المسلمين الذين يجيدون العربية ، ويفهمون لغتهم أن ينقلوا إليهم معاني القرآن ليفهموا معنى ما يتلون من كتاب الله تعالى .

ونقول بالنسبة لهؤلاء الأعاجم من المسلمين إنهم يتلون القرآن الكريم ، ومن السهل أن يكتب لهم في هامش المصاحف التي بأيديهم معاني الألفاظ القرآنية ، فيقرءون القرآن ، ويستطيعون أن يفهموه ، وقد فعل كثيرون منهم ذلك ، وما يكون بالهامش لا يعد ترجمة ، بل يكون تفسيراً للمفسر .

وأما بالنسبة لغير المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا ما في القرآن ، ونحن نقرر أن من الصد عن سبيل الله تعالى ألا نطلعهم على ما في القرآن من تكليف وعظات وإرشاد ، ولكن السبيل إلى ذلك ليس ترجمة القرآن ذاته ، فإن ذلك متعذر ، لأن القرآن له معانٍ رائعة تختلف في إدراكها على الوجه الأكمل العقول ، وكل عقل يدرك منها بمقدار ثقافته ، وما يدلى به من حبال المعرفة وطاقاة الفهم .

وإنما السبيل هو الاتجاه إلى أحد أمرين ، إما بيان المعاني الأصلية

التي اشتمل عليها القرآن مبيّنة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون حقائق الإسلام ، ويستضيئون بنور القرآن .

والانجاء الثاني: أن يفسر القرآن تفسيراً موجزاً مختصراً موضحاً لمعاني الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة عدية معروفة بأنها من أهل الذكر ، ويذكر التفسير منسوباً إليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافاً إليها ، وترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان ، وفلان ، وأن نحتاط عند النشر ذلك الاحتياط لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هي القرآن ، أو هي معاني القرآن ، بل يشار إلى أنها ترجمة لمعاني القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون ، فإن معاني القرآن على الحقيقة لا يعلمها كاملة إلا منزل القرآن ، ومن نزل عليه الفرقان ، ومن بعد يدرك كل عالم بمقدار طاقته ، وإن القارئ المنتهق للقرآن الطالب لمعاينه يجد أمامه نوراً ، كلما قوى بصره واستفادت بصيرته ، وكلما علا إدراكه علا فهمه للقرآن ، وعلم منه ما لم يكن يعلم ، وفهم من بعض أسرار إعجازه ما لم يكن يفهم من قبل .

وأنه ليجال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآي القرآن مباشرة ، بل يكون الطبع على الوجه الآتي :

(أ) يطبع المصحف في وسط الصفحة وترقم آياته بأرقام أفرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقماً برقمها الذي رقت به الآية ، بحيث يكون القرآن مكتوباً بلغة القرآن ، والتفسير مكتوباً باللغة العربية .

(ب) يكتب تفسير باللغة التي ترجم إليها التفسير مرقماً بالأرقام التي رقت بها آيات المصحف ، بحيث يفهم القارئ غير العربي أن ما يقرؤه هو ترجمة تفسير للقرآن ، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذي رقت به في المصحف ، وفي التفسير ، وإن هذا النظام الفكري ، والطابعي يحقق مقاصد ثلاثة :

أولها - وضع تفسير موجز باللغة العربية يمكن طبعه مع المصحف من

غير ترجمته ، وذلك مقصد سليم مطلوب في ذاته ، يسهل على القارىء العربى فهم القرآن ، وهو يتلوه أو يستمع إلى من يتلوه ، وبذلك تتحقق العظة ، ويتحقق الاعتبار ، ويكون الاتتفاع كاملا لمن يعرف العربية .

ثانيتها — أن يقرأ القارىء الأعجمى القرآن الذى يحفظه من غير أن يفهم ، وبإيجاد التفسير بلغته يتمكن من فهم القرآن ، ويسهل عليه ذلك أن يعرف العربية إن اتجه إلى معرفتها ، لأنه حفظ كثيراً من عباراتها القرآنية وفهم معناها ، وقد نفذت ذلك فعلا بعض البلاد الإسلامية ، فالإيرانيون قد كتبوا تفسيراً للقرآن باللغة الفارسية طبع في هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون ، والباكستانيون .

ولو كان التفسير العربى الذى تكتبه طائفة من أهل الذكر ، ترجم إلى لغات أولئك لكان العمل أسلم وأتقن وأجدى .

المقصد الثالث — الذى يحققه ذلك العمل الجليل هو تصحيح ماسمونه تراجم للقرآن في اللغات الأوربية ، وبيان وجه الخطأ فيها وإبطال التحريفات لمعانيه الجلييلة ، فإن بعض الذين قولوا الترجمة لم يكن مقصدهم العلم لذات العلم ، بل كان مقصد الكثيرين منهم تشويه معانى القرآن الكريم ، وفوق ذلك فإن الأوربيين يحدون السبيل لرؤية القرآن ، فإن أرادوا أن يمشوا فيه مخلصين أدركوه ، وآمنوا به واهتدوا .

وإن قصدوا إلى النور بعيون ضالة ، وقلوب مريضة ، ونفوس أركست في الهوى ، فلن يزدادوا إلا عمى ، قال تعالى فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

هذا هو العمل الذى نعتقد أنه العمل السليم الذى يحقق كل المقاصد من غير أن يتعرض القرآن لعبث العابثين ولهو الضالين .

وإننا نعتقد أن الله حافظ كتابه فى الاتتمام ، كما حفظه فى الابتداء ، لأنه علم قدير .

الغناء بالقرآن

٢٥٣ - تلونا من قبل قوله تعالى : د لا تحرك به اسانك لتعجل به ،
إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه^(١) .
هذا النص الكريم يدل على أن تلاوة القرآن بتوجيه من الله ، لأنه
سبحانه وتعالى يقول : فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، أى إذا تلونا عليك القرآن ،
واستحفظته ، فاتبع القراءة التى علمك الله تعالى ، وهو ما يدل عليه قوله
تعالى د فاتبع قرآنه أى اتبع طريقة القرآن التى قرأناه ، ولا تبتعد عنها ،
فإن القرآن يراد به القراءة أحياناً كما قال تعالى : د وقرآن الفجر إن قرآن
الفجر كان مشهوداً .

والقرآن فى أصله كتاب كريم مبين ، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقرآن
إيماء إلى أنه كتاب نزل بنصه وبطريقة قرآنه ، وبذلك لا يستحفظ باقياً
فى الأجيال بمجرد الكتابة ، بل بالقراءة وحفظه فى الصدور متلواً بما علم
الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنبي عليه الصلاة والسلام
فى تلاوته ، إنما يتلو بتعليم من الله تعالى فى مده وغمه ، وأشديده ، وتسميله ،
فإنه إذ نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نزل متلواً .

وعلى ذلك تكون القراءة الكاملة للقرآن الكريم هى القراءة التى التزمها
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه وتعليمه ، ولذلك يقول العلماء إن
القراءة سنة متبعة ، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وقد علم النبي أصحابه هذه القراءة كما علمه ربه ، وعلم الصحابة
تلاميذهم من التابعين تلاوة النبي عليه السلام ، وتواترت قراءة النبي الكريم ،

كما تواتر القرآن الكريم فكان محفوظاً بطريق تلاوته ، كما كان محفوظاً بذاته ، بل إن الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين ، وإن السلف الصالح ، والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب في استحفاظ القرآن الكريم ، إنما يقرأ طالب القرآن على مرمى يقرنه ، ولا يعتمد على مكتوب كتب ، لأن المكتوب قد يجرى فيه التصحيف والتبديل أما ما حفظ في الصدور فإنه لا يعرفه تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف . ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرتل القرآن ترتيلاً فقال تعالى : «ورتل القرآن ترتيلاً»^(١) ، ولقد نسب سبحانه وتعالى الترتيل إلى ذاته المقدسة فقال تعالى : «ورتلناه ترتيلاً» .

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التي تميز الترتيل المطلوب في تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطاً بل وضعوا ميزاناً يميز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجويد ، وعلم القراءات ، ففي هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب في الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس .

٢٥٤ - ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون في قراءة القرآن الترتيل الذي تعلموه من الصحابة كما أشرنا ، وهو الترتيل الذي قرأ به الصحابة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الترتيل الذي علمه الله تعالى لنبيه ، فكان السند متصلًا اتصالاً وثيقاً ، وتواترت القراءة ، تواتر القرآن كما نوهنا .

ولكن حدث في العصر الأموي ، وهو عصر التابعين ، ومن امتد به الأجل من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن دخل الغناء الفارسي ، وتشايح ذلك الغناء بالحانه .

ويظهر أن هذا الغناء تسامى بالحنانه إلى القرآن الكريم ، فالتوت بعض
الأسنة عن الترتيل المتبع في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن كان حيا
من المعمرين من الصحابة استنكر ذلك . يروى في هذا عن زياد النيرى أنه جاء
مع بعض القراء إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
ف قيل له اقرأ ، فرفع صوته ، وطرب ، وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس
عن وجهه ، وكان على وجهه خرقه سوداء ، فقال يا هذا ما هكذا كانوا
يقرون ، وكان لإذارى شيئا ينكره كشف الخرقه عن وجهه .

وإن هذا الخبر عن ذلك الصحابي الجليل يدل على أمرين :

أولها - أن التطريب بالقرآن برفع الصوت وخفضه مسأيرة لنغم أو نحو
ذلك ما كان في الترتيل الذي تلقاه الصحابة عن الرسول .

والثاني - أنه يدل على ذلك التطريب بقراءة القرآن قد حدث في
العصر الأموي بعد أن دخل الغناء الفارسي ، فهو بدعة ابتدعت ، وكل
بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وذلك فوق أن القرآن لا بد أن يرتل
ترتيلا ، وذلك ليس ترتيل القرآن ، والقراءة كما قلنا سنة متبعة .

وإن التلاوة الحق كما حد العلماء حدودها ، وقرروا مقياسها في علم
يدرس قد ذكر القرآن خواصها ، وهي في آثارها في نفس القارىء ، وفي نفس
من يسمعه ، وفيما تدل عليه من منزلة القرآن ، ومكانته في هذا الوجود .

فالله تعالى يقول في مكانته : ولو أن قرآنا سیرت به الجبال أو قطعت
به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً^(١) أى أن هذا القرآن له
قوة في النفوس وفي الوجود ، بحيث أنه يمكن أن تسير به الجبال ، أو تكلم به
الموتى أو تقطع به الأرض ، فله في النفس كمال الرهبة ، وله كمال التأثير ، وله في الآذان
جمال التعبير . فلو كانت الجبال تسير أو الأرض تقطع ، أو الموتى يسمعون

القرآن فإنه يكون لقراءة القرآن ، فهل يتأتى هذا التأثير مع تلوى الألسنة والأصوات بنغماته يترنح بها القارئ ذات اليمين وذات الشمال ، والآهات تتعالى ، ويكون المسكاه والتصديقه .

والقرآن وصفه الله تعالى بأنه ذو الذكر ، وأقسم به تعالى ، فقال سبحانه ، «والقرآن ذى الذكر» أى القرآن الذى يصحبه ذكر الله تعالى ، وهو الذى تطمئن به قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ، وسمى القرآن ذكرآ فقال جل وعلا : «إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون» ، فهل تلوية الأصوات والشبرات بغير الترتيل المنزل من عند الله تعالى يكون الذكر لله تعالى ، والاتعاظ بقراءه أم هى النغمات بين التطرية ، والتعلية ، هى التى تهتز لها النفوس طرباً ، وتعلو بها الأصوات إعجاباً بالمغنى ، وعجباً .

والقرآن قد وصف الله تعالى المؤمنين عند تلاوته ، فقال تعالى «إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً»^(١) ، فهل تكون التلاوة للمؤمنين الذين سمعوا القرآن تكون بهذه الأصوات الذى تحدث الضججات المتوالية .
ويصف الله تعالى القرآن الكريم فيقول : «إن هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم ، ويبشر المؤمنين»^(٢) .

ويبين سبحانه قوة تأثير القرآن فى قلوب المتعظين ، وفى قلوب من يتفهمونه «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه خاشعاً متصدعاً من خشية الله»^(٣) ، فهل يرى أى مدرك للمعانى القرآنية أن ذلك يتفق مع التغنى والتطريب الذى يصنعه قراء العصر . إن القارئ يكون مشغولاً بالطرب عن معنى القرآن وهدايته وعظاته فلا يتدبره ، ولا يدرك معناه ، ويكون على القلوب

أقوال بما يحدثه التغنى ، والتطريب ، والاجتهاد في إثارة النفوس لا لتعظ
ولكن لتضع ستاراً بينها وبين ما في القرآن . والله تعالى يصف القرآن
الكريم بقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر
منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك
هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد^(١) » .

وإن هذه الآيات التي تلوناها قيسة من نور القرآن الكريم ، وهي تدل
على أنه ليس شعراً يتغنى به ، ويتنزل على لحن الأجاجم قديمها وحديثها ،
ولكنه كتاب هداية للغة ، والاعتبار ، وتوجيه النفوس ، وكل تطريب
بالألحان قديمة وجديدة هو إلهاء عن ذكر الله تعالى ، وإبعاد عن مراميه
ومغازبه ، فتسكون النفس مشغولة بالشغف الملهي عن معنى القرآن ومرماه .

٢٥٥ — وإنما لا نبعدها الكلام عن حقيقة مقررة ثابتة ، وهي
اتباع السلف في التلاوة ، وهي تنتهي في أصلها إلى منزل القرآن الكريم
الذي جعله حجة وبرهاناً ومعجزة ، وقال فيه : « قل إن اجتمعت الإنس
والجن على أن يأتيوا بمثل هذا القرآن لا يأتيون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيراً ،^(٢) كما تلونا من قبل .

فكل مخالفة لمنهاج السلف الصالح في التلاوة ، مخالفة لما أمر الله تعالى
به في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلاً » ، ولكن وردت آثار عن الرسول
صلى الله تعالى عليه وسلم يوم ظاهرها جواز التغنى بالقرآن ، والتطريب
به والترجيع فيه وكان لنا وقد تلونا ما تلونا أن نحكم بعدم صحة نسبتها إلى
الرسول ، ولكن ذلك يكون إذا كانت تدل قريباً أو بعيداً على جواز الغناء
الذي نراه الآن من بعض القراء ، وعلى ما يريد الذين لم يعرفوا بأنهم أرادوا
الإسلام وقارا ، بل يريدونه بورا ، أو كما يبدو في كتاباتهم ، والله
علم بضائرهم .

ولكننا إذا تفهمنا هذه الآثار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن صحابته ، وما ترمى إليه ، إن صححت النسبة ، وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى رد صحيح السند منها ، لأن متنه لا يخالف الترتيل الذي جاء به رب القرآن ورب محمد ، ورب العالمين .

١ - لقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيما رواه عنه البراء بن عازب « زينوا القرآن بأصواتكم » .

٢ - وأخرج مسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .

٣ - ولقد كان عليه السلام يسره أن يسمع القرآن من أبي موسى الأشعري ، حتى روى أنه قال في سرور بقراءته : « لقد أعطيت من ما رأيت من أمير داود ، وأنه سمعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستطاب ما يسمعه من صوته وأبو موسى لم يشعر . فلما شعر قال : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبرت لك تحبيراً » .

٤ - وروى عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن ، وغنوا به ، واكتبوه ، فوالله إنه لأشد تفضيلاً من الخاض من العقل » .

٥ - قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح في مسيرته سورة الفتح على راحلته فرجّع ، والترجيع في القراءة ترديد الحروف .

هذه الأخبار واردة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي في ظاهرها تدل على جواز التغنى بالقرآن والترجيع فيه والتطريب به ، وقد طار بهذه الآثار أولئك الذين يروجون قراءة القرآن بألحان الأعاجم ، وكان لنا أن نردها لمخالفتها المتواتر عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلننظر إليها فهل تؤدي في مدلولها إلى جواز اتخاذ القرآن سبيلاً للتطريب في عصرنا ، لتحدث القراءة طرباً ولا تحدث عظة واعتباراً ، (٤٠ م - المعجزة الكبرى)

وخشية من الله ، وإحساساً من المؤمن بأن الله تعالى يخاطبه بهذا القرآن .
ولننظر فيما خبراً خبراً نتعرف ما يدل عليه في ظاهره ، وفي
حقيقته .

أما الخبر الأول : وهو ما نسب إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه
قال : « زينوا القرآن بأصواتكم ، فإنه لا يفسر بظاهره ، لأن القرآن زين
بذاته ، وليكن المتأمل يرى أن القراءة المرثلة التي يلاحظ فيها المأثور من
القراءات ، وملاحظة المعاني فيها ، فيرفع الصوت فيها نسبياً في آيات التهديد
والإنذار ، ويخفضه نسبياً في آيات التبشير ، ويقرأ قراءة المتأمل في الآيات
السكرية الداعية إلى التفكير ، فإن هذا بلاشك موافق للترتيل الذي أخذناه
عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومصنوع للمعاني القرآنية من غير أن
تكون القراءة صياحاً نمطياً ، ومن غير أن تكون تلحيناً أعجمياً ، ولينأ في
الإلقاء لا يسوغ .

وإننا نحسب أن تزيين القراءة لا يكون إلا بالترتيل ، فالترتيل في كل شيء
بما يناسبه ، وذلك واقع في المعنويات كما هو واقع في الحسيات ، والأشياء
والأشخاص ، ولاشك أن القراءة تكون بما يناسب معاني القرآن ،
وموضع العظة والاعتبار والتأمل فيه ، ولا يمكن أن يفسر التزيين بالتلوي
في الحروف والكلم ، فإن ذلك شين ، وليس بزین .

ولنرجع إلى تفسير البراء الذي روى هذا الخبر ، فقد قال في تفسيره له
زينوا القرآن بأصواتكم ، أى الهجوا به ، واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه
شعراً وزينة ، وقيل إن معناه الحض على قراء القرآن ،

وإن هذين التفسيرين ، وإن كانا غير ما فسرنا به الخبر ، يتلاقيان
مع تفسيرنا ، ولا ينافرانه ، وهما يتفقان مع غيره من الأحاديث في هذا
الباب .

٢٥٦ - ولننظر فيما أخرجه مسلم من قول النبي عليه السلام إذ قال وليس منا من لم يتغن بالقرآن ، فقد فسره بعض العلماء بأن التغنى هنا تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بأن يعود لسانه النطق السليم من قراءة القرآن بإخراج الحروف من مخارجها ، واتباع الترتيل المحكم عن النبي عليه الصلاة والسلام في المد والغن والإدغام، والفصل والوصل، والوقوف في موضع الوقف، ووصل القراءة في مواضع الوصل ملاحظاً المعاني ، ومدركاً ما يقرأ ، وهذا يتلاقى مع ما روى عن ابن عمر أنه قال حسنوا أصواتكم بالقرآن ، وما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال زينوا أصواتكم بالقرآن ، .

ولا شك أن الوهم الذي دخل على الذين يقرءون القرآن بألحان الأعاجم، والذي استنكره أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الحديث هو العماد الذي يقوم عليه عمل هؤلاء ، ونحن لا نرى فيه ما يؤيد كلامهم .

إن التغنى مصدر غنى بمعنى تغنية ، وهو فيما أعتقد غير الغناء ؟ لأن الغناء القصد إلى إسماع غيره ليطرب ، ويتطرب لاليتعظ ويعتبر ، أما التغنى فهو استمتاع المتكلم بما يتكلم به مترنماً بالنطق ، مستحياً له مستمتعاً ، مستطياً للكلمات ذواقالها ولعانيها ، ولننزل من مرتبة القرآن السامية إلى منحدر الشعر ، فإن إنشاد الشعر من الشاعر استمتاع بالألفاظ ، ورنه الموسيقى في الشعر ، يهتز بها مترنماً ، يفعل ذلك ولو لم يسمعه أحد ، ولو لم يقصد إلى سماع أحد ، وكذلك المؤمن القارئ للقرآن يتذوق ألفاظه ، ويدرك الصور البيانية التي تصدر عن أساليبه ، ويخشع لما يشتمل عليه من عظات وعبر ، ويحس بأن الله تعالى يخاطبه ، وتعتبره روحانية من الألفاظ ونغمها وجلال معانيها .

هذا هو التغنى الذي نفهم أنه خاصة من خواص المؤمنين ، ويفعله

الصديقون ، وليس منه ما سمعه الآن من القراء الذين يطاربون ، ويرجعون الحروف ، ويلوون بها الألسنة ، فإن هذا غناء وليس مجرد تغنى ، وإن هذا النظر يتلاقى مع بعض الروايات ، فقد روى أبو سعيد الخدرى في قوله عليه السلام ، وليس منا من لم يتغن بالقرآن ، قال : كانت العرب تولع بالغناء والذميد في أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجرام مكان الغناء فقال عليه السلام : ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، أى يشع نفسه بحسن ترتيله وتلاوته ليكون هو الذى يستمتع به من كلامهم .

وقد روى سفيان بن عيينه عن سعد بن أبي وقاص إن تغنى هنا بمعنى استغنى ، وإن بعض المعاجم يفسر التغنى بمعنى الاستغناء فقد جاء في الصحاح تغنى الرجل بمعنى استغنى ، فمعنى النص الشريف . ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن أساطير الأولين ، وأقاصيص القصاصيين .

وقد أنكر الشافعى تفسير التغنى في الحديث بالاستغناء ، وتابعه في ذلك ابن جرير الطبرى ، وقال الطبرى إن التغنى هو حسن الصوت بالترجيع ، وهذا التفسير يتلاقى مع قولنا الذى أسلفناه ، وهو التمتع بجلاوة الألفاظ القرآنية ، ورنين أساليبها بترجيع بعض الجمل والكلمات من غير قصد إلى التطريب ، وإيقاظ المشاعر بغير نغم القرآن ، بل بنغم الألحان الذى يمنع ذكر الله تعالى ، والخشوع الذى وصف الله القرآن به إذ قال سبحانه : «مثنى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم» (١) .

ومهما تمكن الأقوال في معنى التغنى . فمن المتفق عليه بين الموسعين ، والمتمسكين كابن المسيب ومالك وابن جندب ، وغيرهما ، أن القراءة بالألحان والتطريب والغناء لا تجوز لأنه يخل بمقام القرآن ويوجه الناس إلى الطرب بالألحان بدل الاستفادة بمواعظ القرآن ، وهدايته ، وتعرف أحكامه ، وما فيه من أدلة التوحيد . وأحوال الأقوام مع الرسل السابقين .

وله يجب فهم التغنى على ضوء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى ضوء ما عرفناه من قراءة النبي عليه السلام وترتيله الذى علمه الله تعالى إياه ، وعمما أثر عن السلف الصالح .

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ رأيت به يخشى الله تعالى ، فهل هذا يتفق مع التلوى بالألفاظ ، وعدم مراعاة المعانى ، وإنما تراعى الألحان ، والناس فى طرب بسماعها ينهتون إليها ويظربون ، ولا تنالهم الخشية من خطاب الديان لهم بالقرآن الكريم ، كلام الله تعالى بياته .

٢٥٧ - ولندتقل بعد ذلك إلى حديث أبي موسى الأشعري وثناء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عبارات مختلفة منها هذه العبارة التى قالها بعد أن عبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باستحسانه بقراءته ، فقد قال رضى الله تعالى عنه للنبي عليه الصلاة والسلام « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرت لك تحبيراً ، والتحجير التزيين وهو كما قلنا فى كل شيء بما يناسبه ، فالذى يناسب القرآن الكريم الترتيل المصور للمعانى القرآنية المرئى للخشوع ، والعبطة والاعتبار ، والذى يجعل المعانى القرآنية تنساب فى النفوس .

وقد رويت عبارة أبي موسى الأشعري بنص آخر بوضح الرواية الأولى ، ولا يخالفه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « لى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن ، وزينته ورتلته ، .

فهذه الرواية تدل على أن التحجير والتحسين كان فى الصوت ، لا فى القرآن الكريم ، وأن ذلك التحسين كان فى دائرة الترتيل ، ولا شك أن حسن الصوت ، إذا اقترن بالترتيل ، ولم يتخالفا ، ولم ينحرف القارىء إلى ألحان الأعاجم ، وإلى الغناء وتطريب السامعين ليتأملوا يميناً وشمالاً ، ويقرّنون ذلك بأهات مهوشة ، تشبه الكاء والتصدية كما كان أهل الجاهلية .

ولننتقل من بعد ذلك الى ما روى عن عقبه بن عامر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن وغنوا به ، واكتبوه » ،

وقد قالوا إنه صحيح السند ، وإن التغنى المذكور في الحديث السابق ، هو مصدر غنى ، وقد فسرنا التغنيه في الحديث بأنها ليست الغناء الذي يقصد به القارئ أن يعتبر القرآن أغنية يطرب بها السامعين ، إنما التغنى عمل نفسى للقارئ التالى للقرآن ، بأن يشبع الكلمات ، ويستمتع بها ، وينغمها ، ويراجع فى كلماته متذوقا لها ، مدركا لكل معانيها ، متفهما ، محبا للقرآن ، غير متململ ، ولا متكاف ، وقد شرحنا ذلك من قبل .

وكتابة القرآن الكريم أمر مطلوب ، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يميل على الكتاب ما حفظ من ربه ، وما أن انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا كان القرآن الكريم كله مكتوباً مسطوراً ، ومحفوظاً ومرتلاً متلوأ ، تلاوة نبوية .

وإن الأمر بالكتابة لا يدل على الاستغناء بها ، فإنه إن حفظ الحروف والكلمات لا يروى الترتيل الذى نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كان لابد من الإقراء على مقرأى ليحفظ المتواتر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذى علمه ربه الترتيل ، كما تواتر القرآن المحفوظ ، وكما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون (١) » .

٣٥٨ - من هذا كله يتبين أن القراءة الصحيحة تكون بترتيل القرآن الكريم ، لما علمه الله تعالى لنبيه فى قوله تعالى « فإذا قرأناه ، فأنبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه (٢) » .

وإن الاعتبار فى القراءة التى يكون فيها التزيين يثبت بأن يمتلىء قلب القارئ بالخشوع ، ويلقى به فى نفوس السامعين ، فهذا هو القياس المستقيم ،

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما روينا من قبل : وأحسن الناس صوتاً من إذا قرأ رأيتَه يخشى الله تعالى .

وإن قراءة القرآن لا تجوز إلا بإخراج الحروف من مخارجها ، والمد في موضعه ، والغن في موضعه ، والوصل حيث يقتضيه المعنى ، والوقف حيث توجه المعنى ، فذلك هو الترتيل .

ولقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «أفروءوا القرآن بلهون العرب ، وأصواها ، وإياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجيء بعدى قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه الترمذى في نوادر الأصول من حديث حذيفة .

ولقد سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذناً يطرب ، ويردد في الحروف ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «إن الأذان سهل سمح ، فإذا كان أذانك سمحاً سهلاً ، وإلا فلا تؤذن» رواه الدارقطنى في سننه وإذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد منع الغناء في الأذان ، فأولى ثم أولى أن يمنع في القرآن ، فهو كتاب الله تعالى وخطابه ، وهو الذى رتله ، كما صرح بذلك ، إذ قال فيما تلونا من قبل : «ورتلناه ترتيلاً» .

ويظهر أن مصر من قديم الزمان حملت بدعة القرآن بألحان الأعاجم ، فقد قال القرطبي في كتابه أحكام القرآن : «بعد أن بين أن التريديد ، حيث يكون على مقتضى المعنى ، وما يوسى إليه للنص القرآنى ، قال : «فإن زاد على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ،

ويهنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في التنزيل ما ليس فيه
جهلاً بدينهم، ومروفاً عن سنة نبيهم، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم
ونزوعاً إلى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعاً، فهم في غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، وإنا لله، وإنا
إليه راجعون، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، .

وإن العدوى قد انتقلت من مصر إلى البلاد العربية، وما زالت العدوى
تسرى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللهم اغفر لنا ولا تؤاخذنا بما فعل، ويفعل السفهاء منا، وألمنا
المحافظة على قرآنك الكريم من عبث العابثين، وطو اللاهين، وافتراء
المفترين، إنك أنت وحدك الحافظ. لكتابك، وإنه محفوظ إن شاء الله
تعالى .

(تم بحمد الله وعونه)

بيان ما اشتمل عليه الكتاب

٣ - الافتتاحية

٨ - تمهيد

المعجزة المادية، والمعنوية، ٩ - معجزة إبراهيم وموسى وعيسى،
ولماذا كانت مادية ١٣ - معجزة القرآن في سجل المعجزات
١٥ - المعجزة الخالدة

٢٠ - القسم الأول

٢٠ - نزول القرآن ٢٢ - نزوله منجما وحكمة ذلك ٣٤ - المكي والمدني منه ٢٧ - كتابة القرآن وجمعه في عهد الرسول ﷺ ٣٠ - جمع القرآن بعد الرسول ٣١ - طريقة الاستيثاق من النص ٣٣ - عمل زيد ومن معه لم يكن كتابة مبتدأه، بل هو جمع للكتوب في عهد الرسول ٣٥ - جمع القرآن في عهد عثمان، وحديث نزول القرآن على سبعة أحرف ٣٧ - الحروف السبعة كانت في قراءة القرآن لا في كتابته، موازنة بين جمع أبي بكر وجمع عثمان - الجماعة التي كتبت في عهد عثمان اتبعت الجماعة الأولى في طريقة جمعها، وفيها أعضاؤها - موافقة مصحف عثمان لما كتب في عهد أبي بكر وعمر تماما ٤٢ - كتابة المصحف على لغة قريش، وكل قراءات القرآن متفقة معها.

٤٩ - قراءات القرآن

٤٩ - قراءات القرآن ليست الأحرف السبعة، بل هي على حرف واحد. وجوه الاختلاف في القراءات ٥٢ - كانت القراءات قد تلقاها الصحابة عن النبي ﷺ ٥٤ - القراء ٥٥ - شروط القراءة المؤثرة ٥٧ - فائدة اختلاف وجوه القراءات.

الباب الثاني

٦٣ - إعجاز القرآن

- ٦٣ - أحوال العرب في تلقي رسالات النبيين ، البداوة والحضارة عند العرب ، والفصاحة عندهم ٦٥ - مآثر العرب في البيان - إعجاز القرآن بديانه ٦٨ - تلقي العرب للقرآن ٦٩ - دهشهم عند تلقي القرآن ، كلام فصحاءهم في القرآن مع وجودهم ٧٠ - كلام الوليد بن المغيرة ٧١ - فرارهم من سماعه ٧٣ - لم يحاول أحد من أهل البيان محاكاته ، وجذبه لهم ٧٤ - تفاهة ما نقل في محاكاته

٧٦ - مر الإعجاز

٧٧ - الأساس الأول لعجزهم ، بلاغته

- ٧٨ - الصرفة وبطلانها ٧٩ - مصدر القول بالصرفة هندی ٨٠ - بعض الكلاميين أثاروا القول بالصرفة ٨١ - إبراهيم النظام قالها ، رد الجاحظ عليه - خطأ ابن حزم في ذلك وسببه ٨٢ - موازنة الباقلائي ، وبين القرآن وأبلغ كلام - القول بالصرفة كقول بأنه سحر يؤثر ٨٥ - الرد على أهل الصرفة هو الباعث على التأليف في إعجاز القرآن بالبيان - بعض من كتبوا وكتبهم ، ومقام كل كتاب

٩٠ - وجوه الإعجاز

- ٩٠ - ما يعده صاحب الشفاء من وجوه إعجاز القرآن ٩١ - ما ذكره القرطبي من وجوه الإعجاز ٩٤ - ملاحظتنا على ما ذكره القرطبي ٩٦ - الوجوه وجهان : البيان ، وما اشتمل عليه من معلومات

٩٧ - الإعجاز البلاغى

٩٧ - الذوق العربى ونقد البيان، وذوقه ٩٩ - وجوه الإعجاز البلاغى ١٠١ - سرد وجوه الإعجاز ١٠٢ - ألفاظ القرآن وحروفه عبد القاهر يقرر البلاغة فى الأسلوب لا فى الكلمات والحروف، بيان رأيه ١٠٣ - أدلته ١٠٤ - الباقلانى يرى أن للكلمات فصاحة خاصة وهو رأى المتأخرين ١٠٦ - الجمع بين النظريتين

١٠٩ - نظرات فى ألفاظ القرآن - أمثلة على فصاحة الألفاظ بل بلاغتها، توجيه النظر إلى ألفاظ قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة » ١١٣ - توجيه النظر إلى الألفاظ فى قوله تعالى « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » ١١٧ - توجيه النظر إلى الألفاظ فى قوله تعالى « والصبح إذا تنفس ، ١١٩ - التشبيه إلى ألفاظ الآية « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ، ١٢٣ - التشبيه إلى الألفاظ وصورها فى قوله تعالى « وإن شجرة الزقوم طعام الأثيم

١٢٩ - الكلمة مع أخوانها والعبارات مع رفيقاتها

١٢٩ - كلام القاضى عبد الجبار فى الكلمة مع أخواتها .

١٣١ - الأسلوب القرآنى ١٣٣ - التآلف فى الألفاظ والمعانى ١٣٥ - أمثلة من التأخى فى الألفاظ والمعانى فى آيات القرآن - التشبيه إلى تأخى المعانى والعبارات فى قوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، والإشارات البيانية فيها .

١٤٢ - صور بيانية للطمع والشح ثم الندم فى قوله تعالى : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة ، .

١٥٢ - النفس الفرعونية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض ، ١٥٨ - أسرار المعانى القرآنية فى قصة فرعون، وعناصرها .

١٦١ — قوة البلاغة في الأسلوب من كتاباته متألفة — كلام الخطابي في ذلك ، ورأينا فيه ١٦٤ — التلازم في الأسلوب .

١٦٤ — تصريف البيان

١٦٤ — النصوص الدالة على تصريف البيان ١٦٨ — التصريف في الألفاظ والمعاني ، التصريف في السور بين القصار والمتوسطة والطوال ، وحكمة ذلك .

١٧١ — التكرار في القرآن

١٧١ — تكرار القرآن من تصريف البيان — رأى الجاحظ في ذلك الآيات المشبهة للوحدانية فيها إطناب .

قصص القرآن من الناحية البيانية

١٧٥ — قصص القرآن حكاية لأمور واقعة ١٧٦ — قصة إبراهيم ، وما فيها من معان ١٧٨ — تدرج النفس الإنسانية في الاتجاه لطلب الحقيقة ١٨١ — رفق القول مع أبيه ١٨٢ — قصة موسى — ميلاده ، وما فيه من خوارق ، ونشأته ١٨٥ — بصيرته ونفوره من حكم فرعون ١٨٦ — لقاءه بشعيب في مدين — حياته في الأسيرة .

١٨٧ — تأهبه للقاء فرعون ولقاؤه ١٩٠ — دعوته في أوساط الشعب ١٩١ — خروج بني إسرائيل وموسى من مصر ، وغرق فرعون . ١٩٢ — فرعون كان يذكر جنوده ككل الطغاة .

١٩٥ — موسى مع بني إسرائيل ١٩٦ — خص الله بني إسرائيل بنعم فكفروها ١٩٩ — بنو إسرائيل وعجزهم عن دخول الأرض المقدسة ٢٠١ — كيف تربى الأمم .

٢٠٤ - قصص القرآن لون من تصريف بيانه

- ٢٠٣ - العبرة في قصص القرآن ٣٠٥ - التصرف البياني في القصص
القرآني ٢٠٦ - الدعوة إلى التوحيد ، والعزاء الروحي ٢٠٧ - إبطال
الوهبة المسيح ٢٠٨ - كلام المسيح في الوجدانية ٢٠٩ - الحث على
المعاملة الطيبة في القصص القرآني - قصة شعيب ٢١١ - ميزان العدالة في
الحكم في القصص القرآني ٢١٣ - الحسد - أصل الجرائم في بيان قصة
قابيل وهابيل ٢١٤ - شريعة القصاص العادل أزلية .
٢١٧ - أسلوب القصص في القرآن - الأسلوب البياني في قصة موسى من
مولده إلى بعثه - الأسلوب البياني في قصة نوح .
الأسلوب البياني المصور في قصة أهل الكهف - المشهد الأول فنية آمنوا .

١٣٠ - التصرف في صور العبارات البيانية

- ١٣٠ - الاستفهام والنفي ١٣٢ - الاستفهام الإنكاري - أمثلة
كثيرة في الاستفهام ٢٣١ - الاستفهام للتسوية ٢٤٣ - الاستفهام
للتشبيه كثير في القرآن ٢٤٥ - صورة استفهام لم يكن معروفاً عند العرب
١٤٧ - نفي النفي لإثبات .

٢٥١ - الحقيقة والتشبيه والاستعارة في القرآن

- ٢٥١ - معنى الحقيقة في البيان ٢٥٢ - استعمال الحقيقة في القرآن كثير
٢٥٣ - كلام الباقلاني في ذلك ٢٥٤ - آيات الأحكام لا مجاز فيها ، وفيها
إعجاز البيان
٢٦٠ - التشبيه ٢٦١ - تقسيم التشبيه بالنسبة للغرض منه ٢٦٢ -
تشبيه ما لم يقع بالمحسوس ٢٦٥ - تشبيه ما لم تجر به العادة بما تجرى به العادة
٢٦٨ - تشبيه غير المعلوم بالمعلوم ٢٧٠ - تشبيه ما هو أضعف في الصفة بما
هو أقوى ٢٧١ - تصوير المعاني بمحسوسات ٢٧٤ - تشبيهات القرآن من

الإعجاز ٢٧٨ — صور من الاستعارات في القرآن ٢٧٧ — الاستعارة التمثيلية ٢٨٠ — الاستعارة في قوله تعالى . واشتعل الرأس شيباً ، وغيرها من الآيات الكريمة المشتملة على الاستعارة التمثيلية ٢٨٣ — اللغة العربية لا تمتنع للبعاني النفسية التي يشتمل عليها القرآن ، فيستعان بالاستعارة ٢٨٤ — أمثلة كثيرة من آيات القرآن في ذلك .

٢٨٦ — المجاز والكناية — الفرق بين الاستعارة والمجاز المطلق والكناية الأمثال ٢٨٨ — الأمثال القرآنية من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٢٨٩ — تعريف الكناية ٢٩٠ — المجازات والاستعارات والكناية ليست وحدها سر الإعجاز ٢٩٢ — الكنايات في القرآن ٢٩٣ — أمثلة من كنايات القرآن ٢٩٥ — تقسيم علماء الأصول دلالات القرآن إلى دلالة العبارة ، ودلالة الإشارة ، دلالات الإشارة من قبيل الكنايات ، أمثلة كثيرة من القرآن عليها ٢٩٩ — الإشارات في قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

٣٠٠ — نظم القرآن وفواصله

٣٠١ — نظم القرآن ليس من أى نوع من النظم الذي يعرف عند أهل البيان ٣٠٢ — ما يشتمل عليه بديع نظمه ٣٠٣ — كلام الباقلاني في ذلك ٣٠٥ — أمثلة من كتاب الله لا يشبه فيها السجع ولا القافية ، ولكن له فواصله ليست منها ٣٠٩ — التلازم في نغمات الحروف — صور بيانية في كتاب الله معاً

٣١٣ — الفواصل ، تعريفها ٣١٥ — مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع لا تتحد ٣١٦ — الخلوم المقاطع مع تلازم النغم

٣١٨ — هل في القرآن سجع ، الخلاف بين العلماء في وجود سجع في القرآن رأى الباقلاني وأبي هلال العسكري أنه لا سجع ، ابن سنان يقرر أن في القرآن سجعاً ٣٢١ — حجج الذين يشبّهون أن في القرآن سجعاً ٣٢٣ — حجج الذين نفوا السجع عن القرآن ٣٢٤ — الفواصل في رأى المرحوم الكاتب المؤمن مصطفى البرافعى ٣٢٦ — التعليق عليه

٣٢٨ - الإيجاز والإطناب في القرآن

٣٢٨ - تعريف الإيجاز والإطناب ، ومقاهما ٣٢٩ - أمثلة للإطناب من القرآن ٣٣٠ - الإطناب بكثرة الألفاظ وكثرة المعاني والإيجاز بكثرة المعاني وقلة الألفاظ

٣٣٢ - مواضع الإيجاز ومواضع الإطناب وأمثلة على ذلك من الآيات القرآنية ٣٣٤ - الإطناب في آيات الأحكام ٣٣٧ - التكرار لغير مقصد ليس من الإطناب - ما يطهرانه تكرر وليس تكررأ ٣٢٩ - أقسام الإيجاز - إيجاز القصر - إيجاز الحذف ، أمثلة كثيرة لإيجاز القصر ، وجوامع الكلم ٣٤٤ - الإيجاز في قوله تعالى : « ولکم فی القصص حياة ، ومثلها كثير .

٣٥١ - طوال السور وقصارها

٣٥١ - تكوين الآيات والسور ثابت بالوحي ، الحكمة في كون بعض السور قصاراً ، وبعضها طويلاً ٣٥٢ - أوصاف قصار السور ٣٥٣ - قصار السور تشمل جزءاً من ثلاثين ٣٥٤ - القصار وتيسير الحفظ ٣٥٦ - آيات تطول ، وآيات تقصر أمثلة من القرآن الكريم

٣٥٨ - ليس المراد من طول الآيات أن تكون الألفاظ أكثر من المعاني ٣٥٩ - قرب الفواصل في الآيات القصار ٣٦١ - الصور البيانية في الآيات القصار .

٣٦٣ - الإعجاز بذكر الغيب

٣٦٤ - أخبار النبيين السابقين في القرآن ، وما يدل عليه من إعجاز ٣٦٥ - الأخبار عن أمور وقعت في المستقبل

٣٦٧ - جدل القرآن

- ٣٦٨ - موازنة بين أبلغ خطب العرب والقران ٧٠ - منهاج القرآن
في الاستدلال ٢٧١ - الاستدلال بالتعريف ٢٧٢ - الاستدلال
بالتقسيم وأمثله ٢٧٥ - التعميم ثم التخصيص ، وأمثله في القرآن
٢٧٦ - الاستدلال بالعلة والمعلول وأمثله في القرآن ٣٧٨ - الاستدلال
بطريق المقابلة أمثلة من القرآن ٣٨١ - الاستدلال بالتشبيه والأمثال
٣٨٧ - الاستدلال على البعث بآية صاحب القرية

- ٣٨٧ - أسلوب جدل القرآن ، قرب جدل القرآن وسهولته ، جدل القرآن
عند ابن رشد ٣٩٢ - أسلوب القرآن في الجدل ٣٩٤ - في القرآن من
الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعاً .

- ٣٩٦ - مسلك القرآن في سوق الأدلة ٣٩٧ - الأفيصة الاضمارية
٣٩٨ - الاستدلال في قصة ٤٠٠ - قياس الخلف ، أمثله في القرآن الكريم
٤٠٢ - الاستدلال بالسير والتقسيم ٤٠٤ - الاستدلال بالتمثيل ، وأمثله
في القرآن ٤٠٥ - جدل القرآن لا يتجه إلى الإغغام المجرد بل إلى الإقناع
والتوجيه ٤٠٨ - توجيه نظر المجادل إلى الحقائق ٤١١ - موازنة
الغزالي بين جدل القرآن وطريقة المتكلمين

٤١٣ - علم الكتاب

- ٤١٤ - القرآن فيه علم النبوة ٤١٤ - العلم بمنشأ الكون ٤١٧ -
الآيات الكونية سبيل لإثبات الوجدانية ٤١٩ - علم الرسالة الإلهية والمعجزات
٤٢٠ - معجزات الرسل ، من نوح إلى إبراهيم ٤٢٥ - معجزات موسى
٤٢٨ - خوارق العادات على يد سليمان وحكمة ذلك
٤٣١ - معجزات عيسى ، وحكمة وجودها على يد عيسى
٤٣٥ - خوارق العادات في قصة أهل للكهف
٤٣٩ - البعث واليوم الآخر ، والرد على منكريه ٤٤٦ - الحساب

والميزان ٤٤٨ - الجنة النار ٤٤٩ - أوصاف النار ، أوصاف الجنة

٤٥٢ - البعث والجنة والنار أمور حسية

٤٥٤ - علم الحلال والحرام

٤٥٦ - العدالة في القرآن ٤٥٩ - العدالة الدولية

٤٦١ - الأحكام الفقهية - العبادات ٤٦٣ - الكفارات ومرماها

٤٦٧ - الأسرة في القرآن ٤٧١ - تعدد الزوجات في القرآن وبواعثه

٤٧٣ - أحكام الأولاد واليتامى ٤٧٧ - لإنهاء الحياة الزوجية بالطلاق أو الخلع ، وآثاره ، ومنها العدة

٤٨٣ - حقوق المرأة وواجباتها ٤٨٤ - الأسرة في الإسلام ممتدة

٤٨٧ - الميراث في القرآن ٤٩٠ - توزيع القرآن في الميراث

٤٩٦ - الزواج الاجتماعي في القرآن ، الفصا ص ٤٩٧ - الفصا ص شريعة النبيين أجمعين .

٤٩٩ - الحدود لبناء مجتمع فاضل لا فساد فيه - الخرابة ٥٠١ - السرقة

٥٠٢ - التساوى بين العقوبة والجريمة في الحدود ليست في الفعل والعقاب ،

بل بين أثر الفعل والعقاب - عقوبة الزاني ٥٠٥ - عقوبة العبد على النصف

من عقوبة الحر ، لأن العقوبة تسير مطردة من حيث الصغر والكبر ، فعقوبة

أصغر من عقوبة ٥٠٧ - حد القذف برمي المحصنين والمحصنات بالزنى

٥٠٩ - اللعان ومنزاه .

٥١١ - حد الخمر ومرماه ٥١٣ - حكمة التحريم .

٥١٦ - البنى - البغاة والخوارج .

٥١٨ - المعاملات المالية - أساسها العدالة ٥٢٠ - كتابة الديون

٥٢٢ - الربا في القرآن ٥٢٣ - ابتداء القول فيه ٥٢٦ - الرد على

المبتدعين - ربا القرآن يشمل القروض الاستهلاكية والقروض الاستغلالية

٥٢٩ - تحريم الربا نظام اقتصادى .

٥٣٢ - العلاقات الدولية في الإسلام - الأصل السلم .

(٤١٢ - المجزة الشكزي)

- ٥٣٤ — شرعية الجهاد ٥٣٦ — لا يصح حزب من يريد السلام
٥٣٥ — القتال لرد الاعتداء وحماية الدعوة .
٥٤٤ — العلاقات في السلم والحرب ، العدالة هي الأساس
٥٤٥ — الوفاء بالعهود .

٥٤٨ — علم الكون والإنسان

- ٥٤٨ — توجيه النظر إلى الكون في القرآن ٥٥١ — علم الكون في القرآن .
٥٥٢ — الإنسان في القرآن ٥٥٥ — الآراء في التكوين الإنساني في
القرآن ٥٥٦ — النفس الإنسانية في القرآن ٥٥٩ — الحسد
٥٦٠ — النفس المطمئنة في القرآن ٥٦١ — قصة يوسف ، دراسة نفسية في
الأسرة ، الختان الأبوي ، والحسد بين أبناء العائلات .

تفسير الكتاب

- ٥٧٩ — من العلماء من يرى أن القرآن كتاب مبین لا يحتاج إلى تفسير ،
بيان وجهة نظرهم ٥٨١ — لا بد من التفسير ٥٨٣ — موضع التفسير
٥٨٤ — لا بد من تفسير يترجم إلى اللغات .
٥٨٦ — مناهج التفسير — مصادر التفسير ٥٨٦ — التفسير بالسنة
وأقسامها .
٥٨٩ — التفسير بالمأثور عن الصحابة ٥٩٠ — أقسامه .
٥٩٢ — ما أثر عن التابعين ، والقصاص ٥٩٣ — التابعون
والإمراثيليات في التفسير .
٥٩٦ — تفسير القرآن بالرأى .
٥٩٧ — الاختلاف في ذلك ، حجج الذين منعوا التفسير بالرأى في القرآن .
٦٠٠ — حجج الذين أخذوا التفسير بالرأى .

- ٦٠١ - الظاهر والباطن في القرآن ، والكلام في ذلك ٦٠٥ - باطن القرآن لا يخفى على أحد ٦٠٧ - الباطن عند الغزالي .

ترجمة القرآن

- ٦١١ - القرآن هو اللفظ والمعنى .
٦١٢ - ما ينسب إلى أبي حنيفة من اعتبار الترجمة قرآن ، وبطلان لسميته .
٦١٤ - ترجمة القرآن غير ممكنة ٦١٨ - تفسير يترجم .
٦٢١ - الغناء بالقرآن
٦٢١ - القرآن نزل مرتلا بترتيل الله تعالى - ابتداء القراءة بالحنان الأاجم في العصر ، رد الصحابة والتابعين لذلك .
٦٢٥ - الأخبار الواردة في تزيين القرآن بالأصوات ، وتزيين الأصوات ، العبارات النبوية ٦٢٦ - معانيها .
٦٢٨ - الفرق بين الغناء والتغنى ٦٣٠ - التغنى الجمالز .
٦٣١ - مصر وما قال القرطبي في قرآنها .
٦٣٣ - الفهرس .

www.alkottob.com

www.alkottob.com